ثلاثية الأمالى

لأبى على حسن ولد خالى

وثالثنا الورق

سيرة شعبية يرويها

خيرى شلبى



وثالثنا الورق

الطبعة الأولى يناير ٢٠٠٨
الطبعة الثانية يونيو ٢٠٠٨
الطبعة الثالثة مايو ٢٠١٠

رقم الإيداع ١٤٦٤٣/٢٠٠٧
ISBN 978-977-09-2075-9

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

خيرى شلبى

ثلاثية الأمالى
لأبى على حسن ولد خالى

وثالثنا الورق

سيرة شعبية يرويها

دار الشروق

الجزء الثالث والأخير من :

الأمالى

لأبى على حسن .. ولد خالى

تطبيـق

تحلف اليـمين يابوى أن الولد هـليل قد ارتاع حين رآنى فـجأة أمـامه على غـير انتظار بعـد غـيبـة طويلة عـن البلدة وفى حـالـة من التـقـمش والقنزحة فشر سعادة الباشا النحاس فى عز مجده . .

بالحضن يابو العم . فى كلمات قليلة فـهم أننى قد اغتنيت صرت من وجوه القـوم أسكن على كـورنيش النيل مثلى مثل كـبراء مصـر ، وأننى بعـون الله وفـضل من الـشيـخة سـعـادة قد تبت عـن كل ما يغضب الله . قال بشىء من الخبث إنه لا يعرف الشيخة سعـادة هذه ولـم يسمع بها من قبل . فلـما أخبرته أنهـا من أسيـوط ومعـروفـة لكبـراء البلـد نظر لى فى حسد مـصطنع وطلب منى أن أعـرفه عليهـا بحق الأخـوية . ومع أننى لا أعـرف عنوانهـا فإنى قلت له : إن شـاء الله سنـصل إليـهـا معـا إذ أنهـا لابد أن تبارك مشاريعى التجارية التى أنوى إقامتها هنا أو فى مصر . .

على أن الارتيـاع أفـقـده توازنـه وجـعله يضـرب كـفـا على كف لما حكيت له عما انتويته فى زيارتى هذه المفاجئة للبلدة محملا بالهدايا من كل لون قلبك يحبه . .

ـ «هيه إتريد أن تخطب البنت حنة يابو العم؟ كلام كالعسل!» .

استشعرت فى كلامه نبرة الهزء والاستهجان . كنا نجلس وحدنا فى قاعته المنفصلة وحدها فى جوف الدار مطلة على حوش الدجاج والبط والأوز والأرانب، والمنفتح على السماء مباشرة . فتحنا الشباك الذى يبص على الحوش، فهبطت السماء على فتحة الشباك كالخيمة الرمادية يضىء من خلفه فانوس نرى رسمه وضوءه المحجوب خلف الخيمة وذلك قرص الشمس الذى لم يكن ميعاد رواحه قد حان بعد؛ مما جعل الأمر يبدو وكأن فى الأمر ثمة مؤامرة غامضة . .

وجه هليل نفسه كان هكذا يابوى : فانوس الحق والعدل فى موافقته على ما انتويته يضىء خلف قماشة وجهه الرهيفة لكنه يظهر كما لو أنه جاء بقماش الخيم المشمع السميك فطرحه على وجهه ليطفئ به فانوس الحق . لكننى على ضوء هذا الفانوس الذى استمر يضىء خلف سحابة ظلماء مربدة فى عينى هليل، رحت أحكى عما سأفعله بكل صدق وحرارة؛ فيما هو فاغر فاه من الدهشة لا ينطق . فلما رآنى قد أنهيت كل ما عندى من كلام هب واقفا؛ سحبنى من يدى :

ـ «قم بنا!» .

فى صوته خشونة تشى بكثير من الوعيد والتهديد . قلت وأنا متشبث بمكانى :

ـ «دعنا هنا فى أمان الله ياخوى!» .

أمسكنى من قفاى، علامة على شدة استحقاره لى مع الإنذار بأنه لن يعرف الأدب معى هذه الليلة بل ربما ضربنى . نعم يابوى هذا ما

توقعته؛ ففى سبيل مصلحتى يمكن أن يتجنن. من هنا حرصت على أن يتم الكلام والتشاور هاهنا فى أمان الله بسر هادئ بعيدا عن الذى يسوى والذى لا يسوى. لكن يظهر يابوى أن قرص الشمس الأحمر عدل عن الرواح وسكن فى عينى هليل فصارتا تفحان لهبا وشرراً حتى لقد خفت منه والله يابوى فقمت معه فى الحال متمتما:

ـ «اللهم اجعله خيرا!».

فإذا به يلطمنى بطرف عباءته الجوخ التى كان يلفها لحظتئذ حول كتفيه؛ فلم أدر ـ من عنفها ـ أكان يقصدها أم أنها جاءت عفوا لوقوفى فى طريقها؟ إلا أنه لم يعتذر ولم يعبأ بعينى التى دمعت من لسعة اللطمة.

قلبى حدثنى يابوى بأن الأمر فيه شىء غير طبيعى جعل هليل ينقلب هكذا فجأة فيقع فى حمأة الغضب لهذا الحد. ثم إننى فكرت يابوى: إذا أنا مشيت مع سلامة نيتى بأنه زعلان على شانى فالإنسان لا يزعل على الواحد أكثر من نفسه. شعرت فى الحال ياخال أن دودة الغضب بدأت تفقس فى صدرى بل إن فقسها راح يجرى هنا وهناك فى كل عروقى. ومرت برهة وجيزة شعرت فيها أننى أحمل الجبل كله فوق صدرى، وأننى أحاول الإفلات من تحته لأفعل فعلاً مجرمًا: أضرب هليل مثلا أو أتف فى وجه الدار كلها وأنصرف. قلة الأصل كانت شبحا قبيح المنظر واقفا أمام عينى كالجدار، فلما انزاح الجبل اختفى وصفت عينى من غبار الغضب. زفرت بشدة وحمدت الله. لكن مخى راح يضرب يقلب. ذلك يابوى أننى تذكرت أن غضب هليل هذا لم يكن فيه مفاجأة، إنما الزعل بدأ يظهر عليه منذ جئت بسيرة البنت

حنة، مما جعلني أتوهم بأنه يحبها وينتوى لها نية معينة فى نفسه. قلت لنفسي: اللهم نجنا من الفتن يارب واحفظ لى صديقى هليل وابق على الصداقة بيننا من أجل خاطرى، إحفظه يارب من لسانى المفلوت، من قلبى المسْوَد بهباب العوز والتشرد فى مصر معدومة الرحمة..

ـ «على كل حال لن نختلف يا هليل! الكلمة كلمتك والشورة شورتك ولن أفعل شيئا إلا بعد رضاك!».

هكذا قلت وأنا أسبقه نحو الباب. لكنه كان مكفهراً وغير راغب فى الكلام بقيت واقفا شاعرا بالذنب حتى انتهى من لبس حذائه الأستك ولمعه وسحب عصاه ومضى. فتح الباب متنحنحا؛ استدار برأسه نحوى فى نظرة خاطفة تعنى: إتبعنى..

صرت رجلاً أبهة يا هليل ياخوى؛ لبست العباءة مبكرا وأمسكت بالعصا قبل الأوان، صرت شيخ عرب يملؤه الشباب تنسكب منه الرهبة يتجسد الورع والتقوى على صفحة وجهه ولو أطلقت لحيتك لصدقك القوم إن زعمت لهم أنك أمير المؤمنين. معك حق ياولْد، فأنت الآن تعيش رجولتين، رجولتك ورجولة أبيك التى فاته أن يعيشها فى الوقت المناسب مثلك. ذلك المتصابى المهزار لولاك ياهليل لأصبح هزأة للقوم إنما الفضل فى النهاية يرجع لأبيك ياهليل مهما كان؛ لقد أهمل نفسه ورباك على الغالى، إقتنى وملكك؛ توارى لكى يظهرك على القوم؛ تواضع فألبسك فكبرك. أكون حماراً إذن لو خسرتك من أجل أى شىء؛ لكن مسألة حنة هذه هى العقبة الصلبة بيننا الآن؛ هى الكلكعة فى قلبى فاللهم أذبها اللهم اجعله يوافقنى على مسعاى الشريف اجعله يفهم غرضى فلا يتشدق بكلام عن الأصل والتربية

فكلنا أولاد تسعة ثم إن مسألة الأصل هذه يعلمها الله وحده ولربما كانت هى من أصل أفضل من أصلنا فالزمن غدار لا يؤتمن؛ وإذا سلمنا بقول أعمامى بأننا نمتُّ بصلة نسب قديم إلى الإمام الشافعى فأين نحن الآن من الإمام الشافعى؟ كلنا أولاد آدم وحواء وكلنا خطاة ومكتوب علينا الخوض فى الطين.

تفنيط

صرنا فى الشارع نمشى باحتراس واحترام لم أعهده فى نفسى من قبل. وكنت أحس أن احترام هليل لنفسه ينعكس علىّ تلقائيا. كل من مررنا بهم يهبون وقوفا ليسلموا علينا ولابد أن يوجهوا الحديث إلى هليل..

حاذينا غابة النخيل مشينا أكثر من نصف ساعة دون أن يفتح أحدنا فمه بكلمة. كانت رياح الغروب تهب علينا كلما اقتربنا من الجبل؛ إذ هى تلطم الجبل فيفتتها يبعثرها علينا فيتلقفها النخيل بالزغاريد، بضجيج فرح خشن؛ والهواء يتلاعب بنا وبخلقاتنا فتبرز الطبنجة فى جيب الصديرى تحت إبط هليل..

بدأ القلق يساورنى ياخال: إلى أين يذهب صاحبى العزيز الغالى ساحبا إياى؟! أيكون قد أصبح فى غيبتى من المطاريد؟! إنه لا يمكن أن يكون منهم أبدًا. لكن الملعون يخرم بى نحو الجبل. أخذ يدور حوله. رأينا فى سفحه الخلفى غابة كثيفة من البوص والهيش والحلفاء؛ خلفها حقول من القصب؛ بدت فى تلك اللحظة يابوى كشوارع من الرعب

المصفوف تتصاعد منه أنفاس كالفحيح كالزفيف. عجبت والله يا خال كيف يتأتى لهليل المسالم أن يجيء إلى هذه المنطقة فى دخلة الليل؟ صحيح أنه مسلح وقوى وشجاع؛ ولكن كيف يأمن الشجاع على نفسه بينما صفوف الخيانة مرتصة حواليه وإن حوت رحيق القصب السكرى؟! ها هو ذا يتقافز فوق نتوءات الطريق يتجنب عثراتها بمهارة المتودك يخرم من خلال قطعان القصب فى جرأة وثقة كأن كل هذه العيدان التى بلا حصر وبلا نهاية تأتمر بأمره تخضع لهيبته. ظهر كما لو أن المسافة التافهة التى بين العيدان قد اتسعت له مبتلعة ظلالها كى تحتويه. حقول القصب بحر، حين غطسنا فيه رأينا ما فى جوفه مما يطويه الموج من خفايا وأسرار، ففى هذه البقعة يعشش المطرود الفلانى؛ وفى هذه الشقى العلانى؛ وهنا قتلوا فلان الفلانى؛ وهاهنا ذبحوا فلانة الفلانية.. إلخ إلخ..

صرتُ يابوى - أنا يا المخربشاتى - أمشى وراءه كطفل غرير، لا أقوى حتى على سؤاله عن وجهتنا. زعق فى صدرى صوت يقول لى: ما أنت إلا ولد دعى خلبوص. ما كاد سرداب الليل يحفر عميقا فى الظلام حتى بزغت عين محمرة تتموج فى البعيد تحت أجفان السواد هى الأخرى تتسع خطوة بعد خطوة فرأينا ذبالة ضوء كبيرة، سرعان ما تكررت وتعددت وترادفت، حتى استطعنا أن نتبين على ضوئها أشباح جدران رابضة كسوء المصير الذى ينتظر كل سالك سبل الظلام. لكن هذه الجدران الكالحة سرعان ما وضحت فى دور ذات أبواب وشبابيك تفصلها شوارع وحارات. هى إذن بلدة صغيرة مجهولة. متى نشأت؟ كيف لم أعرفها من قبل ولم أسمع خبرها؟ هنا تكلم هليل، شوح بذراعه نحوى:

ـ « هذه بلدة لا اسم لها!! لا أحد يعرفها حتى الحكومة نفسها فالحكومة دائمًا هى آخر من يعلم!! هنا تقيم طائفة من العبيد والخدم الذين يوفرون للمطاريد كل شيء يطلبونه من الخبز حتى اللحم البشرى! لا شيء يعز عليهم!! سكانها لا يعرفون الله ولا قلب لهم! موتاهم يدفنون تحت دورهم! وعلى كل حال فالمطاريد يسمونها الهيش! لكن فيهم فضيلة: يحترمون ويهابون القوى! مع القوى يزيدونه قوة إضافية! ومع الطيب يؤكدون طيبته بالإحسان إليه ومساعدته إن طلب العون منهم شرط أن يطلبه بلسانه!!».

قلت من دهشتى:

ـ «أنا لست من هذه النواحى ياخال أم ماذا؟!».

جذبنى من فتحة طوق جلبابى كصياع المدينة:

ـ «نعم أنت لست من هنا! هذه البلدة عمرها مئات السنين! ولو مكثت أنت طول عمرك فى بلدتنا ما كنت عرفتها فليس يعرفها سوى مجنون أو ضارب فى التيه على غير هدى!! أما أنا فقد عرفتها لأننى فى الواقع ـ كما لا أظنك تعرف ـ مجنون كبير!! نعم نعم يابو العم فالجنون وحده هو الذى جاء بى إلى هنا ذات يوم والجنون هو الذى لا يزال يحمينى من وحشية أهلها الجبابرة! لا يفل الحديد إلا الحديد! فلأنهم مجانين أصلاء أو كما يقول المتعلمون بالسليقة فإنهم لا يخافون إلا من هو أكثر جنونا شرط أن يتقن الجنون على أصوله!!».

قلبى يا خال صار بين أنياب كلب ينهشه. من الآن أنا لست مخربشا ولا شيئا بالنسبة لهليل.

ـ «ولكن ياهليل هذه البلدة قريبة من بلدتنا و . . » .

قاطعني :

ـ «السكينة سرقتك! أنت لم تشعر بعد أننا سافرنا!! كان المفروض أن نركب فرسين عفيين لنجيء إلى هنا لكنني لم أفعل خوفا من شيئين اثنين : أن يشعر أبي وأنت بأننا على سفر فيقلق وتقلق فينفضح غرضنا حين يسمع الجبل وقع حوافر الفرسين في الليل فيقذفنا بالأعيرة النارية من كل مكان!! مشية الفرس في الجبل في الليل لا تكون إلا لفارس من فرسان الجبل أومقتحم من الحكومة فإن كان من عيال الجبل فالجبل كله على علم بموعد سيره كما أن الجبل يميز وقع أفراسه أما إن كان مقتحما فخطوه معروف مفضوح على أرض الجبل التي لا يعرفها ولا تعرفه وهنا يتلقى في كل خطوة عدوانا!!» .

بدأت أشعر لأول مرة في حياتي يابوي أنني وقعت في قبضة مجنون رسمي ويظهر أن ليلتنا بإذن الله أسود من قرون الخروب . جاءني يقين بأن دور الدروشة الذي كان آخذا بخناق هليل منذ صباه قد كبر معه فخلخل توازنه بات يفعل أفعالاً خرقاء كهذه . هتف بي هاتف أن تشهَّد على روحك يابطل أو ادع الله أن ينقذكما بمعجزة كبيرة لا تقل عن معجزة موسى عليه السلام . استللت صوتي من جراب ريق ناشف :

ـ «هليل! صف لي هذه البلدة من حدود بلدتنا!» .

شوح بكفه إشارة إلى أن أخفض صوتي لحد الهمس؛ إذ أن الدور المبنية حوالينا كانت قد تراجعت فبدأنا ندخل في دور أخرى مبنية بصاج السيارات القديمة وقوائمها وعجلاتها مأخوذة من سيارات الحكومة

التى كانت تتوه وتضل فى الجبل. ثمة أخصاص من عيدان التيل والبوص وأوراق القصب. . تلونت ذبالات الضوء من فوانيس داخل النوافذ إلى شعلات من لمبة الجاز الصاروخ إلى ركيات نار من خشب مشتعل. .

قرب واحدة كهذه توقفنا على جنب. همس هليل فى أذنى:

ـ «هذه البلدة السحرية فى جيب عميق من جيوب الجبل! هى معدةُ الجبل التى تهضم كل فريسة تقع! هى أيضا صندوق زبالة الجبل!! الفتوات الذين خاب أملهم! الذين انفضحوا لسبب من الأسباب فنفاهم أهل الجبل الفوقى عزلوهم لأنهم أقل من أن يكونوا رجالا أقل من مرتبة الفتونة!! هنا أيضا الذين عجزوا وانهدت قواهم! الذين خانوا ولو خيانة صغيرة فانفض عنهم الرجال! الذين هربوا من واجب ثأر من ذنب من جريمة فقادهم سوء البخت وأحيانا حسن الحظ إلى هذا المدفن الحى!! ويل لمن كان ضعيفا ويقع هنا! لو كان حلوا فسيأكلونه! أو مُرًّا فتأكله الكلاب!!».

ثم غمزنى وأردف:

ـ «لقد جئنا من الطريق السرى الذى كان يغرقه النيل عند الفيضان وتقطعه غابات الهيش والبوص عند الغيض! وهى كما تعرف مأوى لجميع أنواع المفترسات!!».

ومضى خطوة ثم توقف هامسا:

ـ «ليكن فى معلومك أن الدار هنا أمان بالنسبة لى يعنى تمشى على كيفك كأنك تمشى فى أى بلد آمن!! هم هنا يعلمون عن ثقة ويقين أن

شخصا عاديا لن يجرؤ على السير هاهنا بثقة واطمئنان إلا إذا كان أهلاً لذلك بالفعل! الويل له إن انكشف أمره وظهر عليه الخوف يكون لقمة طرية شهية يأخذ كل واحد منها نصيبه!! فمهمتك الآن أن تكون صلبا قوى الأعصاب حتى آخر لحظة فلا تظهر منك نقطة ضعف واحدة فالخوف هنا هو الحكومة الوحيدة التى تفصل فى المنازعات بين الناس!! إن ظهر هنا أنك لست الأقوى من الآخر فإن مهمة الآخر تنصب فى محاولة إضعافك بأى شكل وبكل شكل مهما تذرعت أنت بالقوة دون رصيد حقيقى من القوة!!».

مضى خطوة أخرى وشوح كأنه تنازل عن كل ما قال، ثم استدرك:

ـ «وعلى كل حال فاحسبها حسبة بسيطة وأرح نفسك: مادام الشيء الوحيد المضمون هنا هو الموت فلتمت شجاعًا مرفوع الرأس حتى لا يكون موتك بالمجان! من يطلب الموت لا يأتيه الموت هذه هى حكمة الزمان! فكن شجاعا جدعا حتى آخر لحظة تكسب حتى وأنت ميت!!».

جذبنى، فتبعته. وصلنا إلى ركية النار؛ فتناهى إلينا ـ رحمتك يارب ـ صوت المغنية صباح تغنى: حبيبة أمها ياخوا.. تى.. ياخو.. ا.. تىْ.. يا اختى يااختى يااختى!! قبل أن يركبنى العفريت فأتسبب فى فضيحة قبض هليل على ذراعى وقرصنى هامسا:

ـ «اليوم توجد طرق سرية كثيرة لا يعرفها سوى قلة من المخربشين يتولون قضاء كل الطلبات من كل مكان فى كل وقت فلا يجرؤ على تتبعهم أحد لأنهم خبيرون بكيفية تضليله وتوصيله إلى الجنون ثم التهلكة!! وحدهم يرون فى الظلام يعرفون متاهات الظلام وليكن فى

معلومك أن هذه البلدة فيها بيع وشراء وكل شيء كما سترى الآن!!».

صرت أبحث عن عقلى الشاتت يابوى:

ـ «ولكن بالله كيف سنرجع يا هليل؟ كيف نعود إلى دارنا فى هذه الحلكة؟ وهل ترانا سنعود حقا؟!».

بكل هدوء قرصنى فى ذراعى:

ـ «ومن قال إننا سنعود الليلة؟! سنبقى هاهنا حتى الصباح ونرجع عند طلعة الشمس إن كان لنا عمر بإذن الله!!».

ابتلعت صرختى:

ـ«ولماذا جئت بنا إلى هنا بحق جاه النبى والمسلمين ياهليل؟ ظننتك كبرت اليوم على هذه المشاوير اللبط!».

شدد من قبضته، وبلهجة ذات معنى:

ـ «لبط؟! لبط يا ابو على؟! فما الذى تفعله أنت فى مصر قل لى؟! أنت الآن فى نزهة فاحمد ربك واخرس!!».

ـ «نزهة؟! أهذه نزهة يا ابو العم؟! سيّبت ركبى! الواحد لابد أن يجعل لدماغه سقفا يقيه التهور يمنع مخه من المشى بعيداً عنه!».

كتم ضحكة هازئة:

ـ «بعد قليل سيطير سقف دماغك إلى غير رجعة!!».

ثم أخذ ينقر بطرف العصا على باب، عبارة عن واجهة سيارة نقل كبيرة مركّب على مربع من أعواد الحديد بمفصل من عمود حديدى

مغروز فى الأرض. فجأة انخفض صوت الراديو، وصاح من الداخل صوت جهورى لكنه واطئ ومتحرز:

ـ «من الكريم؟!».

صاح هليل فى بساطة آسرة:

ـ «هليل!».

فهتف الصوت فى الحال بترحاب شديد:

ـ «تفضل يا شيخ العرب!».

ثم دوى فى الفراغ صوت نعيب حاد، تيقنت من أنه زيق الباب، الذى هو وجه السيارة الكميون وهو يابوى يحتاج لاثنين عفيين يدفعانه حتى ينفتح. فلما انزاح نحونا يابوى ـ إذ هو ينفتح للخارج ـ كاد يصدمنا، فاضطررنا إلى التراجع عنه بسرعة. وإذا بهلف كبير ينام خلفه ولم يفعل أكثر من أنه دفع الباب بأصابع قدمه كان ممددا كشجرة كافور قطعت جذورها عن الأرض، راقدا على بطنه وماسورة البندقية فى حضنه، يبعث إلينا بعينين لوزيتين مضيئتين فى ظلمة الدهليز. قال هليل وهو يبرز نفسه للهلف:

ـ «معى ضيف عزيز يابو العم قادم لتوه من سيدنا الحسين!! أحببت أن أكرمه كرمًا زائدا يعود علينا بخير كثير ينتظرنا حين نفى بالنذر لمولانا!!».

ـ «أهلا وسهلا! مرحبا!».

ذلك ما نطق به الهلف وهو يتلوى كحوت فى محيط الظلام،

ينعوج وينكمش ثم ينتفض قائما معلقا البندقية فى كتفه . أقبل نحونا مادًا يده . سلم عليه هليل بحرارة كبيرة يابوى كأنهما أحباب بل عشاق أصفياء . سلمت أنا الآخر ؛ فما أن احتوت يده يدى حتى خيل لى أننى أسلم على واحد من أحب الناس إلى قلبى . استدار ذلك الهلف الجذاب نحو الجدار ، الذى هو الآخر عبارة عن صاج تخين من صاج الطائرات التى كثيرا ما وقعت فى الجبل ، صاج معشق فى بعضه البعض بشرائح ودوائر من كاوتشوك السيارات والطائرات . .

مدّ الهلف يده إلى لمبة الجاز نمرة عشرة المعلقة على الجدار ؛ فرفع شريطها المرمد فاتسعت دائرة الضوء فظهر الهلف رجلا ولا كل الرجال ، أحمر الوجه مستديره كالأوطاية تكاد تختفى بين شاربين كبيرين تحت لبدة كشاهد القبر ؛ لكن الأوطاية نفسها ـ وجهه ـ عبارة عن عينين كلوزتين من النوار تنام كل منهما على طرف شارب . هذا الوجه الدقيق ذو الرأس الصغير ـ رحمتك يارب ـ يقف على كتفين كل منهما يصلح أن يكون ناصية حارة من حوارى مصر ؛ على قوام سمهرى مبروم يخشى الواحد منا سطوته وهو بعيد عنه بمسافة ؛ يرتدى جلبابا من الجبردين الأزرق الداكن ليس تحته ثمة ثياب على الإطلاق .

قطع

أقبل علينا الهلف مسلما من جديد وهو يدعونا للدخول ، ما أن دلفنا إلى حيث كان يرقد حتى جذب الباب فسنكره فى قائم حديدى بضبة حديدية كالدرفيل تبيت فى موضع لها عاشق فى معشوق . أشار هليل نحوى قائلا :

ـ «حضرته حسن أبو على ولد أبو ضب أجاويد سيدنا الحسين! شهبندر تجار السمك والفسيخ! عيبه أنه ولد خسران وابن ليل ينوى إن شاء الله أن يفنى ثروة أبيه التى يقال إنها لا تفنى! يصرف على الهلس والكلام الفاضى ما يبنى عمائر ويشترى فدادين!! لكنه ياعم عرندس قلبه أبيض كالبفتة! تصور ياعم عرندس أنه يسعى فى طلب الحاجة فيصرف عليها دم قلبه فلما يحصل عليها ربما لا يذوقها!! يكفيه أن يطلب الشيء فيجده!! يحلم بالمستحيل! لهذا حيّرنا وغلبنا الغلب كله! لم يكفه ما هو فيه من متع وهلس فى أم الدنيا فجاء يطلب منى ليلة فى الجبل يتمتع بها حتى الموت!! وقد صممت الليلة أن أقتله يا عم عرندس فجئت به إليك لتساعدنى على الخلاص منه ولك الأجر والثواب عند الله أما عندى فلك المكافأة التى يمكن أن تطلبها!!» .

ثم كف عن الكلام مشوحًا كمن خلّص ضميره . وبقيت واقفا فى محلى كطفل يرتجف من لعبة مثيرة مخيفة معا يابوى .

يخرب بيتك ياهليل ياولد الحرام : أملعون أنت إلى هذه الدرجة ياولد الأبالسة؟! ما هذا الذى فيك لم أكن أعرفه من قبل؟ يالى من غشيم أهبل . لابد أنك يا هليل تعيش هنا بشخصيتين دون أن أعرف أو يعرف أحد من أهل البلدة الذين يوقرونك ويحترمونك كرجل صالح لايترك الفرض يجىء على أخيه الفرض . .

ظل الملعون هليل واقفا خافض البصر كطفل برىء لم يكذب منذ هنيهة . أما الرجل الهلف ، أقصد عم عرندس ، فقد جعل ينظر إلىّ بحب وإعجاب واندهاش ، تكاد نظراته تعرينى من خلقاتى ؛ ولا أكاد أصدق أن كلام هليل عنى بهذه الرسماية الخيالية يمكن أن يدخل هذه الدماغ الصغيرة يابوى ؛ فآه من هذه الدماغ الصغيرة يابوى ؛ إنها دماغ مختصرة يابوى مثل الراديو المسمى بالترانزستور ، ليس فى صندوقها متسع للخوف والكلام الفاضى . على أن هاتين العينين الثاقبتين سرعان ما غرقتا فى بحيرة من العهر والطراوة المخنثة ؛ غير أنه ذلك العهر الناعم يابوى ، المخيف بشدة نعومته ، المنذر بسوء العاقبة ياخال . إنه العهر الخديعة ؛ فليس يصدر العهر متقنا هكذا إلا أن يكون محض خديعة ياخال . .

نظرة العهر تلد ابتسامة طرية على شفتى الهلف عم عرندس مفروشة كالبساط الأحمدى ؛ ووسَّعت وجهه سوت رأسه بين شدقين منبعجين . ثم إنه حول بصره عنى نحو هليل قائلا بكل رقة وحلاوة :

ـ خدامينه ياعم! مجيئك عندنا بالدنيا!!» .

رفع هليل حاجبيه مشيرا نحوى :

ـ «هذا السفروت الخلبوص الكحيان لا تستهزئ به فقد ذاق كل فواكه مصر والبلاد كلها فلم يشبع ! ! قلت له إن عندنا فواكه لم يذقها فاستهزأ بى ولم يصدقنى فحلفت لأذيقنه طعم الخوخ العرندسى ! ! » .

قال عم عرندس وهو يعاود التفرس فى وجهى بنفس النظرة المنبعجة الشدقين وفى لهجته نبرة ذات معنى :

ـ «تريد الخوخة بنفسها إذن؟ ! من حسن حظه أنها الليلة موجودة فى الجبل ! ! رزقها ! ! » .

دب هليل يده فى جيب الصديرى نزع المحفظة ثم نزع منها ورقة بعشرة جنيهات غمز بها الرجل فى يده :

ـ «هذه لك أنت وحدك حتى تشوف مزاجنا أولا ! ! » .

ثم نزع ورقتين أخريين غمزه بهما فى يده :

ـ «وهذا رزق الخوخة ! ! » .

وأشار لى :

ـ «ولها رزق آخر عنده حين يذوق ويعجبه الطعم ! ! » .

وغمز بشاربه الكث غمزة ذات مغزى وقال لى كأنه يكشف تماما عن جوهر غرضه من هذه اللعبة كلها :

ـ «لقد عرفت داءك يا ملعون ! ! أنت عطشان تريد أن تعب من مستنقع نتن ! قلت فى عقل بالى إنك لن ترتوى إلا من هنا ! ! فهنا أشبه

ببئر الساقية، ماؤه بارد صاف وإن شابته بعض الجراثيم المقدور عليها!! هنا سوف ترتوى جيدا حتى تزهد الأمر كله وتصرف النظر عما فى رأسك!! وقد أجلت الكلام معك فى أى شىء حتى ترتوى وتصير فى حالتك الطبيعية وبعدها أقول لك نصيحتى ومشورتى!!».

صدقته ياخال؛ منيت النفس بليلة ولا كل الليالى.. بالفعل بانت تباشيرها يابوى. فى جدية قال عم عرندس:

ـ «على كل حال الخوخة زمانها قادمة! هى لابد أن تبيت هنا الليلة! وإلى أن تجىء فإن صاحبك أمامه التفاحة والبرتقالة والجوفاية كلهن موجودات تحت أمره وله الحرية مع كل واحدة إن شاء حسابها بعد الانبساط وإن شاء صرف نفسه عنها إلى غيرها بغير حساب!!».

انقرص قلبى يابوى قرصة موجعة. تسرب الشك من جديد إلى مخى يقول: إصح يا مغفل وإلا فالملعوب كبير سيَّما وأن هليل تبدو عليه أمارات تتراوح بين الخبث والبراءة. ثم إنه قال:

ـ «نريد أن نشوف مزاجنا الآن! دماغنا صفَّرت من طول الطريق ومشقته!!».

مسح الرجل كفيه فى ركبتيه قائلا: «وجب!» ثم أمسك بالمصباح ومضى أمامنا قائلا: «تعالوا». فمضينا وراءه فى دهليز طويل يشبه القبو المظلم. بقينا نمشى مسافة طويلة حتى مللت يابوى وتوقعت السقوط فى الجبّ الذى لا طلوع منه لكننا وصلنا أخيرا ـ رحمتك يارب ـ إلى واجهة منزل مبنى بالحجارة المسواة، له سلم يصعد إلى الباب بعدة درجات، صعدها عم عرندس فصعدنا وراءه. على الضوء العليل

لاحظت وجود أكثر من منزل محندق مبنى بالحجارة أيضا؛ حوالى ثلاثة منازل من طابقين لها شرفات كمساكن علية القوم.

همس هليل فى أذنى:

ـ «هذه المساكن بناها عم عرندس مثل لوكاندات فى الجبل يستأجرها المطاريد الجدد والمبعدون لأسباب مؤقتة وكبار الهاربين من ظرف طارئ ومن يريدون الاختفاء التام لاسترداد الدماغ والتخطيط لعمل!!.. يدفعون لعم عرندس أغلى الأثمان ليس لقوته بل لجدعنته معهم إذ هو يكون أستر واحد عليهم أخبث حارس يخادع الجن نفسه!! إحذر أن تستهزئ به وإلا فإن قرصته مسممة لا نجاة منها!! أما إن صافيته فإنه يقدم لك المعجزات! عمره الآن مائة عام ولكنه يبدو فى الستين فحسب! وقد ولد فى الجبل ولم يكن بينه وبين الحكومة أية خصومة لكنه عشق الجبل فعاش فيه بمزاجه لمزاجه يكسب منه الذهب!! ولأنه ابن الجبل فإنه لا يخاف ولا ينكسر!! له أملاك كبيرة فى صدفا والغنايم وله ـ إمسك دماغك ـ إبن من كبار المحامين فى الإسكندرية!! وابن آخر يعيش الآن فى لندن كأستاذ لعلم الآثار فى إحدى أكبر الجامعات الإنجليزية ويتاجر فى الآثار التى يمده بها أبوه!!».

كان عم عرندس قد سبقنا إلى الدخول ليجهز المكان فيما بقينا هليل وأنا فى الشرفة ننظر فى الفراغ المظلم ونميز بين السور العالى المصنوع من الأعواد والأعشاب والفروع وصخور الجبل، وبين ظلال الهضاب العالية البعيدة جداً. لا يظهر من البناء الداخلى أى شىء إذ أن عم عرندس الخبيث الناصح اختار هذا المكان بين لسانين متجاورين من ألسنة الجبل، كل لسان عبارة عن هضبة كبيرة مدببة الرأس كلما

ارتفعت لأعلى، فبدت تعريشة عم عرندس جزءاً من اللسانين يملأ الفراغ بينهما. مال هليل على أذنى هامسا كأنه يخلص ضميره من عبء ثقيل:

ـ «على فكرة يابو العم! ليكن فى معلومك أننى لست ولداً داعراً كما يظهر لك منى الليلة!! الحكاية وما فيها أننى عرفت عم عرندس منذ مدة طويلة لأنه اشترى أرضا زراعية مجاورة لأرضنا وهو يستعين بالله وبى على إفلاحها!! شخصيتى تعجبه يتصورنى ملاكًا من السماء! وهو صاحبى ويعزمنى عزومات كثيرة كهذه كلها أنس ومحبة!! عرفنى بكل سكان هذه البلدة كبرنّى فى أنظارهم فأحبونى كلهم وأعطونى الأمان وكلهم ينتظر منى أن أطلب منه أى خدمة لكن الله الغنى عن خدماتهم يابو العم فلست أنوى قتل أحد أو الغدر بأحد! كفانا الله شر الحرام والإفتراء!!».

ـ «خشوا يارجال!».

قال عم عرندس مناديا من الداخل. وإذا به قد أنار مصباحا فى الردهة، وآخر فى حجرة على اليمين فى المدخل، وبجوار هذه الحجرة حجرة أخرى مغلقة. فى المقابل حجرتان بينهما ممر تفوح منه رائحة الكنيف زاعقة. فى الحجرة المضاءة ثلاث كنبات أسيوطى؛ أما الأرض فمفروشة بحصير ملون نظيف. شلتات الكنب مرصوصة على الأرض تتحلق المنقد الكبير والجوزة وحجارتها الكثيرة مع كومة من باكوات المعسل. جلسنا فوق الشلت. فى الحال شرع هليل ينظف الحجارة ويحشوها بالمعسل. وكان عم عرندس قد اختفى برهة طويلة جدا حتى انتهى هليل من تعسيل كل الحجارة ثم أخرج من جيبه كلكيعة حشيش

كبيرة راح يقتطع منها ويكسو المعسل بعباءات من القطيفة الخضراء. ما كاد يعتدل آخذا سمت الانتظار حتى دخل الرجل حاملا طاسة كبيرة ملآنة بالخشب المشتعل؛ دلقها في المنقد. من خلفه دخل غلام أمرد يحمل صينية عليها عدة الشاى وطبقًا به تشكيلة من الفواكة النادرة. قلت لنفسى: هذه إذن هى الفواكة المقصودة! هليل الملعون قرأ ما دار فى رأسى فانفجر ضاحكا:

ـ «هذه هى العينة فحسب يابجم! أما الفواكة الحقيقية فإنها آتية لا ريب فيها بعد مجىء الدماغ!!».

ثم مال على عم عرندس فحدثه همسا بلهجة ذات معنى واضح فى ملامح وجهيهما. ثم علا صوت هليل مشيرا برأسه نحوى:

ـ «دماغة لا تجىء بسهولة ياعم عرندس! خُش عليه بنية خالصة يكرمك الله! هات داغه!».

نظر الهلف نحوى نظرته العاهرة اللطيفة:

ـ «سأجىء بداغك الليلة يا حلو! أوقعت بنفسك فى يد من لا يرحم! وقعت أم رماك الهوى؟!».

فى أقل من لمح البصر يابوى كان الرجل الهلف قد وضع بوصة الجوزة فى فمى: «شد يا بطل». قلت: «ليلتك فل»، وشددت الحجر كله فى نفس واحد على شفطتين ونفختين، فارتفعت راية النار فوق الحجر. فإن هى إلا لمحة حتى انشال الحجر من فوق البُخْش ووضع مكانه حجر جديد، والحجر السابق ينحنى على الجديد طارحًا فوقه كل ناره. خمسة حجارة وراء بعضها فى خيط واحد، ويد عرندس ممسكة

بالجوزة وبالماشة وأصابع يمناه تفرفط فوق نار الحجر حشيشا كالحمص ينزل بردًا وسلاما على النار يصنع مهرجانا من سحائب الدخان الشهى.

بعدها بقليل نسيت أننا فى أمعاء الجبل، لسنا فحسب بين فكى التمساح بل داخل معدته. تلك هى الصورة التى عبرت رأسى لتتبخر مع الدخان. ثم بدأت الأصوات والحركة تكثر خارج القاعة تصنع صخبا حلوا ينضح بالأمان الحميم يحجز بين دماغى والسطل المبكرة. برهة صغيرة وبدأت أشعر كما لو كنت فى مندرة دارنا بل إننى سمعت اسمى يتردد؛ فأحسست أن البراح والممر المتاخمين لهذه الفيللا التى نجلس فى قاعة منها، والتى تشبه عشش رأس البر؛ هذا البراح وهذا الممر قد احتشد بحركة مستمرة ومتزايدة بشكل مريب ياخال، حين خيّل لى أننى وقعت فى كمين وأن البلدة كلهاُ شرعت تنقلب لتتفرج علينا قبل أن تمسكنا الحكومة فى تجريسة كبرى يابوى. المصيبة ياخال أننى سمعت بأذنى أصواتا تقتحم علينا القاعة من بعض الشبابيك. ومن الردهة أمام القاعة ميزت صوت هذه العبارة: «ولد أبو ضب» كيف؟! ولد أبو ضب؟ معقولة؟!». ثم تزايدت الخطوات والحركة فى حيوية. دخلت على الأصوات أصوات جديدة لنساء وفتيات ذوات رنات وجلجلة، مع أصوات آنية يتم غسلها، وطيور يتم ذبحها. قلت لعلها علامات السطل قد هيأت لى كل ذلك فجعلت أنظر حوالىّ قائلا:

ـ «هناك زيطة وزمبليطة أم تراها فى رأسى أنا؟!».

قال عم عرندس:

ـ «أنت عندنا لست قليلا يا . . ابن شهبنّدر التجار!» .

صدمتنى العبارة الأخيرة شعرت أن فيها تعريضا بشخصى فتشككت فى الأمر فنظرت لهليل :

ـ «تسمع هذه الزيطة طبعا ياهليل؟!» .

قال وهو يسحب نفس الدخان :

ـ «طبعا! عم عرندس يقول لك إنك لست قليلا عندهم!» .

قال عم عرندس بجدية مفاجئة :

ـ «قد زارنا النبى يا ابن شهبندر التجار؟!» .

يعرّض بى ثانية . طوحت ذلك خلف ظهرى ؛ قلت :

ـ «لكن يظهر أن البلدة كلها تتجمع حول الدار وتردد اسمى! كيف ذلك يابوى؟ من أين جاء كل هؤلاء؟!» .

صاح عم عرندس مشوحًا نحوى بكفه الكبيرة وذراعه الطويلة وكمه الواسع :

ـ «وه يابوى! كيف أنت؟! الجبل كله انقلب وجاء يتفرج عليك! أقصد جاء يكرمك ويشوف مزاجك!! لا أعرف كيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء؟!» .

وانجعص هليل قائلا فى افتتان :

ـ «الأخبار فى الجبل تصل أسرع! هنا سرعة البرق التى يقولون عنها! لكن أنت السبب يا عم عرندس! أنت الذى أذعت الخبر!!» .

عم عرندس ضرب الماشة فوق البلاطة صائحا:

ـ «الخبر أشاع نفسه بنفسه!! أتستهزئ يابوى بمثل هذا الخبر حين يسمعه الجبل بأذنيه؟ حسن أبو على ولد أبو ضب! ابن شهبندر التجار كله فى الجبل الليلة؟ لابد أن يرقص الجبل كله طبعا!! ليلتك فل بإذن الله! ولع!».

قلت لنفسى: هذا الرجل مَيَّاس أو مجنون يريد أن يسرح بدماغى حتى يميِّله قبل الأوان:

ـ «ما حكاية شهبندر هذه؟!».

كانت بوصة الجوزة قد استقرت بين شفتيه. راح يشفط وعيناه اللوزيتان كالبليتين تدوران فى محجريهما تنسجان أفكارا عجيبة يرد بها. لكن هسيسا مكثفا انبثق من الباب فجأة سبقته عيون كثيرة تنظر متلصصة تتهامس قائلة: «نعم هو! هو بعينه! الجالس فى الوسط!». وإذا بامرأة فارعة كالنخلة كحورية البحر داخلة ترفل فى بذلة رقص كاسية مشغولة كلها بالترتر الأصفر على أبيض، طويلة الرقبة طويلة الشعر تنساب جدائلها فوق ظهرها مستوية فوق عجيزتها النافرة..

مساء الخير. هكذا قالت برقة الحوريات؛ ثم سلمت على هليل باعتباره فى مواجهة الداخل؛ فسلم عليها بيديه شاملاً إياها بنظرة سريعة، قال كأنه يهم بأكلها: أهلا وسهلا، لكنه ما لبث حتى خفض بصره واعتدل جالسا فى أدب. أقبلت نحوى ياخال، فى كثير من الشوق والرغبة والإمتنان فاتحة ذراعيها صائحة: «هو!» وعم عرندس من خلفها يؤيد فى تفاخر: «بل خياله يافكيهة!». ارتمت على صدرى

قبلتنى فى خدىّ. ارتبكت لبرهة طويلة؛ لكننى ما لبثت حتى ضغطتها على صدرى بقوة وقبلتها على خديها وفى شفتيها انحطت بجوارى وفخذها كله مستريح على فخذى. قلت: يادار ما دخلك شر. واستبحت لنفسى الضغط بصدرى كله على فخذها بكل قوتى فيما أنا مضطر للميل نحو بوصة الجوزة لأشرب الحجر؛ فإذا هى تنعوج مع حركتى فتضغط صدرها على ظهرى بنفس القوة حتى صار منظرنا أنتيكة. وسرعان ما تلقفت هى بوصة الجوزة وانبرت من مسندها تشد النفس ولا أرجل الحشاشين وصدرها ينتفض فوق ظهرى ياخال. وحين اعتدلنا كان الدخان الكثيف يتصاعد من كلينا مختلطا متداخلا نشوانا..

لحظتئذ ياخال بدأت أصدق أن الشغلة جد فى جد. وقلت: لا مفر من أن أصدق الفرية المزعومة بأننى شهبندر التجار بذات نفسه. ما أن بدأت خياشيم العبد لله تستشعر نكهة هذه النتاية الطايبة كالقشدة حتى غزا القاعة هسيس محوط بشخللة ورنين الأساور الذهبية؛ ثم هبت علينا طلائع من العطر الشهى المثير للقشعريرة فى الدماغ. دخلت نتاية كاللبؤة تضاءلت بجوارها فكيهة. هى الأخرى ترتدى بذلة رقص واسعة الذيل مشغولة بالترتر البنفسجى. غزال ياخال، لا بالطويلة ولا بالقصيرة، إلى النحافة أميل؛ لكن ثدييها بارزان كأرنبين متكورين وبطنها من تحتهما مشدودة كجلد الطبلة المرتفعة قليلا يصعد إليها البصر عن ساقين مبرومتين لهما تحت الثياب الشفافة ظلال وخيالات كعمدان معبد الكرنك تظنها عشرات السيقان المتحاضنة المتجاورة بينهما فراغات تقول لك افرش ونم فى أى منها على ما تهوى. أما الوجه

فسبحان الله مثل كوز العسل يابوى وفى لون الشهد بعينين واسعتين كبحيرتين يتوسطهما قاربان والرموش الطويلة مجاديف ينعكس خيالها على الخدين الشاطئين. أما شعرها فجديلة واحدة من الحرير البنى اللون ملفوفة تحت المنديل الحريرى فى لون الفل. كانت ظلال ساقيها تمتد إلى بُعد خلفى ينتصب فوقها ظهر مخروطى مقسوم بالطول. قلت ياسبحان الله؛ إمنحنى يارب كل مدخراتى عندك من القوة التى تنوى أن توزعها على حياتى؛ أعطنيها كلها الليلة فحسب؛ قونى هذه الليلة فحسب وأنلنى بعض غرضى فكل الفضائح أحتملها إلا هذه الليلة يمكن أن أموت فيها..

قالت وهى تقترب منى: «أين هو؟ أين الحبيب الغالى؟!»، عرفت مكانى من فكيهة الملتصقة بى، فتبخترت نحوى، ثم هوت على وجهى تقبلنى تدفن رأسى فى صدرها وكتفى فى بطنها التى لها ملمس العجين الخمران. قلت للحياء: لا يصح أن يمر على فهمى كوز العسل فلا أذوق منه ولو لحسة. أمسكت برأس الغزال يا خال طوته على يمناى فانطوى الجسد كله متكورا على حجرى. فما صدقت اللبؤة أن اقتربت شفتاى من شفتيها حتى فركت وفركت إلى أن دخلت بكاملها فى صدرى وبطنى حتى بللت نفسى وتراخيت عنها قليلا قليلا فيما يشبه الندم والسخط الغامض. لكننى سرعان ما قلت: الحمد لله أن سابت الشهوة الآن فنفست عن نفسها حتى تكون متزنة رصينة عند الشغل الجد. رفعتُ وجهى عنها، فاصطدمت عينى بعينى الرجل الهلف عم عرندس وهو يحدثنى بخبث أهتم لئيم حاد السخرية:

«أعجبتك بديعة! سحرتك بديعة! لبؤتى وأعرفها طبعا! الوحيدة التى أتت بداغى فاحذرها ابدأ بها وحلى بالفكيهة!!».

جعلت أنظر إلى فكيهة كالمعتذر لها عن نسيانى إياها لكن الهسيس ارتفع من جديد؛ وتبعه موكب حافل من أصوات طروبة متداخلة مختلطة كأصوات التجريب والشد والتسخين: طبلة على سلامية على رق على مزمار. وإذا بالغازية داخلة وقد انضبطت الأنغام فجأة وإنتظمها المزمار البلدى رائق المزاج حاد النبرة والإيقاع. وإذا بفرقة المزمار تأخذ لنفسها مكانا مقوسًا كشق القمر فى مدخل القاعة، والغازية قد جعلت من القاعة ملعبا فسيحا أخذت تطويه رائحة غادية لافّة حول نفسها على أطراف أصابع قدميها كالماشية فوق الأشواك؛ جسدها كله يهتز يرتج يرتجف، يناكح الريح من كل اتجاه؛ يعرض كل قطعة فيه لفم شهوانى خرافى سوف يلقمه يشبع فيه مصمصة وقزقزة. أحلى غازية رأيتها فى حياتى يابوى؛ مهرة عالية الجبهة تزرى بستات مصر المحروسة؛ على شفتيها بسمة فيها من البراعة أضعاف ما فى العينين المكحولتين من عهر أبدى ياخال.

انبرينا جميعا نصفق للغازية فى ابتهاج لا مثيل له. انعوج عم عرندس ببوصة الجوزة قائلا:

ـ «خد لك نفس ياديا أنصاف!!».

وكانت أنصاف لحظتها مسطوحة تميل برأسها وجذعها كله إلى الوراء حتى انطوت فارتفع ما بين ساقيها إلى أعلى مثل قبة طاجن اللبن. سلط عم عرندس بوصة الجوزة فى هذه القبة، صائحا: شد، فانفجرنا ضاحكين؛ وبرمت أنصاف جسدها بحرفنة ومرونة حتى جاء دماغها مطرح البوصة بالضبط، وجدائل شعرها تكنس الأرض كذيل الثوب. مطت شفتيها، احتوت بهما بوصة الجوزة شدت نفسًا ارتفعت

له راية النار فوق الحجر؛ فصفقنا جميعا صائحين: «قشطة»؛ وزغرد المزمار مع السلاّمية طربا وهاصت الدربكة. ففى لمح البصر برمت أنصاف جسدها كالبريمة قبل أن تنسحب البوصة. هاجت الثيران كلها فى داخلى قلت: ما من بدّ، وصرت أتململ فى جلستى؛ فقال عم عرندس وهو يثقبنى بنظراته مشيرا إلى أنصاف برقصة من شفتيه:

ـ «هذا هو الطرشى عندنا!! نقدمه قبل الأكل!».

وأشار إلى كل من فكيهة وبديعة عند العبارة الأخيرة. تغابيت قائلا: «يعنى ماذا؟!»، فطوقنى عم عرندس بشواظ عينيه وقال مشيراً إلى فرقة المزيكاتية:

ـ «أهل الضرب والنقر سيحرثون دماغهم بحجرين!!».

عندئذ كانت أنصاف قد انحنت عليو جهها ومشت على أربع كالمهرة، عجيزتها مرتفعة منقسمة منتفضة تتقابل مع وقع نقرات الطبلة التى تسللت خفيفة ناعمة يصاحبها المزمار فى نشيج شجى مهيِّج للعواطف. تلاصقت الأنغام بالحركات ياخال. أنصاف مقبلة نحوى كاللبؤة المتوحشة عيناها تنذراننى بالويل الجميل إن تخاذلت عنها. فإذا بى ياخال متأهبا لاستقبالها وإذا بى قد صرت محمولاً من تحت الإبطين. وبقوة رشيقة تطوحنى المهرة ـ لا أدرى كيف ـ فوق ظهرها راكبا، وخصل من شعرها لجام فى يدى. استدارت زاحفة على أربع، متقافزة متراقصة. راحت المزيكة تزفنا حتى خرجت هى بى من القاعة فى سرعة خاطفة كالرمح. عبرت الردهة، برأسها نطحت باب القاعة المواجهة فانفتح عن سرير بعمدان طويلة من الخشب الثمين التحفة تبينت من أول نظرة أنه مسروق من مقابر الفراعنة بنقوشه ودقة صنعه

وجمال شكله. سرير ملوكى يابوى. رمتنى المهرة فوقه، فانخفضت بى الحشية ثم ارتفعت فى الحال. ثم إنها رمت بنفسها إلى جوارى، فكأن الملكة حتشبسوت نفسها تحتوينى ياخال. ضعت فى حضنها ياخال لم أعرف بأى جزء فيه أبدأ متعتى. ولقد أحسست هى بحيرتى وضياعى فى هذا الجنون المطبق فبدأت تسلمنى نفسها قطعة فقطعة تقول ذقها على مهلك حتى تشبع. صرت كالذى يتقلى على النار ياخال. وأخيرا قمت ياخال؛ تحلف اليمين تقول ثورا هائجا من ثيران أسبانيا. ما كل هذا ياخال؟ ها أنذا أعرف المرأة لأول مرة فى حياتى. لم أكن أظن أننى سأنجح فى شىء مما استمتعت به ما لم تكن هى بنفسها قد أرشدتنى إليه؛ وارتفع صوت الحرمان فى صدرى يقول: إلهط يا ابن أبى ضب يامفجوع.

تفريـق

لم أدر كم من الوقت مضى يا خال؛ لكن خيل لى أن دهراً بحاله قد انقضى، وعصراً برمته قد اندحر ولن يعيده الله ثانية يابوى. نعم يابوى إننى أكون هلفا إن لم أعش فى هذا النعيم على طول ما يعطينى الله من عمر مديد بإذنه تعالى.

أفقت على نفسى بعد غيبوبة طويلة فإذا أنا فى حلم لذيذ ياخال: وجدتنى عاريًا فى سرير الملك والدنيا بحالها ترقد عارية فى حضنى بكل جبالها وهضابها ووديانها السحيقة ورخامها المرمرى، تحيطنا ناموسية من الحرير البنبة، ذات أضلاع وباب كباب الخيمة ذى أربطة من الحرير المجدول يمكن ربطها من الداخل وجمع أطراف الناموسية تحت الحشية فكأننا فى هودج فى الجنة الموعودة..

لفحنى صوت أنصاف يهدر فى أذنى:

ـ «هل انبسطت ياخولى الجنينة ياحسن؟!».

قلت فيما أقضم خوخة طائبة:

ـ «ما أظن المرء يشبع من النعمة!!».

فلاذت بحضني، ربضت فيه تبخ صهداً شهيا كصهد مرق الضأن. مر بذهني خاطر سخيف يابوى، فهتفت فجأة كأنى أدوس بقدم خشنة صلبة ملوثة فوق البساط الحرير:

ـ «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق فلن أقدر على مكافأتكم على هذه السعادة!!».

مررت أصابعها حول أذنى، قالت:

ـ «لو كنت شهبندر التجار بحق وحقيق ما عبرناك ولا جئنا لحد عندك!! ولا جئنا لك بالطبل والزمر!!».

مخى لف يابوى. طار ذهنى فى الشتات مغادرا سرير الملك إلى متاهات بعيدة غير مفهومة. غرضه يابوى أن أفهم: لماذا إذن يحتفلون بى كل هذا الاحتفال الكبير إن لم يكونوا فى انتظار أن أوسع عليهم بنقودى الكثيرة بعد أن أدخل هليل فى روعهم أننى من أثرياء التجار؟! بكل ما أستطيعه من رقة قلت لأنصاف:

ـ «تفعلون هذا إذن من أجل سواد عيونى؟! أم عيون هليل؟!».

قالت وهى تغمرنى بقبلاتها:

ـ «طبعا ياحسن من أجل سواد عيونك! هل هناك أحسن منك عندنا؟!».

قلت باسما فى ضعف:

ـ «حتى لو اتضح لكم أننى رجل على باب الله؟!».

إنفجرت ضاحكة فى جزل وطرب :

ـ «كلنا على باب الله ياخــولى الجنينة لكن الناس مــقــامــات ومقاسات!!» .

قلت فى يأس بعد أن أعيتنى الحيل :

ـ «صارحينى بذمتك ياحلوة! ما سر احتفالكم بى هكذا كأنى الملك فاروق فى زمانه؟!» .

بحلقت فى وجهى صائحة :

ـ «يالك من رجل طيب! أنت متواضع والله يحب المتواضعين ومن أحبه الله تواضع فأحبه الناس!!» .

قلت وقد حبكت النكتة :

ـ «إياك أن تكونى من الإخــوان الهــاربين من ســجن ولد الفرطوس!!» .

ضحكت حتى دمعت عيناها :

ـ «رضاؤك من رضاء الزعيمة!! ألست الأخ الشقيق للزعيمة؟! كيف يكون الأخ الشقيق للزعيمة ضيفا على الجبل ولا يحتفل به الجبل؟! إن الجبل إذا لم يفعل معك الواجب يكون عيبا فى حق الزعيمة لا يحتمله الجبل ولا يرضاه!! خبر وجودك فى الجبل فى مصيف عم عرندس طار إلى كل مكان فى الجبل ووصل إلى الزعيمة بمجرد وصولك أنت وصاحبك!! عيون الجبل من حراس الزعيمة رصدوكما من فوق الهضاب العالية ومن بين عيدان القصب!! كان اصطيادكما

وشيكا لولا أن الذى كشف حقيقتكما هى الزعيمة نفسها!! كانت تمضى متنكرة تتفقد الأماكن التى تحبها والناس الذين تحن إليهم! تشم نسمة الدنيا ثم تعود إلى محرابها كما تسميه!! إنها كما تعلم من أهل الخطوة تذهب إلى أى مكان فى لمح البصر خبيرة بالإنسلال كالريح بين أعواد القصب والذرة والأشجار تجرى بجنبها كالحربة مائلة برأسها كى تشق الريح ولا تصطدم به فلا يكون لجريها صوت ولا لوقع قدميها على الأرض حفيف!! مرنة الجسد بسم الله ما شاء الله تتكور حتى تصير قطعة صغيرة تسلك من ماسورة ضيقة تفلت من فراغات الأبواب والشبابيك تتسلق قمم الجبل تسقط مدحرجة نفسها كلعب الأطفال تتجنب الصخور الناتئة بذراعيها وساقيها ببراعة وفن!! هذه الجنية الحبيبة اخترعت بين مسالك الجبل تخاريم لم تكن مطروقة من قبل لكن أحداً لا يستطيع السير فيها سواها وحدها وقد جربها غيرها فدقت أعناقهم وتمزقت جثثهم فأكلتها الغربان فقال الجميع إن الله حق ولم يجربوها ثانية فبقيت هى وحدها ملكة أهل الخطوة فى الجبل!! أقرب مشوار عند غيرها مدته ساعتان من الزمان وأكبر وأطول مشوار عندها مدته نصف ساعة مهما طال!! لهم حق يسمونها فراشة الجبل إذ هى لا تلف حول الهضاب والمرتفعات إنما تمر من فوقها كالفراشة! بهذه الموهبة وغيرها من مواهبها المتعددة حق لأختك أن تصبح زعيمة الجبل وأمه الرءوم واتضح أن الجبل طول عمره كان فى احتياج لها كأم بل كان فى انتظارها!! ياما سارعت هى بنقل الأخبار والتحذيرات قبل حلول الكوارث بوقت كاف!! وياما جاءت للناس بالدواء النادر من تحت طقاطيق الأرض فى زمن قصير!! وياما؛ طاردها الأشرار فزاغت منهم كما تزوغ السحلية فى جحرها بكل نعومة واطمئنان!! وياما وجدوها

فوق رءوسهم فجأة لإنقاذهم من شر يحيق بهم أو خطر يحدق بمراقدهم!! بقيت وفية للمرحوم خرابة تقيم ذكراه فى كل عام تقدم للحاضرين لحم الذبيحة تقول: إنه يوم عيدى أنا يوم أخذت بثأره فى الحال من قاتله المتجبر!! ومنذ داست قدمها أرض الجبل حتى اليوم وهى تعامل الجميع بكل عدل تنتصف للمظلوم تحسن للمحتاج تصلى الفرض بفرضه! أتخن مخ فى الجبل لابد أن يميل ويلين إذا هى حدثته لخمس دقائق فقط يخرج من عندها زاهداً فى كل شيء متنازلاً عن كل كبرياء معترفا لها بالأمومة والشفافية وبُعد النظر!! إنها تحكم الجبل على طريقة شيخ الطريقة وهى فعلا تقيم ليالى الذكر والحضرة فى أوقات كثيرة ولا أحد يدرى متى ولا كيف تعلمت الكلام الثمين لدرجة أنها حينما تحضر مولد أحد أعمامها كعبد الرحيم القنائى أو الشاذلى أو البدوى تتكلم مع المشايخ المتبحرين فكأنها قرأت جميع كتب الدنيا والآخرة!! موكبها يرحل قبلها بوقت ليجدها مع ذلك فى المكان الذى اختاروه لنصب خدمتهم!! ليكن فى معلومك أن الفرقة التى رقصتنى الليلة جزء من الفرقة التى تصاحب الزعيمة فى موالدها!! فُتّك فى الكلام ياخولى الجنينة إن الزعيمة حين رأتكما وعرفتكما من طريقة مشيتك طارت إلى سرايتها فى الجبل فأرسلت ثلاثة من العفاريت الأشقياء من خدمها الذين ورثتهم عن خرابة أمرتهم أن يتفقدوا آثاركما فى مصايف عم عرندس لينذروه بالمحاكمة إن تعرض لكما بسوء!! للزعيمة قضاة علماء تعشقتهم فى رحلاتها وتعشقوها فباعوا الدنيا وجاءوا يقيمون فى خلوة الجبل تحت ظلها لا يكفون عن ذكر الله وقراءة القرآن والأوراد لا يطلبون من أمور الدنيا شيئا سوى النجاح فى هداية وحوش الجبل وإن الزعيمة لتقدم لهم الطعام والشراب والكساء

والدواء تعتبر وجودهم بركة حلت بالجبل وهم فى الحق أتقياء أنقياء يحلون أمورًا كثيرة كانت تحتاج لحكومة شديدة القبضة يعرفون الله فى كل شىء إلا فى حكمهم على من جاء يقصد الجبل بسوء لكنهم والحق يقال عندهم بصيرة نيرة يميزون بها بين المظلوم والمخدوع والمدسوس والغلبان والأونطجى والخبيث والمكار واللئيم إنهم لا يحكمون بالإعدام إلا على من يستحقه بالفعل ياما كشفوا عن حقيقة ناس استحقوا العفو فعينوهم خدمًا وفلاحين وبنائين حتى عمروا رأس الجبل جعلوا منه جنة فيحاء!! من حسن حظى أننى أقوم بخدمتهم فى خلوتهم من غسل الثياب إلى الطبخ والكنس أتفرج عليهم وهم يتكلمون حتى تعلمت الكلام وعرفت مالم أعرفه فى المدرسة فأنا بنت ناس طيبين علمونى فى المدارس فى أسيوط وكنت سأدخل الجامعة لولا أن ضحك علىّ مدرس شرير أوقعنى فى غرامه فسلمته شرفى لكنه سافر إلى بلد بعيد واختفى فاختفيت أنا الأخرى وأتى بى أحدهم إلى الجبل وحتى الآن لم يعرف أهلى عن أخبارى أى شىء بل نسوا شكلى لدرجة أنى فى الأسواق ألتقى ببعضهم فلا يعرفنى!! هل كنت تتصور أن أحدًا يقيم الصلاة فى الجبل؟! الحرية مع ذلك متروكة للجميع فكل واحد يفعل ما يحلو له فكل شىء ـ كما يقول شيخ منهم ـ يمكن فرضه بالقوة إلا الإيمان والتقوى!! من يريد أن يغضب الله فذنبه على جنبه وحده!! بات الناس فى اطمئنان فالشر كله كان ينشأ بين أشرار الجبل خوفا من الخيانة والغدر! أكبر حاجة عملتها الزعيمة أنها كرّهت الجميع فى الخيانة والغدر فبات الكل فى روْقان بال! بات الكل يحرس الكل وكل واحد فى الجبل هو الجبل بحاله!! أى طريد جديد لا يكون فى أمان إلا إذا جاء وقابل الزعيمة واختبرته فإما جعلته من جلاسها وإما

أمرت له بالعلاج النفسى فى مسجد الجبل وحدائقه حتى تنكسر شوكته وإما حكمت عليه بالإعدام إن تيقنت من فساده التام! اعلى فكرة! منذ أن راق بال المطاريد كثرت فى الجبل الأفراح والليالى الملاح! من زواج لطهور لحضرة ذكر لحضور ضيف عزيز! المزيكة تصدح ليليا فى جميع أنحاء الجبل!! تجىء الركائب من خيول وحمير وجمال لتنقلنى وفرقتى كل ليلة إلى نجع فى الجبل أو سراية من سراياته التى يملكها أعيان الجبل من قدامى المطاريد الأغنياء الذين كبروا فى السن فتنازلوا عن الزعامة لمن قتلت رأس الحكومة فى عقر دارها!! مساء الخير يا أنس! أنت نورتنا!!».

هكذا أنهت أنصاف كلامها وهى تداعب ذقنى. أما أنا فكنت سبحت فى ملكوت الله يا خال؛ لم أعد أعرف من أنا صرت كفرخ الحمام يلف يحلق يدور من الجبل إلى البلدة إلى مصر محير كيف أحط فى أى مكان. أين تراه يكون عشى الأصلى يا خال؟ أيكون لى كل هذه المحسوبية وأبقى ولدًا متشردًا هجامًا فى مصر يسرق الكحل من العين؟!..

سمعنا طرقا خفيفا على الباب. رفعت رأسى، رأيت بديعة تدخل علينا فى ربع هدومها تشوح بيديها مستعجلة فى شبق:

ـ «ستخلصين على الرجل يا لبؤة! خل فى عينيك حصوة ملح واتركى شيئا منه لنا!! قومى ياعاهرة!!».

وسحبت أنصاف من حضنى فيما هى متشبثة به فقفزت بديعة إلى السرير من خلفى؛ طوقتنى بشدة وجعلت تشدنى. ثم دخلت فكيهة هى الأخرى متحررة من هدومها فأزاحت أنصاف بقوة واحتلت

مكانها. برهة صغيرة ودخل عم عرندس يهتف فى وسط القاعة:

ـ «حيلك أيتها العاهرة أنت وهى! تعالوا كلكم الآن فالعشاء جاهز! هيا يا ابن شهبندر التجار!!».

ضحكت من أعماقى يابوى. ذكرت له فرج أم شهبندر التجار الكبير؛ فأعاد ذكره خلفى مصحوبًا بألف زرطة. هجم علىَّ مادًا كفه فى ضحكة ماجنة؛ فصافحته واستندت على قبضته قافزا عن السرير الملوكى الذى ودعنى بأنَّة قصيرة وغاية فى الرقة والإثارة يابوى.

أربع فى الأرض

الطبلية الكبيرة توسطت القاعة . بجوارها طبلية أخرى . فوقهما صينيتان نحاسيتان كبيرتان؛ عليهما فضلة خيرك هضاب من اللحم المشوى والمسلوق والمحمر، وأكوام من الحمام المحشو بالفريك، وصدور الدجاج والديوك الرومى وأطباق الثريد والسلطات والمخللات . هجمنا على الأكل؛ الكل يفصص ويرمى أمامى، ومحسوبك يطوح فى فمه . فلما امتلأت وبقيت الصوانى حافلة بالخيرات جيء بالفاكهة والمهلبية . ثم رفعت الأطباق وجيء بالشاى الثقيل . طرأت على القعدة وجوه جديدة تولت خدمة الرص والتكريس والتوليع، وظهرت كلاكيع الحشيش من كل ناحية . غمزنى عم عرندس بكلكيعة كبيرة خضراء :

ـ «ما رأيك فى هذه الحشيشة؟!» .

عجنتها فى يدى فاسترحت للمسها فقلت : طيبة . فهمس :

ـ «زرع يدى وقطف يدى وصنع يدى!!» .

ـ «الله ينور عليك!» .

ـ « وأنت ماشى خذ ما تشاء من الكيف لك ! » .

ـ «تشكر ياعم ! » .

وزع على كل الجالسين . وكان الزمار قد راح يقسم على المزمار ، تسنده الطبلة والسلامية ، واستطال نفس الأرغول فى زفرات خشنة خشونة تحرث فى الأعصاب والمشاعر جداول من نغم عميق . سرعان ما قام النسوان الثلاث فتحزمن وغطسن في بحر الرقص يفعلن الأفاعيل . .

لاحظت أن صاحبى هليل معتكر المزاج بعض الشيء ؛ فانزعجت ياخال ؛ خفت أن يقل عقله فيطلب منا الانصراف ، أوتركبه غزالة الدروشه فينتبه إلى أن ما نفعله رجس من عمل الشيطان فينكد علينا ، فنويت لأخسرنه إن فعل . ملت على أذنه :

ـ «مالك يابو العم؟ ! طلبت لى السعادة والرضا فما بالك يركبك الهم؟ ! كلهن تحت أمرك لو أحببت ! ! » .

شوح فى فروغ بال :

ـ «وأنت تعرف أن ليس لى فى الحرام ! إنما أنا زعلان لأن ما أردته أنا لم يحدث كما أردت ! ! » .

خفت أن يشتت مخى :

ـ «وما الذى أردته أن يحدث يابو العم؟ ! » .

مال على أذنى باسما :

ـ «كان عشمى أن ترى الخوخة بالذات وتشبع منها إنها أحلى وأمتع منهن جميعا ! ! » .

ذكرني بموضوع الخوخة يابوى :

ـ «آه! نعم! ولكن يابو العم خوخة ماذا الآن بعد هذا التفاح والقشدة؟!» .

بدا كاليائس؛ شوح في ولولة :

ـ «فماذا لو رأيت الخوخة؟ تقع من طولك فى الحال!!» .

بحثت عن عم عرندس لأسأله عن السر فى عدم مجىء هذه الخوخة فلم أجده. تذكرت أننى لاحظت انصرافه ومجيئه عدة مرات. سلمت أذنى لهليل وعينى لبحر الرقص المتلاطم باللذة والشهوة الطافحة. كنت أحاول النفاذ إلى ما تحت ثياب كل راقصة. إلا أن موضوع الخوخة وغيابها شغلنى؛ فالبنى آدم منا طماع خصوصا فى هذه الشغلة. .

فجأة دخل عم عرندس يتحاشى الاصطدام بالراقصات المتلويات تحت قمصان من الحرير الأطلس الأحمر اللامع وشراشيب الشيلان الملتفة حول خصورهن تتطوح بين السيقان. كان عم عرندس متدلى الأذنين فى حرج وخجل كالمضروب على وجهه بالصرمة القديمة. توجست من منظره؛ حولت إليه كل اهتمامى؛ فلما جلس قرَّب وجهه منى ومن هليل قائلا فى أسف :

ـ «البنت الخوخة بنت الكلب أتعبتنى! تصور أننى بعثت بمن أتى بها غصبا عنها؟ لقد عذبتنى! كل مرة أخرج إليها أهددها بأن الضيف الذى عندى يقدر أن يحرقها! لم أقل لها من هو! وهى غشيمة لا تعرف من أخبار الجبل شيئا كثيرا! كل ما طلع عليها قولها إنها قد انخطبت

بالأمس لواحد يعيش فى مصر وإنها كفت عن اللبط وفاءً للكلمة التى أعطتها لخطيبها!! بنت الكلب تطلع لنا فى مطلوع جديد تتصور أننا سنصدقها! إننى أصدق أن الكثيرين يمكن أن يخطبوها حتى مع علمهم بسيرها البطال! أما أنها تمنع نفسها عن السير البطال لمجرد أن شابا ابن ناس خطبها بالأمس فهذا لا أصدقه لكنى تعبت معها وهى تهددنى بالصوات وقتل نفسها إن غضبت عليها!!».

ثم اكتست عيناه ثوبا من الحزن الشفيف الأليم. شعرت أنه يوشك أن يبكى لشدة ورطته بين أن يوضح لى موقفه من إرغامها على المجىء وبين أن يذيع سراً لاينبغى أن يذاع. وإذا به يقترب منى حتى يلاصقنى متربعًا: هامسا فى أذنى بصوت أليم يقطع نياط القلوب.

ـ «اللهم ابعد الشر عن بناتنا!! هذه البنت لها ظروف صعيبة!! مات أبوها ليفتدى نذلاً كان يحرسه! النذل نذل لم يرع للمرحوم حرمة لم يتق الله فى عرضه وأولاده ترك البنية نهبا لأولاده الصبيان يعبثون بها فلا يردعهم!! خرقها أصغر الأولاد مع أنه المتعلم الوحيد فيهم بكل أسف!! أجهضوها!! قصوا لسانها! كافأها المفترى الأب بأن تزوجها هو سترة على ابنه زواجا عرفيا!! المسكينة لاتعرف العرفى من الرسمى لكن الله انتقم لها بالعجل فالولد الذى خرقها بعد أن أصبح ضابطا فى الجيش قتله اليهود فى السويس نزلت على أبيه النقطة والعياذ بالله كسَّحته! شهر واحد ثم اتكل على الله وبقى ولداه الكبيران كل منهما يريد أن يرث البنت كجارية والبنت تصوت وتقول إنها زوجة أبيهم على سنة الله ورسوله لكن نسوان الدار تكفلن بطردها ليلا!! وكنت أمشى فى شوارع البلدة ليلتها حين شفتها تتلكع فى الظلام متنكرة فى

زى نفر أجرى من طائفة المعمار يحمل صرة خلقاته!! كشفتها من طراوة مشيتها ضيّقت عليها الخناق فبكت! حكت لى ما حكت! جئت بها إلى هنا فخبأتها بعض الوقت ثم صحبتها إلى الزعيمة فوق الجبل. حكيت لها حكايتها من طقطق لسلامو عليكم فبعثتنى بها الزعيمة إلى ناس طيبين لهم مهابة المال وعزوة الولاد فشغلوها عندهم خادمة للأطفال وزريبة المواشى!! بصراحة أنا المحقوق فى أمر هذه البنية أنا الذى ميلتها مرة لتبيت مع شيطان من مهربى المساخيط رآها عندى فطار عقله ودفع لى مائة جنيه ولها خمسين مع فرع من الكهرمان الأصلى الأثرى ولولا أننا خدرناها بالحشيش والأفيون ما رضيت أن تفك عظامها!! هذه البنت دون كل البنات أشعر أنى ظلمتها وأننى أنذل من الذى غدر بها فعذبه الله عاجلاً!! وأشعر الآن أننى لو ضغطت عليها فربما تموت وتجىء لنا بمصيبة!!».

ثم ضحك ضحكة هزيلة مكتومة كأنه يريد أن يقول بها: إنس هذه المأساة العارضة وعد إلى ساعة الحظ التى نحن فيها. وجدتنى أقول:

- «هذه بنت طيبة وجدعة فلا تضغط عليها! دعها فى حالها يابو العم! ساعدها على التوبة!».

استراح عم عرندس لهذا القول كأننى خلصته من ورطة، وشعرت والله ياخال أنه ميال لترك البنت فى حالها، فشعرت أننى قد أحبه ذات يوم. الدور والباقى على هليل الذى بدا كاسف البال كأنك دلقت فوقه برميلا من المياه الباردة، كأن خطته كلها فشلت، فشوحت له قائلا:

- «خلاص ياهليل كل شىء نصيب وأنا مبسوط كل الانبساط فماذا يقلقك يا أخى؟!».

صار هليل يردد كأنه يبتهل :

ـ «الحمد لله كل شيء نصيب ! !» .

ثم أضاف بعد هنيهة :

ـ « ومادامت الخوخة قد صدقت في وعدها وحفظت شرف خطيبها واحترمته في غيبته واحترمت كلامها معه فإنني متبرع لها بمائة جنيه تنفق في فرحها ! » .

قال عم عرندس متهللا :

ـ «كلك نظر ياهليل ! على كل حال سأجعلها تجيء لتجلس معنا فحسب ! هي ليس عندها مانع من الجلوس معنا لزوم الفرفشة أما أمور الدب والضرب في المليان فلا ! والحمد لله أن أمامنا سكك مفتوحة على البهلى ! ! » .

وأشار إلى الراقصات . ولم يتم كلامه ، إذ أن فكيهة فعلت مثل أنصاف وزحفت نحوى على أربع ثم اختطفتنى من مكانى بنفس القوة والسرعة والرشاقة . فإذا بي بعد برهة ملقى على السرير الملوكى في الغرفة المقابلة ، وفكيهة تعرينى من خلقاتى وتشخلعنى على نغمات المزيكة وأنا ضارب في سقف النشوة . ما كدت انتهى حتى قفزت علينا بديعة لكننى صرت خرقة بالية . صارت تداعبنى حتى دبت فيّ الروح من جديد فقمت كالمفجوع كالمجنون . مزقتها يا خال ، أسلت الدماء من وجهها عضا وخربشة وكل ذلك من الملل أو من الشبع لست أدرى . .

نزلت عن السرير أجرجر ركبى . فما أن دخلت القاعة الأخرى متجها إلى قعدتى السابقة حتى رأيتها يابوى فتسمرت في مكانى .

تخيلت أن شللا أصابنى يابوى، فانهمرت الدموع من عينى. أما عين هليل فقد جعلت ترقبنى بنظرة حادة جدا وغامضة بما لا أعرف إن كانت شماتة أم إشفاقا يابوى. ثم إننى دققت النظر فيها لأتأكد أن الأمر حقيقة وليس من التهيؤات. إلا أن الحقيقة كانت صادمة، فالتى أمامى هى بعينها «حنة»، حبيبة قلبى حنة، التى خطبتها من نفسها بالأمس. وأخذت الأرض تميد بى ياخال.

باطه

أدركت الآن فحسب ما الذى قصده هليل بارتكاب هذه المغامرة الفريدة: كان يريد أن يثبت لى - عمليا - أن حنة ليست جديرة بأن أتزوجها إذ هى تمشى فى الطريق البطال، وكان من الممكن ألا أصدقه لو قال لى ذلك وكنت على وشك أن أركب رأسى وأجلب لهم العار مدى الحياة بهذه الزيجة. فإذا به من حيث لا يقصد يثبت لى ولنفسه أنها بنت تستأهل السلامة وأنها كفيلة بأن تصون شرف زوجها وتحمى عرضها. المشكلة الآن ليست فيها بل فى هذه المفاجآت التى دهمتنى بخصوص الزعيمة: سعدية ولد أبى ضب تصبح زعيمة فى الجبل، وعرافة يطلبها عليه القوم من مجلس قيادة الثورة؛ فيما أنا سواح كحيان فى بلاد الله؟! فهل يا ترى ستوافق الزعيمة على أن أمرغ سمعتها فى التراب؟!..

أفقت على هليل يسندنى من ناحية وعم عرندس من الناحية الأخرى خشية وقوعى وأنا أحاول الجلوس. كانت نظرة حنة قد تسمرت على وجهى فى اندهاش وفزع، لا تنى تردد مأخوذة: «هو أنت؟! هو أنت؟! هو أنت؟!». وأنا الآخر أردد نفس العبارة. وإذا بها

تنخرط فى البكاء، فما كان منى إلا أن انهمرت دموعى غزيرة كالسيل فيما أردد :

ـ «سامحينى ياحنة! سامحينى ياحنة! أنا مازلت عند وعدى!!».

فلم ترد، إنما تسللت خارجة وهى تنتفض من البكاء. جزعت ياخال، فطمأننى عم عرندس :

ـ «إطمئن فهى تحت يدى فى أى وقت تشاء المهم أن الزعيمة بعثت الآن تريد أن تراك!! الركائب جاهزة بعد أن تستحم وتستريح لك ساعتين! لقد صرفت المرسال على أننا قادمون على وجه الصباح فكن مستعداً وسيكون هليل معنا!!».

لم أعط منطقا يا خال. مسحت دموعى وتبسمت درءاً للكدر المفاجىء، فتبسموا جميعا وقالوا فى نفس واحد :

ـ «كل شىء قسمة ونصيب!!».

فما وجدت قدرة على النظر فى وجه أحد. وأهم شىء شغلنى آنئذ هو أن أقوم لأرتمى فوق السرير فأستغرق فى نوم عميق لا أفيق منه مطلقا. لكننى ما كدت أشرع فى النهوض حتى دهمنا صوت صراخ ملتاع؛ وأضاءت الردهة بنور ساطع صار يقترب؛ وإذا بشجرة من اللهب المخضوضر فى توهج تعبر باب القاعة فى اندفاع مذهل صارخ، وصوت باب الشارع ينفتح. قمنا فزعين، عبرنا الردهة إلى الشارع. كانت رائحة احتراق اللحم البشرى زاعقة خانقة. فى الشارع كانت شجرة اللهب تواصل الجرى بعشرات الألسنة المدببة وصرخاتها تمزق جوف الظلام تنداح فى أعالى الجبل؛ ونحن جميعا نجرى وراءها

بأقصى ما فينا من سرعة؛ والألسنة اللهيبة الممتدة تسود شيئا فشيئا تحت عباءة من الدخان الأسود رأيناها على البعد ترتمى فوق الأرض هامدة فتباطأت خطواتنا فى يأس مرير ثم توقفنا ذاهلين عاجزين. كان هليل قبالتى منكس الرأس صدره يعلو ويهبط، فما دريت إلا وذراعى ترتفع ثم تهوى على صدغه بضربة تقطر حقداً وسخطا، ثم ارتميت على الأرض فانقطعت صلتى بكل شىء.

لعب

الشمس كانت متبرجة على أتم زينتها يابوى فى ملاقاة صبحها الفتى. قد صبغت وجهها وخدودها باللون الوردى. كانت تخادعنا حتى لا نراها وهى تنفرد به تتعشقه إذ هى تزحف نحو جبهة الضوء شيئا فشيئا فتحتويها خلف السحاب، ثم تسقط به خلف هامات الجبل، تقبِّل الضوء ويقبلها، تشحنه بالضحى اللاهب، فيشحنها بذكريات الأَمس البعيد. وحين انتهت نعالنا من اللف حول الكثير من الهامات العالية، وصعود القليل من الهضاب القزمية كان الصبح قد شب عن الطوق، فالتقيناه صبيا فتيا على مشارف أعلى هضبة فى الجبل. هضبة مخيفة وساحرة يا خال تحلف اليمين أنك لو كنت جنيًا أمك من المريخ وأبوك من الشلال ما استطعت الوصول إليها وحدك بغير دليل تربى هنا منذ الطفولة فأصبح يعرف الفرق بين الشىء وشبيهه، والاسم وسميه. ذلك ياخال أن هذه الهضبة قد مررنا فى الطريق بعشرات منها؛ وإنك أثناء سيرك بجوارها لا تعرف إن كنت تتقدم أم تتأخر؛ لا تعرف إن كنت تمشى بجوار نفس الهضبة أم هضبة أخرى. والشمس أحيانا فى وجهك وبعد دقائق فوقك أو خلف ظهرك أو على يمينك أو شمالك

وأحيانا لا وجود لها فى السماء المرئية لك بين شقين مرتفعين يفصلهما طريق. إنك يا خال تمشى فى مواجهة الشمس ساعة أو أكثر وفجأة ترى الشمس قد صارت وراء ظهرك قبل الأوان. حقيقة الأمر يا خال أنك حودت أثناء السير دون أن تدرى عائدا إلى الخلف، والتحويد يتم ببطء على امتداد طويل؛ حتى لتظل تظن أنك تمشى فى خط مستقيم. ونفس الهضبة ربما كانت على يمينك فإذا هى فجأة قد صارت على يسارك. ولو أن طائرًا أراد أن يقطع مشوارنا ذاك الذى نقطعه فى أكثر من ساعتين فقد لا يستغرق بضع دقائق..

ركض الركائب يدوخ الراكب؛ وللطريق دواره كما للبحر أيضا يا خال. هضاب ثم هضاب ثم هضاب، تمشى فوقها يا خال وأنت متخيل أنك تمشى بجوارها؛ تصعدها وأنت متخيل أنك جاوزتها فتركتها خلفك، إذ أنك كلما اعتليت قمة طالعتك من فوقها قمة أخرى لهضبة كالتى تطالعك وأنت ماش فى سفح الجبل على السواء، أما المشى فوق الهضبة فإنك لن تشعر به. هذه الهضاب لابد أن تكون مسكونة من الأزل يا خال؛ فلا يقوى على ضرب هذه الصخور واختراقها سوى الفراعين الأقوياء يا خال، يشقون الحجر بالحجر والسماء بسماء مثلها؛ ولد فتوات يا بوى..

راوغتنا الشمس كثيرا، وتسلطت على أقفيتنا حتى شوتها. كنا كأننا نجترئ على سلمها الحلزونى فنلف حولها نبتعد عنها مرة ونقترب منها مرات. وكانت كأنها تتوارى لتأخذنا من الخلف على حين غره..

ضؤل خيالنا تماما صار بطشة ظلال تحت أقدامنا. خطو البغال قد ثقل إلى أقصى حد، رقابها صارت قرب صدورنا من فرط الصعود.

نزل عم عرندس عن بغلته وجعل يسحبها ماشيا أمامها على رجليه ناظرا إليَّ أنا وهليل فترجلنا وفعلنا مثله . .

بعد خطوات طويلة اخضر لون الشمس فقلنا إنه اخضرار اللهب فى أوج اشتعاله ؛ فمن عجب يا خال أن الأخضر الرطيب كامن فى الأحمر الملتهب الأوار ، . الله وكيل يا خال ، سبحانه جلت قدرته : أن تكون النار هى نفسها الماء الذى يطفئ لهيبها كما سمعت عمى الشيخ ذات يوم وهو يشرح لجلاسه بردة البوصيرى : الماء فى النار ، والزرع فى الماء ، والشيطان فى الإنسان ؛ حقا ما عفريت إلا بنى آدم صدقنى يا بوى . كل شىء فى كل شىء ولا يفهم معنى الأفكار والخلق وحكمة الله إلا من عاش فى مثل هذا الجبل . شيئان فقط لا يجتمعان فى هذه الدنيا فى كيان واحد : الله والشيطان ؛ فسبحانك اللهم جلت قدرتك ؛ اللهم اغفر لى ما ارتكبته الليلة المنصرمة من ذنوب . .

المسافة بين اللون الأخضر وقرص الشمس أخذت تتسع ؛ وأخذ قرص الشمس يرفع صدره عن الخط الرمادى الغامق يبتعد ثم يبتعد ـ الخط الرمادى المقوس المنبعج بدأ ينفصل بدوره عن اللون الأخضر يلتحق بموكب الشمس فى السماء . ثم بدأ خط من الخضرة الرمادية الكثيفة يمتد أمامنا طالعًا علينا من بئر الأفق . سرعان ما أخذ يتدملج يغلظ يفقد تناسقه . فإذا بنا أمام سور مزروع حول أسلاك شائكة يمتد فى جميع الجهات امتدادات لا نهاية لها ؛ بداخله غابات شديدة الكثافة يا خال . جزورين وكافور وصفصاف وتوت وجميز وفواكه من كل الألوان ؛ جميع أنواع الروائح من زهور وورود وثمرات تسطع فى الأفق ؛ الكون كله زكى الرائحة يا خال . ولكن ، من ياترى ذلك القلب العظيم الذى يسكن هذه الجنة؟ ! . .

توقفنا برهة نلتقط أنفاسنا التى تركناها فى سفوح الطريق فصرنا نتساند على البغال وننظر فى السفوح خلفنا فنحس كأن أنفاسنا تشدنا قبل أن نشدها. العجيب أننا لم نر من تحتنا أرضًا يمكن أن نتهاوى فوقها إذا وقعنا؛ لم يكن أمامنا سوى صخور ناتئة كحراشيف الجبل تزداد رقاعها استاعا كلما تسافلت. .

مشينا بحذاء السور المزروع الذى كان على يدنا اليسرى ولم يكن يظهر لنا أننا فوق هضبة؛ إنما نحن ـ رغم كل هذا العلو الذى صعدناه ـ لا نزال فى سفح من السفوح؛ فها هى ذى هضاب كثيرة تبدو قممها الهائلة من جميع النواحى على امتداد مسافات هائلة؛ وكان الطريق يتسع على يميننا شيئا فشيئا إلى أن انقرض من جانبنا تماما وحلت محله أرض رملية عريضة مترامية الأطراف تحوطها الهضاب من ثلاث جهات. وبدا كما لو أن قرص الشمس قد حصرنا فى ركن ظليل من هذه الجنة فعزلنا عن كل ما يربطنا فى الأسافل. وهنا نطق هليل بعد صمت طويل:

ـ «لو كنت أعلم بوجود هذه الجنة لصرت من كبار المطاريد!!».

وقال عم عرندس:

ـ «ليس كل مطرود فى الجنة ياهليل!!».

وقال ولد من الأتباع لا اسم له:

ـ «رحم الله خرابة! هو الذى استوطن هذه المدينة وعَمَّرها وكانت فى الأصل يحتلها جماعة من العربان الهلالية ذوو الأظافر الطويلة واللحى الخشنة!! كانوا من أقدم عتاة المطاريد والتائهين ومجانين

الجبل!! لم يتركوا مكانا فى الجبل إلا وذهبوا إليه عربدوا فيه!! وأصل الحكاية أنهم كانوا يصاحبون القبط يضحكون عليهم بغرض الحماية فعرفهم القبط على مخارز الجبل فلما جاءوا إلى هذه السقيفة وجدوا أشجاراً مزروعة من قديم الأزل ومن تحتها دير صغير محندق يعيش فيه بعض الرهبان والعجائز يقيمون الصلوات!!».

وافق عم عرندس على كلام الولد وقال إن هذا الدير موجود وسوف نراه لكنه تحول إلى مسجد صغير على القد بمثابة خلوة تقضى فيها الزعيمة معظم لياليها مع قضاتها ومشايخها الزاهدين. فقال الولد الذى من الأتباع:

ـ «العربان الجبابرة هدموا سقفه ولم يقدروا على هدم الجدران!! ناس شغلتهم الهدم أما نحن المصريون أبا عن جد فشغلتنا البناء هكذا قال لهم خرابة!! ولما سكن هنا كان العربان يخزنون فى الدير سرقاتهم وهم الذين قتلوا الرهبان الثلاثة واحدا بعد الآخر بحثا عن كنز ظنوا أن الرهبان يحرسونه لكنهم لم يجدوا شيئا!! وفى ليلة نام فيه خرابة فجاءه فى المنام هاتف على هيئة تمثال رمسيس قال له: قم ونظف هذا المكان فإنه أآمن مكان فى البلاد كلها لأن زوجة إله الخير جاءت بجثته التى جمعتها من كل مكان وزعها فيه أخوه إله الشر فدفنتها هنا وبقيت بجوارها تبكى وتصلى حتى فاضت من دموعها مياه صنعت نهر النيل وفطت كل الهضاب وجرفت المرأة الوفية الطيبة وحملت جثتها الغريقة إلى الإسكندرية فعم الخير فى الوجه البحرى كله لأن الجثة ذابت فى المياه فجعلت لونها أحمر كالفخار! فقام خرابة من وقته فنظف المكان وجعل منه قعدته ومسكنه فجاءه الهاتف مرة ثانية فى ليلة جمعة وقال

له: قم واحفر الأرض ألم تر الأشجار من حولك ياخرابة؟ قال: بلى! قال: ألم تعرف أنه حيث وجدت الأشجار توجد المياه؟ قال: بلى! قال: قم واحفر الأرض من تحت رجليك تجد المدد فاسق هذه الأشجار واعلم أن كل شجرة من هذه مدفون تحتها رجل ذكر الله وسبَّح بحمده!! عنها وقام خرابة فجاء بالرجال فظلوا يفحتون في الرمل أسابيع وأشهر والعربان يرمونه بكل جنون!! خرابة طول عمره عفريت عرف من سهولة الرمل تحت قدميه أن الأرض الصلبة لاتزال بعيدة جدا فصمم على أن يلامسها حتى وجدوا تحت ثلاثة أمتار من الرمل أرضا مربعة من الرخام مجوفة من أطرافها الأربعة تجويفات تتسع لقبضة يد كبيرة لتقبض على يد موصولة متينة!! سرعان ما وسعوا حول هذه الرخامة العريضة وكان الرمل أشبه بعجينة الفخار والمياه تنز حول الرخامة!!».

قاطعه عم عرندس مكملا بلذة:

ـ «جبار طول عمرك ياخرابة! ما فعله لا يجرؤ على فعله أحد! جاء بسيبة من الحديد بثلاثة قوائم كسيبة الجزار بالضبط! كميزان القبانى! فى أعلاها بكرة من الحديد مجوفة وممتلئة بتكويرات حبل تخين مجدول من أربع أطراف من ليف النخيل! ربط كل طرف فى قبضة تجويف من تجويفات الرخامة ربطا محكما! وأمسك بطرف الحبل حوالى خمسين رجلا عفيا صاروا يشدّون! ورجال آخرون بأسلحة الكريكات يفززون الرخامة فى مرقدها يفصلون شفتها عن شفة الأرض! هيلا هوب! هيلا هوب! الهمة يارجال! ما كادت شفة الرخامة تنفصل عن شفة الأرض من إحدى الجهات حتى أسرع فريق من الرجال بوضع شجرة كافور

مقطوعة! صاروا يرفعون طرف الشجرة حتى انتصبت الرخامة واقفة على سيفها فقلبوها على ظهرها! أنا على فكرة شاركت فى رفع هذه الرخامة شاهدت البئر من تحتها كنت أول من ذاق طعم مياهه فاستحليته كمياه النيل بل أشد حلاوة! كان مبنيا بالحجارة وقام خرابة ببناء قبة فوقه لها أبواب وشبابيك فى كل شباك دلو مربوط بحبل متين! وابتنى قناة موصولة ممدودة فى أعماق المنطقة حتى آخرها كما ابتنى لنفسه السراية المجاورة لجدران الدير وجاءت الزعيمة فبنت للجدران قبة فامتلأت المنطقة بالأنس والخضرة!!».

البغال تمهلت وحدها يابوى. بدأت نقط بيضاء تلمع فى بحر الخضرة الواسع، برزت فى بيضتين كبيرتين متجاورتين بين الأشجار فاستطعت أن أميز فيهما قبة البئر السبيل وقبة المسجد الخلوة؛ ومن خلفهما سراية مشرقة مثل سرايات الباشوات. ثم إن الوجوه السمراء الملوحة بدأت تكثر حوالينا داخل جلابيب من البيسة الزرقاء يتفحصوننا بابتسامات بلهاء ويهزرون مع عم عرندس بكلام قبيح جارح وهو يلعب لهم حواجبه سخرية منهم وهزءاً بهم. فما أن وصلنا إلى باب حديدى متين أعلى من قامة الرجل الفلق حتى جوبهنا بعاصفة عنيفة من نباح الكلاب لا ندرى هل ترحب بنا أم تنذر فافتراسنا. انبرى أكثر من هلف يسكت الكلاب فلا تسكت؛ صوت تمردها على الجنازير يصلصل بشدة يصنع ضجيجا مخيفا مثيرا للأعصاب..

الباب الحديدى مغلق لكن كله عيون مفتوحة، كل عين تطل منها فوهة بندقية أو فوهة عين حارسة. لم نكن نقترب من الباب إنما كان هو الذى يستدير ببستانه ليواجهنا. شرفة السراية تبدو كأن السراية التفت

بها وجاءت تواجهنا بباب مشغول بالنحاس. فإذا بهذا الباب ينفتح بدرفتيه فيطل من داخله بستان ضخم زاهى الألوان ياخال، تكاد ألوانه الزاعقة الكثيرة تصيح فى طرب بهيج. برهة وجيزة ثم ظهرت الملكة نفرتيتى بحجمها المحندق ومشيتها الملوكية. ما أن لفظها الباب حتى انغلق من تلقاء نفسه. حاجة تهوس يا بوى. أما الملكة فإنها تهادت نحو سور الشرفة المسقوفة، فى خفر وجلال تلف رأسها بطرحة بيضاء كالفل بدت كالتاج المزين بخصلات من شعرها المتكرر فى دوائر مرفقة ببعضها بالطرحة بدبابيس على هيئة ورود وزهور وأوسمة وجعارين من ثمين المقتنيات التى استورثها خرابة من بطن الجبل عن أجداده الفراعين: عقود من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة مشرقة على صدرها العريض الناهد رغم ضآلة حجمها؛ أساور من الذهب مطعمة بالدر والياقوت ترصع معصميها وهى عاقدة ذراعيها فوق صدرها كوقفة العذراء بنفس الوداعة..

بدت لى الملكة يا خال على غاية من الوثوق والإطمئنان تملك فى يديها أسرار النيل وخط سير الكواكب وفى خزائنها دفاتر تحوى خرائط محطات الشمس دقيقة بدقيقة وخريطة المياه بقعة ببقعة وجدول الحياة المقبلة لحظة بلحظة؛ أمال يا بوى. حاجة تهوس والله يا بوى. أهذه الملكة بجلالة قدرها، المطلة من شرفة من داخل شرفة من قصرها هى أختى سعدية أرملة خرابة؟! حتى لو حظيت بلقب فراشة الجبل أو زعيمة الجبل من أين جاءت بمثل هذه البذلة الوقور التى ترتديها من قطعية واحدة ملفوفة حول الجسد بحرفنة فائقة لا تعريه ولا تخفى معالمه الأساسية البارزة بكل وضوح؛ قماشة داكنة اللون تستقبل ألوان الطيف بلمعة مزدهية كالمرآة يظهر من ورائها الجسد مضاعف القسمات

مضاعف الجمال طاغى السحر ياخال، يا خلق الله، لابد أن تكون هذه البذلة أيضا من مستورثات خرابة من طول عسّه فى الأرض فكل الأرض الصعيدية مقابر كالضمير الغفل تحوى الكنوز . .

قد جاءك أيتها الملكة من بات مفتونا بكل هذا الذى يخرج من بطن أرض الصعيد يحكى ما يشيب له الولدان من حكايا. بمثلها بات الحاج أحمد نوار الدين السنى حاكما على البر كله تأتمر الحكومة بأمره وهى تدرك أنه محض نصاب ضلالى لا ذمة له ولا دين. نهارك فل أبيض يافراشة الجبل يازعيمته. لسوف تكونين السبب فى نجاحى؛ لا أنوى نجاحا يجعلنى مثل الحاج أحمد نوار الدين السنى بل أرغب فى أن أحكم الحاج السنى بذات نفسه فيصبح من بين خدمى . .

تحلف اليمين يابوى أن الله ركب لى جناحين فى الخفاء طرت بهما فكلما اقتربت من الباب الحديدى ازدادت هى التصاقا بسور الشرفة تكاد ترمى نفسها نحوى لولا ما يفصلنا من سور وزرع وقنوات وأسلاك. كانت البسمة على شفتيها تهتف : حسن! حسن! إن هى إلا برهة حتى انفكت الجنازير عن الباب الحديد فانفتح مزيقا، فظهر عديد من الرجال يحوطون الكلاب يعلقون البنادق فى أكتافهم. تركنا البغال لمن تولاها؛ اندفعت أجرى فوق ممر من الزلط الملون صاعداً سلما مواجها. ارتمينا، الملكة وأنا، فوق بعضنا؛ فوقعنا سويا على الأرض ننهمر فى بكاء حار عميق تتخلله ضحكات نزقة يتبختر صوتها فى طيات صوت الذهب واليواقيت.

أكـل

باشوات من يابوى؟ ملوك من؟ هذه هى القصـور وإلا فلا . البهو طويل واسع . على الجانبين أبواب كثيرة مشغولة بالنحاس الأصفر اللامع على هيئة عقود كبرواز صفحة المصحف الشريف لكنه ملىء بالنقوش الفرعونية التى تحكى قصصا يمكن تتبعها منظرا منظرا . المقابض من عاج وفضة . الأرض مفروشة بسجاد ثمين ملون . السقف مشغول بالزخرفة الملونة كأبسطة منقوشة لتوها . تُرى يابوى من الذى قام بشغل هذا السقف وهذه الأبواب وهذه الثريات المتدلية كأفرع زهور وعراجين البلح كلها من البلور فى وسطها مصابيح بلوّرية كبيرة تضاء بالشموع . هذه الكراسى والمقاعد والمناضد ذات الأرجل المشغولة المرسومة على هيئة وجوه آدمية وأشكال حيوانات وزواحف وطيور جارحة ؛ إن رجل الكرسى وحدها تساوى ألوف الجنيهات من كثرة ما فيها من شغل وتطعيم . فوق المناضد الكثيرة المختلفة الأحجام والأشكال أعداد لا حصر لها من تماثيل ومساخيط من جميع المعادن والأحجار الأصلية . هذا البهو وحده متحف يابوى ؛ وإن ما سرقته أنا من مقبرة الحاج أحمد نوار الدين السنى لا يجىء شيئا بالنسبة لركن واحد من هذه الأركان المتخمة .

الملكلة جعلت ترقبنى يابوى، تكتم ضحكها من كثرة توقفى عند كل خطوة للنظر المنبهر فى هذه الأشياء. قلت لها:

ـ «من أين جاءتك كل هذه الثروات يا أخت السعد؟!».

انفجرت ضاحكة:

ـ «لا ثروات ولا دياولو!! إنها هنا أكثر من رمال الصحراء يلعب بها الأولاد ويتقاذفون بها عند العراك ويبيعونها بكلمة: شاطر ياولد!! لو لم تكن الحكومة تضبطها وتحاكم حائزها لأعطيتك منها أجولة!! على كل حال إنها تنفعنى أشترى بها أتخن شارب فى الحكومة من صغيرها لكبيرها!!».

قلبى راح يرقص يا خال؛ لكن الانقباض حل بصدرى بمجرد ذكرها كلمة الحكومة؛ فإن هذه الكلمة اللعينة تصيبنى بحكة الهرش فى دماغى وأجنابى. قالت الملكة باسمة:

ـ «ماذا دهاك يا أبا على؟!».

اغتصبت بسمة مرة الطعم:

ـ «لكن من الذى وضع لكم كل هذه الرسوم والزخارف فى هذا السقف؟! هل جئتم بناس من مصر؟!».

ضحكت الملكة فى صفاء كأنها لم تضحك منذ عمر طويل قالت وهى تغمزنى فى كتفى:

ـ «المرحوم هو الذى فعل كل ذلك ألف رحمة ونور تنزل عليه!! كان جباراً قويا ورجلا! كان خسارة فى الموت ولو لم آخذ بثأره لحظة

قتله لبقيت طول عمرى فى مستشفى المجانين!! الحكومة لا تستنذل إلا فى اللحظة التى يجب أن تكون فيها محترمة وإنسانة! لحظة وقوع الأصيل بين يديها! إنها تخاف ولا تختشى!!

آه يا حسن لو تعرف الدمامل الوارمة فى قلبى من الحكومة! لقد ضربت رأسها فى الحائط حتى تتمكن من القبض على الفارس الذى قتل ذلك الحكمدار ولم تعرف حتى الآن أننى ذلك الفارس!! نجانى الله لحسن معاملتى لجميع سكان الجبل ولأن الحكومة لا يمكن أن تجد لنفسها مرشدًا من أهل الجبل!! وسأبقى ساكنة فى هذه الحكومة!!».

ـ «الزمن لا أمان له!».

ـ «سعدية التى تبحث عنها الحكومة لتحقق معها باعتبارها زوجة ثانية لخرابة قد تفيدهم فى شىء ماتت يا حسن وطلعت لها شهادة وفاة وتم دفن جثمانها فى مقبرة العائلة ألم تعلم بهذا يا حسن؟!».

ـ «لا والله فكيف حدث؟!».

ـ «ما أكثر من يمتن فى الجبل من نساء ليس لهن فى الأصل شهادة ميلاد!! تخيرت واحدة منهن أعطيتها اسمى وصفاتى!! ماتت فى هجمة للحكومة على سفح الجبل!! الحكومة وجدت من مصلحتها أن تقتنع فاقتنعت!!».

ـ «يالك من جبارة!».

ـ «لست جبارة! إنما أعرف كيف أشغل مخى عند اللزوم!!».

ارتفعت حواجبى من الدهشة؛ تحلف اليمين يابوى أن شعر

حواجبى رقص. تيقنت لحظتئذ أننى أمام واحدة أخرى لم يسبق لى معرفتها من قبل. نعم يابوى هذه ليست أختى سعدية بل هى شخص آخر لم نكن نفهمه، ولا هى نفسها كانت تعرف نفسها من قبل يا خال.

رأيتنى أقف أمامها كالتلميذ المؤدب. أخذت أشوح بيدى متلعثما:

ـ «ولكن! كيف يا أخت السعد؟ كيف يعنى تعيشين وحدك فى هذا المنفى؟ وكيف تتصلين بالحياة؟!».

وه يا خال من هذا البريق الذى لمع فى عينيها والذى كدت أجرى من أمامه هاربا لولا أنها كانت ممسكة بكتفى بقبضتها القوية، وتضغط قائلة:

ـ «تجيئنى كل الجرائد هنا!! والراديو والتليفزيون يشتغلان بالبطارية السائلة كما أننا نولد الكهرباء هنا!! قرأت وسمعت ورأيت مقتل جميع أعدائى بأسمائهم وصورهم!! الواحد منهم كان يجد نفسه فجأة تحت عجلات لورى أو مضروبا برصاصتين وسط فرح من أفراح أسرته أو مستدرجا للقبض على عصابة أو صفقة حشيش وهمية فما أكثر الطرق التى يمكن أن تتخلص بها من أعدائك يا حسن بأرخص التكاليف! لكننى بعد الانتقام ممن حكموا علىّ بالترمل فى عز الصبا وعلى أولاد زوجى باليتم فى عز الصغر قنعت بذلك ونذرت عمرى لعبادة الله وعمل الخير!! ألم تعلم بأننى طلعت الحجاز؟ نعم طلعت باسمى الذى يعرفنى به الجميع؛ الشيخة سعادة! هناك قرأت الفنجان للأمراء والمشايخ صدفة أول الأمر ثم ذاعت شهرتى لأننى كنت أجيد قراءة شخصيات الناس وأنسبها للفنجان!! وفى الدير القديم هنا وجدت كتبا كثيرة فى السحر وحساب النجوم وتفسير الأحلام احتفظ بها خرابة فى

صحارة كبيرة!! صارت سلوتى ليل نهار بمعاونة بعض المشايخ والفقهاء الذين جئت بهم يعيشون معى هنا فأصبحت بفضلها وبفضلهم شخصا آخر!!».

القشعريرة ركبتنى ياخال؛ لم أعد قادرًا على التحرك من مكانى؛ لم أعد أعرف إن كنت مسحورا بأختى الملكة، أم بسحر هذا القصر المسحور. شعرت بأصابع الملكة وهى تداعب ذقنى التى تعلقت بالسقف:

ـ «هذا القصر كله كان مدفونا تحت الرمال ويقول أحد أصدقائى الفقهاء إنه كان فى الأصل مقبرة أحد الملوك القدامى! أما هذا البستان فكان صغيرا ووسعه خرابة وأحاطه بهذا السور!! من حسن الحظ أنه ليلة دخلتى أطلعنى على سر هذه الكراسى بأنها من الذهب!!».

على سبيل المزاح قلت لها:

ـ «أما فكرت فى الزواج يا أخت؟!».

رقرقت الدموع فى عينيها:

ـ «لم أجد من يملأ مكان خرابة فى قلبى!! فطمت روحى! لم أعد أشعر برغبة فى حضن الرجال بعد ما زهدت فى كل المباهج!! كلما هاجت عواطفى نحو رجل ظهر خرابة ووقف بيننا! إنى لن أخونه أبدًا لأنه سيظل يعيش معى طول عمرى! ولكن فضك من هذا وتعالى نتغدى! أين هليل؟!».

تذكرته فتلفت مذعورًا؛ مضيت خارجًا أبحث عنه وهى من ورائى. استندت على سور الشرفة وسط مظاهرة الكلاب وناديت: يا

هليل . وكان هو قد سرح مع عم عرندس يتفرج على أشجار البستان وزهوره ليتركنى مع أختى نفضفض بالأسرار على راحتنا . ها هو ذا آت يرفل فى خلقاته التى علاها الغبار فصار ينفضه عنها بضرب نفسه على كتفيه وصدره . استقبلته الملكة بحرارة شديدة وخجل أشد . مضت بنا فى الشرفة الجانبية فإذا هى ممتدة بحذاء القصر تلف حوله ساير داير ، والأشجار المتنوعة ترمى بأفرعها وأوراقها وظلالها على طول الشرفة صانعة تندة إضافية يتمنى المرء البقاء تحتها مدى الحياة متفرجا على جميع أنواع الحيوانات الأليفة والطيور وهى ترتع فوق العشب والحشائش وفى البحيرات والقنوات المصنوعة فى الأرض بهندسة وحرفنة . دخلنا إلى البهو من باب جانبى فى الخلف ، عبر ممر مفروش بالسجاد فى أركانه مناضد عليها تحف ومساخيط . من البهو عبرنا إلى قاعة كبيرة فيها ترابيزة مائدة برخامة بيضاوية الشكل وأرجل مخروطية مشغولة بالنحاس والفضة وقعداتها من الخيزران الشبيكة . هناك بوريه ضخم بعرض الحائط فوقه رخامة ومرآة ضاعفت من عددنا أظهرتنا كمدعوين فى حفل كبير تقيمه الملكة . سحبت الكرسى لأجلس عليه متوقعا ثقله فإذا هو فى خفة الهواء . ثم إن العبيد أخذوا يتوافدون علينا بالأطباق التى لم أر لها مثيلا فى الأسواق . بعد ذلك جىء بالشاى الأخضر - عشنا وشفنا - ثم خراطيش كاملة من علب السجائر المكن من أشهر الأصناف . لا ، لا ياخال ، لست أصدق أننى فى الجبل ؛ فكما أن أختى سعدية حلت محلها هذه الملكة فإن الجبل هو الآخر صار قصرا من قصور ألف ليلة وليلة . .

ألمحت لنا الملكة إلى أن كل شىء هنا وفير إذ أن الزيارات ترد إليها كل يوم من كل مكان حاملة ما ليس يعرفه الناس فى البلدان ، فكل زائر

لمعشوق له فى الجبل يحرص دائما على نادر الأشياء وعزيز الأصناف وثمين الهدايا. ألمحت كذلك إلى أن ماكينات المياه ومواتير توليد الكهرباء تملأ الجبل داخل آبار محفورة لها خصيصا فى أعماق الأرض ومغطاة بأغطية ثقيلة متحركة لينكتم فيها صوت المواتير تمتصها بطن الجبل فلا يشعر بها. حاجة تهوس يا بوى..

طاف بنا صوت الملكة:

ـ «نشوف مزاجكما الآن أم تتمددا قليلا؟!».

فى صيحة واحدة خرج صوتى وصوت هليل:

ـ «تشوفا مزاجنا بالطبع!».

أشارت بيديها النحيفتين الجميلتين أن قوما، فقمنا، فمشت أمامنا تتبختر كالأوزة. خرجنا من قاعة المائدة عبرنا البهو إلى الممر الذى دخلنا منه ثم هبطنا سلما فى نهايته؛ مشينا فوق الحصباء نحو بناية ملحقة بالقصر محندقة ومخفية بين الأشجار. قلت: «قصر آخر؟!». قالت:

ـ «هذا هو القصر الحقيقى! ما كنا فيه مندرة الاستقبال للزوار. أما هذا القصر فهو المربض! المسكن! متى ما دخله مخلوق لا يستطيع أحد أن يهتدى إليه!!

اقشعر بدنى:

ـ «كسبنا صلاة النبى!».

ضحك هليل فضحكت هى الأخرى، مضت تصعد بضع سلمات؛ فتحت بوابة قصيرة القامة كبوابات السراديب والحانات القديمة؛ قالت: «بسم الله الرحمن الرحيم» تفضلوا!». ثم تناولت

عصا طويلة من جوار الباب رفعتها دفعت بها السقف دفعة واحدة فانزاحت عن السقف طارة خشبية مشغولة بنقوش تقوم على أربعة أسياخ من الحديد تبيت فى مجار لها. تدفق ضوء الشمس؛ فإذا نحن فى مربع ضيق كالمربعات التى تسبق قاعات الأضرحة غير أنه مفروش بالسجاد الفخم وبه مقاعد من الرخام مثبتة فى الحوائط، وفى المواجهة باب بدرفتين من النحاس المبطن بخشب البندق. دفعته برفق فانفتح عن طاقة من النعيم: باحة عريضة جدا بها أسرة تشبه الكراسى، وكراسى تشبه الأسرة، كلها غارقة فى الناموسيات والملاءات والستائر ذات اللون السماوى بدرجاته المختلفة. هنا ياخال كبس علينا النوم فجأة؛ فابتسمت الملكة وهى ترانا نتنقل من سرير إلى سرير على سبيل التجريب إلى أن استقر كل منا على سرير وغاص فى غيبوبة رائعة، ثم سحبت الباب خلفها برفق وخرجت. وحينما عادت لتوقظنا كنا نظن أن خمس دقائق فقط مرت؛ ولذلك أصابنا الذهول عندما أنبأتنا الملكة أن ظهر اليوم التالى قد أتى وأن الغداء فى انتظارنا.

كان فى نيتى أن أبقى بجوارها فى هذه الجنة لأصبح من رجالها بدلاً من الأغراب؛ لكنها غمرتنى بنظرة دافئة:

ـ « لا تتعجل الأمور! وجودك بجوارى خطر على كلينا! ووجودك فى مصر خير لنا معا! فامض على بركة الله تصحبك دعواتى! وأما فكرة الزواج فدعك منها الآن! دعنى أخطط لمستقبلك كما أهوى!!».

وفى طريق عودتنا من الجبل كنت كمن قام برحلة إلى دولة أخرى على شمال السماء حقنتنى بدم جديد فكأننى قد صرت أنا الآخر شخصا جديدا كل الجدة يا خال.

ولـــد

ذمة ودين يابوى أننى لا أستطيع وصف حبى لصاحبى هليل . إنه العقل الذى يفكر لى ويدير أمورى دون أى جهد؛ حويط غويط كنهر النيل . فى اليوم التالى لعودتنا من الجبل سألته على سبيل المزاح :

ـ «ألم يعرف الحب طريقه إلى قلبك يا هليل؟!» .

وكنت لا أزال متأثرا بموت حبيبتى التى أحرقت نفسها لما عرفت أننى رأيتها فى وضع غير مستور ، ولكن هليل ظهر عليه كأنه لم يسمع سؤالى ، فأعدته عليه :

ـ «ألم تعرف الحب أبدا يا هليل؟!» .

فاضاء وجهه بإشراقة ناصعة ؛ وشملته رجفة كأنى ضبطته فى حالة عرى . ثم راح يهمهم كأنه يكلم نفسه :

ـ «عرفته يا بو العم إن حبى هو الحب المستحيل ! فلست أرضى بأقل منه لكن الحبيب يسجن قلبه فى مكان بعيد لا يعرفه أحد! ! لا أظن أن فى الدنيا حبا كحبى يابو العم ! حبكم هذا لعب عيال أما حبى فهو الحب

الحقيقى! وهو يشاغبنى يابو العم! كلما تخيلته قريبا ابتعد! كلما اقترب اختفى!!».

وزفر زفرة حارة، عاجلته:

- «وهل أنا أعرف حبيبك يا هليل؟! هل هو من البلد أم من مكان بعيد؟! ولماذا لم تكلمنى فيه من قبل مادمت هكذا محروقا؟!».

فتشيع لى نظرة حرت فى فهمها يا خال؛ نظرة خُيِل لى أنها تتهمنى بالغباء، كأنها تقول لى: ألم تره يا أعمى؟! ألم تشعر به؟! سرح فى الجبل. سألته:

- «وهل يعرف أنك تحبه؟!».

ازدادت رجفته وارتبك. شوح بذراعيه:

- «دعنا الآن من أمور الحب والغرام يابو العم وتعال نتكلم فى المفيد!!».

قلت بشىء كثير من الغضب الدفين:

- «دعنى يا هليل! لم يعد يهمنى شىء بعد الذى حدث بسببك!! ذنب هذه البنت فى رقبتك يا هليل!!».

قال بحدية غريبة:

- «إذن فمنى لله؟ لقد أردت أن أنقذك من الوحل قبل أن تجلب لنا العار! ولكن الله أراد ما أراد! فلا تحملنى الذنب! لا تكن أنت وضميرى وقلبى علىّ يا بو العم!! كفانى ما أنا فيه يابو العم!!».

وأخلد إلى صمت مهموم، فأيقنت أنه متأثر جدا. كانت شمس الضحى تفرش نفسها فوق البلدة فنزعت عنها كل الأغطية وألبستها ملاءة من لهب. نظرت فى ساعتى؛ قلت إن الوقت يسمح لى بجمع خلقاتى والتوجه إلى محطة صدفا للحاق بقطار الظهيرة. فإذا بهليل يلوح بأصبعه علامة النفى:

ـ «لا! لا سفر اليوم يابو العم! وراءنا شغل كثير!!».

ـ «شغل ماذا؟!».

ـ «لا تستعجل!».

واستأنف صمته؛ فمضينا نحو دارهم نتطوح من شدة الرهق..

أنهى هليل صلاة المغرب وتربع بجوارى يتمتم بختام الصلاة ويمسح وجهه بكفيه، ثم سحب من جيب الصديرى دفترا مطويًا من دفاتر التلاميذ يطل منه قلم كوبيا. فتحه على صفحة مرشقة بنقش أشبه بنبش الفراخ، صار يحسب مستخدما أصابع يديه. أخيرا قال:

ـ « شف يا بو العم! فلوسك عندى كبرت! كبرت! ربنا بارك فيها فأصبح القرش الواحد مائة!!».

ـ «الحمد لله! البركة فيك يا هليل أنت مبروك من يومك ولكن ما الداعى لأن تقول هذا الآن؟ هل صدر منى شىء؟ سألتك عن الحساب؟!».

ـ «لا يا بو العم! الملكة ربنا يحميها رسمت لنا مشروعا! أصل الحكاية أننى كنت أتعشم من مشوار الجبل أن نتكلم فى هذا المشروع

لكن موت البنت حرقا عطلنى عن الكلام تشاءمت!! الموضوع وما فيه أن الملكة دائما تسألنى عن أحوالك فأحكى لها ما يطمئنها فأوصتنى أن أستغل هذه المكاسب فى مشروع لم يكن يخطر لى على بال!! شف يا بو العم! أعوذ بالله من قولة أنا وأنت والملكة سنكون شركاء فى عملية مريحة: الملكة ستدخل باسم أولاد خرابة! المشروع هو ماكينة للطحين! نعم يا بو العم! البلد كلها والكفور من حولها تذهب مشوارا فى سفر طويل لكى تطحن قمحها فلماذا لا يطحنونه فى بلدتهم بنفس الأجر؟! أولاد خرابة نصيبهم فى الشركة قطعة أرض شرقى البلد ليس منها أى منفعة لهم فهى قريبة من الجرن وتقام فيها قمائن الطوب بالمجان! سنبنى فوقها داراً للماكينة! أما الأسطى الذى سيشغلها فموجود والملكة تعرفه!! مع ماكينة الطحين ماكينة لتبييض الأرز فما رأيك؟!».

ـ «زين والله زين!! كلام كالعسل!!».

ـ «الحمد لله! يبقى المشروع الذى تم بالفعل وهو يخصنا وحدنا!! تصرفت فيه من تلقاء نفسى: اشتريت ماكينة للرى وماكينة لدرس القمح وتذريته!! موعد وصولهما بقى عليه يومان!! سنسافر ومعنا الأسطى حامد العقدة إلى مصر لشراء ماكينتى الطحين وضرب الأرز!!».

ـ «الله يفتح عليك يا هليل! أنا باق معك إلى ما تشاء!! ليس ورائى عيال تبكى فى مصر! على بركة الله! قم بنا الآن نحتفل بهذه الأخبار الطيبة!!».

ـ «ما شبعت من الاحتفالات يابو العم؟!».

ـ «نفسى انفتحت!!».

ـ «ربنا لا يجعلنا صدادين للنفوس المفتوحة! قم بنا يا بو العم!!».

ـ «عد بنا إلى الجبل!!».

ـ «لا يابو العم! كله إلا الجبل! ما كل مرة تسلم الجرة!! مرواح الجبل شغلانة طويلة معقدة دعك منها الآن!! ولا تنسى أن الملكة ترسم لك مستقبلا مزهزهًا وأوصتنى أن أشكمك حتى لا تجعل صورتك مهزوزة فى نظر الناس! أنت من الآن من علية القوم المحترمين فى البلد فكن هكذا فعلا!! سنحتفل فى وسط دارنا هذه! كل شىء موجود والحمد لله!!».

خيراً ما أراد. لطشنا هواء وسط الدار المنعش فرسمنا دارا للماكينة على الأرض بخطوط الأصابع فوق التراب: هذه حجرة العدة لابد أن تكون مستطيلة هكذا لأن سيرا جلديًا طوله عدة أمتار سوف يلتف على مجموعة من التروس والطارات المتجاورة فبدوران الطارة الكبيرة تدور تروس جوانية، وبدوران هذه التروس تدور أخرى ملتحمة دورانا عكسيا، وهكذا تمضى مجموعة الطارات والتروس من أول الحجرة إلى آخرها حيث يوجد القادوس فوق قاعدة خشبية تبنى له تلتحم بسقف حجرة العدة حيث يقف أصحاب الحبوب الجارى طحنها ليدلقوا فى القادوس حبوبهم. رسمنا قعدة الأسطى، وغرفة استقبال الزبائن بحيث تكون كبيرة، حددنا موضع الميزان الطبلية، ومن الذى سيشرف على وزن الحبوب قبل طحنها لتحديد سعر الطحين إذ لابد أن يعرف القراءة والكتابة حتى يدون الوزن والسعر فى قصاصة ورق يتسلمها صاحب الطحين ليسلمها للأسطى فيرشقها فى سلك معقوف بجواره،

وفى نهاية اليوم تتم مراجعة هذه القصاصات على مادون فى الدفتر فنعرف دخلنا . هنا قررنا فى صيحة واحدة أن يكون ولد هليل هو المدير المسئول عن شغل الماكينة من الألف للياء ، وأن يتدرب أخى حسين تحت يديه بعد خروجه كل يوم من المدرسة . أما ماكينة الرى وماكينة الدراس فيتولاهما هليل بنفسه ، وأن تبنى لهما حظيرة ملصقة بدار الطحين . حتى الخفير الذى سيتولى حراسة ماكينة الرى أثناء شغلها ، والأسطى الذى سيتولى ماكينة الدراس اخترناهما فى نفس القعدة المباركة بل وحددنا أجر كل واحد يقوم بعمل بمن فيهم هليل وأبوه . .

فى الصباح توجه كل منا فى طريق ، واحد لشراء الطوب والآخر لاكتراء البنائين . لم نضيع دقيقة واحدة . ويوم جاء مهندس التركيب وعماله لتركيب الماكينة كان يوم عيد على البلدة كلها : المزمار البلدى زف الماكينة من أول دخلة البلد إلى أن تم التركيب ثم استكملت السهرة فى الجرن أمامها على ضوء الكلوبات . انطلق المنادى فى بلاد الناحية كلها ينادى على خدمات أبى ضب وشركاه ، فطربت لذلك غاية الطرب يابوى . .

على حسن هذه الدعاية يابوى مكثت فى البلدة حوالى ثلاثة أشهر أرقب نجاح شغل ماكينتى الرى والدراس ، وشموخ مبنى دار الطحين ، واللافتة الكبيرة بعرض الباب مكتوب عليها : أبو ضب وشركاه . .

يوم سفرى من الصعيد هذه المرة كنت بالفعل وجها من وجوه علّيه القوم حين يسافر : تحف بى الركائب من كل ناحية ، الأعيرة النارية تزغرد حول رأسى تحية وترهيبا . سبقنى إلى المحطة من قطع تذكرة القطار . ظلت ذراعى تلوح من شباك القطار مسافة طويلة فوق حشد

من المودعين. لحظتذاك يا خال ذقت حلاوة أن تكون من وجوه القوم، أن تكون ذا عزوة وسلطة. لحظتذاك يا خال قررت أن أمضى فى هذه الطريق حتى نهايتها بكل نفس ذائقة الحلاوة. سوف لن يبعدنى عن هذه الطريق عائق مهما كان صعبا. أمال يا بوى، العز حلو يا خال. . اللى تعرف ديته اقتله، الآن فحسب فهمت معنى هذا المثل: فكل شيء وكل شخص فى الدنيا له سعر وثمن عليك أن تدفعه لتبلغ ما تريد، والعقبة الوحيدة أمامك هى قلة المفهومية فحسب، والمفهومية هى أن تعرف السعر المناسب للرجل المناسب فى الموقع المناسب، الثمن الكفء للعمل الكبير. اعرف هذا وحده جيدا، واتكل على الله يا بوى.

كومى

استوى القطار على سكته يشق أرضا زراعية معظمها قاحل جاف . فلما استويت بدورى قاعدا على الكرسى فوجئت بأننى محاط بمئات من الناس فكأننى كنت نسيت أنى فى قطار . وقعت نظرتى عليه قاعدا على الكرسى المواجه لى ، ملأنى شعور بالزهو يا خال إذ أننى راكب فى الدرجة الأولى ، تفرست فى الرجل فإذا هو الآخر يتفرس فىَّ . أخذت أفكر أين رأيته يا بوى؟ أين رأيته يا بوى؟ ثم أننى ميلت عليه وعلبة السجائر تسبقنى إليه :

ـ «مرحبا ! إياك أن تكون صعيديا مثلنا ! » .

ابتسم فى مودة عن أسنان ذهبية ؛ تناول السيجارة شاكرا :

ـ «منذ مدة طويلة لم نرك ! » .

صحت فى الحال :

ـ «الحاج قدرى؟ يا مرحبا يا مرحبا ! » .

ضحك لأنى تذكرته بعد وقت طويل . ضحكت أنا الآخر؟ فالحاج

قدرى أشهر من نار على علم فى حى الجمالية، له دكان كبير فى خان الخليلى يمتلئ معرضه بالمشغولات الذهبية والتحف الثمينة، يتاجر فى العاديات كما تقول لافته دكانه يعنى يتاجر فى الآثار برخصة؛ ودكانه الكبير يستقبل فى اليوم الواحد مئات من السياح جاءوا له خصيصا بصحبة المرشدين السياحيين. هو الآخر يسافر لهم بين حين وحين، ويراسلونه ويراسلهم، ويعتبر من أغنى أغنياء خان الخليلى ومصر كلها، وبما أننى أضبطه الآن فى قطار الصعيد فقد تأكدت أن هذه العاديات هى الاسم الذى يخفى وراءه كلمة الآثار؛ ولابد أن مشواره اليوم كان لمقابلة بعض مهربى الآثار فى بلاد الصعيد وما أكثرهم. قال مبتسما وهو يضع السيجارة فى مبسم ذهبى:

ـ «أظن أن اسمك حسن!».

ـ «خدامك ومحسوبك حسن أبو ضب!».

ـ «جلسنا معا كثيرا عند الحاج أحمد نوار الدين السنى!».

ـ «وجلسنا أكثر فى قعدة المطار فى فاطمة النبوية!».

ـ «بالضبط! هل أنت من صدفا؟!».

ـ «أنا من كوم سعيد! هل أنت قادم من سوهاج؟!».

ـ «كيف عرفت؟!».

ـ «توقعت! فأهل العرابة لهم أصدقاء كثيرون فى القاهرة كلهم لا يتخيرون عنك!!».

ـ «الله يكرمك!».

ـ « أنا أيضا أعرف رجالا كثيرين من العرابة!» .

ـ «ربنا يجعلنا من بركاتك! نظرة!!» .

ـ أنت تأمر!!» .

ـ «لماذا لاتزورنى فى الدكان؟!» .

ـ «ذلك فى بالى! كل شىء بأوان!» .

ـ «عندك شىء ينفعنا؟!» .

ـ «عندى الكثير فضلة خيرك!» .

ـ «خش علينا يا رجل!!» .

ـ «لا تؤاخذنى! أنت وأنا أولاد أصل! يعنى لا نعرف إلا الأصيل ابن الأصيل!! الخسيس لا أحمله ولا أعرفه ولا أقربه!! كل ماعندى أصيل فى أصيل!! التقليد لا!!» .

ـ «الفراسة أن تعرف الفرق بين الأصيل والخسيس! لأن هذا يشبه ذاك الخالق الناطق!!» .

ـ «كثرة الحزن تعلم البكاء يا ابا الحاج! وهذه شغلتى وشغلة أهلى وأجدادى من قديم الأزل! تستطيع أن ترينى ما تشاء لأفرزه لك!!» .

ـ «أنا فى انتظارك فى الدكان يوم الأحد القادم! أنا لا أشتغل يوم الأحد لكنى أفتح المكتب من الشارع الخلفى وأجلس فيه طول النهار لمقابلة أمثالك من الضيوف المهمين! لا تحمل هم شىء! القهوة تحت المكتب مباشرة تطلع لنا الحجارة وكل المشاريب كما نهوى وكل شىء موجود!!» .

ثم دس يده فى جيب السترة الداخلى فأخرج علبة سجائر ذهبية. ثم ظهر عليه أنه تذكر شيئا. فأعادها وأخرج علبة ورقية فتحها فإذا هى ملآنة بسجائر محشوة بالحشيش، أشعل لى وله بالقداحة الذهبية؛ ورفع أصابعه الطويلة الملآنة بالخواتم الذهبية الغليظة فسحب الأنفاس المتلاحقة. وكانت البذلة الفخمة التى يرتديها ـ رغم اتساقها على جسده ـ غير لائقة عليه بالمرة؛ فملامح وجهه وشاربه الضخم وأسنانه وخواتمه الذهبية وتطجينه فى الكلام كل ذلك يشى بجلباب بلدى ولباس بحجر ودكة بشراريب. ضحكت فابتسم ظنا منه أن تعميرته سرها باتع إلى هذا الحد السريع.

حـرفنـة

تلقانى الحاج أحمد نوار الدين السنى عند البوابة بترحاب شديد، فتح لى أحضانه:

ـ «إزيك يا عكروت! جئت فى وقتك! ابن حلال والله طول عمرك يا عكروت! تعال!!».

وقادنى إلى البهو فالممر فالحجرة العلوية وهولاينى يردد:

ـ «ياه! غير معقول والله! أن يطلب الواحد شخصا فيراه فى الحال! كنت سأضطر للبحث عن ولد من الملاعين الذين كبروا هذه الأيام ربنا أعطاهم! الله يسهل لعبيده لكن الواجب واجب!! أين كنت يا ولد يا عكروت كل هذه الغيبة؟ فى الصعيد؟!».

قلت: نعم. قال:

ـ «الصعيد كله سيكون عندنا فى أول الشهر! هل تذكر ستك الشيخة سعادة التى أوصتنى بك خيرا؟ عزمناها على العشاء بطلب من شخصية كبيرة جدا عضو بمجلس قيادة الثورة ومستشيخ ويموت فى

أمثال الشيخة سعادة!! أول الشهر لابد أن تكون معنا خل بالك! إزيك يا ولد يا عكروت؟! محمد بك أبو شناف ينتظرك تصور أنه سأل عنك؟! رجل فيه الخير والله!! هيا!! إخلع هدومك هذه والبس لبس الشغل!! لابد أن تتكفل الليلة بمحمد بك أبو شناف تعدل رأسه على الآخر! خش خش!!».

فعلا يابوى؛ محمد بك أبو شناف ابتهج لما رآنى، لا أدرى لماذا بالضبط! صاح بصوت جهورى ووجه باش:

ـ «أهلا يابو على! عاش من شافك!!».

ومد يده الطويلة نحوى فتلقفتها مسلما بحرارة:

ـ «أهلا سعادة البيه! واحشنى!».

كان يرتدى جلبابا من الحرير السكروتة الأبيض، تحته صديرى من نفس القماشة. عصاه الأبنوس مركونة بجواره، لاحظت وجود طبلية صغيرة مشغولة بالأرابيسك موضوعة أمامه، فوقها عدد من القطع الأثرية الفاتنة. ارتبك قليلا حينما رآنى أحدق فيها، حاول أن يثقبنى بنظرة تكشف له عن أعماقى، فأسدلت الستار على عينى مدعيا العبط على الهبالة، ومضيت أستحضر العدة؛ فإذا بالحاج السنى يلحقنى بها قادما من المطبخ. دخل على محمد بك ومكثت أنا فى وقفتى أعيد ترتيب قطع العدة لأقوم بتنظيفها وتعسيل الحجارة فإذا بى أسمع هذا الحوار يا خال:

قال الحاج:

ـ «هل ستسافر أنت بنفسك يا سعادة البيه أم أن سمسارا سيأتى ليأخذ البضاعة من هنا؟!».

فقال محمد بك :

ـ ربما أسافر بنفسى» ولكن اطمئن من هذه الناحية!! فسواء سافرت أو لم أسافر فعندى الأشخاص الذين يقدرون قيمة هذه الأشياء عن خبرة ودراية! إلا أن وجهة نظرى أن ما يأخذه السمسار نحن أولى به! ليس هناك أى مشكلة! لو عندك أضعاف هذه القطع هاتها ولا يهمك!! وأمامك طريقان للاطمئنان : إما أن تبيع لى من هنا وتقبض حقك فى الحال وفى هذه الحالة تقبض بالعملة المحلية!! وإما أن تتركنى أسافر لأتصرف هناك بأسعار أعلى وعملة صعبة وفى هذه الحالة آخذ نسبة خمسين فى المائة وأقبضك بعد العودة من السفر!!» .

قال الحاج السنى :

ـ «صراحة ربنا! أنا أفضل البكاء على رأس الميت! فهذه القطع ليست ملكى ولو كانت ملكى فما بين الخيرين حساب!! أما وهى ملك ناس غيرى وما أنا إلا وسيط يأكل عيشا من ورائها فأنا ملزم أمامهم برد البضاعة أو دفع ثمنها دون أجل!! فمعذرة إكرامى لك سيكون فى أمرين : السعر المستريح أستغنى فيه عن عمولتى! وضمان أصالة البضاعة!! إنها قطع أصلية مائة فى المائة تأخذها وأنت مغمض العينين!! لن أذكرك بأننى خبير يعتد برأيه! إنما القطع نفسها تقول أنا أصلية ولست فى حاجة لخبير!!» .

قال محمد بك :

ـ « ليكن ! يا دار ما دخلك شر نتفق إذن على الأسعار الآن! أعطيك ما معى وأبعث فى طلب الباقى من البيت! وربما استدعى الآن صاحب

مـال يدفع ويشيل! أليس يهـمك دفع الحق فـحسب؟ إذن فسـأريحك تماما!!».

قال الحاج السنى:

ـ «أفادك الله! عدَّاك العيب! شف يا سيدى! هذا تمثال لرمسيس الثانى من المرمر الحر! ثمنه لك أنت وحدك وحتى لا تفاصلنى: مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه! أنت تبيعه بضعف ذلك وأنت مستريح بالعملة الصعبة!! هذه تسعيرة معروفة لا تنقص مليما واحدًا! التمثال نفسه إذا كان من الذهب الخالص فيضاف إلى هذا المبلغ قيمة الذهب بالميزان! وإذا كان من الفضة ينقص نصف المضاف! وإذا كان من البرنز ينقص ثلاثة أرباع المضاف! فإذا كان من الحجر أو الجص أو الفيروز فإنه يبقى على سعره الأول!! وهذا رأس نفرتيتى من الذهب الخالص ثمنه مائتا ألف لك وحدك» وهذا العجل أبيس من الرخام ثمنه مائة ألف!! وهذا عقد من الفيروز المطعم باللؤلؤ ثمنه ثلاثمائة ألف! صندوقه وحده تحفه لا تقدر بمال! الواضح أنه عقد ملكى! لأن كل حبة من حباته ـ على دفتها ـ محفور عليها وجه آلهة الخير!! على فكرة! كنت أنوى ادخاره لابنتى لكنى خشيت أن ينكشف أمره فنروح فى سين وجيم! انظر إلى ما فيه من أبهة وفخامة وفن! شىء يحير العقل!! لو كنت منك لاحتفظت به لزوجى فأنت بما لك من حصانة تستطيع أن تحمى صدر زوجك!!».

قال محمد بك:

ـ «سنرى! سنرى! سأتصرف!».

ـ «عندى لزوج سعادتك أسورة من نفس النوع من حلق وخاتمين!!».

ـ «هاتها فورا!!».

ـ «هى ليست تحت يدى الآن! سأطلبها من أصحابها حينما أقبضهم فلوسهم!!».

ـ «يبقى شيء: هذه الأسعار أليس من الممكن هزها قليلا حتى يكون لنا من ورائها نصيب؟!».

ـ «وشرف امرأتى! وبنتى التى أتمناها من ربنا! وحياة محمد بك وعشرتنا الطويلة! وحق صلاتى وصومى وحجى والقرآن المجيد هذه هى تقديرات أصحاب الشأن بالمليم وأنا سأخرج من المولد بلا حمص!! لا تنس أن المبالغ توزع على كتائب من البشر لا حصر لها كلهم شارك فى إيجادها وتهريبها وحراستها وما إلى ذلك! لكن المصلحة واحدة! أصحابها جهلة أغبياء لا يتحاورون إلا بالرصاص خصوصا فى هذه المسائل! وهم أوعى منك ومنى ومن كل الخبراء! إنهم جبابرة! والمؤكد أنهم الآن يراقبون خط سير البضاعة دون أن نراهم!! ولو شعروا أن فى الأمر مكيدة مدبرة فإن أى خارج من هنا سيلقى حتفه فى الحال!! ربنا يكفينا شرهم!!».

دخلت عليهم بالعدة فوق الصينية، وضعتها فى الركن المعتاد. لم التفت إليهما، أذن من طين وأذن من عجين، بمنتهى السرعة كانت الحجارة مرصوصة وجاهزة. انتبه محمد بك أبو شناف فتحسس المكان حواليه ثم رمى لى بقطعة حشيش تزيد عن ربع أوقية من صنف لم أر

مثله فى حياتى؛ فغطيت المعسل كله بتعميرات عريضة. ثم دارت الجوزة بالصلاة على النبى.

محمد بك أبو شناف يا خال كمن يشرب فى آخر زاده، شربه يحرق دمى يا خال، فأنا الممسك بالجوزة أقعى أمامه لتكون البوصة فى مستوى شفتيه؛ على أن ابقى هكذا طويلا لا أتحرك ريثما يشرب هوعلى أقل من مهله. يشد شدة، ثم ينتظر برهة، ثم يطقطق ثم يشد شدتين سريعتين يخرج الدخان على أثرهما مندفقا بغزارة من منخرية، بعدها يتلمظ قليلا وينفخ فى البوصة كما ينفخ العامل فى الميكروفون عند تجريبه ثم يبدأ فى الشد الهادى، السحب، الذى يزداد قوة وسرعة شيئا فشيئا لينتهى بالسحبة الأخيرة التى يشتعل منها الحجر فترتفع راية النار، فأصيح أنا على سبيل التحية: قشطة. عندها يترك البوصة واضعا كفه على فمه وأنفه يعتقل بهما اندفاع الدخان ليرده من جديد إلى منخريه ليستمتع بوجوده فيها أطول مدة ممكنة. حاجة تهوس يا بوى..

ها هو ذا ينكس رأسه مندمجا فى تفكير عميق؛ أحيانا يسحب القلم الذهبى من جيب الصديرى ويروح يدون أرقاما وعمليات حسابية فى نوتة ملحقة بمحفظة جلدية أنيقة جدا؛ وأحيانا يعيد التقليب فى القطع الأثرية فيما يراقبه الحاج أحمد نوار الدين السنى من تحت لتحت بعينيه الضيقتين اللتين تشعان بالشقاوة والمرح والثقة المطلقة بالنفس، وها أنذا أيضا دماغى تضرب تقلب فتتراءى لى أفكار جريئة ترتفع راية اشتعالها فى رأسى: هل يأتى يوم يكون فيه محمد بك أبو شناف هذا من زبائنى؟ وهل أستطيع أن أبيع له بفلوس كبيرة كهذه؟ لم لا يا بوى؟ والعملية كلها قلب جامد وشخصية ملء هدومها، ولى فى الحاج

السنى مثل يحتذى يا بوى فهو بمنظره هذا لو عرضناه فى سوق الجمعة بثلاثة مليمات فلن نجد من يشتريه، ومع ذلك فها هو ذا يعيش فى قصر لا يملكه رئيس البلاد، ويجالس أكابر القوم، وينطق الأرقام بجرأة وبساطة كأنه يقول: تشرب شاى؟ ولا يبدو عليه أنه يفعل شيئا غير طبيعى. شف يا خال، الثقة بالنفس أولا هى السكة التى يمشيها الناس نحو الثقة فيك. هذا ما تعلمته الليلة يا خال ويجب من الآن أن أتدرب على ذلك. نعم، كيف إذن سأكون معلما وحاجا وعضوا فى البرلمان باذن الله إذا لم تكن شخصيتى نفسها على قدّ الثوب الذى سترتديه؟ والله لأفعلن، الحاج أحمد نوار الدين السنى ليس أجدع منى فى شىء، ولا حتى هذا المحمد بك أبو شناف فإن كان متعلما فى المدارس فالعقل لا تبنيه المدارس وأكبر شهادة هى المأخوذة من كلية الحياة الدنيا يا خال. إن عالم الخربشة الذى التحقت به فى سن المدرسة يمنحنى الأوسمة مادام اللصوص والبلطجية والفتوات هم السائدون. ليس فى هذه المدينة شىء يسمى الأصل يا بوى؛ أصلك وقتك، فالناس هنا لا يهمها معرفة ابن من أنت ولا من أى أصول عريقة تنحدر، إنما يهمها ماذا أنت الآن ماذا تملك ماذا تلبس ماذا تأكل كيف تسكن كيف تركب إلخ إلخ. وأنا بحكم دراستى فى الشارع وفى السجن وفى العراء عرفت جيدا كيف يمكن أن يحترمك الناس يشيلون الأرض من تحتك على رءوسهم: سأتقمش كعمدة أمريكا نفسه، سأعطى البقشيش كلما تيسر، سأعطف على الناس، سأضع على لسانى كل طيب من القول. صحيح أن هذا ليس سهلا يا بوى، والإنسان لا يكون ما يريد بمجرد ما يريد، لا يا خال، الشغلة يلزمها تدريب ولسوف أتدرب فماذا ورائى؟..

وكأى فلاح قرارى دس محمد بك أبو شناف أصابعه فى جيب الصديرى فسحب ساعة الجيب المشبوكة فى كتينة ذهبية فى لون غطاء الساعة المنقوش. ضغط على المفتاح فارتفع الغطاء فنظر فى الساعة ثم قال: أعطنى التليفون. فى ركن الغرفة سماعة تليفون معلقة على مسمار، نزعها الحاج وضغط على زر فيها فسمعنا صوت الحرارة عاليا؛ قدمها إلى محمد بك الذى تسلمها وراح يضغط على أزرارها الململمومة فى مربع صغير. سمعنا صوت الجرس يرن عند الطرف الآخر، قطعه صوت امرأة حالمة طرية النبرات: هاللو.. و.... ه.. قال محمد بك:

- «مساء الخير يا مدام!».

انتعش صوتها؛

- «أهلا يا محمد بك!».

- «إدينى الأستاذ!».

بعد برهة جاء صوت رجالى ممروض:

- «أهلا محمد بك! يا للمفاجأة السعيدة!».

صاح فيه:

- «تعال حالا ومعك فلوس كبيرة! أمامنا لقمة عيش طرية وحلوة بإذن الله!!».

- «عملة صعبة؟!».

- «عملة أصعب!! هاها ها.. ى!!».

ـ «يعنى دفتر الشيكات ينفع؟!».

ـ «فى أقل القليل!!».

ـ «تتكلم من أى مكان؟!».

ـ «من القمرة فى مصر عتيقة أنت تعرفها طبعا!!».

ـ «جميل! حالا سأكون عندك! من كورنيش المعادى ربع ساعة بالكتير! عندك شرب؟!».

ـ «عندى كل شىء لكن لو عندك الأحسن هاته!!».

ـ «موافق! إلى اللقاء!».

أغلق محمد بك الزر، فجاء صوت الحرارة، فضغط على الأزرار:

ـ «مساء الخير يا معلم! تعال حالا فى القمرة فى مصر عتيقة ومعك الشنطة، فاهم طبعا يعنى إيه الشنطة؟! إلى اللقاء!».

وهكذا أنهى عدة مكالمات؛ ثم تفكر قليلا، ثم سلم السماعة للحاج السنى الذى أعادها إلى مكانها ثم نهض واقفا:

ـ «دقيقة واحدة أشوف أخبار العشاء! سأوصى الطباخ بزيادة الكمية! تشرب شيئا فاتحا للشهية؟! عندى شمبانيا قديمة وعندى نبيذ قبرصى وعندى ويسكى بلاك أندهوايت وعندى كورفوازيه!!».

انتشى محمد بك مقدما:

ـ «نبدأ بالشمبانيا قبل الأكل!!».

أومأ الحاج برأسه ومضى. نزل السلم إلى الطابق التحتى مباشرة

حيث المطبخ والطباخ والسفرجية. أخذت أنا أعيد تنظيف الحجارة وتحصيتها وتغسيلها، وراح محمد بك يعيد النظر فى القطع الأثرية ثم راح يوزعها على جيوبه، وعندما أمسك بتمثال رمسيس المرمرى وجدتنى أندفع مشيرا إليه هامسا:

ـ «على فكرة يا أستاذ! أستطيع أن آتيك بأخيه الذهبى وبنفس السعر! مائة وخمسة وسبعون ألف جنيه!!».

جحظت عيناه يا خال؛ ظل مبحلقا فى وجهى دقائق طويلة لا ينطق؛ ثم قرب وجهه منى هامسا:

ـ «من أين؟!».

ـ «من العرابة القبلية! نفس الناس الذين يوردون للحاج نوار الدين السنى! إنهم أقاربى شق الكلوة! ولى عندهم خاطر كبير!!».

ـ «إذن فهذا السعر مبالغ فيه! أظننت أنى سأقبل هذه الأسعار؟! الحاج يتكلم كما يحلو له ولكن ساعة الحساب لن يقبض منى سوى السعر المناسب! أنا لست غشيما كما يتصور!!».

ـ «عدم المؤاخذة يا أستاذ! السعر الذى باع به الحاج نوار الدين مستريح ولن تجده أبدا وهو لن ينزل عنه مليما واحداً لأن الاتفاق تم أمامى والحاج صادق إلا فى شىء واحد هو أنه لن يستفيد! فعملوته سيأخذها ولكن بصراحة ستكون قليلة لأن ناس العرابة القبلية يعتقدون أنه سيضيف عمولة أخرى فوق السعر المتفق عليه لكنه لم يضف وهذا يدل على أنه يريد أن يخدمك ويجعلك تستفيد أنت بهذه العمولة التى كان سيضيفها عليك! لقد باع لك بتراب الفلوس! إننى أعرف كيف

يحاسبه أقاربى! لعلم سيادتك يا أستاذ أقاربى ليسوا محتاجين له! إن الخواجات التقال يذهبون إليهم لحد دورهم يدفعون وينصرفون بكل ثقة واطمئنان والبضاعة تصل إليهم بعد ذلك فى العناوين المذكورة اقاربى يا سعادة البيه لا يغلبهم غالب! ألم تعلم يا سعادة البيه أن لى أولاد عم تعلموا تعليما اجنبيا عاليا وأصبحوا الآن يشتغلون فى المتاحف العالمية الكبيرة والجامعات وأنهم أكبر وسطاء بين أقاربى والزبائن؟! إنهم يبيعون للحاج نوار الدين كرامة للنسب! زوجه المرحومة كانت منهم!!».

ـ «أعرف! كل شىء معروف! ولكن إن كانوا ـ أقاربك ـ يحبونك حقا فإنك تستطيع أن تخدمنى فى السعر!».

ـ «أنا غلطان! انس ما قلته لك!».

ـ «أتعرف مع من تتكلم يا حسن؟!».

ـ «سعادة البيه إننى أعرف ولهذا أردت أن أكسب صداقتك بهذه التضحية الكبيرة!».

ـ «لماذا لا تحاول؟!».

ـ «لا أستطيع فتح فمى!».

ـ «وكيف يتم البيع؟!».

ـ «شال الحمام حط الحمام! تعطينى الفلوس أسافر بها وأعود لك بالتمثال!».

ـ «بدون معاينة؟!».

ـ «معاينة ماذا يا سعادة البيه؟ أنت لا تستطيع أن تعاين الشمس أو القمر للتأكد إن كانت شمسا وإن كان قمراً!!».

ـ «ولكن! مبلغ كهذا! من أدرانى؟ ربما حدث لك حادث! ربما وقعت فى المصيدة! من يضمن لى رد المبلغ؟ من يضمن لى أن اسمى يظل بعيدا عن الواغش؟!».

ـ «قبل كل شىء يا سعادة البيه إنها ثقة وأمانة! حكاية أن يحدث لى حادث موت فإنه يكون قضاءً وقدرا وفى هذه الحالة أعطيك ورقة بإمضائى بأننى تسلمت هذه الأمانة لتوصيلها لسين من الناس!! أما أن أقع فى المصيدة فهذا لا يكون أبدا ولو كنت مراقبا من الحكومة!! إن تضليل الحكومة شغلتنا وفننا الذى نأكل من ورائه عيشا!! كل ما أنبهك إليه هو أن الحاج نوار الدين السنى لا يجب أن يعرف بهذا الكلام وإلا أفسد كل شىء! وعلى فكرة! أنا مبسوط والحمد لله وأسكن فى شقة فى عمارة على النيل فى مواجهة كوبرى الملك الصالح! وعائلتى ضخمة جدا وأنوى أن أرشح نفسى فى الانتخابات القادمة عن دائرة بلدتنا! وعندى فضلة خيرك ماكينة للطحين وماكينة للرى وماكينة للدراس وأملك سراية فى البلد قصدى أننى ابن ناس وعينى ملآنة!!».

ابتسم، ربت على كتفى، صار فكه السفلى يروح ويجىء كبندول الساعة. خفت منه يا خال ولعنت أب الذين خلفونى لانسحابى من لسانى. رأيت فى لمعان عينيه قاطع طريق يقتل القتيل ويمشى فى جنازته؛ خيل لى أن نهايتى والعياذ بالله ستكون على يديه؛ لكن صوتا لعله صوت أمى نبح فى صدرى! لا تأكل من هذه الحركات فهى صنعة متقنة! تشجع يا ابن أمك وامكر به مثلما يمكر بك لا تضعف لأن

ضعفك قوة له وهو لن يأكلك إلا إذا تأكد من ضعفك فكن أقوى منه تأكله وتذكر دائما أنه ليس إلها ولا وحشا مفترسا ! . .

من خلال سحبه للأنفاس قال :

ـ «إطمئن من هذه الناحية فأنا أعرفك وأحبك ! ثم إننى شخص ذو حيثية ولا أحد يستطيع النصب علىَّ مهما كانت قوته ! ! إننى أنظر إلى أبعد ! » .

ـ «خلاص يا سعادة البيه ! نصرف النظر عن الموضوع ! ! » .

ـ «لا ! ! فرصة كهذه لا أفوتها بسهولة ! اسمع ! الحل الأمثل أن أرسل معك أخى ومعه نفر واحد فقط هو الخبير المثمن وستكون الفلوس مع أخى سيريها لك قبل السفر لتطمئن ! ستركب معه سيارته معززا مكرما لحد باب الدار ! تسلمه التمثال يسلمك الفلوس ويعود بك إن أردت ! ! ما رأيك ؟ ! » .

ـ «ومتى تفعل ذلك يا بو العم ؟ ! » .

ـ «بكرة» خير البر عاجله ! » .

ـ «عدم المؤاخذة يا استاذ ! أخو سعادتك يجب أن يلبس الجلباب البلدى مثلى وكذلك الرجل الخبير ! ! كما أننا لا يجب أن نركب سيارة ملاكى بل لابد أن نروح ونجىء فى تاكسى ! ! » .

ـ «وما الحكمة ؟ ! » .

ـ «الملاكى ستفضحنا ! ولبس الأفندية سيلم علينا الواغش ! وافقنى على ما أقول لكى يتم المشوار فى أمان الله ! ! » .

ـ «ليكن ! نحن نحب البلدى على كل حال ! ! » .

وهكذا كلم أخاه فى الهاتف طالبا منه المجئ بجلباب بلدى مصطحبا معه زاهى بك بجلباب بلدى أيضا وأن يأتى معه بالفلوس التى تركها عنده أول أمس، سمعنا صوت خطوات الحاج أحمد نوار الدين السنى على السلم الخشبى فأمسكنا عن الكلام. لكن الخطوات تبعتها خطوات كثيرة جعلت السلم يئن ويتوجع. دخل الحاج ومعه ثلاثة من المدعوين التقاهم عند البوابة وهو يتمم على الخفير فى سرادق البضائع..

دخلوا علينا فتملكنى الذهول يا خال، كان من بينهم الحاج قدرى الذى التقيته فى قطار الصعيد، واتضح لى أن اسمه الحقيقى الحاج دهب وشهرته قدرى، أخذنى بالحضن والسلامات الحارة مما جعل محمد بك يحدجنى بنظرة متفحصة كأنه يتعرف على حقيقتى لكن شيئا من الاطمئنان ظهر فى عينيه. بعد دقائق معدودة حضرت صورة محمد بك أبو شناف ولكنها أضأل حجما بقليل، عرفت أن اسمه حازم وأننى رأيته من قبل فى مكان ما لست أذكره. معه شخص نصفه رجل ونصفه أنثى، شعره طويل مرسل على قفاه كالمرأة؛ خدوده حمراء وكذلك شفتاه لكنه قوى البنية مع ذلك غليظ الصوت يكثر من الكلمات الأجنبية ومن الغمز وترقيص الحواجب. ارتفعت الغاغة: سلامات وصيحات ونكات قديمة لا مناسبة لها فى الظاهر. والحاج أحمد نوار الدين السنى يعبر عن احتجاجه فى صورة عكسية بقوله:

ـ «براحتكم! البيت بيتكم!!».

ثم نزع غطاء زجاجة الشمبانيا ففارت فاعتقل فورتها فى فوهة الكوب ثم طوح بما فى الكوب فى فمه مكشرا ثم وضع الزجاجة وبقية

الزجاجات أمام محمد بك، وصفق بيديه تصفيقة خاطفة فدخل خادم يحمل صينية عليها كئوس كثيرة وضعها وانصرف. دارت الكئوس حتى نفدت الزجاجات . بعد ذلك مباشرة دخل السفرجية فنصبوا المائدة الأرضية واشتغل الأكل كأنهم جميعا كانوا جياعا منذ أعوام. غسلوا أيديهم وهم جلوس فى أماكنهم بواسطة الطشت والأبريق. عاد التحشيش مرة أخرى يا بوى. أدمغتهم مصفحة يا خال، قلاع تضرب فيها المدافع والقنابل فلا تتزعزع. ولولا أن حازم راح يساعدنى بما له من خبرة واضحة لأصابنى الكساح يا بوى. .

الشاهد يا خال؛ لمع الخبث في عينى الحاج نوار الدين فنظر فى ساعته وخبط على ركبتيه قائلا:

ـ «اسمحوا لى أن أقوم لاتوضأ واستعد لصلاة الفجر!!».

وكان واضحا يا بوى أنه يريد الإنصراف فحسب ليترك لمحمد بك ورجاله فرصة التفاوض فى البيع والشراء على راحتهم. هذا ما نطقت به نظرته الألعبانية الصبيانية الشقية. إنه يفهم شخصياتهم جميعا حق الفهم يا بوى وعلى الأخص محمد بك أبو شناف ولهذا يتعمد أن يتيح له فرصة هبرة كبيرة من هذه الفتة، على سبيل الرشوة، فلابد إذن أنه يستفيد فوائد أخرى كثيرة من وراء علاقته بمحمد بك أبو شناف ورجاله؛ إنهم على الأقل حوائط تصد عنه الرياح، وه يا بوى، ما أكثر ما يجب أن أتعلمه منك يا حاج عفريت. .

الرجل الذى شرب الشمبانيا لتوه متعللا بأنها ليست من الخمر مضى يستعد لصلاة الفجر حاضرا فى جامع عمرو. هو أول من يذهب وآخر من ينصرف؛ وهو كذلك نجم من نجوم المسجد العمروى وعضو

بمجلس إدارته وأكبر المتبرعين لترميمه وتجديد فرشه.

توقف عند الباب بقامته المحنية قليلا:

ـ «أبعث لكم بأى شيء؟!».

ـ «شكراً!».

فرحتى بالبقاء خابت يا بوى؛ فسّت؛ فقد دار الحوار كله بلغة لا أفهم منها حرفا واحدا؛ أغلب ظنى أنها الفرنسية. صرت كالأطرش فى الزفة. تحلف اليمين كأننى ثور الله فى برسيمه. غلى الدم فى عروقى، جاءنى صوت مجهول يدوى فى صدرى قائلا: من لم يتعلم الكلام بالإنجليزي أو الفرنساوى يبقى طول عمره حمارا. ندمت لأننى على كثرة معاشرتى لأكثر من ترجمان من ولد عمى لم أتعلم منهم كلام الخواجات؛ قال الصوت المجهول فى صدرى: إن كنت تروم أن تكون بنى آدم يا ولد أبى ضب فمن غد تتعلم الكلام الإنجليزى مهما كان الثمن فلربما جاءتك سفرية فتستطيع التكلم مع خلق الله. الله وكيل يا بوى؛ تحلف اليمين أننى رغم جهلى التام بكل ما يقولون تابعت الكلام بشغف كأننى أفهم، مثلما أتابع فيلما أجنبيا وأفهم موضوعه بالفهلوة. كانت فرجة يا بوى، معركة حامية بالإنجليزية أو لعله الفرنساوى؛ لم يكن ينقصهم إلا الانقضاض على بعضهم ونهش لحوم بعضهم، ولكن العجيب أن ذلك يحدث فيما هم يضحكون يتبادلون الأكف على سبيل التحية..

عدم فهمى للغة الكلام جعلنى أركز على حركة الأيدى وملامح الوجوه. الحاج قدرى تناول التمثال المرمرى وعرضه للضوء ناظرا فيه

بعدسة كعدسة الساعاتي يغرزها بين الحاجب والوجنة، فبدا التمثال في نظرى أنا غاية في الجمال يا خال. وه يا بوى وه، بحق الله من هذا الذى حدد هذه الملامح فوق كتلة من المرمر حتى جعلها تكاد تنطق؛ كيف رسم الإنفعال على الوجه والأبهة الملوكية في وقفة رمسيس الجامعة بين الكبرياء والتواضع بين الإلوهية والبشرية بين الخيال والواقع، بحق جلال الله يا خال هذا لا يقدر بثمن، مجرد النظر في تمثال كهذا يعلمك معنى الجمال يزرع في قلبك الحب لمصر ولأهلها القدامى..

دار التمثال على الجالسين واحدا واحدا مثل قنديل من ألوان الصفاء الوردى بجميع درجاته. كل من أمسكه ود أن يبقيه في يديه أطول مدة ممكنة، لولا أن يد الآخر تمتد لتقتنصه. تحلف اليمين يا بوى أنه كان له حضور ملكي مهيب لدرجة أننا جميعا انكمشنا في حضرته. فلما ظهر العقد الفيروزى المنقوش قامت قيامة الجميع وكادوا يقطعون سلسلته من شدة الجذب والتقليب؛ بل إن الأفندى الذى نصفه رجل ونصفه أنثى لم يتورع عن إحاطة عنقه به على سبيل التجريب؛ فلما استوت حباته على صدره انتفض إحليلى في الحال تهيجا عليه لأن العقد نفى نصف الرجل وضاعف حجم الأنثى فيه بصورة زاعقة يا خال. ثم ظهر العجل أبيس وطائر أبو قردان؛ ما كل هذه الرقة يا خال؛ لا يمكن أن يكون صانع هذا بشراً مثلنا؛ صدق ولد عمى حين قالوا عنها: المساخيط، إذ هي في نظرهم مخلوقات غضب عليها الله كما يقولون لشدة افترائها عليه فسخطها هكذا: نزع منها الروح فجمدها كل حسب معدنه الأصلى في الحياة، الحجر حجر والذهب ذهب والطين طين..

قامت الخناقة يا بوى، بالعربى هذه المرة، بل البلدى والصعيدى والحوارجى، الحاج قدرى مصمم على أخذ التمثال والعقد معا كما اتفقوا فى مبدأ الكلام؛ لقد اشترى قبل أن يرى ووافق على الأسعار بغير فصال فلا أقل من احترام الاتفاق. وحاج آخر أصفراوى الوجه والعينين كالثعبان من الواضح أنه زير ملآن بالفلوس، يهتف بصوت متحشرج مكتوم متآكل الأحرف بأن لديه زبونًا مهمًا جدا وعزيزًا عليه جدا بطلب هاتين القطعتين على وجه التحديد وأنه لهذا طلب من محمد بك أن يبحث له عنهما لدى معارفه فهما إذن فى الأصل باسمه ومن نصيبه، أما مسألة السعر فإنه لن يدقق بل لا يهمه مضاعفة المبلغ فى سبيل أن يظل رجلا فى أعين عملائه الأوروبيين الذين يثقون فى كلمته . .

انجعص محمد بك أبو شناف ملتفتا إليه، وأفتى بأنه يعرف سماسرة المتاحف هؤلاء وأنهم فى نظره أولاد قحبة لأنهم الرابحون فى النهاية. ثم حسم المعركة بأن خير الحاج قدرى بين التمثال والعقد فاختار التمثال، بل بادر بلفه فى منديله الحريرى ودسه فى جيب سترته الداخلى. فى حين مد الحاج الآخر يده فى كثير من الغضب المكبوت والكآبة فسحب العقد ووضعه بإهمال فى سيالته. وبدا أنه غير راض على الإطلاق. وكانت نظرات محمد بك أبو شناف تحوم حول الحقيبة الجلدية تحت كوع الحاج الأصفراوى. وبحركة تمثيلية، وكأنه يدخر له هدية أنقح من التمثال، أخرج رأس نفرتيتى صار يلوح بها فى وجهه كأب يختبر فرحة ابنه بلعبة جديدة. بالفعل انفردت أسارير الحاج الأصفراوى وابتسم واختطفها فى الحال كالطفل المنبهر ودسها فى جيبه

الداخلى فحدجه الحاج قدرى بنظرة معاتبة ثم أردف :

ـ «حلال عليك! شف كيف أنى لم أزعل الآن رغم أنى بالفعل كنت أتمنى هذه القطعة بالذات لكثرة الطلب عليها!!» .

فى خبث متقن هتف محمد بك :

ـ «نحن فيها! خذها واعطه التمثال!!» .

صاح الحاج قدرى :

ـ «ما دخل جيبى لا يخرج منه ثانية عدم المؤاخذة!!» .

ـ «خلاص! كل واحد حلال عليه ما أخذه!! ربنا يجعل سوقها أحلى منها!!» .

أما الرجل الثالث، وكان أفنديا غاية فى الإتزان والصمت والرقة فإنه ركن العجل أبيس وطائر أبى قردان فى حجره فى شكل غير بارز علامة أنهما من نصيبه ولا مجال لعرضهما على أحد أو مشاركته فى شىء منهما . بل إنه كان أول من افتتح المنظر البديع يا خال، كان يحمل كيسا من الفاكهة وضعه بجواره تصورت أنه يحتوى على تفاح أمريكى . سحبه وفتحه فإذا هو ملآن برزم الفلوس يا خال، ورق بنكنوت أخضر وأحمر مؤستك فى باكوات . . عد لمحمد بك مائتى باكو، فلوس مضغوطة حتى ليبدو الباكو كأنه علبة من ورق الكوتشينة، انتظر محمد بك برهة ثم قال :

ـ «ما هذا؟! أنت لم تأت على النصف بعد!!» .

أشار له الأفندى بأصابعه أن انتظر؛ ثم سحب دفتر الشيكات من

جيب سترته، وحرر شيكا برقم واحد أمامه أصفار كثيرة، سلمه لمحمد بك. حاولت التقاط الرقم فلم أتمكن لأن محمد بك طواه بسرعة ووضعه في جيب الصديرى، ثم جاء الدور على الحاج قدرى، الذى أخرج هو الآخر دفتر الشيكات وحرر شيكا برقم لم أميز على البعد إن كان تسعة أو ستة لكن الأصفار هى الأخرى كانت كثيرة. نظر فيه محمد بك ثم أعاده إليه بنظرة تأنيب فيها شيء من الوقاحة كأنها تكاد تشخر قائلة: «جرى إيه يا روح أمك؟!. فابتسم الحاج قدرى ومط بوزه كالمغلوب على أمره ثم سحب الشيك فمزقه وكتب شيكا آخر قبله بشفتيه وقدمه لمحمد بك:

ـ «مالى بركة إلا أنت!!».

طواه محمد بك وهو يرشقه بنظرة ولد صايع مخربش:

ـ «طب يا روح أمك! تشكر! ربنا يبارك على كل حال!!».

ثم اتجه بكليته إلى الحاج الأصفراوى الذى كان قد سحب الحقيبة وفتحها. مخى شت يا بوى؛ تحلف اليمين أن دماغى تشعثت: من أين تأتى كل هذه الألوف؟! فى البلد كل هذه الأموال يا خال وهناك ناس لا تلقى اللضى ويقولون دولة إشتراكية؟! يظهر أنها اشتراكية فى النهب والسرقة يا بوى. فلوس الحاج الأصفراوى جديدة لم تلمسها يد من قبل، أيكون هو الذى يطبعها بالكميات التى يشاء؟ غير مؤستكة لكنها مرصوصة فى باكوات محزمة بأحزمة ورقية عريضة عليها أختام وأرقام. خذ عندك يا بوى: الله واحد، ماله من ثان، العدد ثلاثة هب، أربعمائة خمسمائة ستمائة، ثم خلت الحقيبة ومع ذلك نزع منها دفتر الشيكات وحرر شيكا قدمه لمحمد بك فى لهجة مشوبة بالاعتذار والرجاء.

ـ «عفوا! هذا الشيك يستحق السداد أول الشهر القادم يعنى بعد ثمانية أيام فقط! ومن يدرى! ربما يسهل ربنا قبل موعد الشيك فآخذه وأعطيك المبلغ!! كله على الله! كله سينصرف بعون الله!!» .

قال محمد بك وقد لمعت صلعته الشبيهة بقطعة جرانيت رمادية اللون :

ـ «أعرنى هذه الحقيبة بعد إذنك!!» .

ـ «هى لك! حلال عليك!!» .

محمد بك إنهمك فى رص البواكى فى الحقيبة حتى امتلأت عن آخرها، فداس على الغطاء بقوة حتى وصل لسان الكالون إلى مستقره المحفور، ثم حرك تروس الأرقام حتى ساواها ببعضها ثم عاد فلخبطها ثم سلم الحقيبة إلى أخيه حازم مصحوبة بغمزة من عينيه، فنهض حازم مستأذنا، ومضى يهبط السلم الخشبى بسرعة . عند ذاك اعتدل محمد بك فى قعدته؛ رفع إحدى ركبتيه أسند فوقها ذراعيه، وبيده الأخرى مسح وجهه ورقبته وصلعته بمنديل حريرى معطر، ثم تنفس كأنه انتهى من معركة حربية خرج منها ظافرا :

ـ «يا . . ه!! كل ما كان فى رأسى طار! طيرتوه! أفقت الآن تماما!! أين حسن؟! شف شغلك يا أبا على! روقنا قبل أن ننصرف لنعرف كيف نتصرف!!» .

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

ـ «معك حشيش أم تراه نفد؟!» .

شعرت أنه يشجعنى على القول بأنه نفد، مع أن نصف الكمية لازال معى. فهززت رأسى مؤيدا فكرة النفاد. فنظر إلى الحاج الأصفراوى نظرة ذات معنى، فقدم هذا قطعة وقدم الحاج قدرى قطعة. أحييت النار. دور والثانى، تناهت إلى أسماعنا الخطوات فعرفنا أن صلاة الفجر قد انتهت. لكن الداخل كان حازم؛ فتلقاه محمد بك بسرعة: «سلمت الأمانة لأصحابها؟!». فقال وهو يخلع حذاءه ليتربع: «حصل!». بعده بقليل أقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى يتمتم بختام الصلاة فى جدية بالغة. وقف بالباب مستردا نظراته الصبيانية الشقية المرحة.

ـ «صباحين وحته!».

ردوا جميعا:

ـ «قشطة عليه!».

فظل واقفا كأنه يستعجل قيامهم، بل صار يوحى إليهم بذلك:

ـ «كله تمام؟ أى طلبات تنقصكم؟!».

عند ذاك نظروا جميعا فى ساعاتهم وقال الحاج الأصفراوى: «نهاركم سعيد!». ونهض واقفا. فسلم عليه محمد بك قائلا: تلفن لى غدا فى العاشرة مساء فى النمرة الثالثة. ثم سلم على الجميع مودعا، وقال لحازم: إسبقنى أنت إلى تحت. من الواضح أنهم جميعا يعرفون مسالك القصر وممراته، خاصة أن الحاج السنى أغلق جميع الأبواب بالمفاتيح فيما عدا الأبواب التى تقود السائر من تلقاء نفسها إلى الطابق الأرضى فالبوابة الخارجية دون أن يخترق بهو المدخل الحافل

بالتحف فوق المناضد. جلس الحاج السنى بجوار محمد بك وفى عينيه توق شديد للحساب. قال بلهجة مدببة ذات معنى:

ـ «اتعشينا؟!».

ـ «اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال!».

قدم للحاج قصاصة ورق دون فيها بعض الأرقام:

ـ «الحسبة كانت هكذا فيما أظن؟! أمامك عدد القطع وأمام كل قطعة حسابها! وأمامك الحسبة مجموعة جاهزة!!».

بنظرة سريعة مدربة استوعب الحاج السنى الحسبة كلها ومع ذلك قال بلهجة دافئة:

ـ «أحسب وراءك؟ والله عيب!!».

قدم له محمد بك الشيكات واحدا وراء الآخر:

ـ «بكم هذا؟».

ـ «بكذا».

ـ «وبكم هذا؟».

ـ «بكذا».

ـ «فيكون المجموع؟».

ـ «كذا».

ـ «وبكم هذا؟».

ـ «بكذا».

ـ «إذن فيصبح لى فى ذمتك ثلاثمائة جنيه زيادة تردها لى عندما تصرف الشيكات! سأظهرها لك فهى محررة لحامله!».

واستدرك:

ـ «إعط المئات الثلاث لحسن بقشيشا! حقه! من حضر القسمة فليقتسم!!».

كدت أستسلم للفرح لكن الله ألهمنى فرفعت يدى هاتفا فى إباء وشمم:

ـ «لا! تشكر يا سعادة البيه على كل حال! ولكن البقشيش بالنسبة لى لا! أنا لم أفعل شيئا! مستورة والحمد لله!

ـ «إذن فخذ المبلغ وتصدق به!! لكن لاترد كلمتى وتكسفنى!!».

ـ «عفوا يا سعادة البيه ما قصدت شيئا!!».

وكان الحاج السنى يراقبنى بابتسامة مرتعشة ماكرة فيما تلعب يده فى سيالته. ثم خرجت يده برزمة الفلوس مطوية، وتقدم منى ودسها فى سيالتى:

ـ «أنت الخير والبركة! وضعت لك فوق هدية محمد بك مائة جنيه من عندى!!».

وقال محمد بك:

ـ «عن إذنك أخذ حسن معى سأكلفه بمشوار!!».

ـ «كلنا ملكك يا سعادة البيه!».

ومضى خلفنا حتى الباب الخارجى؛ وظل واقفا يتمتم والمسبحة تتساقط حباتها في يده حتى سخن محمد بك سيارته وانطلقت بنا إلى منشية البكرى حيث مسكن حازم. وكانت الشمس تحاول أن تشرق ولكن الضباب الكثيف يكتم أنفاسها بشبورة خانقة. والناس تمشى فى الشوارع الطافحة بالمجارى لاهثة شاردة كئيبة، تتراص على محطات الأتوبيس، والسيارات تمرق من أمامهم لتهيل عليهم الغبار والأوحال.

بصــره

السيارة التى استدعاها حازم بالهاتف من موقف سيارات الصعيد حملتنا ثلاثتنا فقط : حازم ورفيقه المشعرانى فى الكنبة الخلفية . وأنا بجوار السائق : مسدسان بارزان فى جيبى صديرى كل من حازم ورفيقه ؛ مما أشعرنى بالأمان والخوف معا يا خال، لا أدرى كيف . وعندما فتح حازم حقيبة الأمس المستعارة من الحاج الأصفراوى وأورانى رزم الفلوس الحمراء والخضراء شعرت بضرورة وجود السلاح معنا يا بوى .

الله وكيل يا خال؛ القلق لم يفارقنى طوال الطريق على الرغم من أن حازم أغرقنا بالسجائر الأجنبية المحشوة بالحشيش، والأفيون، والشاى والقهوة من إبريقين مقفلين قيل لى إنه اختراع حديث يجعل الإبريق يحتفظ للشاى بسخونته كما نزلت من فوق النار، أو ببرودته كما خرج من الثلاجة. حاجة تهوس يا بوى، الرفيق المشعرانى ـ زاهى بك فيما أظن ـ لم يكف عن التنكيت والضحك طوال الطريق؛ نكت سياسية جريئة تسخر من عبد الناصر، ونكت قبيحة عارية. كل ذلك ودماغى فى البر الثانى من الوادى : كيف ستتصرف يا ابن أبى ضب فى

هذه الشغلة؟ لا مجال بالطبع لأن تتراجع لكن عليك أن تكون حصيفا كما نبه عليك صوت أبيك. عيناى ذابتا على الطريق يا خال؛ أمعنت النظر فى كل سيارة حاذتنا أو عبرت بجوارنا أو خيل لى أنها تعاكسنا، أنا ربك والحق أشم رائحة الشرطة مهما تخفت فى أزياء وتنكرت فى هيئات؛ أساس الخسة يابوى أن السلطة مغرية فضاحة لمن يعشقها إذ هو دائما أبدا يحب أن يشعر بأنه فوقك مميز عنك؛ شعوره بالسلطة أقوى من شعوره بالواجب ياخال، أقوى من قدرته على التخفى. . .

السكة أمان؛ ولم يظهر لى شىء يؤيد قلقى. وصلنا إلى أسيوط بسلامة الله يابوى. قلت: بس! هذه فرصتى لأتملك زمام الأمان فى السكة:

ـ «متشكرين يا أسطى! مع السلامة أنت!».

قاطعنى حازم باحتجاج حاد الصوت:

ـ «لماذا؟! اتفقنا معه من الباب للباب وحاسبناه!!».

صحت فيه باحتجاج أكثر حدة:

ـ «لو سمحت يابو العم! دعنى أتصرف كما يتراءى لى!! فالمهمة مهمتى! إن الأسطى لن يستطيع توصيلنا للمكان المطلوب وسط طرق ضيقة ومزارع وعرة!!».

لحظتها صاح السائق:

ـ «نعم! لم أكن أعرف هذا عند الاتفاق! اعملوا معروف! السيارة لا تحتمل الطرق اللولبية غير المرصوفة!!».

ـ «معك حق يا بو العم! سيارتك هذه رقيقة مثلك ونحن لا ينفعنا إلا سيارة صعيدية خشنة!! فاتكل على الله أنت!!».

وملت على حازم موضحا:

ـ «هذه سيارة بنمر قاهرية ومنظرها يثير الريبة حولنا يجعل الناس يخافون منا خاصة أن منظركما غريب على البلد!!».

بينى وبينك يا خال كنت أشك فى السائق أتصوره من بين الشرطة لقرب الشبه بينه وبينهم. فلما أبدى خوفه الشديد على سيارته لمحت وراء خوفه خوفا أكبر على حياته يعكس استرابة من المشوار كله، فداخلنى كثير من الأمان. صحبتهما إلى سوق أسيوط لنجلس على أحد مقاهيه بعض الوقت. تلقيت السلام الحار فى كل خطوة؛ مئات التحيات والشايات انهمرت علينا من كل من رآنا حتى انكمش رفيقاى بعض الشيء. أرسلت صبيا فى طلب سيارة من الموقف القريب؛ تصادف أن سائق السيارة يعرفنى؛ بالحضن يا بو على؛ أهلا يابو العم، بنا إلى الغنايم...

عندما صرنا فى مدخل البلد توقفنا عند عشة تبيع الشاى والقهوة، طلبت للسائق ما شاء من المشاريب وأعطيته حسابه وجزءا من حساب العودة على أن ينتظرنا بقية النهار بالمبلغ الذى يطلبه كى يعيدنا إلى أسيوط...

كانت الفكرة قد عششت فى رأسى يا خال، رأيت أن أدخل الرعب فى قلب رفيقى حتى يتسنى لى أن أكون مسيطرا على الشغلة. لففت بهما حول البلدة بهدف التضليل ثم توجهت بهما إلى مقهى المغارة فى

الجبل، تلك التى دخلتها ذات يوم صدفة وكنت على وشك الضياع فيها لولا ستر الله، ما أن دخلنا من باب المغارة حتى التقانا صاحب الكشك فى الحال المقام فوق المدخل ليخفيه بداخله. عرفنى صاحب الكشك فوجه لى ولضيوفى تحية مناسبة. رفيقاى تصورا أننا دخلنا الكشك لنشترى السجائر أو نشرب الشاى؛ فكانت المفاجأة صادمة حينما أشرت إليهما أن يتبعانى. هبطت بهما منحدراً خادعا يظن من يجتازه أنه يؤدى به إلى الطريق الزراعى ثم يفاجأ بأن الانحدار فيه لا نهاية له؛ ثم تبدأ السماء فى الاختفاء شيئا فشيئا إلى أن تختفى تماما فى القبو المظلم ثم داخل النفق الطويل.

بدأ الرعب يعتريهما فعلا يا خال. من خطوة لأخرى يسألنى أحدهما فى استرابة واضحة:

ـ «إلى أين نذهب؟!».

فأرد عليه بخشونة مبطنة بالرقة:

ـ «لا تخف مادمت معى!!».

إلى أن صرنا فى قلب المقهى، فاستقبلت فيه استقبالاً حافلاً يابوى كأننى من كبار الزوار بل كأننى صاحب بيت، أتخن شنب كان يجرى ليخدمنا. جاء الشاى ذو الرائحة النفاذة؛ جاءت الجوزة والحجارة؛ وكانت بقايا حشيش الأمس وأنبوبة زيته فى جيبى؛ فملأت الحجارة؛ شربت معهما بعض الأنفاس؛ ناديت للواقف وراء النصبة فجاء يهرول وكان عملاقا يخيل إليك أنه ضلع من الجبل دبت فيه الحياة. سلم على ضيفى؛ قلت له إنهما من أقاربنا فى مصر، فأعاد السلام عليهما بحرارة أشد قائلا:

ـ « إن شاء الله الغداء عندنا! جئتم فى موعده ولن تخرجوا من هنا قبل الغداء!! ما الذى تحبون أكله؟ رومى؟ بط؟ حمام؟ خرفان؟ جديان؟ كل هذا موجود عندنا ولن نشتريه!!».

استحسنت الفكرة التى لم تخطر لى على بال، قلت:

ـ « جهز الغداء الذى يعجبك أنت! وهذان الرجلان فى عهدتك وحمايتك حتى أعود! سأمكث حوالى نصف ساعة!!».

بأصبعه أشار الرجل الجبل إلى عينيه:

ـ « تحب أن نبعث معك حرسا؟!».

ـ « لا! الحارس هو الله!».

ـ «ربما احتجت لمن يعاونك!!».

ـ «الشغلة بسيطة!».

ـ «طالع فوق؟!».

ـ «نازل تحت!!».

ـ « بألف سلامة» إتكل!».

إستأذنت من ضيفى فأذنا لى بنظرة فيها من الإكبار والرهبة والخوف الممزوج بشجاعة مدعاة خرقاء ما هز قلبى بالفرح والتفاؤل. فقفلت عائدا إلى البلدة.

من فورى توجهت إلى دارى ففتحتها كالمتسلل. أزحت ملة السرير. بسن الكوريك أزحت التراب عن غطاء البئر ثم أخرجت ما فيه

فإذا بقلبى يرتعد خوفا وفرحا معا: الثروة كانت أكبر مما قدرت. وه يا بوى، كل هذه الأنتيكات والتماثيل عندى؟ حمداً لله. أنقضت يدى على التمثال الذهبى، شملنى الرعب الممزوج بالندم الكبير؛ كان التمثال أكبر من تمثال المرمر بحوالى خمسة قراريط فضلا عن أنه أثقل بكثير يابوى، هززته فى يدى فقدرت أنه يزيد على الكيلو جرام بكثير؛ ثم ما هذا الشغل يابوى؟ تمثال المرمر كان واقفا فحسب أما هذا فواقف فى مدخل بوابة المعبد الكبير وعلى كل من يمينه ويساره حارس بحربة مرسومين على صدغى البوابة أما هو فمجسد بكامله وجها وظهراً فى فراغ البوابة. وه يا بوى، أجننت يا ولد أبى ضب لكى تفرط فى هذه التحفة الثمينة يا ابن المرة؟! صحيح أن الفلوس كبيرة لكننى كنت أتمنى أن أحتفظ بها وبالتمثال معا، أو على الأقل يعود التمثال إلى مرقده حتى يجىء عدله. أوشكت أن أفعل يابوى، لكننى بصراحة خفت من بطش محمد بك أبو شناف؛ عزيت نفسى بأنه ربما صار لى نصيرا فى المستقبل؛ يجب أن أضحى كما يفعل الحاج أحمد نوار الدين السنى وهكذا لففت التمثال فى منديل دسسته فى جيبى؛ أغلقت البئر أهلت عليه التراب دلقت عليه قدرا من الماء دست فوقه حتى بطته أعدت ملة السرير إلى مكانها وخرجت إلى الشارع العمومى..

اتخذت طريقى إلى دار هليل فإذا به يلتقينى فى الطريق حيث كان فى طريقه إلى دارى بمجرد سماعه خبر وصولى ومعى ضيوف. فى كلمات قليلة أحطته علما بحقيقة الشغلة من طقطق لسلام عليكم؛ فدفعنى برفق نحو داره ليغير ثيابه ويأتى بمسدسه. بعد دقائق كنا فى مقهى المغارة..

وجدنا التحشيش قائما على قدم وساق . الصبيان الضخام استقبلوا هليل بما يليق به من الحب والترحيب . تناثرت عليه عبارة مساء النجف على المعلم من كل ناحية . قال الرجل الجبل وهو يقدم لى نصف كوب من الأفيون البلدى المذاب فى الشاى :

ـ «خبر وصولك طلع إلى فوق ! !» .

هتفت مستاءً :

ـ «لماذا؟ لم يكن هناك داع يا بو العم ! !» .

ـ «كان الخبر سيصل بنا أو بغيرنا فليصل بنا من باب أولى فنحن لا نستطيع كتمان خبر كهذا فكل من يدخل الجبل يصل خبره فى الحال قبل أن يجلس يا ولد عمى ! ! ولابد أن نعرف إن كان علينا أن نرحب به أم نطرده أم نتاويه !! الأصول أصول يا ولد عمى لا تزعل منها ! !» .

ثم استدرك وهو يتناول الكوب منى :

ـ «هات صحابك وتعالى ! عندنا قاعة لكبار الزوار يجب أن تشرفوها ! دعوا هذا المكان للركش والواغش ربما كنتم تحبون التحدث مع بعضكم فى شىء مهم ! !» .

أشار إلينا فتبعناه؛ مضينا فى القبو الواسع المستطيل مشواراً يقرب من نصف كيلو متر؛ ثم حودنا فى كوعة حادة بارزة كجدار يعترض الطريق . بعد الحودة مباشرة حودة أخرى أكثر حدة وبروزا، تليها عطفة تؤدى إلى تجويف سرعان ما أفضى بنا إلى تجويف أعمق على مساحة كبيرة مربعة مليئة بمقاعد حجرية كالمصاطب الملتصقة بالجدران وبعض مقاعد من القش . ما أن جلسنا حتى تبين لنا أننا فى حجرة مربعة لا باب لها تحيط بنا الجدران من جميع الجهات . .

جىء بدكة خشبية كبيرة امتدت أمامنا كمائدة؛ صار الصبيان الخناشير يبزغون فجأة من أضلاع القاعة حاملين الأطباق والأناجر والسلطانيات. رائحة الطعام الدسم فاحت حملتها نسائم لا ندرى من أين تهب. وليمة كبرى يا خال. كُلْ يا بو العم وهات معك من يأكل. قال الرجل الجبل أنه سيعطينا قيمة ساعتين نتمدد فيهما للراحة حتى نهضم الطعام وبعدهما يجىء بنفسه ليعطينا حبسة العصارى . .

الضوء النهارى كان متسربا من أماكن مجهولة. هذا بالنسبة للغشيم يابوى؛ أما بالنسبة لمخربش صايع مثلى اعتاد النظر والتدقيق فى كل خطوة فإننى لاحظت أن هذه القاعة محفورة فى الجبل بطريقة لولبية لتضليل الغريب من ناحية ولإدخال الضوء من ناحية أخرى جاعلا فى كوعه من الكوعات مسقط ضوء مفتوح على السماء فى قلب هضبة عالية. حاجة تهوس يا بوى. ومن الواضح يا خال أن هذه الحجرة المغارة تصفى مشاعر الجالسين فيها وتهدئ نفسه تمنع عنه القلق. طوحت بصرى على القاعدين معى فخيل لى أنهم جميعا من الملائكة الأطهار الأبرار . . .

تململ هليل فى قعدته:

ـ «نتكلم فى الشغل يابو العم؟!».

انتبه الضيفان فاعتدلا فى شىء من التحفز. قال حازم بفتور أقلقنى:

ـ «جئت بالأمانة؟!».

أشرت إلى هليل:

- «جئت لك بالمعلم نفسه صاحب الأمانة!!».

- «أهلا وسهلا! تشرفنا!!».

فمد هليل يده فى جيب الصديرى، سحبها بالمنديل الملفوف؛ فك المنديل عن التمثال الذهبى أمسكه من قاعدته السفلية رافعا إياه فى الهواء. أصابنا الذهول يابوى؛ الأفواه مفتوحة عن آخرها. المشعرانى زاهى بك تناول التمثال بكثير من التقديس كأنه يمسك مصحفا؛ صار يقلب، يمعن النظر فى كل ملمح، ينظر بالعدسة المكبرة، أخيرا سلمه لحازم مع كلمة واحدة:

- «تمام! مائة فى المائة!!».

نظر حازم إلى هليل:

- «على كم يا معلم؟!».

فى معلمنية ثقيلة يحسد عليها قال هليل:

- «مائتا ألف من أجل خاطر حسن وضيوفه!!».

قال المشعرانى:

- «الاتفاق لم يكن هكذا!!».

قال هليل:

- «شف يابو العم! ما كنت أنوى إظهار هذا التمثال بالذات لكنه حسن سامحه الله دائما مسحوب من لسانه! لهذه التحفة زبائنها يجيئون لحد عندها!!».

اعتدل حازم كأنه سيواجه حوتا ضخما:

ـ «يا معلم! لقد اتفق حسن مع ناس فى مراكز كبيرة فى البلد! وما أنا إلا واسطة خير أسلم المبلغ وأتسلم التمثال!!».

صاح هليل فى احتجاج دقيق متقن:

ـ «والله عال! بعتم واشتريتم وصاحب البضاعة كالأطرش فى الزفة!! المشكلة يا بو العم أن حسن نسى شكل التمثال فاتفق معكم على تمثال أصغر من هذا!!».

قلت كأننى أخلص ذمتى:

ـ «لم أبع ولم أشتر! أنا عرضت فحسب يا بو العم!! والرجل الطيب الذى تكلمت معه عرض أن يدفع الآن خمسة وسبعين ألفا وبعد أيام قليلة يدفع مثلها فقلت له سأحكم صاحب الشأن فأرسل معى هذين الرجلين الكريمين لإظهار الجدية فى الكلام إن وافقت يدفعان وإن لم توافق يا دار مادخلك شر!! فماذا قلت؟!».

ـ «قلت لا إله إلا الله!».

ونكس رأسه فى الأرض مفكرا. أراد حازم أن يأخذ خطوة عملية لإظهار الجدية: فتح الحقيبة، أفرغ ما فيها عد خمسا وسبعين باكو ملفوفة بأحزمة البنك، كومها أمام هليل قائلا فى أريحية:

ـ «هذه هى الفلوس خذها وخذ التمثال! نحن نشترى رجلاً! ومجرد مقابلتكم لنا تساوى فى نظرنا أموال الدنيا كلها!!

ثم إن أخى ـ وحسن يقول لك ـ رجل يشترى! رجل بمعنى الكلمة وصاحب صاحبه وينفع فى الزنقة ربنا لا يوقعك ولا يوقعنا فى أى زنقة!! ولا يصح أن أقول لك عنه أكثر من هذا وسأترك لمخك النظيف

معرفة من يكون أخى بالضبط!!».

ـ «أنت فى نظرى لا تقل عن أخيك ولا يرضينى أن أقصر رقبتك أمامه! أنت أيضا لا تقصر رقبتى! قلت إن أخاك رجل ولا كل الرجال! جميل يا بو العم! هذا تمثال غير الذى تصوره حسن ولا يمكن التفريط فيه إلا بسعر يساويه! سآخذ مائة وخمسة وسبعين ألفا الآن ويبقى خمسة وعشرون آخذها بعد عشرين يوما! خذ التمثال لتريه لأخيك حتى يقتنع!!».

ـ «معى الآن هذا المبلغ فقط! صدقنى!».

ـ «إذن فأخوك يسلم لحسن مبلغ المائة أو يعود حسن بالتمثال! مع العلم بأننى واثق فيك وفى أخيك وواثق أكثر فى نفسى فما ضاع لى حق أبدًا ولن يضيع بإذن الله!!».

واستدرك ناظرًا إلى نظرة ذات معنى:

ـ «سمعت ما قلته يا حسن؟!».

ـ «سمعت يا بوى!».

فاتجه ببصره لحازم:

ـ «شف يابو العم! التمثال أمانة معك سأسلمه لك أنت لا لحسن! وعلى قدر ثقتى هذه فيك أتعشم أن تعاملنى بمثلها! فاهمنى يابو العم؟!».

هز حازم رأسه فى امتنان؛ وبسرعة تناول التمثال فلفه فى منديل ثم دسه فى جيب الصديرى. فقمت أنا بإعادة رص البواكى فى الحقيبة

وسلمتها لهليل. طرح المشعرانى علينا طرحة سجائر ملغومة، وإذ مال ليشعل لنا بالقداحة فوجئنا بالرجل الجبل يدخل بالعدة ليسقينا حبسة العصارى . .

عند خروجنا اقتادنا الرجل الجبل من سكة بعيدة تخترق أحشاء سفح الجبل وسط فوهات مخيفة وكتل مائلة وبأحجار تتعانق فوق فراغات. طريق شديد الوعورة يا خال ملىء ببقايا جثث آدمية أكلتها الثعالب والثعابين والغربان والكلاب الضالة وكنا نتقافز فى مشينا لنتخطى الثعالب والحيات والكلاب الميتة والفئران الجبلية الضخمة، وأكوام قمامة، وإطارات سيارات وهياكل سيارات محترقة ودراجات بخارية متكسرة، وقبعات وطرابيش شائطة وأسمال بالية، صرنا نصعد فوق مدق ترابى محفوف بكتل الصخور الناتئة المدببة، صعودا بدا أنه لا نهاية له حتى تصبب العرق من جباهنا، وقرص الشمس الأحمر المخنوق يصير على مرمى حجر من رءوسنا تارة ويختفى تارات، إلى أن فوجئنا به قابعا فى السفح البعيد وسط بحيرة من الدماء، وكنا قد صرنا نهبط نحوه نكاد نتكفئ من سرعة الهبوط؛ فإذا بصفحة النيل أمامنا قد احتوت قرص الشمس، وإذا بالطريق الزراعى أمامنا. عندئذ سلم علينا الرجل الجبل مودعًا وواصل سيره حول الجبل ليدخل من كشك السجائر فيما واصلنا نحن إلى مدخل البلد من ناحية دارنا. سلم هليل علينا ومضى بالحقيبة تحت إبطه إلى داره، ومضيت بالضيفين إلى كشك الشاى حيث ينتظرنا السائق، الذى وجدناه فى حال من الرضا متربعا على المصطبة وقد احتفى به كثيرون من عائلة خرابة فقدموا له الغداء والحجرين المعتبرين. ولد عتره يابوى، صمم أن يوصلنا إلى القاهرة و . . طريق السلامة ياعسل . .

مكسب

وصلنا إلى القناطر الخيرية فى الخامسة من مساء اليوم التالى بعد أن استرحنا فى شقتى على نيل المنيل ثم ذهبنا إلى شقة حازم فى منشية البكرى حيث أجرى اتصالاته وعرف المكان الذى يجب أن نتجه إليه فركبنا سيارته فاتجهت بنا إلى منطقة نائية بحذاء القناطر بعيدة عن العمران بمسافة طويلة، هى عبارة عن غابة كثيفة من الأشجار المنسقة كأنها خارجة من محل الكوافير، والنخيل الملكى ذى الجريد الناعم. الطريق إليها ممهد بإتقان وممتد إلى داخلها يقول للسيارة واصلى سيرك. صارت أشجار الفاكهة تحف بنا من الجانبين، وثمة لمبات كهربية حمراء كعناقيد العنب تتدلى بين الأفرع الكثيفة. على مبعدة قصيرة ظهر باب الفيلا كقطب من الضوء. باب مسيج بالحديد الصلب المصقول اللامع على شكل درابزينات وشبكات ومصدات، يتم الصعود إليها بخمس درجات، ورغم أن المكان يحيطه الهدوء التام، ولا صوت إلا نقيق الضفادع، فإن المرء يحس أن هذا الهدوء ليس خالصا يا خال: فثمة نفس ثقيل الوطء يا خال، ثمة حرس رهيب يتفشى فى أحشاء الغابة وحواليها يرصد حركة كل نملة داخلة أو خارجة ومن الواضح أن لديه

علمًا بكل من سيأتى ولديه أيضا تعليمات بعدم الكشف عن نفسه إلا عند اللزوم. وهذا ما قد حدث فى الحال يا بوى، ما أن وقفت السيارة ونزلنا منها حتى ظهر من تحت الأرض أفندى محترم فى غاية الرقة والأدب؛ ألقى علينا التحية ثم أشار إلى السائق أن يتبعه. فمضى حازم بالسيارة خلفه على نفس الطريق الممهد العريض وقد كشفت أضواء السيارة عن الأفندى السائر أمامها فظهر المسدس متدليا فوق إليته اليسرى. مالبث حتى توقف وأشار لحازم بذراعه على حودة غير مرئية لنا تقود السيارة إلى طريق الخروج من جانب آخر، ثم اختفى. عاد حازم ليتقدمنا صاعدا الدرج. ضغط على زر فى الحائط، فسمعنا وشيشا صادرا عن جهاز يشبه الراديو الترانزستور مثبت على صدغ الباب، ثم انطلق صوت فيه خشونة وتوعد: «من بالباب؟». رد حازم فى الحال: «حازم أبو شناف ومعى صديقان!». فانفتح الباب من تلقاء نفسه بحركة آلية ذات صوت كأنه يدور فوق تروس ساقية من سواقى الفيوم..

دخلنا فلم نجد فى استقبالنا أحدا. ردهة كبيرة جدا مليئة بالأبسطة الملونة الناعمة اللامعة على الأرض وفوق الحوائط بين براويز لوحات ومرايا. تحف ثمينة موضوعة على أرفف وطقاطيق عالية. نجف كثير يتدلى من السقف كعراجين البلح الأحمر والأصفر والأسمر والأبيض والأخضر. أشكال وألوان من الكراسى والمقاعد والكنب والشلت والبفات متناثرة فى مجاميع متآلفة تفصل بينها ممرات ومناضد صغيرة عليها تحف تضاء بالكهرباء. تهنا فى الردهة يا خال، صرنا نتخبط يمينا وشمالا، لكن صوتا رن فى قلب الردهة صائحا من أعلى: إطلع يا

حازم. فقذفنا بأبصارنا إلى أعلى فإذا بأفاريز ذهبية لشرفات وبلكونات تلف حول الردهة. وكانت أعيننا قد ألفت الضوء الخافت فتبين لنا فى الركن البعيد سلم مائل بدرابزين خشبى مشغول بالأرابيسك ودرجه مفروش بالسجاد. اخترقنا المقاعد إليه. فى نهايته كان فى استقبالنا رجل أسود كالذين يظهرون فى الأفلام فى قصور الباشوات يرتدون جلابيب مقصبة. اقتادنا عبر ممر عريض مستطيل مفروش بالسجاد. موسيقى أجنبية خافتة الأنغام تزفنا منطلقة من كل خطوة، فى آخر الممر غرفة بدت مفتوحة كالملعب فيها أسرة ساحرة مفروشة بالحراير، ودواليب وخزنات ومرايا ومقاعد كالحمير المنجدة. من شدة اتساعها وارتفاع جدرانها بدت كأنها بلا سقف، تمتد حتى مشارف البصر بلونها الأبيض المزدان بظلال لبنية ونقوش زرقاء وحمراء خافتة، ولها أبواب عديدة لونها أبيض؛ شيش وزجاج وشبك سلكى، لم نميز الأبواب من الشبابيك إذ أن الأرض المغطاة بالخشب الباركيه تمتد تحت الأبواب المواجهة لنا على البعد، وفى العمق البعيد سماء متلألئة مترجرجة تخترقها أشرعة عملاقة وقزمية، صرنا نقترب منها فنميز فيها صفحة النهر المنداح ملتحفا بالسماء؛ وكلما اقتربنا ابتعدت الأشرعة، عبرنا الباب الثانى فإذا بنا فى شرفة ملحقة بالحجرة لا تقل عنها اتساعا مسقوفة بشرفة مثلها، مفتوحة كهذه على شاطئ النهر نصف سورها عواميد حديدية منكلة ومتداخله فى أشكال زخرفية. حاجة تهوس يابوى..

محمد بك أبو شناف ملقى فى كرسى خيزرانى كالأرجوحة بقاعدة دائرية تسمح لظهره بالتراجع حتى يلامس الأرض. كان مضطجعا

وبجواره ترابيزة عليها زجاجة وكأس، وعلى ترابيزة شقيقة مجموعة أطباق فيها جوز ولوز وفسدق. ترابيزة ثالثة صغيرة عليها طاسة نحاسية يرتص فوقها ما يقرب من عشرين غليونا مما يسمى بالبايب. دفع ساقيه إلى الأمام قليلا وكان يرتدى منامة فوقها روب. اعتدل به الكرسى. وضع الكأس وأبقى على الغليون بين أسنانه صائحا من فم مقفل:

ـ «سبع ولا ضبع؟! حمدا لله على السلامة أولا!!».

قال حازم وهو يلقى بنفسه على كرسى مماثل:

ـ «سبع طبعا!».

جلس المشعرانى وجلست. سحب حازم المنديل وفكه عن التمثال. انتفض محمد بك فاتحا فمه من شدة الذهول والرهبة:

ـ «يا سلا... ا... مْ!!».

واختطفه، صار يقلب فيه، يقربه ويبعده:

ـ «شىء يفوق الوصف! سأحقد على من يقتنيه!!».

عاجله حازم:

ـ «ولكن البيع ليس نهائيا مع الأسف!!».

فرحت بقوله إذ يطرق الحديد وهو ساخن، بدت على محمد بك صدمة من نوع صدمات قطاع الطرق الذين يدعون الأصول وتشى ملامحهم ونبرات صوتهم بأنهم مدربون على اختراقها. نظرته يابوى قالت ببريقها الجهنمى إنه بيع نهائى ولن تستطيع قوة فى الأرض إلغاءه، لكنه سرعان ما تسربل بإهاب الحكماء المسالمين:

ـ «ما المشكلة؟! لن يكون هناك مشكلة!!».

بكل وضوح وحيدة قال حازم:

ـ «هذا مختلف عن التمثال الذى وصفه حسن! لقد وصف من الذاكرة!! صاحب التمثال لم يقبل بأقل من مائتين: مائة مقدما والمائة الثانية فى ظرف عشرين يوما! وأنا تعهدت له عهد رجال أن التمثال أمانة عندى حتى يأخذ هو حقه كاملا! فإن وافقت حضرتك على هذا المبلغ فإن حسن يجب أن يأخذ الآن خمسة وعشرين ألفا ليعود بها! أو يأخذ التمثال ويرد المبلغ!!».

نظر فيه محمد بك متمعنا باستغراب ودهشة كأنه يريد أن يقول له: أنت معى أم معهم؟! لكنه استبدل هذه العبارة بقوله:

ـ «وأنت! ما رأيك فى هذا الكلام؟ وما رأى الخبير؟!».

بلهجة ذات معنى قال حازم:

ـ «ما رأيته ولمسته أن الرجل كبير الشخصية وقوى جداً وليس من السهل ولا من الحكمة مماطلته فهو واثق من نفسه إلى حد الجنون لكنها ثقة فى محلها!! وقد عاملنا باحترام وشجاعة وشهامة ولما كلمته عن حضرتك كان مستعداً لرد الفلوس وهو على ثقة بأنها ستعود إليه كاملة ثم إننى وعدته ويهمنى كما يهم حضرتك طبعا أن أكون عند وعدى!! بصراحة لقد أحببته واحترمته وقررت أن أكسبه صديقا إلى الأبد وأنت أيضا لو شفته ستقربه منك!! هذا ما حدث ولك الرأى فى النهاية!!».

زام محمد بك فى تفكير عميق ثم نظر إلى المشعرانى فهز المشعرانى رأسه فى تأييد لحازم، وأضاف:

ـ «تحفه لا مثيل لها فى العالم كله! لا يقدر على ثمنها إلا دولة!! وهى خسارة فى البهدلة بصراحة وحضرتك تفهم ما أعنى!!».

تناول محمد بك رشفة من الكأس ثم أشعل الغليون بولاعة ثم جذب عدة أنفاس متلاحقة. وضع التمثال بجوار الزجاجة فأشاع فى المكان كله بهجة ذهبية ذات أبهة وأنس. أخيرا قال محمد بك:

ـ «ماشى! أنا أيضا سأشترى هذا الرجل سأنفذ له كلامه فهو لا يجب أن يكون أرجل منا ونحن فعلا يجب أن نحتفظ به! خلاص يا حسن! الليل وآخره! قوموا شوفوا لنا حجرا نشربه قبل أن يطبق هذا البايب اللعين على صدرى!!».

تقدمنى حازم فى نفس الشرفة التى نجلس فيها. كانت الأشرعة فى مواجهتنا على مرمى رصاصة كما بدا لى؛ لكن الشرفة انكسرت فجأة إلى اليسار ثم امتدت إلى الأمام فكأننا ذاهبون مباشرة إلى الأشرعة التى بدت كأنها فى متناول اليد؛ لكننا تبينا أن الأشرعة لا تزال بعيدة وأنها تبدو قريبة لأن الفيلا مبنية على أرض منخفضة عن سطح النهر بمقدار الطابق الأرضى كله رغم ارتفاعه. أخيرا صارت الشرفة فوق سطح الماء فيما كانت الأشرعة فى العمق البعيد لاتساع النهر. هذا الجناح من الشرفة كان متكامل الجدران لكنها جدران من الزجاج والألمونيوم وهو زجاج ترى منه كل ما فى الخارج دون أن يراك من بالخارج؛ أخبرنى حازم بذلك لما رآنى متحرجا من أن يرانا من هم على ظهر هذه السفن. حاجة تهوس يا بوى..

القعدة كانت متكاملة يا خال تقول للخرمان إجلس وإنس الدنيا كلها فى هذه الجنة. حشايا ومساند أرضية، حصائر ملونة فى أركان

متعددة، طبليات من خشب مصدف. فى أحد الأركان ثلاث جوزات فى قلب دلو كبير علئ بهضاب ثلج وماء؛ بوتاجاز صغير يشبه الكلوب، براريد وأكواب فوق صوانى من الفضة، شكارة ملآنة بفحم من شجر البرتقال أشار إليها حازم قائلا:

ـ «شوف شغلك يا حسن! هذا فحم يشتعل بعود كبريت!!».

كانت القعدة يابوى لا ينقصها سوى الشاربين. نظرت حوالى فلم أجد أحداً فبدا الجو موحشا بعض الشىء وخيل لى أن مخلوقات غريبة ستنط من النهر لتنقض علىّ؛ تراءى لى فى كل ركن شبح غامض الهوية. وكانت الستائر المنزاحة تهتز وتثير صلصلة وخشخشة وهسيسا يختلط بهدير الموج الذى يبدو مع ذلك ساكنا تماما؛ وثمة غناء حزين يقطع القلب يابوى كان الهواء يلعب به يطوحه هنا وهناك. قمت مشيت نحو الأشرعة؛ كانت كأنها معى فى الشرفة. خيل لى أنى يجب أن أفعل شيئا؛ مضيت إلى الداخل كى أنادى عليهم. التقانى حازم مهرولا لمنعى من مبارحة المكان. غمزنى بقطعة حشيش كبيرة كالرشوة المفضوحة. وغمز بشفتيه قائلا:

ـ «شف مزاجك وحدك حتى نجىء فأمامنا دقائق ربما تطول!! إسرح مع نفسك ومع الجو هنا ولا تقلق إن تأخرنا عليك!!».

بقيت وحدى متربعا تحت الشباك أدخن الحجر تلو الحجر حتى تعبت، صرت أتسلى بغناء صعيدى آت من السفن، وبمنظر السيارات رائحة جائية بأضوائها الشبيهة برياح مرئية تكنس الأرض. سئمت يا خال، شعرت بالجوع، تخنت وجهى وقمت؛ مضيت على أطراف أصابعى نحو الداخل. عبر الحوائط الزجاجية الداخلية المتقابلة رأيتهم

منهمكين فيما يشبه العراك الصامت وقد تحلقوا الترابيزة الزجاجية الكبيرة: محمد بك وحازم وزاهى المشعرانى و . . . الحاج الأصفراوى. عجبت كيف جاء دون أن أشعر به. أخذت أقترب على أطراف أصابعى، ارتعت يا خال، كانت رزم الفلوس مكومة على الترابيزة كهرم سقارة المدرج: البنك الأهلى أو بنك مصر لا أظنهما يحتكمان على مثل هذه الكمية من الفلوس. تدهورت رأسى يابوى: كيف يمكن لإنسان واحد - مثلى ومثلك يابوى - أن يمتلك كل هذه الأموال؟! كيف استطاع أن يحملها ويمشى بها؟! وإذا كان لشخص أن يدفع كل هذه الأموال فى بيعة واحدة فما الذى يمكن أن يقبضه بعد بيعها وماذا يكون رأسماله ومن يكون ذلك المشترى يا خال؟!.

أخيرا هب محمد بك واقفا، صار يلم هذه الرزم ويرمى بها فى شكارة من شكائر البريد. نهضوا جميعا واقفين فاستدرت فى الحال عائدا إلى مقر القعدة وركبى تهتز برعشة شملتنى من شال العمة إلى أصابع قدمى. استأنفت قعدتى أمام النار لكننى جعلت وجهى تجاههم. رأيت أشباحهم تتحرك. مضى حازم أمام الحاج الأصفراوى فى الممر الذى جئنا منه، ثم سلم عليه وعاد. رأيت محمد أفندى يضع جهازا صغيرا فى جيبه ويعطى آخر مثله للمشعرانى ثم يمسك بلفة من ورق الجرائد منفوخة ثم يقبل نحوى فيلحق به المشعرانى وحازم. اقترب منى محمد بك بابتسامة عريضة:

- «شف يا حسن يا إبنى نحن لسنا أقل رجولة من قريبك هذا! سنقسم البلد نصفين فلا نظلم قريبك ولا نظلم أنفسنا! سنأخذ الآن خمسا وسبعين ألفا مرة واحدة ولا يبقى لكما عندى أى شىء!! هذا هو

العدل والإنصاف وأتعشم أن تفلح فى إقناع قريبك بأن يشترينا هذه المرة ويكسب منا فى المرة القادمة!! أليس كذلك؟!».

وضحك؛ فرقص قلبى من الفرح لهذه الثروة التى هبطت على من حيث لا أحتسب. سللت صوتى من جراب صدئ:

- «يا سعادة البيه الصعيد كله ملكك! نحن جدعان ونشترى الرجال بأغلى من المال! وقريبى أرجل منى! هات المبلغ يا سعادة البيه ودع الباقى لى!!».

ربت على كتفى بيده:

- «حازم سيوصلك به إلى بيتك!».

وناولنى اللفة فاحتضنتها بقوة. ووجدتنى أقول دون أن أدرى - لكى أسبك الشغلة:

- «بهذا أكون طلعت من المولد بلا حمص! باع البياع واشترى صاحب المال وضاع السمسار فى البلموطى!!».

ضحك بصوت مجلجل. إلتفت الى حازم:

- «أعطه ألفين يا حازم! وحلال عليه ما سيأخذه من قريبه!!».

أومأ حازم برأسه بحركة: نحن مع بعضنا لآخر الليل؛ فهززت رأسى أن: وماله. ثم دخلت بالبوصة على محمد بك؛ فأمسكها واقفا وراح يعزف على ماء الجوزة لحنا طروبا بعث النشوة فى رأسى يا خال. ثم إنه جلس متربعا على شلتة فوق حصير ملون. وحينما وقفت لتغيير ماء الجوزة لمحت على البعد فى الضوء الخافت حازما يفتح شنطة

السيارة ويضع فيها الشكارة ويغلقها ثم يكلم الأفندى الواقف فى الحديقة قائلا: دعها هنا قريبة من أعيننا، ثم يرتد عائد. دخلت بالبوصة على محمد بك ووجدتنى أقول له على سبيل المزاح:

ـ «على فكرة يا سعادة البيه! نفسى ومنى عينى أن أدخل الانتخابات لأصبح عضوا فى البرلمان!!».

ضحك حتى أبعد البوصة عنه ماسحا عينيه بمنديل:

ـ «وماله! وهل تظن من فى البرلمان أحسن منك؟! رشح نفسك يا رجل واتكل على الله!».

ـ «هل كل واحد يمكن أن يرشح نفسه؟!».

ـ «إلا أصحاب السوابق بالطبع! وحتى هذه يمكن أن تحلها أنت وشطارتك!!».

ـ «وكيف يرشح الإنسان نفسه يابوى؟!».

ـ «يذهب إلى البرلمان ويملأ استمارة الترشيح وينتظر أياما حتى يبلغوه على عنوانه إن كان ترشيحه مقبولا أم لا!! فإذا كان مقبولا تذهب إلى دائرتك وتقوم بالدعاية اللازمة لنفسك!!».

ـ «دعاية كيف يا بو العم».

ـ «يعنى تجتمع بالناس وتقول لهم سأفعل لكم كذا وكذا من الخدمات! ويجىء يوم الانتخابات فيتوجه المواطنون إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم! ويتم الفرز وتظهر النتيجة!!».

ـ «زين يا بوى زين!! هل يمكن أن تخدمنى فى هذه الاستمارة؟!».

ضحك، أشار لحازم:

ـ «حازم يساعدك إن شاء الله حينما تنوى عندما يحين موعد الانتخابات!!».

ـ « وهل للانتخابات مواسم يابوى كالزراعة؟!».

ضحك حتى نفد وقاره:

ـ «طبعا! حينما يجيء موعدها سأقول لك!!».

رن صوت كشقشقة العصفور. سحب محمد بك الجهاز من جيبه، رفع غطاءه فضوعف حجمه: آلو.. هو تليفون إذن بغير سلك ولا دياولو. أخذ يردد:

ـ «نعم! أيوه! وماله! هاتها وتعال! وحسن بك أيضا؟ ماشى! سنؤجل العشاء حتى تحضروا بسلام!».

وطوى الجهاز ووضعه فى جيبه:

ـ «مفاجأة يا حسن! الشيخة سعادة آتية بعد قليل مع الحاج أحمد نوار الدين السنى وحسن بك!».

ـ «معقوله؟!».

ـ «حسن بك هذا ليس أنت بالطبع! إنه صديق لنا من أعضاء مجلس قيادة الثورة!».

ثم أخذ يصفق كفا على كف، استطرد مندهشا ومعجبا فى نفس الوقت:

ـ «العالم جُن!! تصوروا أن بعض أعضاء السفارة الأمريكية هم الذين دعوا الشيخة سعادة هذه المرة للتعرف عليها والتبرك بها عن طريق صديقنا حسن بك؟! رجل أعمال سعودى يعمل بالسياسة نقل لهم أخبارها بأنها ساحرة تجيد قراءة الطالع السياسى للأشخاص وللدول!! يعنى تشوف بخت دولة مثلا!! ها ها ها!! عندها تنبؤات خطيرة بالنسبة للعالم كله ولكبار السياسيين والزعماء!! قيل إن معها كتاب سحر فرعون تجيد تفنيط أوراقه وتوزيعها على الأيام والشهور والأبراج لتخرج بنتائج يقولون إنها صادقة ومهمة!! تنبأت لرجل الأعمال السعودى بأشياء حدثت بحذافيرها!! وزميلنا حسن بك يحلف أنها ترى كل ما فى دماغه ودماغ غيره ويتحدث عنها مع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة!! حسن بك أرسل من أتى بها من أسيوط كما يفعل دائما! ذهب معها للسفارة الأمريكية شافت شغلها هناك ثم دعاها لقضاء بقية السهرة هنا!! الحاج نوار الدين يقول الآن إن الأمريكيين فتنوا بها وأكرموها كرما زائدا خاصة أنها لا تتقاضى أى أجر وهذا ما يزيد الثقة فيها باعتبارها ليست محترفة تتكسب!! ليلتنا فل إن شاء الله!! إرفع زجاجة الخمر يا حازم واخفها فى أى مكان حتى لا يصدع حسن بك رءوسنا بالحرام والحلال!!».

سحب الجهاز الثانى من جيبه. ضغط على زر، تصاعد الوشيش بصوت عال أصوات طشطشة وغليان ومواتير خلاطات زاعقة، جاء صوت رجل:

ـ «الشيف تحت أمر سعادتك!!».

ـ «مساء الخير يا شيف! ما أخبار العشاء؟!».

ـ «تحت الطلب يا أفندم!».

ـ «زاد عدد الضيوف ثلاثة! وربما أكثر!!».

ـ الخير كثير بإذن الله!».

ـ «سنطلبك بعد قليل! شكرا!».

ووضع الجهاز أمامه:

ـ «هذه ليلة المفاجآت السارة! إسقنا يا حسن طاقما سريعا قبل مجيء الضيوف!!».

ورحت أسقيه بأعصاب مضطربة من الفرح يابوى.

أوراق السر الأعظم

ما أظن يا خال أننى سأجد شبيها بأختى سعدية التى حققت ما يشبه المعجزات . حقيقة الأمر يا خال أننى لم أكن عرفتها على حقيقتها أثناء الطفولة ؛ فطفولتى كانت شريدة شقية ، أبعدتنى عن الدار مددًا طويلة يا خال نسيت فيها أشياء ولم أفطن لأشياء . فمما كنت نسيته مثلا يا بوى أن أختى سعدية هذه سعيدة الحظ من يومها تستقطب الحب من القلوب المتصخرة فهى الوحيدة التى اصطفاها عمى الفقيه الكبير أثناء طفولتها لكى يعلمها الكتابة والقراءة ـ رغم أنه ضرير ـ خيرا من كتاب القرية ومدرستها ، ولكى تخدمه ـ فى نفس الوقت ـ أثناء انشغاله فى الدرس لمريديه وطلابه وطلاب الفتوى . كل الكتب كانت فى رأسه فحين يجىء من يطلب إليه الفتوى يطلب من سعدية أن تأتى بالكتاب الخامس على اليمين من الصف الثالث للرف المجاور للباب ، ثم يأمرها بأن تفتح صفحة كذا وتقرأ من بداية السطر السابع مثلا . فتفعل بلهجتها الركيكة المتعثرة ولكن تلويحة العصا القاسية تجعل ذهنها صاحيا يتجنب الخطأ فى نطق الحروف وتشكيلها قدر الإمكان وهو لاينى يصحح لها . وبعد قراءتها فقرة أو فقرتين وربما صفحة أو صفحتين يطلب كتابا آخر

فيستمع منه إلا صفحة أو صفحتين، وقد تدرخ البنت بين عشرة مجلدات رائحة عائدة بها مقلبة صفحاتها لكى يتمكن هو فى النهاية من إصدار فتوى مكونة من خمسة أسطر وربما أقل. ولما كان جميع أبناء عائلة أبى ضب قد فاتهم قطار التعليم فإن جميع كتب عمى الكبير قد اندفنت فى دواليبها العتيقة حتى شاطت أوراقها وأوشك أبناء عمومتى على تبد يدها إهمالاً وبعزقة لولا بقية من تقديس موروث للورق المكتوب إكرامًا لخاطر القرآن الكريم؛ إلى أن أنقذتها أختى سعدية فأخذتها كلها إلى الجبل استجلابا للبركة والفأل الطيب.

طب ما قولك يا خال أننى أتذكر الآن لحظات طيبة؛ إذ تحكى لنا سعدية فى الليل كل ما سمعته من عمها الكبير وضيوفه وحول ماذا دارت معارك اليوم بينهم وبينه. والله يا بوى كانت تتكلم مثلهم بالنحوى الفصيح وهى بنت ست سنوات. وفى صباها كانت من اللماضة ومرونة اللسان على درجة كبيرة. . .

يالها من امرأة قوية جبارة. تصور يا خال أن رمش عينها لم يطرف حين رأتنى فى القعدة؟ كل ما هنالك أنها هزت رأسها قائلة كأنها تخاطب شخصا رأته من قبل مرة واحدة عابرة:

ـ «كيف حالك؟ طيب؟ الحمد لله!».

ثم انصرفت عنى بوجهها الذى انسدلت فوقه الطرحة الحريرية البيضاء الشفافة. كان فى صحبتها الحاج أحمد نوار الدين السنى، وذلك المدعو حسن بك عضو مجلس قيادة الثورة ذو اللحية السكسوكة. تناولنا العشاء الدسم فى حضورها بشراهة دون أن تنفتح لها شهية؛ إنما اكتفت بتمرتين أخرجتهما من حقيبة يدها الشبيهة

بالصندوق السحرى قائلة إن هذا هو غذاؤها على الدوام. احترامًا لها أمر محمد بك أبو شناف بإيقاف وإبعاد الشرب بجميع أنواعه جالسا أمامها كالتلميذ المذنب هو وحسن بك والجميع فى حالة ترقب لكل كلمة تخرج من فمها . .

الأضواء يا خال كانت خافتة، هادئة والهواء الطرى يربت على أكتافنا بيد حريرية حانية. صوت أذان الفجر ارتفع كأن المدنية قد تفجرت فجأة بصوت الله أكبر ترجعه مئات المآذن بمكبرات الصوت فى جميع الأنحاء. نهضت الشيخة سعادة لصلاة الفجر، فاقتادها الحاج أحمد نوار الدين السنى إلى ركن بعيد جدًا فى آخر الغرفة الواسعة، وعاد فأمَّ الصلاة بمحمد بك وحسن بك وحازم والمشعرانى الذى ظهر أنه انضم على سبيل المجاملة للمصلين فحسب. وجدت نفسى فى وضع بايخ يابوى، فقمت - غفر الله لى - وانضممت إلى الصف بغير وضوء، موحيا للجميع بأننى على وضوئى وجاهز للصلاة فى أية لحظة. لكننى ما أن فعلت حتى فوجئت بالشيخة سعادة كالقضا المستعجل تربت على كتفى بخشونة قائلة بحدة:

- «أنت! عيب عليك! إذهب وتوضأ!!».

ثم فعلت نفس الفعل مع المشعرانى وحازم؛ لكنها سلطت عينيها على المشعرانى بنظرة غاضبة حارقة؛ فارتبك حتى ارتعش. فقالت له:

- «أما أنت فعليك أن تستحم قبل الوضوء!!».

حاول أن يفتح فمه لينطق فى احتجاج مرسوم على وجهه إلا أنها صفعته بنظرة آمرة بالسكوت مؤنبة، ثم أمسكت بطوق ثوبها وهزته

متأففة متشممة. فلما رأته مصرا على غبائه قالت له بصريح العبارة:

ـ «ألا تشم رائحتك؟! كيف تمشى هكذا؟! من يخطف المتعة الحرام خطفا كاللص فيجرى والنجس عالق بجسده لا يصح أن يخطف الصلاة!! لقد أفسدت صلاة هذين الرجلين الفاضلين!!».

ثم هتفت برفق فى أذن الإمام:

ـ «إن الله مع الصابرين! أقم الصلاة من أولها يا مولانا واسبقها بركعتين للاستغفار!!».

ففى الحال سلم الإمام واقفا ذات اليمين وذات اليسار، ثم بصوت عال نوى الصلاة ركعتين للاستغفار، فتبعه كل من حسن بك ومحمد بك. أما ثلاثتنا فقد وقفنا غارقين فى البلل؛ فيما عادت هى إلى مقر صلاتها. دون أدنى تردد مضينا خلف حازم كالتلاميذ الأشقياء إلى دورة المياه كى نتوضأ. لم يجرؤ أى منا على التبجيح فى وجهها والادعاء بأنه متوضئ؛ وهتف المشعرانى وهو يخلع ثيابه على باب الحمام فى غير حياء:

ـ « هذه الشيخة نافذة البصر ومن يشكك فيها أخزق عينيه!!».

وقال إن هذا الحمام تاريخى بالنسبة له لأنه لن يكف عن التطهر بعد ذلك مطلقا.

على الضوء الخافت يا خال خرج الكتاب المفصص الأوراق من حقيبة يد الشيخة سعادة محاطا بهالة من الرهبة والتقديس. العيون كلها عمودية عليه. كان عبارة عن رزمة من ورق البردى الأثرى متساوية الأحجام طولا وعرضا؛ تقريبا فى حجم كف اليد الكبيرة،

مربوط بشريط حريرى أحمر . نزعت الشيخة سعادة هذا الرباط ، قلبت في الأوراق بحركة من يفنط ورق الكوتشينة . الورق كلة مليء بالرسوم والنقوش ، بعضها أشكال زخرفية ملولبة تتخللها شرط تشبه الأرقام ، ورسوم لوجوه وسيوف وآنية ودوائر حاجة تهوس يابوى . .

راحت ترص الورق على الأرض وأبنية ودوائر فى كومتين ، فصلت كل كومة عن الأخرى ، فإذا بمجموعة كثيرة الورق والأخرى أقل بكثير . محسوبك ـ لا أدرى لم ـ كان يعد الورق وهى ترمى به ، فعرفت أن الكومة الكبيرة عددها ست وخمسون ورقة ، تقريبا كعدد ورق الكوتشينة الجديدة ؛ أما الكومة الصغيرة فكان عددها اثنتين وعشرين ورقة ، ورسومها تختلف عن رسوم المجموعة الكبيرة . فمجموع الورق كله ثمان وسبعون ورقة بالتمام يا خال .

صاح المشعرانى وقد اقشعر صوته :

ـ «حازم! هل تذكر؟! رأينا مثل هذا الورق فى النمسا!! يوم زرنا العراف النمساوى ليكشف لنا عن حظنا فى ذلك المشوار المعقد المؤلم إياه وكنا متشائمين! نفس هذه الرسوم ولكن على ورق حديث بمطابع حديثة وعليها أرقام لاتينية!!» .

ظهر على حازم ومحمد بك كثير من الحرج ، وغمغم حازم :

ـ «نعم ! يبدو هذا! أظن!» .

قالت الشيخة سعادة :

ـ «هذا كتاب التاروت المصرى! ورثته عن أجدادى ولكن الذى كشفه لى وعلمنى قراءته هو أستاذى العراف المغربى الحسين بن عزيزة

لعلكم سمعتم به!!».

هتف حسن بك:

ـ «أنا قابلته شخصيا عند الملك الحسن! تكلمت معه! هو رجل مبروك وجهبذ من جهابذة قراءة الكف والفنجان فى العالم فكيف عرفته يا ستنا الشيخة؟!».

قالت الشيخة سعادة:

ـ «أنا قابلته فى الحجاز عند أحد الأمراء وقام بيننا الود فى الحال حصل اتصال روحى عاجل! دعوته إلى مصر ليزيدنى من علمه وحينما أورانى نسخة مقلدة من هذا الكتاب مطبوعة حديثا تذكرت ما عندى وجئت به من صندوق عمى فكاد يغمى على الشيخ من شدة المفاجأة قال إنه الأصل المبارك الذى لم ينزع عنه سحره القديم إذ هو مرسوم باليد!! فما كاد يفك لى رموزه حتى صرت بعون الله كأننى مؤلفته ومع ذلك فكل يوم أتعلم منه شيئا جديدا!! لقد ألفه أجدادى المصريون ليحفظوا فيه سر ما توصلوا إليه من تقدم وعلم وحضارة لكى يحافظ عليها أحفادهم!!».

أمسكت بالمجموعة الكبيرة لوحت بها:

ـ «هذا ما تقول به هذه الأوراق وهى المسماة بأوراق السر الأصغر!!».

منظرها يا خال، وهى تتكلم عن الأوراق شارحة كل ما يتعلق بها بفصاحة وطلاقة لم يكن غريبا علىّ يا خال، لم يدهشنى على الإطلاق يا خال؛ فالمنظر مألوف لى تماما يا خال؛ ومن زار معابد الفراعنة فى

الصعيد فلابد أنه شاهد الكثيرين من أمثال الشيخة سعادة، تضم وفود السياح رجالا وسيدات من المثقفين المتعلمين تعليما عاليا : ومع ذلك يتلقفهم فلاح صعيدى لم يدخل أى مدرسة لا يعرف القراءة ولا الكتابة لكنه يشرح لهم معانى النقوش وصور الحوائط صورة صورة نقشا نقشا فى حدوته متسلسلة مليئة بالمعلومات الثمينة المبهرة والأحداث التاريخية الكبيرة؛ فيستمع إليه المتعلمون دارسو التاريخ فى الكتب فلا يجرؤ أحدهم أن يتفلسف عليه قائلا كيف علمت هذا لأن الجميع يعلم أن هذا المرشد الصعيدى الأمى قد حفظ هذه النقوش عن رواده الأوائل من أساتذة التاريخ وأضاف إلى ما تعلمه ما أنشأه خياله استكمالا وتصوراً، فلماذا أفلح فى هذا يابوى؟ لأنه عشق هذه النقوش عشقه لما تنطوى عليه من وقائع وحواديت . . وهكذا بدت أختى سعدية يا خال.

هاهى ذى أمسكت المجموعة الثانية القليلة الأوراق لوحت بها :

ـ «أما هذه الورقات فاسمها أوراق السر الأعظم!! أثبتت فيها أجدادى ما سيقع فى الحياة وفى البلاد على امتداد واحد وعشرين قرنا من الزمان تبدأ بميلاد المسيح يعنى ألفين ومائة سنة! مضى منها ألف وتسعمائة وواحد وتسعون فيبقى عشر سنين! فكلما حدث فى السنين الفائتة وما سيحدث فى السنين العشر الباقية مثبوت فى هذه الورقات!!».

بعينين ضيقتين سألها الحاج أحمد نوار الدين :

ـ «ولكن ما معنى التاروت ياستنا الشيخة؟!».

بسرعة أجابت :

ـ «يعنى الطريق المصرى بالفرعونية يا مولانا!!».

ـ « أفادك الله!!».

ثم انكمش يستمع فى شغف؛ واستدركت الشيخة سعادة:

ـ «بعضهم يقول إنها الطريق الملكى!!».

نظرات حسن بك تتسع، تعتريه حالة من التحفز المتوتر، حالة من يريد أن يعرف كل شىء دفعة واحدة وفى الحال، وإذا به يابوى يطرقع بأصبعيه صائحا:

ـ «حلو! حلو» مهمتك الليلة ياستنا الشيخة أن تكشفى لنا نبوءة أوراق السر الأعظم هذه! نحن فى عرضك، نريد أن نعرف ماذا سيجرى لبلدنا فى السنين القادمة!!».

رمقه محمد بك أبو شناف بنظرة فيها من الاستغراب والدهشة قدر ما فيها من فضول لمعرفة ما ستتنبأ به الشيخة سعادة، وحينما تقابلت نظرته مع نظرة حسن بك ظهر اكأنهما متواطئان على شىء خفى مشترك بينهما، ثم اتجها بالنظر إلى الشيخة سعادة فى شغف واضح واهتمام كبير مغلف بالمرح. قالت الشيخة سعادة:

ـ «تريد أن تعرف السر الأعظم؟!».

كانت لهجتها تعكس السؤال والجواب معا، كأنها تريد أن تقول له: أنت تريد ذلك وأنا أيضا أريده. ثم أمسكت بالمجموعة الصغيرة فأعادت النظر فى أوارقها واطمأنت إلى ترتيبها ثم وضعت الرزمة مقلوبة على وجهها.

المهرج

تمهلت برهة طويلة يا خال، قلبت خلالها نظرتها الثاقبة فى جميع وجوهنا، ثم رفعت الورقة الأولى وقلبتها على ظهرها أمامنا، فإذا هى رسماية تكاد تكون صورة طبق الأصل من ورقة الكوتشينة المسماة بالجوكر لولا اختلافات طفيفة جدا يا خال، ربما اختلاف يد الرسام الحديث الذى شذب خطوطه من ظلال خطوط الرسام القديم: رجل كالبلياتشو، يقف فاتحا صدره العريض مادا إحدى قدميه إلى الأمام فى حركة شبه راقصة، الفخذان مفتولان مكتنزان بعضل رشيق وكذلك الساقان فكل ساق ملفوفة بما يشبه الجورب الواصل إلى الركبة تتدلى منه شراريب، كل ساق بلون مختلف عن الآخر. فى قدميه حذاء أشبه بحذاء الأطفال كل فردة مختلفة اللون عن الأخرى أما جسده القوى فملفوف بما يشبه العباءة إلى أسفل البطن، جانبها الأيمن أزرق، وكذلك جانبها الأيسر أما المساحة التى تغطى البطن فما بين الأصفر والزيتى، حتى الياقة التى تحيط بالعنق يتقاسمها اللونان الأزرق والزيتى، ذراعاه أيضا كذلك، على رأسه غطاء أشبه بكلبوش صوفى ذى أذنين طويلتين مائلتين على أذنيه تبدو كل منهما فى ميلها كرأس

حصان صغير، اليمنى زيتية اللون واليسرى زرقاء، بقوة ظاهرة يمسك بيسراه عصا من عصى الشرطة لكنها مغلولة إلى عنقه؛ فى حين فرد كف يمناه رافعا أصبعه السبابة كمن يتشهد. على شفتيه ابتسامة عابثة لا مبالية، وفى عينيه نظرة مرسلة إلى بعيد فى تفحص وإن أوحت بأنها تعرف كل شىء سلفا.

قالت الشيخة سعادة مشيرة إلى الورقة:

- «المهرج! الورقة الزائدة! غير المحسوبة لا رقم لها إذ هى موجودة فى البدء قبل الترقيم! تطفو دائما فوق الأعداد! رغم أنها لا رقم لها بين الورق فإنها محسوبة فيه يحلو للكثيرين اللعب بها بل هى ورقة الحظ!! فى يمناه العصا رمز لقوة الردع والتأديب! وفى أصبع يسراه النذير والتحذير والوعيد!! أصبع يسراه كأنه يقول أنا ربكم الأعلى والعصا فى يمناه تقول هذه قوتى فاتبعونى لهذا فهو مهرج وهكذا كان الفرعون قبل أن يتعرف قلب أحد أحفاده على الواحد الأحد القهار!! ورغم أن الله قد أصبح ساطعا فى السماء وفى الأرض ووسعت رحمته كل شىء وبيده الملك لا إله إلا هو فإن هذه الصورة بقيت فى الحساب وإن كانت بلا رقم بقيت رغم الحساب من قبل الحساب وفوق الحساب بقيت لأن ابن آدم جبلته الطغيان والتهريج! بقى كورقة يلعب بها أولئك الذين فطرت قلوبهم على القسوة والتأله الكاذب فى معاملة خلق الله كما يلعب بها الزمن صانع كل الأوراق!! اندساس ورقة المهرج بين الورق أمر وارد على الدوام واندساس المهرج نفسه فى لحظة تاريخية فاصلة لعبة خسيسة من لعب الزمن الخسيس لكنها واردة بل هى فى كثير من الأحيان مرتقبة!! ظله يبقى زاحفا أمام كل طاغية ما بقى الطاغية

طاغوتا متسلطا متسلطنا!! إنه ظل الدكتاتور وجهه الآخر قرينه النقيض!! أرى فى الأفق ظل المهرج يفشو وهذا إيذان بقرب نهاية الطاغية!! الطاغوت نفسه إذا استمر سادرا فى غيه ربما انقلب إلى مهرج خطير! ولقد امتهنت كرامة النيل، ألقى فيه بالروث، ركبه الكفرة الفجرة وتلك علامة الانهيار إلى حضيض الحضيض والأفظع منه أن يتخلى الطاغية باختياره عن العبء صراحة أو من وراء ستار وهذا يعنى أنه صائر إلى رحيل حقيقى مفاجئ!! كل الشواهد تشير بعين قوية إلى قرب رحيل الطاغوت واعتلاء المهرج سرير السلطنة وحينئذ تموت البلاد ميتتها الأولى فالبلاد لا تموت بنكسة أو هزيمة إنما تبدأ الموت حينما ينزوى المسئول ويظهر المهرج وقد ظهر المهرج بالفعل فى الإذاعة واضعا شنبه فى المصيدة وفى الشوارع ظهر الفيل فى المنديل والفلة فى الفانلة والبغل فى الإبريق وكل ذلك يعتلى غداً سرير السلطنة يصبح التهريج سيد الأخلاق يرقص السكارى فوق بركان الغضب المضغوط تحت طقاطيق الأرض فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ألقت بالورقة مقلوبة وتناولت ورقة أخرى.

الســاحر

لوحت بالورقة فى وجوهنا كى نراها جيدا، الرسم نفس المنظر الذى نراه دائما للساحر يا خال، أو الحاوى، هو أقرب إلى الحاوى يا خال، بل هو الحاوى بكل حذافيره، رجل ممسك بالعصا السحرية القصيرة، أدواته موضوعه فوق منضدة صغيرة أمامه: أربع كور، علبة مستطيلة، بوقان . .

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة رقم واحد: الساحر! أول ورقة محسوبة فى أوراق السر الأعظم البالغ عددها اثنتين وعشرين ورقة!! الساحر قديم قدم الأزل كانت له فى العصور القديمة مكانة مرموقة فى قصر الفرعون وقصور السادة النجب، وقد تطور شأن كل الأشياء فأصبح سلاحا من أسلحة العصر الناجعة فى التأثير على الناس!! الساحر بأبواقه وألاعيبه السحرية المبهرة أصبح ذا شأن عظيم فى عصرنا أصبحت له شاشة فضية فى كل دار كل فندق كل كوخ كل مخيم لسوف يلعب فى السنوات القليلة القادمة أخطر أدواره على الإطلاق يذيع أنباء انتصارات السلطان

الكاذبة يضلل الناس يخفى عنهم عوراتهم العارية يلهيهم عنها ينسيهم أنفسهم يجتث جذورهم من الأرض يستأصل شأفتهم يحولهم إلى قطيع من الدهماء البلهاء المخدرين لا حول لهم ولا قوة ليستمر زبانية الجحيم سادرين فى غيهم تباع الأرض من تحت أقدامهم بالجملة والقطاعى لكل من هب ودب فلا يعترض أحد ولا يأبه أحد كالحمير تلقى إليها بالشعير فتأكل وتتبعك أينما ذهبت بها يصبح شغل الناس الشاغل هو استمرار الجلوس أمام الساحر الذى يبث فى أفئدتهم كل ما تبغيه القوى الشريرة بفعله ـ بفعلها ـ يطرأ على البلاد رواج كاذب تكثر الدراهم فى الأيدى وتنعدم فى الحال قيمتها يعز القوت يرخص الآدمى تتدهور الكرامة يتاجر الناس فى شرفهم فى أعراضهم فى دينهم فى تاريخ بلادهم تأكل الأم من فرج ابنتها يموت الشرفاء والوطنيون كمدا وقهراً يرتع اللصوص والقوادون فى جميع الأروقة يعم الفساد يضرب فى نخاع السقف يدب السوس فى أوصال الأسس المتينة الراسخة يزلزلها ، والساحر يعرض على الناس كل صنوف الفسق والفجور بذريعة التنبيه والتسلية وهو فى الواقع يكرس لها تكريساً ! ! المستفيدون من انتشار الفساد يكثرون ومعفرو جباههم تحت أقدام أثرياء النفط يكثر عددهم تحت راية الدين والدين منهم براء ! ! يضيع الفقراء كل الضياع تنمحى صورة الوطن من الأذهان من القلوب المرهقة ! ! التلاميذ فى المدارس يتعلمون العهر مبكرا لا يقوى المعلم على منافسه الساحر الجبار لا يصبح ثمة من معلم يصبح الساحر نفسه بصندوقه السحرى الصغير ملاذاً يصبح أفيونا إدمانا ترياقا أسود وحينئذ تموت مصر ميتتها الثانية ، فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه ! ! » .

ألقت بالورقة مقلوبة فوق زميلتها ، وأمسكت بالورقة التالية لها .

الكاهن

مرسوم عليها صورة سيدة تمسك هى الأخرى بالعصا يا خال، لكن العصا أطول من قامتها يا خال كالحربة، الأرض من تحتها ضيقة يا خال، لونها فاتح تشير المرأة بيدها اليمنى إلى الأمام؛ ثمة طاووس واقف تحت قدميها ككلب حراسة، حاجة تهوس يابوى، يمضى الطاووس بجوارها فى نفس الاتجاه المرأة ترتدى ثوبا أحمر اللون بغير كمين فهى إذن عارية الذراعين يابوى وفى خصرها حزام أزرق اللون، أما لون وجهها وعنقها وساقيها فلون السمن البلدى يا خال، تغطى رأسها ـ فوق شعرها المرتب حتى عنقها ـ طاقية تشبه التاج وما هى بتاج، لونه أخضر بغرة صفراء، ساقها اليمنى عارية واليسرى نصف مغطاة بما يشبه بقايا جورب. يدها اليمنى تشير إلى الأرض، المرأة جميلة يابوى، يحلو لك أن تقبلها فى جيدها وعنقها وسمانة ساقها اليسرى التى انحسر عنها الثوب، قالت الشيخة سعادة وهى تنقل بصرها بين الورقة وعيوننا الشاخصة:

ـ «الورقة رقم اثنين! ورقة الكاهن الأعظم هذه السيدة الممسكة بهذه العصا الطويلة كالحربة هى الأم والزوج والعشيقة والأخت والأبنة هى

أيضا ذلك الطاووس الذى يحازى قدميها!! جسدها كما ترون يتفجر بالأنوثة الطاغية الرزينة السهتانة تلك هى مؤهلات الكيد العظيم إذ هى الفتنة والردع فى آن، بها صارت رمزا للكهانة للفجور فى آن معا وذلك تبعا للمناخ الحاكم ففى عصر التهريج والفتنة يظهر وجهها الفاجر ينمو كالطاووس حتى يطاول قامتها إذ المهرج دائما أبدا سعيد الحظ ولهذا فورقته فى لعبة الورق تسمى بالمحظوظ!! ولأنه يعتلى الأريكة عقب فترة من الشدة والقهر فإنه يحظى بالهتاف والتأييد حتى ممن لا يحبونه ولا يحترمونه! لا غرابة فإنه يترك لهم الحبل على الغارب! وغدا أو بعد غد تنفتح كل المنافذ على كل المنافذ تسيح الأشياء فى الأشياء يمارس الجميع الجنون فى لذة فائقة تصير حرائر الوطن عاهرات تتحكم المرأة الطاووس فى رقاب الرجال تمسك دفة الأمور من وراء ظل المهرج باسمه تبيح كل شيء تبيع كل شيء تطول العصا الحربة فى يدها تصل إلى أبعد مكان فى قلب العباد تلك هى سنة الضلال والانحراف! لقد خلقت حواء من الضلع الأعوج فى آدم كما تقول الأمثال فاعوجاجها منسوب لابن آدم وهى لا تطغى وتتجبر إلا فى عصر يخلو من الرجال الحقيقيين يخلو من المعنى الكبير لكنها إن شعرت بالمعنى الكبير حولها مع ندرة الرجال فى نفس الوقت صارت أعتى وأشجع من بعض الرجال قدمت ما لا يقدرون عليه إلا أن حساب النجوم والأفلاك يشير مع مرسوم الورق إلى أننا مقبلون على أيام بلا معنى فلا مجال بالطبع لأى معنى والمهرج فوق يمسخ لوجوده نفسه كل المعانى كل القيم كل الرجال كل الشجعان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!.

ورمت بالورقة وسط ذهول مطبق من الجميع.

الملكة

الصورة لامرأة أخرى يابوى لكنها من طراز آخر تبدو كالملكة يا خال بل هى ملكة على رأسها تاج، قد جلست على كرسى العرش ممسكة بيمناها عصا الصولجان، تشير بأصبع يسراها إلى أعلى كأنها تقول إن الله واحد، رشيقة نحيلة الجسد يا خال لكن صدرها محدد تحديداً مثيرا بل إن بقعة سرتها بارزة تحت قميص أحمر، فتحة صدره مشغولة بكلفة صفراء، يلتف حول جيدها عقد من طابقين من فصوص لعلها من اللؤلؤ، للقميص كمان كاسيان حتى المعصم، الكم الأيمن أحمر والأيسر أصفر على أخضر، من حول الخصر النحيل ينساب ثوب سخى كثوب الزفاف، تتداخل طياته فى موجات. ما فوق الردفين المكتنزين والفخذين يتداخل اللون الأخضر مع اللون الأصفر شاملاً مسند الكرسى الأيمن، وما فوق الركبتين حتى الأرض يتداخل الأزرق الغامق مع الأزرق الفاتح. منظر فى غاية الجمال يابوى، لا تقل لى الملكة نازلى ولا فريدة ولا نور ولا ناريمان ولا الشاهبانو التى نسمع عنها فى إيران، لا يابوى، ولا حتى ملكة الإنجليز يابوى، حاجة تهوس يابوى. قالت الشيخة سعادة وهى تجابهنا بابتسامة مشرقة فياضة بالذكاء اللامع فى عينيها:

ـ «الورقة الثالثة: الملكة! ترون الحكمة والحشمة على سمتها ولذا لن يكون العصر عصرها إنما هوعصر الملكة الزائفة التى تمتطى ظهر المهرج يصبح الناس جميعا من تحتها حميرا وحمارين!! الملكة الأصيلة جبلتها العفاف والملكة الزائفة جبلتها الإسفاف!! الملكة الأصيلة برقعها الحياء والملكة الزائفة لا برقع لها!! الملكة الأصيلة تحنو على شعبها والملكة الزائفة تمتص دمه!! الملكة الأصيلة لبست ذات يوم عدة الحرب خاضت بحار النار أوقعت بالقياصرة فى شر أعمالهم والملكة الزائفة عما قريب تخوض أنهار المال توقع بالسماسرة الجبابرة فى شر أعمالها هى!! الملكة الأصيلة مفطورة على العطاء والملكة الزائفة سوف تستلب الكحل من العيون!! كل الملكات لسن بقديسات هذا شىء بديهى معروف ولكن ملكة أصيلة لديها بعض الانحراف خير ألف مرة من ملكة زائفة تتظاهر بفعل الخير والتقوى والصلاح فالملكة الأصيلة لديها من الروادع والتقاليد ما يحكمها أما الملكة الزائفة فليست محكومة بشىء سوى اهتبال الفرصة المتاحة للثراء واستعباد خلق الله وقانا الله وإياكم شر ما تخبئه لنا الأيام المقبلة من مفاجآت ضارية!!».

ورمت بالورقة فكأنها نزعت من دماغى قطعة من ظلام المخ رمت بها إلى بعيد، ذمة ودين يابوى! إن هذه المرأة فيها سر إلهى.

الملك

الصورة كما هو واضح يابوى صورة ملك أو إمبراطور يجلس على كرسى العرش آخر أبهة يابوى، مرتديا التاج فوق رأسه، ممسكا بيمناه الصولجان، وبيسراه ما يشبه الدرع، أظنه الدرع يا خال، أشبه بالذى أراه فى تصويرة أبى زيد الهلالى وهو راكب على الحصان ممسكا بالسيف وبهذا الشيء الحديدى الذى يتقى به الضربات، لون التاج أزرق على أصفر على أسود على أحمر، وعلى كتفيه وشاح أحمر اللون على الذراعين بشريط أزرق فاتح على الذراع الأيمن. جزء من ظهر الوشاح أسود اللون يغطى الجنب الأيسر للملك أما بطنه كلها فعارية، وبقية الجسد ملفوفة بثوب أزرق فضفاض تمتد ذيوله على الأرض وينحسر على الفخذين من فوق الركبتين حيث يتضح أن الركبتين ملفوفتان بلفاف يشبه جورب النساء أصفر اللون فاتح. أما الصولجان فلونه بين الأصفر والأخضر فى خطوط طولية وهو عبارة عن عصا تشبه الشمعة فى أعلاها بقايا شعلة لم تنطفئ لونها أحمر. وأما الدرع فلونه كريمى، قالت الشيخة سعادة:

ـ « الورقة الرابعة: الامبراطور!! عقدتنا الأزلية تختلط بدمنا منذ

الأزل!! أزلنا الملكية لكننا لم نلغ الملك إنما غيرنا اسمه فحسب! ذهب الملك فجاء الامبراطور يسعى لتوسيع ملكه ليشمل أمة محمد!! عيب المصرى منا أنه إذا اعتلى الأريكة صار إمبراطوراً في الحال ونسى كل شيء أمام ذلك الكرسى اللعين مغير النفوس والأحوال!! من يلبس ثوب الإمبراطور ويجلس على كرسيه ممسكا بالصولجان لا يكون صحيحا حتى لو امتلك الجيوش والأموال والانصار والحاشية والأبهة إنما الامبراطور الحق هو ماترونه فى هذه الصورة يمسك الصولجان بيد ودرع الحرب باليد الأخرى: الحكم والمسئولية الشرع والقوة!! يقول الدرع فى الصورة إن الامبراطور فى حالة تأهب مستمر لأن ينزل الميدان بنفسه يخوض الحرب دفعا عن امبراطوريته حتى ولو مات فى سبيلها فالموت هنا شهادة وبطولة واستمرار للتألق والقوة أما من لبس ثياب الإمبراطور فقد أمسك الصولجان بيديه الاثنتين والصولجان وحده ليس يحميه! يريد أكل الحلاوة بغير نار! يأكل الحلاوة والنار للمخاليق فسبحان الملك الأعلى فمن يجعل من نفسه إمبراطورا وهو ليس بإمبراطور حقيقى شرعى يكون قد حمل نفسه مسئولية جسيمة سوف ينوء بحملها لا محالة كمن يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه!! يقول حساب النجوم وحساب الحياة وكل الحسابات إن القربة خرت كل مائها على دماغ الإمبراطور الزائف فأصبح مبلولاً وصبرا الناس قد فاض مع مياه هذه القربة المثقوبة!! لقد مات حلم الإمبراطور وتدهورت أركانه فمات الإمبراطور بالتبعية وهو الآن يجرى ويتنطط من حلاوة الروح وإن هى إلا ساعات ويلفظ بقية أنفاسه بفعل فاعل أو من تلقاء نفسه! تقول الحسابات أيضا إن الناس لن تحتمل عهدين متشابهين فلا نفس الكلام ينفع ولا نفس الخطب تلهب الحماسة!! تشير الشواهد إلى أن

القادم الجديد، وإن جنح إلى الترفيه ورخى الحبال وفتح المنافذ سوف يختار صورة جديدة للإمبراطور الذى يكونه سوف يغير شكله فحسب سيكون إمبراطورا من بين الشعب وباسم شعبى خالص لكنه سيكون أشدَّ صلفا وغطرسة وتشديداً من أى إمبراطور حقيقى لكى يقنع نفسه أولاً بأنه على مقاس الكرسى وأن أحداً من رعاياه لن يستهزئ به أو يستهيفه سيجد نفسه مضطرا لإطلاق يديه فى البلاد قتلا وسجنا وتشريدا وتنكيلا، سيطيح بكل من يظنه خصما له فمن الصعب على المهرج أن يتصرف كإمبراطور حقيقى يملك صفة العفو عند المقدرة والقدرة على زجر الصغار وردع الكبار بحسن السلوك ومثاليته سيظل دائما أبدا فى حاجة لتأكيد إمبراطوريته يتلذذ بطعمها قدر الإمكان ولسوف يذوق حلاوة الكرسى بالطبع فيصير مستعدا للتنازل عن كل شىء والتغاضى عن كثير من الأمور فى سبيل أن يظل إمبراطوراً حتى لو استعان بقوة الشيطان!! فى عهده تموت كل الأشياء الجميلة الزهر والنهر ونسمة الدنيا!! يذهب من كان حكم باسم الفقراء يخلفه من يحكم باسم الأغنياء لكن من يظلم الفقراء لا يكسب هذه سنة الحياة ولا أحد يملك لسنة الحياة تبديلا!! ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ولسوف يقصف ظلمه عمره لكن كرسى الإمبراطور أبدا لا يبطل سحره فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة كأنها تستعيذ بالله من شرها يا خال.

الحكيم

الصورة مألوفة لى يابوى، إذ هى قريبة الشبه من تصويرة رأيتها كثيرا فى كتب التلاميذ وفى المجلات يقولون إنها لأمير الشعراء أحمد شوقى، غير أن هذا الرجل عارى الصدر والذراعين بارز العضلات كالمصارع. يسند رأسه على يده اليسرى كشوقى بك بالضبط يابوى، ويندمج فى التفكير، مطلق اللحية، ولحيته مدببة بشعبتين، وعلى رأسه طاقية فى أعلاها مثلثات زرقاء وصفراء. يجلس على صخرة من صخور الجبل، نصفه الأعلى مغطى بشال كبير أزرق اللون فى أطرافه شراريب صفراء. يمسك بيمناه عصا برأسين متقابلتين، كأنها تريد أن تقول: سكة الحكمة سالكة من الناحيتين، أمامه نسر رابض تحت قدميه كما لو كان هذا الرجل يشتغل مدربا لهذا النسر يابوى، وها هو ذا قد أمره بالقعود تحت قدميه صاغرا ففعل، ولابد أنه دربه على الرقص وعجين الفلاحة أيضا، النسر لونه أحمر على أصفر على أخضر غامق كلون صخرة الجبل..

قالت الشيخة سعادة:

- «الورقة الخامسة: الحكيم! روح مصر الباقية ما بقى الدهر! لا يسخرنَّ أحدكم من عيال مصر الذين يقولون: نحن الذين دهنا الهواء بالدوكو ونحن الذين عبأنا الشمس في زجاجات فهذا القول فيه من الصحة نصيب كبير!! هاكم هذا الحكيم المصرى الذى فعل ما لا يستطيع فعله أحد! فللإنسان أن يدرب القرد أو الفيل أو الأسد أو حتى التمساح لكن أن يدرب طائرا يخترق الفضاء فهذا هو المستحيل سيما وإن كان هذا الطائر نسراً. ولكن هاهوذا النسر يقعد بين قدمى الحكيم المصرى قعدة التلميذ المؤدب!! الحكيم المصرى لم يدربه بالقوة ولا بالسحر ولا بالفهلوة إنما دربه بالحكمة وهاهى ذى عصا الحكمة فى يمينه برأسين إن ذهبت هنا رأت وإن ذهبت هناك رأت يعنى عصا الحكمة صائبة أينما اتجهت أماما أو خلفا يمينا أو شمالاً شرقا أو غربًا!! ذلك هو صبر المصريين على البلاء. الصبر الذى يظنه الأغبياء تبلدًا واستسلاما للعبودية! الصبر الذى بنى الأهرامات وامتطى النيل وشيد للعبادة بيوتا ذات عمد راسخة! الصبر الذى نقش على الحجر الصوان قصة الخلق والحياة قبل الموت وبعده! الصبر الذى حنط الأجساد بعد صعود أرواحها إلى بارئها! هو صبر من الحكمة وحكمة من الصبر فإن رأيتم المصرى يمشى لاهيا خلى البال غير معنى بمن يركبه من يمص دمه من يستعبده فاعلموا أنكم مخطئون إن تصورتموه هكذا لأنه فى الواقع يعرف كل شىء يدرك كل شىء إلا أنه حكيم طويل البال جبلته الصبر على الزرع حتى ينمو وعلى الأرز حتى يستوى!! كم فنيت أمم وبادت شعوب ودالت دول إلا مصر بقيت منذ بدء الخليقة وتبقى حتى يرث

الله الأرض ومن عليها بفضل هذا الحكيم الشارد فى ملكوت الله ممسكا بعصا الحكمة يدرب بها النسور الجوارح وما أظن حكامه أشد بأسا من النسور! لقد صبر عليهم وروّضهم حتى فنوا جميعا وبقى هو!! يقول لى الورق إن البلاد فى قابل السنين تجتاحها الرياح الهوج من كل ناحية من الداخل ومن الخارج تقلب أعاليها فى أسافلها ترفع الخسيس تخسف الأصيل تشعل النار فى الأخضر واليابس فكأن القيامة قامت فأذهلت كل مرضع عن رضيعها فجرت الأرض بالحمم ولن ينقذها فى النهاية سوى حكمة هذا الحكيم الذى نصت عليه وسجلته خطوط الأولين فى هذا الورق فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة كأنها تنفض يدها من ذنب تبرأت منه.

العـاشـق

الصورة واضحة يا خال: هذا عاشق ومعشوقته يقفان معا فى خلوة. فتى وفتاة أجمل من بعضهما والله يابوى، يقفان متجاورين متقابلين فى آن معا، يمناها فى يمناه، يسراها على صدره ويسراه على ظهرها، هى ترتدى فستانا أزرق فوقه بطانة حمراء كالمعطف مفتوحة يبدو من الفتحة قميص حريرى رقيق أصفر اللون يبرز صدرها فى كرتين متجاورتين، شعرها مصفف إلى الوراء كالوشاح الأسود أما الفتى يابوى فيرتدى ثوبا يشبه الفستان أزرق اللون على كتفيه ظلال حمراء، يصل إلى ما فوق الركبتين حيث يبرز من تحته سروال حابك على الكاحلين، فى قدميه حذاء أحمر اللون كالسروال، فوق رأسيهما يابوى، يحلق ذلك الطفل ذو الجناحين أنت تعرفه يابوى فلابد أنك شاهدته كثيرا مرسوما على دائر ناموسية السرير يمسك بيديه نبلة يسدد منها سهما فى اتجاه رأسيهما وإذ هما فى هذه الخلوة يا خال يتسلل نحوهما رجل خنيس ينضح شكله باللؤم والخسة والتآمر، شكله غير مريح يا خال، بلا رقبة، رأسه مغروسة فى كتفيه الضيقتين عليه طاقية

كطاقية الخفراء مكبوسة فيه، يرتدى ثوبا أحمر اللون كالدم بكورنيش أزرق، فوقه عباءة برتقالية اللون تخفى ذراعيه فلا يبين منهما سوى يدين، اليسرى تستند على عصا طويلة رفيعة، واليمنى تشير بأصبعها السبابة نحو الفتى والفتاة فى توعد ولوم وتهديد، ويظهر يا خال والله أعلم أنه أبو الفتاة جاء يضبطها فى هذه الخلوة المحرجة.

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السادسة: العاشق! العشق مكتوب علينا وهذه نعمة من نعم الله لا يمن بها إلا على عباده الصالحين الأتقياء! قلوبنا والحمد لله مفطورة على الحب والحب هو باب الحياة وهو الماء الذى يرويها يجعلها تورق تخضر تثمر تعطى!! لكن الله تعالت حكمته ابتلانا دون خلقه جميعا بالعزول لابد من عازل يبعثر القلوب يشتت الحبيبين يفرق بينهما كغراب البين إن لم يكن أبا أو عمًا أو خالاً أو أخا أو أما أو ابن عم أو ابن خال فحاسد حاقد محروم من الحب غصبا عنه يا ولداه يطلب أن يسرى الحرمان على غيره إشفاءً لمرض فى قلبه!! من تراه يكون مسئولاً عن تجريم الحب وتحريمه فى بلادنا!! أى شيطان أسود القلب أصاب نفوسنا بالعطب حتى أصبحنا نقف لكل حبيبين بالمرصاد!! أغلب اليقين أنه جاء من القبائل وخرافة الأنساب التى ظن الرجال الواهمون أنهم قادرون على حصار الأرحام حفظا لها مع أنه لا حافظ للأنساب والأرحام سوى الأرحام نفسها إذ هى مجبولة على الإنغلاق من تلقائها دون غير المرغوب غير الجدير غير الشرعى فما بالك بعد الوعى والتربية الصحيحة والثقة فى الأنثى باعتبارها أصل الحياة؟! يقول الورق إن العزول الذى ابتلينا به قد تجدد هذه الأيام فى عزول أكبر لا قبل لعاشق باحتماله: فمن ذا الذى يستسلم اليوم للحب ـ حتى ولو كان مباحًا ـ

وهو يعلم أن لا جدوى منه ولا نهاية لطريقه المحفوف بالصعاب والأشواق؟! من ذا الذى يجرؤ على المضى فى طريق الحب الصادق النية وهو لا يدرى أين يبيت ليله ولا أين توجد لقمته؟! هج الشباب وطفش إلى بلاد المال يطلب مسكنًا ومركبة وهدمة ولقمة فلئن أفاضت عليه بلاد المال فتاتها الكثير نقلته إلى دنيا غير الدنيا أنسته الحبيب الأصيل وضعت نصب عينيه تطلعا جديدًا إمرأة سلعة لا حبيبة ولا قريبة!! وغدًا يرحل كل الشبان لا يبقى فى البلاد سوى العجائز والأرامل والعوانس الجميلات المائسات البائسات لا يبقى على المداود إلا شر البقر!! تتعب البلاد فى الخلفة والتربية لكى ينتفع غيرنا بفلذات أكبادنا!! وقديما قيل لجحا أين وطنك يا جحا؟ قال هو مؤخرة بقرتى!! فلا يغرنكم إذن قول القائلين من المغتربين وراء المال إن الوطن ساكن فى قلوبهم أبد الدهر مهما غاب عنهم بل كلما غاب عنهم!! لا ! ربما كانوا صادقين لكن الأصدق منهم تجارب الزمن القائلة بأن البعيد عن العين. بعيد عن القلب يعنى أن بلاد المال شاء هؤلاء أو أولئك أم أبوا استأصلت شأفتهم من أرض الوطن فلئن عادوا إليه فى خريف العمر متخمين منعمين فى رغد من العيش فإنهم محض سكان لا مواطنين!! لكل قاعدة استثناء بالطبع لكن المرئى لنا دائما أن من يكسب المال من بلاد أخرى ومن طرق سهلة أو ملتوية أو غير مشروعة فإن المال دائما يباعد بين قلوبهم وقلوب حتى ذويهم فما بالك ببنى وطنهم! حينئذ تموت مصر ميتتها الثالثة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة فى هدوء وحذر كأنها مستمرة فى مناخ العشق وبنفس الهدوء تناولت الورقة التالية.

العربة

الورقة يا خال مقسومة إلى نصفين بالعرض. النصف الأعلى مبروز بما يشبه ستارة المسرح المفتوحة، وقد وقف في وسطها - كأنما على خشبة المسرح يا خال - رجل يشبه القائد قوى البدن مفتول العضل على صدره رسم يشبه الدرعين فوق الثديين من الواضح أنهما جزء من تفصيلة البدلة التى يرتديها وهى أشبه ببدلة نابليون بالضبط كما أتذكرها فى كتب التلامذة وعلى كتفيه نجمتان كل نجمة عبارة عن دائرة صفراء اللون ببرواز دائرى أزرق كلون الكمين. يتوسط الدائرة شكل دقيق يشبه الهرم. أما البدلة فأعلاها أزرق اللون وأسفلها أحمر فاتح، ومن تحت شكل الدرعين الصغيرين اللذين هما جزء من القماشة ينحدر مثلث أصفر اللون بداخله رقوش مزرقة، يغطى منطقة السرة كلها، شعره كشعر الأنثى منسدل على كتفيه لكنه يلبس فوق شعره هذا طاقية تشبه الطاقية الورقية التى تباع للأطفال فى الموالد. حافتها العليا على شكل مثلثات متجاورة. ذراعه اليمنى مثناة ويده على خاصرته أما ذراعه اليسرى فتمسك بعصا صغيرة شكلها يشبه ريشة الكتابة وسنها يبدو من بعيد كأنه شعلة، ولونها أحمر فاتح على وجهه

عزم وتصميم وإصرار فيما أطلق عينيه بالنظر إلى بعيد. حاجة تهوس يابوى..

أما نصف الورقة التحتى يا خال فتحتله عربة يجرها جوادان عفيان كل منهما يمضى فى وجهة مختلفة، أى والله يا خال، حيث يجنح الجواد الأيمن إلى الجهة اليمنى، ويجنح الأيسر إلى الجهة اليسرى، غير أنهما ليسا منطلقين إنما يمشيان فحسب فى خطو منتظم متناسق، كل منهما يمد القدم اليمنى فيما انكسرت لها اليسرى. الجوادان لونهما أصفر أما العربة فلونها أزرق ومقعدها أحمر فاتح. فبدت الصورة يا خال وكأنما القائد واقف فى شرفة قصره يرقب العربة التى صارت تحت بصره تماما.

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السابعة: العربة! ها أنتم ترون القائد الحكيم واقفا فى شرفة القصر وقد انزاح عنها وعنه الستار يمد بصره إلى بعيد يكاد يعانق ببصره حدود الوطن يرقب من قد تسول له نفسه الاقتراب من حرمة الحدود المحمية! ذلك واجب لابد منه إذا ما قام وطن فلابد لكل وطن من قائد ولابد لكل قائد من هذا الواجب وإلا ما كان قائدا!! بعصا الحكمة هذه يوجه هذه العربة إلى حيث يفتدى الوطن!! فى الصورة عربة واحدة لكنها بحركة الجوادين مهيأة للسير فى هذا الاتجاه وذاك معا!! حكمة الأولين أتت بورقة العربة بعد ورقة العاشق مباشرة فى الترتيب لأن الأمور هكذا مرتبة: الوطن موطن العاشق وعشقه! عشق العاشق للمعشوق هو أغنية المواطن للوطن حرارة العشق هى نار القتال فى سبيل الوطن قلب العاشق ومنزله العامر!! العربة عند أهلنا القدامى

لم يكن لها إلا وظيفة الجرى إلى الدفاع لكننا يا ألف حسرة لم نقرأ هذا الورق فجاءنا قائد غير حكيم توفرت له العربات بكل أنواعها إلا عربة الحكمة لم تتوافر له فأوكل بالمهمة أهل العز والرفاهية الذين أرادوا اغتصاب كل شيء ظنوا الدفاع عن الوطن نزهة يعودون منها بمغنم شخصى ظنوا الدفاع عن الوطن يعنى الدفاع عن الإمبراطور فقط وحماية حياته وحده فكلهم مجند للبحث عن أعدائه يؤلفون له الأعداء من صنع خيالهم وفى هذا السبيل يقضون على كل من لا يروق لهم أو لا ينضوى تحت لوائهم حتى صار الأمن يعنى أمنهم الشخصى والجميع تبعا لذلك أعداء لهم فأوقعهم الله فى وحل شرورهم لكن العدو حصد فلذات أكبادنا ونور عيوننا وعتادنا وأرضنا وسماءنا!! ولقد يجىء غداً من يستفيد من الدرس المؤلم فيرد للوطن بعض هيبته المفقودة لكن الواقع ينذرنا بأن القريبين من الكرسى ليسوا من خيرة الرجال وإن كانوا ملء هدومهم ومراكزهم وملء السمع والبصر هكذا شفناهم عرفناهم لسعت ظهورنا أسواطهم حولونا إلى عبيد أذلاء فرقوا بين المرء وبنيه بالرعب بالخوف جعلوا من المرء مخبرا على أمه! انقسم المرء على نفسه أضعفوا الناس قتلوا فيهم روح المحبة روح العشق للوطن ملأوا الهواء بالأكاذيب وهذا ليس من شيمة الرجال!! غداً ينزاح الكابوس فينطلق المارد الحبيس لا ليصنع مجدا بل ليعب من الحياة يغنى للفوضى وهو معذور إلا أن هذا هو ما يرجوه أشباه الرجال الذين يتأهبون اليوم للوثوب على الكرسى فمما يوافق هواهم أن يلهو الجميع فى العبّ من الحياة بأثر رجعى لينصرفوا هم إلى تثبيت ملكهم بإرضاء القوى الأجنبية فبقاؤهم على الكرسى مرهون برضاء القوى صاحبة المصلحة فى خير بلادنا!! يقول الورق: أفيقوا أيها القوم واقرءوا هذا الرمز

لتعرفوا أن كرامتكم مرهونة بكرامة هذه البلاد التى تؤويكم وتستر أعراضكم وترويكم بنيلها وتدفئكم بشمسها وأن كرامة هذه البلاد مرهونة ببقائها قوية ذات بأس وهيبة وأن هذه الفترة مشروطة بقائد ممسك بعصا الحكمة وعربة حرب تجرها خيول عفية!! يقول الورق هذا من عصور طويلة مضت لكننا قد حيل بيننا وبين الأصول فباتت أقدامنا على سلم النزول هابطة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

استقرّت الورقة فوق زميلاتها.

العدالة

فى الصورة يا خال إمرأة ذات صدر ملآن بثديين متخمين بالأمومة يابوى، يشعر المرء أمامهما بالطفولة يا خال، لكنها عمياء يابوى، وملامح وجهها فى غاية البراءة يابوى، تضع على رأسها طاقية صفراء اللون بظلال مزرقة تشبه شكل الهرم، وخصلات من شعرها نافرة فى فوضى متسقة، ترتدى ما نسميه اليوم بالبلوزة؛ نصف كم زرقاء اللون على كتفيها شارتان صفراوتان برقوش مزرقة، أما لون بشرتها وساعديها فلون الزيت الفرنساوى تقريبا يابوى، من تحت الإبط الأيمن ـ مع استدارة الخصر ومن منبت الثديين المتكورين تحت الثوب ـ تنساب ملاءة حمراء اللون تلف بقية جسدها، تماما كبنت البلد المصرية القديمة يا خال حينما تترك الملاءة اللف تنزلق عن كتفيها فى إهمال لتبرز كنوزها المستورة، لكن ساقها اليمنى بارزة من الملاءة ملفوفة فى جورب يميل إلى الزرقة، وفى قدميها حذاء أصفر اللون، أما ساقها اليسرى بقدمها فمختفية تحت الملاءة يابوى، تمسك بيدها اليمنى سيفا مرفوعا إلى أعلى، وبيدها اليسرى ميزانًا معتدل الكفتين. .

قالت الشيخة سعادة:

ـ الورقة الثامنة: العدالة!! السيف في يمناها وفي يسراها الميزان متوازن الكفتين: القوة والعدل! فلا عدل بغير قوة تسنده تفرضه، لكنها كما ترون عمياء! يقول ما بيني وبين الورق إن عماء العدالة يأتي حينما يرغمها الإمبراطور على العمل لحسابه الشخصي تحكم بما يراه هو على من يعاديهم هو بالحق أو بالباطل!! ولقد تحققت نبوءة الورق منذ سنوات قليلة يوم هجم البلطجية المدعومون بقوة الإمبراطور على كبير القضاة مشرع القوانين فضربوه فوق منصة الحكم ضربا مبرحًا أهانوه أهدروا كرامته دهوروا كل هيبة القضاء انتفت العدالة أصيبت بالعمى ومن غد يسوء الأمر أكثر فأكثر فالمحظوظ الذي سيرث العدالة مفقوءة العينين جاهزة سوف يلوى عنق الميزان يحرف سيف القوة ليصبح مسلطا على رقبة العدالة ذاتها فتتفتح السجون تبتلع الصالح مع الطالح العاطل مع الباطل تحتجز اللصوص الصغار سارقي طعام يومهم لتخلو الساحة لكبار كبار اللصوص سارقي الأقوات والمصائر والأحلام والأفراح والدول يتوه في المعمعة كل الأبرياء ينمحي صوت الحق تموت روح المقاومة وحينئذ تموت مصر ميتتها الرابعة لكن يبقى في الجسد ذبالة نبض يغذيها زيت من عرق الفلاحين والصنايعية وصغار الموظفين الشرفاء يبقى الأمل معقودا على قلة من حاملي ميزان العدالة ممن جرى في عروقهم سر مصر ذات الأرواح السبع فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ورمت بالورقة في شيء كاليأس يا خال، وأمسكت بالورقة التالية ولوحت بها في وجوهنا بتمهل يعطينا جميعا فرصة تأملها.

النـاسـك

صورة رجل عجوز كحكوح. شكلة يا بوى أقرب لشكل قسيس، يرتدى جبة مقفولة تلف جسده من رقبته إلى قدميه، لها زنط مثل القرطاس يمكن لبسه فى الرأس لكنه مطروح على كتفيه أما الرأس فعارية، صلعاء من الوسط كجزيرة بيضاء تحيط بها دائرة من الشعر تغزر فى مؤخرة الرأس تخف فوق الجبهة فكأنه يلف حول رأسه حبلا أسود، الوجه مشطوف بفك مستطيل يختفى تحت لحية منسقة قصيرة الشعر، أنفه دقيق وفى مستوى الجبهة بالضبط لا بروز له، عيناه ضيقتان كليلتان تدققان بوهن فى البعيد، يده اليمنى ممدودة بفانوس منير، ويده اليسرى تتكئ على عصا، الجبة لونها بنى فاتح والعصا زرقاء اللون وكذلك الفانوس . .

قالت الشيخة سعادة :

ـ «الورقة التاسعة : الناسك!! يمر على البلاد خريف كخريف عمر هذا الرجل الفاقد الهدف فى شيخوخته الحائرة تنحنى قامة الوطن ها أنتم ترون أنه لا إشارة لليل أو الظلام فى الصورة بل إن الفراغ المحيط به كله أبيض فيما المصباح مشتعل مع ذلك فالمصباح إذن إشارة إلى ظلام

طغى على نهاره حجب عن بصره كل مرئى!! شيء كهذا سوف يحدث للبلاد فى قابل السنين حيث تكثر الأموال فى أيدى البعض وتنعدم فى أيدى الكثيرين فمن يكثر المال فى أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى الإنفاق تفقد الحياة معناها ومن ينعدم المال فى أياديهم ويصبح لا عمل لهم سوى البحث عنه بغير طائل تفقد الحياة معناها عندهم أيضا فما أسرع ما يشعر هؤلاء وأولئك بخريف الحياة بغضب الله إذ يصيب البلاد بمن يتحكم فى مقدراتها دون قدرة على بعث الربيع والخصوبة فيها!! يلجأ الناس إلى التنسك فى ظلام البصيرة فكأن التعبد مصباح يستهدون بنوره العليل نحو الهداية تصبح العبادة هدفا وحيدا فى الحياة لأنهم جميعا بلا هدف وما هكذا أرادت لهم السماء العادلة فقد أمرنا الله بعبادة كأنها العمل وعمل كأنه العبادة!! يجيء على الناس يوم لا يجدون فيه ما يفعلونه يحولهم الساحر ذو الشاشات الفضية إلى نسخة متكررة من كائن لا حضور له ولا أثر يشعر الناس بالضياع التام!! ولما كان الإنسان مجبولاً على أن يفعل شيئا يحقق به ذاته فلسوف تتجه الأغلبية العظمى إلى الإغراق فى العبادة لا بدافع من قوة الإيمان بل لمجرد تحقيق الذات على نحو من الأنحاء!! فى غد يخرج دين الله عن هدفه السامى عن طريقه الفعال يصبح ميدانا للصراع لاستجلاب القوة لاستدرار المال باسم الله يتقاتل المسلمون يعم الخراب وسط برك من الدم ومستنقعات من الجيف وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة فى خريف أجرد بلا ملامح يحيل الوطن إلى عجوز كليل البصر محنى القامة يتوكأ على عصا يبحث فى ضوء مصباح شاحب عن حقيقة ضائعة وهدف مفقود فاللهم لانسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

ووضعت الورقة بهدوء، متجاهلة امتعاض محمد بك أبو شناف، وانذهال الحاج أحمد نوار الدين السنى، وولع حسن بك بما يسمع.

عجلة الحظ

عجلة كعجلة العربة الكارو بالضبط يا بوى، منصوبة بين قائمين من الخشب لهما جذور ضاربة فى الأرض متشعبة كجذور الشجر، للعجلة يد معقوفة، يمسك بها ـ بكلتا يديه ـ رجل أشبه بالملاك الطائر البرىء يا خال، عارى الجسد إلا من ازار أزرق اللون يلتف حول سوأته، وقد نبت له فوق ظهره جناحان أشبه بفروة شعر الخروف يا بوى، وها هوذا منهمك بكل قوته فى تدوير العجلة ذات الإطار الأسود؛ وقد ركب فوق إطار العجلة فتاة ممسكة بشاب مذعور هابط مع دوران العجلة، يده اليمنى متشبثة بيد الفتاة، ويده اليسرى طليقة فى الهواء ممسكة بقبعة تكاد تطير فى أسفل العجلة ـ قريبا من الهاوية يا خال ـ رجل ساقط برأسه فى الهاوية قدمه متشبثة بالعجلة، ومن فوقه هيكل رجل آخر ألقى به دوران العجلة إلى الفراغ فتشبث بهذا الفراغ الساقط تحته. حاجة تهوس يا بوى . . .

قالت الشيخة سعادة:

ـ « الورقة العاشرة: عجلة الحظ!! هذه هى الحياة كما ترون دنيا دوارة كما الكرة الأرضية من يكون فى القمة يصير بعد قليل فى الهاوية

يوم لك ويوم عليك فلو دامت لغيرك ما وصلت إليك وما وصلت إليك إلا لكى تتخلى عنك بعد حين لكن أحداً لا يتعظ!! من يرى نشوة الراكب فوق القمة وزهوه وفرحه تصدمه رؤية المتهاوى فى القاع مدحوراً تعيساً!! يقول الورق إننا يجب أن ننتبه إلى هذه الحقيقة هذا المصير حتى لا يستخف الطرب من فوق القمة فيطغى ويتجبر عليه دائما أن يتذكر أن الركوب على القمة إنما هى برهة من الزمن لحظة خاطفة مهما طالت لعلها الوهم بعينه أما الحقيقة فهى السقوط إلى الهاوية حيث ينتظرنا فى القبر ما ينتظرنا من عذاب أليم لا ينجو منه إلا من ظل دائما أبدا يتذكر المصير النهائى يحسب حسابه بالعمل الصالح فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وضمت الورقة إلى أخواتها.

القـوة

الصورة لأسد هصور كما يقال يا بوى، شكله مخيف، يكاد يشبه الحصان فى حجمه وقوته يا خال، فى وضع هجوم، ذيله طويل مرتفع لأعلى ومقوس كعلامة الاستفهام، وهناك رجل يماثله فى القوة، مبروم العضلات عارى الجسد إلا من غلالة تحيط خصره القوى، وفى وضع صراع مع الأسد، لا يا بوى هو ليس كمحمد الحلو فى السيرك القومى، فمحمد الحلو مدرب للأسود بالفعل والأونطة من بعيد لبعيد وفى وجود من يقفون قريبا منه فى استعداد لضرب الأسد بالنار أو بالسيف إذا قل عقله وهجم على مدربه، أما هذا الرجل يا بوى فإنه يأخذ الأسد بالباط جسدا لجسد قوة لقوة، وقد أمسك بذراع الأسد وثناها على فخذه يكاد يقطمها قطم الخيارة، والأسد رافع رأسه فاتح فمه يجأر بالصراخ، شعر رقبته الكثيف مهوش متهدل مما يدل على أن الأسد حالته كرب والله يابوى . .

قالت الشيخة سعادة :

ـ «الورقة الحادية عشرة : القوة!! هذه الورقة يوجهها التاروت المصرى لكل متجبر متسلط على الشعب المصرى لكل مزهو بقوته

المأخوذة من قوة الكرسى أو المال أو العزوة!! يقول الورق، هذا هو الشعب المصرى فاحذروه ثم احذروه ثم احذروه لا تغرنكم القوة التى منحت لكم فإنه فى الأصل صاحبها مانحها لكم فإياكم إياكم أن تغتروا بها تقلبوها عليه فلو كان الواحد منكم أسدا كهذا الأسد فالشعب كهذا الفارس الجبار يستطيع أن يلوى ذراعه هكذا يكسرها فوق فخذه يسلبه قوته يجعله غذاء لأمثاله من الوحوش الضارية الشاردة إن المصرى الذى أنشأ هذه الأهرامات وهذه المساجد وهذه الكنائس وهذه الفدادين الزراعية وركب فوق النيل أمسك بلجامه لقادر على ردع كل متغطرس مزهو بقوته!! يقول الورق إن هذا الأسد هو كل قوة غاشمة والرجل القوى كل قوى الجماعة تختزنها مضغوطة مقهورة لتصبها فى واحد يفيض به كيل الهوان الجماعى وما دام الورق قد أثبت هذه الصورة على هذا المرسوم فلابد أن شيئا من هذا سوف يحدث فى السنين القليلة القادمة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وفيما كانت ترمى بالورقة يا خال، لاحظت أن ابتسامة شبه ساخرة قد انطبعت على وجه محمد بك أبو شناف إلا أنها كانت ترتعش بالخوف يابوى لا أدرى أمن رهبة الكلام أم من ذنب ينتوى فعله عما قريب، صار ينظر لحسن بك من تحت لتحت كأنه يتهمه بالتآمر عليه؛ وكانت نظرة حسن بك التى رد بها عليه يا خال كأنها تقول له: إصبر فإن الله مع الصابرين..

المشنوق

حاجة تهوس يا بوى: خشبة المشنقة ممدودة على جذعى نخلتين طويلتين، والعشب الأخضر يملأ الأرض. رجل معلق فى حبل المشنقة لا من رأسه يا خال بل من إحدى قدميه، تماما كالذبيحة يابوى فى سيبه الجزار؛ رأسه غاطس فى العشب، قدمه اليمنى مربوطة مكسكرة فى خشبة المشنقة. أما قدمه اليسرى فسائبه، ويظهر يا خال أنها مقطوعة حتى الساق، حيث لا يظهر منها سوى الفخذ. يرتدى لباسا مكونا من قطعتين: قميص أخضر اللون على صدره كلفة صفراء مشرشرة كالزقزاق، وسروال أحمر اللون، ياقة القميص حمراء حابكة حول رقبته، الرأس واضح أنه ميت مغلق العينين شعره الغزير ـ الأحمر اللون كذلك ـ متهدل على جبينه الملتحق بالحشائش الخضراء..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الثانية عشرة: المشنوق!! هكذا تكون شخصية المواطن المصرى الحق فى القريب العاجل كما يحدث دائما حين تتفتح البلاد لكل مغامر أفاق مصاص دم من نفاية العالم وهذا ما يتنبأ به الورق

للسنين القليلة القادمة يأتى للبلاد جحافل للنصب والسلب وسط زفة هائلة يقيمها المتفعون يباركها الجياع الواهمون يصبح ابن البلد معلقا كالذبيحة فى مشنقة من نخيل بلاده الذى جف وفوق عشبها الطرى الأخضر المرتوى بعرق الذبيحة وحدها!! أموال النفط سوف تعيث فسادا فى البلاد تصل إلى أيدى التجار الجشعين إلى السماسرة الوكلاء أهل الخور المستعدين لبيع كل شىء تعز السلع تذهب إلى القادرين على ثمنها يصبح المواطن المسكين مستباح الجسد والكل يثرى على حسابه!! المثل الشعبى المصرى ماكذب حين قال: كل واحد معلق من عرقوبه! هذه الصورة ترجمة لهذا المثل كما أن المثل فى الأصل ترجمة لها ومعناه أن كل واحد من الشعب يصبح مسئولا عن نفسه حين تنفض الحكومة يدها من جميع مسئولياتها تجاهه تتركه غذاء للغربان وأكلة لحوم البشر تبقى سادرة فى غيها ناسية أنها بدونه لن تستطيع العيش فى رفاهيتها فالمتكئون فى الأرض لا يقدرون على صنع رفاهيتهم لوحدهم ما لم يكن هناك من يهيئها لهم ومن هنا فالحكمة الكامنة وراء هذه الورقة على هذا المرسوم تقول إنه على الباغى تدور الدوائر ولابد أن يجئ الدور على المتكئين فيها ليعلقوا من عرقوبهم هكذا تأكلهم طيور جارحة تجذبها من بعيد رائحة الجيف فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وسقطت الورقة من يدها دون إرادة منها، فيما نكس محمد بك أبو شناف رأسه فى الأرض شاحبا متفكرا، فى حين راحت نظرات الحاج أحمد نوار الدين السنى تتقافز بينه وبين حسن بك فى أشعة من الشقاوة وحب الاستطلاع الجارف وإن بدا ذلك فى صورة مرح جميل كمرح الأطفال الغفل الأبرياء.

المـوت

هيكل عظمى كامل لجسد آدمى، نفس الجمجمة التى نرى رسمها دائما يا خال كعلامة على الموت، وهكذا بقية الهيكل العظمى بالرقبة والقفص الصدرى والذراعين والإليتين والفخذين والساقين، مجرد عظام كالعصى الناشفة لكن اليد اليمنى ممسكة بما يشبه المنجل، هو شكل بين المنجل والمنقرة إذ أن يده الخشبية طويلة كيد المقشة طول قامة الرجل، لون الهيكل العظمى أحمر، وكذلك لون يد المنجل، أما سلاحه فلونه أزرق. الهيكل العظمى واقف منفرج الساقين جدا، والأرض من تحته حمراء كلها تلال، لكن منظر الهرم واضح بين ساقيه يمتد خياله الأحمر اللون خلفه كجدار أقل احمرارا، المدهش يا خال أن رقم الورقة ثلاثة عشر وأنا أعرف يا خال أن الكثيرين من كل أنحاء العالم يتشاءمون من هذا الرقم؛ أفيكون هذا التشاؤم راجعا لهذه الورقة يا بوى؟ أنا شخصيا أظن ذلك يا خال فهذه الورقة قديمة جدا يا خال . .

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الثالثة عشرة: الموت!! من هذه الورقة ارتبط هذا الرقم بالتشاؤم يقول مرسوم هذه الورقة هاكم منجل الموت يترصدكم

ليحصدكم جميعا لا يفرق بين أمير وخفير بين ملك ورعية يقول انتبهوا دائما يعنى اعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا واعملوا لدنياكم كأنكم تعيشون أبدا كما هتف بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم!! أجدادنا لم يهابوا الموت لكنهم احترموه كحقيقة ماثلة وضعوه فى حسابهم كمصير محتوم لا مفر منه!! لم يكن فى نظرهم نذيراً بالفناء بل كان منفذاً إلى الخلود حيث تبدأ الحياة الثانية التى لا تنتهى ولا تفنى جعلوا من مقابرهم كما يقول شيخى المغربى معلمى قصوراً متينة البنيان عامرة بكل نفيس جليل الشأن كى تكون ملائمة لاستقراره فى الحياة الأخرى الحقيقية كانوا بفطرة الله على علم بأن الموت ليس نهاية كل الحياة وأن الإنسان لم يخلق عبثا ولن يضيع سدى أو يذهب هباء إنما لابد له من مثول محقق أمام محكمة إلهية حيث يوضع قلبه بكل حسناته فى كفة الميزان وتوضع أعماله السيئة المنافية للخير والأخلاق فى الكفة الأخرى فإن رجحت كفة القلب السليم استأنف الإنسان حياته فى ظل الخلود وإن رجحت كفة السوء ألقى به فى نار جهنم!! لكن اعلموا أنه ليس لهذا فحسب رسم التاروت هذه الصورة إنما أراد أن يقول لنا شيئا آخر أشدّ وأنكى:

إن الحياة على ظهر الأرض ستكون مهددة بالفناء التام فى السنوات العشر القادمة سيفنيها بنو الإنسان سيتحقق قوله سبحانه وتعالى: يخربون بيوتهم بأيديهم وإنسان هذه الأيام على ظهر الكرة الأرضية يخترع الأسلحة الفتاكة التى تحول الأرض بكل ما عليها إلى هشيم تذروه الرياح ولقد أدرك أجدادنا القدامى منذ وقت مبكر خطورة ما تسمونه اليوم بالتقدم العلمى القائم على اللعب بالنار والتدخل فى

نظام الكون!! لقد أنبأني معلمي عن القنبلة المسماة بالذرية التي ألقيت على اليابان فدمرتها والتي أصبحت الآن كالكرة يلعب بها الأمريكان والروس فرسم أجدادنا هذه الصورة على هذا النحو كي تصبح وازعًا على الفعل الصحيح المناسب يعني أن نستعد بشيء يبطل مفعول الدمار الذي ينشره زبانية الشر من بني الإنسان فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الاقتناع والانبهار واضحين على وجوه الجميع خاصة وجه حسن بك الذي راح يتمتم بكلمات مبهمة أغلب الظن يا خال أنها آيات قرآنية.

الاعتــدال

ملاك جميل الصورة يا خال، بجناحين كبيرين كجناحى نسر عفى، لونهما أخضر زرعى مشوب بالأصفر الفاتح. يرتدى الملاك قميصا أحمر اللون بنصف كم، فوق جيبة زرقاء اللون، وقد أمسك في يده اليسرى آنية أشبه بإبريق من الفخار، وأمسك باليد اليمنى إبريقا آخر من الفخار أيضا كما يظهر يا بوى، وقد رفعه وراح يصبُ فى الإبريق سائلا أبيض كاللبن الحليب يا خال، وأغلب الظن أنه لبن. على الأرض تلال فى لون الطمى المحروق وثمة ما يشبه قصرية الزرع ترتفع منها أغصان مخضوضرة مورقة.

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الرابعة عشرة: الاعتدال!! لعلها كما ترون واضحة وضوح الشمس ومعناها ساطع كالقمر: الملان يكب على الفاضى! بهذا وحده يحدث الاعتدال!! هذا الملآن ذو الجناحين الأخضرين الممسك بالإبريقين هو طيف من عند الله سبحانه وتعالى يشير إلى أن هذه هى حكمته مقولته عدالته: الملآن يصب فى الفاضى لكى يحدث

التوازن فتورق الفروع وتخضر الأغصان ويأتى التمر فتستمر الحياة!! تلك هى كلمة السر التى حفظها لنا أجدادنا فى كتاب التاروت كى نعرف سر ازدهار الحياة واستمرارها زاهرة مشرقة كانوا على علم بأننا مقبلون على زمن صعب يستأسد فيه الشطار يستأثرون بكل شىء فيكثر عدد المحرومين مما يهدد أمن الحياة بالدمار بثورة يشعلها المحرومون فى الأخضر واليابس تهون عليهم كل الأشياء الثمينة والمنابع الخصيبة طالما أنهم محرومون من خيرها!! عدالة التوزيع ليست كل ما تقوله الصورة بل تقول بالاعتدال أيضا وفى كل شىء فى الحياة كما قال ديننا الحنيف لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إنما أراد الله كما أثبتت هذه الصورة المشعة أن يكون الإنسان لا بخيلا ولا مبذرا وهذا ما كان يقصده سيدنا يوسف الصديق عندما أنبأ فرعون بحقيقة الرؤيا وهى أن يدخر من خير السنوات السمان لينفق منه فى جفاف السنوات العجاف فأصبحت مثلا يحتذى ويلتزم به أجدادنا يحرصون على تبليغه لنا كى نبقى على ما بنوه!! وإنها لحكمة عميقة أن يجىء ترتيب هذه الورقة بعد ورقة الموت فكأنها الجواب على النذير نسأل الله أن ينير قلوبنا كى نواجه بهذه الورقة زمننا الصعب هذا الذى تنبئ الأيام الحاضرة عن أهوال وأهوال يخبؤها لنا فى جوفه المعتم الكئيب فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وألقت بالورقة وسط همهمة جهيرة تصيح فى ورع يارب عفوك ورضاك.

الشيطان

الصورة بشعة يا بوى، تقول بالفم المليان أنا الشيطان، نفس الصورة التى رسمتها الحواديت القديمة وأظهرتها أفلام السينما، هكذا تراءت لخيال جميع الرسامين: رجل عارى الجسد تماما يا بوى، لونه أحمر قاتم وأصابع يديه ورجليه حوافر كحوافر الحيوانات الجارحة مدببة معقوقة كالخطاطيف يا خال، وله ذيل طويل مبروم كذيل البقرة يتقوس فوق مؤخرته ويلتف على فخذه اليسرى ممتدا فوق إحليله منتهيا بشرابة من الشعر كشرابة الخرج يقترب شكلها من شكل الحوافر فكأنها يد ثالثة تحت يديه. أنفه معقوف يا خال كأنف اليهود وعلى وجهه مسحة من الخسة والنذالة والخبث الناعم الأريب، وشعر واقف كالريش المدبب كالخطاطيف المعقوقة كالحوافر، أما يده اليسرى فقد أمسكت بشوكة مستطيلة كحربة بشعبتين مدببتين كالحافر، بينما امتدت يده اليمنى فى الهواء مع امتداد فخذه اليمنى بساقها المتكسرة كأنها أوقفت الخطو فجأة، وقد جلست أمام ركبته اليمنى إمرأة تستند بمرفقيها على فخذيها واضعة يديها على عينيها فى خوف وفزع من منظره، مرتدية بلوزة حمراء اللون فاتحة الحمرة وجيبة زرقاء فاتحة الزرقة وتغطى رأسها

بطاقية صفراء فاتحة الصفرة؛ أما وجهها فمختف تماما يا خال، ومن الواضح يا خال أنها ست بيت وأم أولاد ممن نراهن فى الأسواق يتسوقن الخضار والأوطة لغداء أولادهن وأزواجهن الموظفين الغلابة، من خلف ذيل الشيطان ترتفع شواشى نباتات خضراء خشنة صحراوية شائكة كأظافر الشيطان، حاجة تهوس يا بوى . .

قالت الشيخة سعادة :

ـ «والورقة الخامسة عشرة : الشيطان!! فصل جديد يكمل الفصول السابقة فمن شبح الموت إلى ملاك الاعتدال إلى الشيطان تتصل حلقات الحكمة واضحة جلية فلكى نتقى الموت الزوال الاضمحلال الفناء علينا أن نقتدى بفعل ملاك الاعتدال وإلا فالشيطان واقف بالمرصاد!! وقد علمنا من قراءة الأوراق الفائتة أن زمنا صعيبا معتم الجوف يخبئ لنا المحن والصعاب والعثرات قد بات فى أعتابنا بالفعل إذن فالمناخ قد بات ملائما لذيوع الشيطان ولابد أنكم يا أسيادى قد رأيتم فى المرسوم كيف أنه قد ركز خطوه واهتمامه نحو امرأة مهيضة مسكينة حائرة مذعورة فما قصد الورق يا ترى؟! قصده واضح لكل ذى عينين : تمر على البلاد محنة الرواج الكاذب تكره البسطاء فى عيشهم البسيط تجعلهم هدفا سهلا للمغريات إذ يدخل الملوك إلى البلاد وهم إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة!! هم ملوك بأموالهم فحسب وما أموالهم بأموالهم إنما اغترفوها من آبار لاتنفد كان من المفروض أن يحكمها مرسوم ملاك الاعتدال لكن الشيطان المتخفى بأعماق أفئدتهم بث فيهم قوة جبروته فاستأثروا بكل شىء وحدهم ساقهم زهوهم إلى أعشاش الطيور الآمنة!! يجىء هؤلاء إلى أرض الحضارات بنسائها

الفاتنات يحلمون بارتشاف رحيقهن لا يهمهم أن هذه الأرض كنانة الله فى أرضه ولا أنها أنفقت دم قلبها وفلذات أكبادها لتدفع عنهم الأعداء حتى أضناها الفقر وهدها العوز إنما همهم اهتبال الفرصة بالوثوب على الضحية وهى ساخنة بنار الحرمان فاقدة للمقاومة بضغط الحاجة والعوز!! تمر على البلاد محنة تضربها فى الصميم ينفرد فيها الشيطان بالمرأة يسلط عليها قوته السحرية يوسوس لها يغريها بالسقوط فى الخطيئة مقابل ما بات أمنية لكافة المحرومين المرهقين: لقمة طرية وثوب زاه ومسكن عامر وسيارة مجنحة!! تمر على البلاد محنة تكون المرأة فيها هى الخاسرة والضحية الأولى وبسقوطها تتدهور كل الأبنية إنها الوعاء الذى إن تلوث تحدرت الأجيال نحو المستنقع الاسن ببذرة حرام تملأ الأرض جوراً وانحطاطا يعكر الرجس مياه النيل وحينئذ تموت مصر ميتتها الخامسة ما لم نحفظ للمرأة شرفها وعلمها وقوت عيالها كى تصد عن نفسها غواية الشيطان المتربص بها لا محالة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد وضعوا خدودهم على أكفهم كأن صورة المحنة قد تجسدت فى أنظارهم شاخصة دامغة.

المعبـد

بناء كبير ضخم مرتفع الجدران، عليه مهابة واضحة يا خال، مبنى هو بالحجارة المخروطة من صخور الجبل خرطات متساوية منسقة، مثل بناء جميع المعابد التى رأيتها فى الصعيد يا خال، والتى قامت بينى وبينها علاقة ود حميمة يا بوى لدرجة أنى إذا دخلتها شعرت بالرجفة والرهبة. تماثله فى البناء مساجد كثيرة فى القاهرة: مسجد قايتباى، مسجد عمرو، مدرسة برقوق، جامع قلاوون، الجامع الأزهر، الجامع الأنور، وكالة الغورى، والظاهر يا خال أن الذين بنوا هذه البنايات كانوا يقلدون معابد الفراعنة الصعيدية. للبناء الذى فى الصورة باب مغلق بضلفتين من الخشب الثمين مدهون بلون بنى غامق، أما الجدران فلونها زيتى غامق وفيها بعض نوافذ لونها أحمر قانى الحمرة، البناء شبه متصدع يا خال، فثمة أصداغ من أضلاعه العليا سابت وانكفأت منهارة، وبعض قطع صغيرة من حجارته تناثرت متطايرة فى الهواء كسرب من عصافير مهيضة يا خال. يوجد رجل منكفئ على وجهه منحدراً نحو الهاوية رأسه فى اتجاه الأرض وقدماه إلى أعلى ومن الواضح أنه وقع من فوق سطح المعبد أثناء تصدعه

وانهيار واجهته، يلبس قميصا أزرق وسروالاً أحمر. يوجد كذلك رجل آخر قد وصل إلى الهاوية بالفعل مجندلاً على الأرض تناثرت حوله بعض قطع من الخشب والحجارة، يرتدى قميصا أحمر وسروالا أصفر، الظاهر يا خال أن نفراً من المارقين قد اعتصموا بهذا البناء وتبادلوا الحرب مع من بالخارج فتعرض المبنى لهجوم عنيف زلزله وصدعه..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة السادسة عشرة: المعبد!! من أراده بسوء قصف الله عمره فى الحال! النبوءة فى المرسوم واضحة: ستجىء أيام كئيبة تختلط فيها الأمور نتيجة لعماء البصيرة لا يعرف فيها المرء صديقه من عدوه يكثر وكلاء الله على الأرض بغير مسوغ أو قرينة يمتلئ المعبد بالدهماء من الجهلة ذوى النفوس المعتمة يريدون اتخاذه قلعة يستمدون منها الحصانة يعتلون منبرها وهامتها المقدسة لفرض أنفسهم على مقدرات البلاد والعودة بها إلى عصور الجاهلية الأولى يتخذون من أنفسهم حكاما وخلفاء بغير سند حاملين فى ذلك راية الدين متذرعين بما أصبح يعم البلاد من فساد وضلال ولسوف يقضى الله فى أمرهم بقضائه العدل حيث يسلطهم فى البداية على أهل الفساد والضلال حتى يؤرقوا مضاجعهم يزعزعوا الأرض من تحتهم ثم يسلط عليهم زلازله الطبيعية وبراكينه وصواعقه فيقضى عليهم؛ ذلك أن هؤلاء وأولئك أبعد ما يكونون عن الورع والتقوى ويكون الله قد سلط أبدانا على أبدان لحكمة بالغة ولكن يبقى المعبد شامخا رغم تصدعه إلى أن يهيئ الله له من يعمره على أساس من النور والخير والمحبة الصافية وتكون مصر

قد ماتت ميتتها السادسة فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكان الجميع قد نكسوا رءوسهم فى الأرض وانشدت جلود وجوههم فصارت الوجوه مسحاء يا بوى.

النجم

ملاك آخر يا بوى، ولكن بدون أجنحة. شكله أقرب إلى الفتاة إن لم يكن فتاة، شعره منسدل الخصل حتى الكتفين العاريين، وقد التف بإزار أحمر اللون غطى الجانب الأيسر من الصدر والبطن تاركا الذراعين عاريين وكذلك الجانب الأكبر من الصدر حتى الذراع اليمنى متحرر من الإزار، ركبته اليسرى ممدودة من خلال ما يشبه ملاءة زرقاء اللون فاتحة تغطى نصفه السفلى، والساق ممتدة تصنع مع الركبة زاوية حادة حيث استقرت القدم الرقيقة الحافية على شاطئ البحر. فى يده اليسرى قلة فخارية حمراء، وفى يده اليمنى إناء يشبه الكوب أصفر اللون؛ أماله الملاك وجعل يدلق ما فيه من سائل أزرق اللون فى البحر. وهذا شيء غريب يا خال، فحيث نتوقع أنه يغترف بالكوب من البحر ليملأ القلة إذا هو يفعل العكس كما يظهر فى الصورة يا خال، وإلا فما فائدة أن يكون الكوب فى يمناه والقلة فى يسراه؛ المهم يا خال أن السماء من فوق رأسه مباشرة مرصعة بسبع نجوم، ثلاث حمراء اللون فى أعلى تشكل هيكل مثلث متساوى الضلعين المتقابلين، وأربع نجوم أخرى صفراء اللون، اثنتان منها فى منتصف الفراغين بين الضلعين المتقابلين،

واثنتان فى أسفل تحت النجمتين الحمراوتين، ورأس الملاك بينهما، واحدة أمام جبهته والأخرى خلف شعر رأسه، حاجة تهوس يا بوى، مع ملاحظة أن السائل المندلق من الكوب فى البحر رغم تماثله فى الزرقة مع مياه البحر فإنه مشوب بظلال حمراء وصفراء نفس لون النجوم السبع والإزار والملاءة وأرض الشاطئ الصفراء تماما يا خال، ولذا فقد صنع السائل المندلق دوامة صفراء وحمراء؛ حاجة تهوس يا بوى..

قالت الشيخة سعادة:

-«الورقة السابعة عشرة: النجم!! يجىء يوم يعلو فيه النجم فيعم الفيضان يرجع إلى سابق عهده الأول لكنه يكون ملوثا شنيعا قد ألقيت فيه الجثث والجيف والسموم الصفراء قادمة من المنبع الأعلى ذلك الذى كان فيما مضى وقبل خصى النيل بالسد يخلط الماء بعرق الأرض السوداء!! فيضان الماء ولو كان ملوثا خير من جفافة وهاهنا يهوى النجم بفكرة ملائكية ملهمة على هذا المرسوم فى الورقة ترينا ضرورة وضع مطهر فى الماء ينقيه من كل السموم وأول دواء علينا اتباعه هو قتل الداء المستشرى فينا نحن أبناء هذه الأيام: نوقف اعتداءنا السافر المتواصل على النيل وإنه لعدوان يصيب أرضنا وأبداننا بالأمراض المستعصية ومهما يكن من أمر فإن هذه الورقة كما يقول معلمى هى ورقة الأمل والرخاء والنجاح ولكن أى رخاء وأى نجاح إنما هو مرهون برفع أيدينا الآثمة عن نهر النيل وعن كل ما يجرى فى البلاد من مياه فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

انضمت الورقة إلى زميلاتها.

القمر

الورقة مقسومة إلى نصفين بالعرض، بينهما شريط أبيض ضيق. في النصف العلوى يلتصق القمر بسقف الورقة؛ هو أشبه بالميدالية مرسوم عليها وجه شاب طفولى الملامح ذكى العينين مضموم الشفتين ينظر فى البعيد، ويظهر يا خال أن القمر يبدو هكذا دائما لمن ينظر إليه من بعيد: وجه إنسان بملامح وتقاطيع ناطقة..

على يسار القمر يا بوى شرفة قصر منيف، وعلى يمينه شجرة مورقة لون جذعها بنى غامق وأوراقها خضراء بالطبع، والأرض فى لون الطحينة، تكتنفها بعض نباتات شوكية فى شرفة القصر فتاة يظهر نصفها الأعلى، مرتدية ثوبا منزليا بسيطا، بنفسجى اللون، فوقه مريلة بيضاء. وقد عقصت شعرها، ومدت يدها اليمنى فى دعوة وترحيب، تحت الشجرة يجلس شاب يرتدى قميصا أزرق اللون على سروال أحمر غامق، وغطاء رأس أحمر، وقد أمسك بآلة موسيقية تشبه آلة البزق وآلة السمسمية، راح يعزف عليها وهو فى حالة من الطرب والنشوة؛ والأنغام خارجة على هيئة خطوط ونقط رفيعة جدا تشكل مويجات متدافعة فى بطء كبقايا دخان السيجارة..

فى النصف السفلى يا خال مساحة زرقاء فاتحة تشبه نسيج الخيش، وتبدو كأنها حوض من أحواض أسماك الزينة، يحدها من اليمين ومن اليسار ضلعان تخينان من اللونين الأحمر والأصفر فى وسطها تماما شكل شبح أحمر قان، لرجل متصلب يرفع ذراعيه إلى أعلى كأنه يلعب رياضة الصباح، لكننا لو نزعنا ذراعيه يصير شكله شكل فانوس من فوانيس رمضان، تحت كل ذراع من ذراعيه حشرة حمراء اللون لكنها غامضة الجنسية لا نعرف إن كانت سمكة بذيل أو سلحفاة أو خنفساء، هذه الورقة يا خال من أشد الأوراق غموضا . .

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة الثامنة عشرة: القمر!! يفسرها معلمى نقلا عن علماء التاروت وما أكثرهم فى العالم بأنها ورقة الفضيحة والخطأ والوهم!! يمر على البلاد زمن تنكشف فيه كل الخفايا يصبح ما كان يسمى بالمستور عريا كاملا يصبح العرى سمة عنوانًا على العصر تفقد كل الأشياء جلالها تضيع من كل الكلمات معانيها تغترب مفردات الشرف والأخلاق والكرامة والسؤدد والوطنية والأمانة والأدب والواجب والتضحية والإيثار والعدالة والإنسانية والرحمة تصبح كل هذه الكلمات سيئة السمعة مثاراً للسخرية والهزء والرثاء يتساوى الجميع فى قلة القيمة تنعدم الروادع تضمحل الوزعة تدخل النفوس فى ليل حالك ثقيل الوطء مدلهم يبحث فيه كل صائد عن فريسة شاردة وهنا ينزل القمر بنوره الفضى الفاضح يخترق أعماق البرك والمستنقعات يبرز ما فى جوفها من حشرات وجيف وسموم!! ما القمر هذا إلا إنسان حقيقى مستنير أغلب اليقين أنه عقل الأمة التى بقيت فى أرضعها

الخصيبة روحها السابعة التى لا تموت مطلقا فهذه الأرض المباركة التى أنجبت الأبطال والفاتحين والمتنبئين والمقرئين والمتقنين والكاتبين والمثالين والنقاشين والبنائين والزراعين الحارثين الحاصدين تحتفظ فى باطنها فى ضميرها الحى بكل بذرة طيبة لا تلبث حتى تطل برأسها بمجرد ما تتهيأ لها الظروف المناسبة!! ومثلما يكتمل البدر فى منتصف الليل منتصف الشهر ومثلما يبزغ الفجر من ذيل عباءة الظلام القاتم يبزغ عقل الأمة من جديد حينما تشتد الحلكة وتنبهم الأعماق فإذا الظلام قد أخذ يتبدد من النفوس بفعل ما يشعه العقل الجديد القديم البازغ من الكمون فتحدث الإفاقة يبدأ الإنسان فى ازدراء نفسه وتلك بداية القومة التى لا يعلم إلا الله مدى ما تحتويه من مخاطر وأسرار فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

راحت النظرات تتابع يد الشيخة سعادة وهى تضع الورقة بحنو كامرأة تتحسس كتاكيتها يا خال.

الشمس

الدائرة كاملة هذه المرة يا خال، وليست ملتصقة بأى سقف، بل هى معلقة فى الفضاء، تندلع منها أشعة حادة صفراء مخضوضرة؛ فهى الشمس إذن يا خال، لكن الدائرة عبارة عن شكل كالجنيه الذهب محفور فيه وجه رجل مثل وجه القمر لكنه أصفر ذهبى بعينين خضراوتين، والإخضرار يظلل جانب وجهه الأيسر، وهو مفتوح العينين بنظرة واثقة تستطلع الأفق البعيد، تكاد تبتسم ابتسامة منشرحة، الأرض من تحتها فى لون القمح بتلال متناثرة، فوق هذه الأرض يا خال ـ بين شجيرات خضراء منسقة ـ يجلس فتى وفتاة كأنهما يتناجيان فى خلوة علنية على غاية من الاطمئنان والنزاهة؛ الشاب يرتدى ثوبا مكونا من قطعتين، قميص أصفر فاتح يكسو صدره وذراعيه حتى الخصر، بقية الثوب البنفسجى اللون غامق؛ وقد جلس منجعصا واضعا ساقا على ساق. أما الفتاة فقد انعطفت عليه، بقميصها الأحمر المحتشم، وجزء من الجانب الأيمن لصدرها ملتصق بكتفه الأيسر، كل منهما على ركبتيه كتاب مفتوح، منظرهما يا خال أشبه بزميلين فى الجامعة اختليا فى منعطف من حقل بعيد بذريعة المذاكرة واندمجا فى حوار حميم، حاجة تهوس يا بوى.

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة التاسعة عشرة: الشمس!! تلك هى التى لا تغرب عن أرض الكنانة وإن طال احتجابها خلف سحب الجهالة والطغيان والغزوات!! يجىء زمن تحتجب فيه الشمس خلف الأبراج العالية خلف مظاهر سفه كذابة من طبقات تأكل السحت والمال الحرام وتنشر على البلاد ظلام جهلها تغسل أمخاخ الشباب الضائع الهفتان تجعله أداة للتخريب وسفك الدماء الزكية لكن القمر العاقل الذى يضىء النفوس بعد ظلامها يكون نذيراً تباشير صحو ندى عفى سرعان ما تسطع الشمس من ورائه على العرايا البائسين تلهب عقولهم تميت فيهم الخور وجراثيم النكوص تريهم الأشياء على حقيقتها تتمزق أستار الأوهام تسقط حواجز الرهبة بينهم وبين السفاحين القتلة يبدأ الزحف الشامل فى فضاء الحرية نحو إرادة الله التى خلقتهم فى الأصل أحراراً فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!».

ترقرقت موجات القلق فى وجوه الجميع.

المحاكمة

صورة مروعة يا خال: ملاك من السماء بجناحين أصفرين، لونه طحينى، يقعد متربعا فوق كتل من السحاب الثقيل فى لون جسده، قد أمسك ببوق طويل راح ينفخ فيه، وفى الأرض أربعة أشخاص: رجلان وامرأتان، الرجلان عاريان تماما، والمرأتان إحداهما خرجت من هدومها والثانية متشبثة بإزار أزرق اللون يدارى سوأتها، الفزع والروع واضحان عليهم من حركة أياديهم ووجوههم نفهم أنهم فى حالة صراخ واستغاثة، أرجلهم مغروزة فى الأرض يا خال، والأرض فى لون أجسادهم النحاسية، مما يوحى للرائى بأنهم كانوا مدفونين فى المقابر وأنهم لبوا نداء البوق فبعثوا إلى الحياة من جديد فرموا بالأكفان، وانبثقوا من باطن الأرض كالسكارى التائهين الفزعين من ملاقاة يوم الحساب حاجة تهوس يا بوى، لابد يا خال أن هذه الصورة ترسم يوم الفزع الأكبر..

قالت الشيخة سعادة:

ـ «الورقة العشرون: المحاكمة!! تلك هى القومة! قومة الموتى من الأحياء الذين بث فيهم الشمس حرارتها وشققت لهم الأرض فنهضوا

خارجين من شقوقها متلهفين على الإمساك بمن كان السبب فى دفنهم أحياء كى يقتصوا منه!! إن علماء التاروت فى العالم حين عرفوا أن هذه الورقة اسمها المحاكمة وأنها تعنى الحساب العسير فرقوا بينها وبين الحساب الإلهى النهائى وذلك من واقع المرسوم فى الصورة فها هى ذى إحدى النساء ترفع ذراعها اليمنى صائحة فيمن حولها بحركة تنبيه وتوجيه فلابد أنها تقول لهم ابحثوا عن المسئول عما جرى لنا وها هم الآخرون حولها يتبادلون المشورة سيما وأن الأمر قادم إليهم بإلهام من السماء عبر البوق الملائكى الصائح فيهم أن انهضوا حرروا أنفسكم من الموات من القهر من الذل من عوامل الفناء حاسبوا من ظلمكم أهانكم امتص دماءكم فلكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ولابد أن المحاكمة ستكون شاملة فضوء القمر وحرارة الشمس يفرزان من بينهم الأصفياء الأنقياء المهتدين القادرين على حقن الدماء فاللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وكنا جميعا قد أرهقنا يا خال، فأخذنا نرمق الورقة الأخيرة فى استرخاء لذيذ.

العـالـم

رجل عارى الجسد يا خال، يمسك بيديه وشاحا أو ربما شالاً مبروما كشال العمامة الصعيدية. يتلولب عند طرفيه وفى الوسط يغطى سوأه الرجل، فكأن الرجل ممسك بثعبان كبير مذعور. يقف الرجل وسط طوق من الزهور والورود بيضاوى الشكل، نفس الطوق الذى نراه عند بائعى الزهور فى أيامنا هذه، فى أسفله عقد شريط حريرى أحمر مربوط بعقدة وشنيطة، فوق الطوق يا خال، على الزهور وأوراق الورد، يقف ثلاثة من الطيور الجميلة كأنها جزء من فكرة الطوق، الطائر الأوسط بجناحين أصفرين كبيرين مفرودين، لكن شكل الطائر ذى اللون النحاسى أشبه بالنسر وما هو بنسر، أما الطائران الآخران عن يمينه وعن يساره فرأسهما أحمر وريشهما أصفر مخضوضر، وكلاهما واقف فى وداعه مضموم الجناحين فى تطامن وسلام لاويًا عنقه فى اتجاه الطائر الأوسط. الطائران ربما كانا حمامتين أو قبرتين، وأما الرأس السفلى للطوق فمستقر بين رأسين لحيوانين شكلهما غامض وواضح معا، على اليسار رأس لأسد كثيف الشعر يظهر جزء من ظهره خلف شعره، وجهه وجه إنسان تكاد نظرة عينيه القويتين بما فيهما من إنسانية

تدفعانك لأن تمد يدك لكى تسلم عليه ، أما على اليمين فوجه ثور عفى بقرنين مدببين معقوفين ، وجزء كبير من جسده ظاهر فى الصورة لصق بطن الأسد ، الثور غير مذعور من الأسد يا خال ، وإن كان منظره يوحى بأنه فى حالة تهيج جنسى ، ويظهر يا خال أنه رأى فى المساحة غير المرئية بقرة أنثى أهاجته ، لكن سبحان من جمع الأسد مع الثور فى مثل هذا الود المسالم يا خال ، حاجة تهوس يا بوى . .

قالت الشيخة سعادة :

ـ «الورقة الأخيرة : العالم ! ! تلك هى ورقة الاكتمال كما وصفها علماء التاروت ! ! التحقق الكامل والنجاح المستمر بالعمل الخلاق الدءوب هكذا كان حلم أجدادنا الوردى : أن يصل العالم إلى هذه الدرجة من الأمن والسلام والتوافق حيث يعيش الإنسان مطوقا بالزهور والورود محاطا بالطيور الغناء تضمحل العداوات حتى بين الأعداء الألداء من الوحوش المفترسة والحيوانات الأليفة وهكذا يكون كتاب التاروت الذى منه نشأ تعبير : إفتح لى الكتاب يعنى اقرأ لى طالعى قد كشف لنا سر استمرار الحياة زاهرة متحضرة مورقة على الأرض يسودها الوئام والسلام ليس بين البشر فحسب إنما بينهم وبين جميع ما فى الكون من خلوطات يتم التكامل بينهم كما يتم التحقق لهم ! ! كلمة السر هى العلاقة الخفية بين الورق فى ترتيبه من ورقة إلى التى تليها كل ورقة تحمل مرسوما لمعنى وكل معنى يرشد إلى ما ينبغى عمله كى تستمر الحضارة صاعدة طالعة من أرض مصر الطيبة كى يظل المصريون حملة لواء السلام والوئام إلى العالم أجمع ! ! إنكم لا شك تعلمون حقيقة الرسم بالنسبة للمصرى القديم فقد كان لا يرسم إلا ما

ينتوى فعله فمتى رسمه صار حقيقة نافذة!! أنبأنى معلمى أن جدى القديم كان قبل خروجه للصيد يرسم نفسه وهو يصطاد شيئا محدداً هو على وجه التحديد الشيء الذى طلبته نفسه فإن طلبت لحم الغزال رسم نفسه فى كيفية الإيقاع بالغزال فكأنه ينفذ خطة الصيد نقشا وتلوينا على الحائط ثم إذا به قبل خروجه للصيد يضع القدر على النار ثقة مطلقة فى أنه عائد بالغزال لا محالة قبل غليان الماء فى القدر فهو إذ يرسم العالم هكذا إذن معناه أنه ليس يرسم حلمه الأكبر فحسب بل يضعه موضع التنفيذ يحيله إلى حقيقة واجبة النفاذ يلتزم بها!! اللهم أعنا جميعًا على الخلاص من كافة المعوقات. ضع فى قلوبنا بلسم الشفاء وفى عقولنا مشعل الهداية وفى ألسنتنا ذكر الواحد القهار إنك أنت السميع العليم يا مذل يا معز يا واهب النعم! أمين يا رب العالمين!!».

رحنا نتنفس هاتفين فى صيحة واحدة؛ يارب، فيما راحت الشيخة سعادة تطوى أوراقها، تلفها بالشريط الحريرى، تعيدها إلى محفظتها الجلدية، ثم اعتدلت فى جلستها تجفف عرقها، ثم طلبت كوبا من الينسون.

بنت

أنا والله يا بوى ما كان مرادى أن أتزوج بعد ما حدث فى تلك الليلة التى احترقت فيها من هزت قلبى فى طلعة الشباب، فى الأول كانت رغبتى فى الزواج منها وعداً قطعته على نفسى لكنها حينما أشعلت النار فى نفسها انزرع حبها فى قلبى، لقد أحرقت نفسها خجلا منى لما رأيتها فى وضع سيئ..

إلا أن بركات الشيخة سعادة تدخلت فى الأمر يا خال، والنصيب غلاب ما فى ذلك شك، فالعبد فى تفكير والرب فى تدبير. الشيخة سعادة ذات السر الباتع كات تنتوى لى أمراً، هكذا أوعز الله لها بذلك، وخيراً ما فعلت، وهل كنت أحلم بمثل هذه الزيجة يا بوى؟

فى ليلة استراحة القناطر فكرت - من هبلى - أننى يمكن أن أعود إلى الصعيد بصحبة الشيخة سعادة فى مواصلة سهلة ميسورة أبهة، لكن الشيخة سعادة ما أن أنهت مهمتها ونهضت واقفة، وكان الضحى العالى يغمر القناطر الخيرية بشمس خضراء حانية - حتى نهض الجميع، فمشينا بصحبتها إلى الطابق الأرضى، حيث كان فى انتظارنا سائق

وحارسان، فإذا بالشيخة سعادة تلف يدها فى طرف الطرحة وتسلم علينا واحدًا واحدًا بسرعة، ثم تمرق من الباب إلى السيارة السوداء الواقفة أمام الباب مباشرة، حيث فتح لها السائق الباب كأنها الأميرة المتوجة. فلما ركبت أغلق الباب وفتح باب القيادة ودخل، وفى لمح البصر رجعت السيارة بظهرها قليلا ثم زحفت كالبرق ثم ما لبثت حتى اختفت كالفكرة الخاطفة، توقفت أنا مبلولا يا بوى، سلم علينا محمد بك أبو شناف وصعد لينام، أما حازم فتقدمنا نحو سيارته حيث ركب المشعرانى بجواره وركبت أنا والحاج السنى فى المقعد الخلفى، وقفل عائدا بنا إلى مصر عتيقة. .

فكرت فى اللحاق بالشيخة سعادة. لقد أصبحت مفتونا بها يا بوى كأنها سيدة لم يسبق لى معرفتها من قبل وها أنذا لا أريد أن أفارق محضرها إلى الأبد، لكننى كنت مرهقا يا خال، معى فلوس كبيرة لا يجب أن أسافر بها فى طريق الصعيد إلا نهاراً وعينى فى وسط رأسى، صعدت إلى شقتى لأنام. .

نمت أربعا وعشرين ساعة متواصلة يا بوى، نوما عميقا كالموت؛ لدرجة أننى عندما صحوت ظللت ممددًا فى السرير أكثر من ربع ساعة أحاول أن أتذكر من أنا وأين كنت قبل النوم وكيف جئت إلى السرير، فلما صارت المسائل تتضح أمامى شيئا فشيئا شعرت بسعادة عمرى ما شعرت بها يا بوى. اشتقت للشيخة سعادة فى الحال، معلمتى وأميرتى ومصباح طريقى، اشتقت أيضا إلى هليل، قلت لنفسى إن المبلغ الذى زاد هو من حقه سأعطيه له، قمت فأخذت حماما ساخنًا كأولاد الناس الطيبين ثم لبست ثيابى، حشرت فى جيب الصديرى رزمتين كبيرتين

من الفلوس، نزلت يا خال نفسى مفتوحة للشراء، شراء أى شيء وكل شيء. خرمت فى وسط المدينة بجرأة كبيرة، جلست على أكثر من مقهى وفى أكثر من حانة، شربت أرقى أنواع الخمور، اقتحمت المحلات فابتعت كسوات كثيرة من الأصواف والأتيال والحراير والأحذية والجوارب والفانلات والشيلان، لى ولهليل وللشيخة سعادة ولكل إخوتى البنات وأمى وأولاد خرابة.

حلف هليل ألا يأخذ مليما واحداً جزاء خدمته لى، فهو ـ كما قال ـ ليس يعمل سمسارا على آخر الزمن، يكفيه ما جئت به من هدايا له ولأبيه، فحلفت له مائة يمين أن هذا المبلغ جاء على اسمه من عند الله وأننى لن يتبعنى منه مليم واحد فهو رزقه، ثم أزحت المبلغ نحوه بقوة، فتدفقت صفائح الدم فى وجهه الشفاف وقال إن المصلحة واحدة على كل حال وإن الله قد بارك فى ما كينة الطحين وماكينة المياه وفى زريبة المواشى لدرجة أنه لم يعد يعرف كيف يشغل كل هذه الفلوس، ثم إذا به يصيح فجأة وقد طلعت الشمس فى خديه من فرط الفرح:

ـ «أخذتنا فى دوكة! انت ابن حلال وأمك دعت لك فى ليلة قدر ولهذا تجيء فى وقتك يا بو العم!... قبل دخولك علينا كنت سألبس لأسافر إليك لأجيء بك!».

ـ «خيرا إن شاء الله؟!».

ـ «ستتزوج يا عم!! ضاعت منك الجميلة فأتاك الله بالقمر يابو العم! قمر ماذا يا بو العم؟ القمر والشمس والنجوم وكل الكواكب فى كفة وعروسك وحدها فى كفة!».

معها الشهادة الإعدادية ومنعها أهلها من الخروج بتاتا!! أختك هذه داهية!! انتقتها لك بالملقاط! حسب ونسب جمال ومال وكل شيء قلبك يحبه موجود في عروسك يا بو العم!! أهلها أغنى ناس في بلدة الدوير يا بو العم! جيراننا في الأرض أنت تعرفهم طبعا! أبوها بهي الدين شحاتة الذي كان أبوه عمدة قبل أن نولد! عمها محام كبير في أسيوط وأخوال البنت من أعيان بلدة الشناينة وأخوال أمها من أولاد إلياس!! أختها الكبرى متزوجة من ابن عمدة الغنايم! يعني عزوة كبيرة يا بو العم بركة ورثك!!».

ركبني الذهول يا خال. فأنا أعرف هذه العائلة معرفتي لبلدتي، هم بالفعل ناس طيبون على الآخر يابوي، نسوانهم سناير كالحوريات حمر الوجوه كالقشدة بالمربى، الناس يضربون بهم المثل في الجمال، قلت لهليل:

- «وهل وافقوا يا هليل؟!».

تراجع هليل بذقنه على صدره:

- «إه! إياك تظن نفسك قليل الشأن! لقد رحبوا يا بو العم ورنت الزغاريد في الحال!! من الذي لا يرضى بمصاهرة حاكمة الجبل بجلالة قدرها؟ قاهرة الحكومة في عقر دارها! أم اللسان الحلو والفعال الأحلى! أنسيت يا بو العم أن خيرها على الجميع؟ أنسيت أن الجبل بفضلها أصبح نظيفا لا يؤوي سوى الرجال الحقيقيين؟ الجبل اليوم يكاد يكون مسجداً لولا أنها لذكائها تسمح بشيء من الحرية فيه حتى لا تكون مكروهة من أحد خاصة وأنها تعرف الحياة الخشنة في الجبل ومدى ما فيها من حرمان!! الجميع يضعون في أعينهم حصوة ملح فيفسق من يحب الفسق في السر على خفيف خفيف!!».

ـ «لكن منذ متى حدثت هذه الخطوبة يا هليل؟!».

ـ « من شهور طويلة والمفاوضات دائرة بين الجبل والدوير! لكن الخبر ذاع بالأمس فحسب عقب عودة الملكة من مشوار مهم حيث مرت على الدوير فى طريق عودتها بسيارة حكومية سوداء! فبعثت من أتى بى وبأختك زوج أبى وأختك الثانية وخالتك تفيده وأمك!! نصبنا مؤتمرا كبيرا يا بو العم واتفقنا على كل شىء ورضيت العروس أن تعيش معك فى مصر أو فى أى مكان يعجبك!! أما وقد بعث بك الله فى الوقت الملائم فغداً بإذن الله نذهب معا إلى الدوير لنشمط الغدوة التمام وترى البضاعة عن قرب! وبعد غد نمضى بوفد يضمها هى وأمها وأختها وزوج أبى وأبى وأنت إلى أسيوط لنشترى الشبكة على نقاوة عينها!!».

ـ «كلام جد يا هليل؟!».

ـ «إه! قالوا الجمل طلع النخلة! هاك الجمل وهاك النخلة يا بو العم تاهت ولقيناها! تجيد ركوب الخيل؟!».

ـ «طبعا!».

ـ «تركب حصانى وأركب البغلة ونخطف رجلنا إلى الدوير! فركة كعب بينها وبين بلدتنا! نشرب الشاى عند أصهارك! نتفق معهم على الغداء عندهم غدا!».

ـ «زين والله زين».

ما دريت إلا وأنا فوق الحصان وهليل بجوارى فوق البغلة نركض تحت خيمة الأصيل الذهبية عبر بلدة أبو حجر فى طريقنا إلى بلدة

الدوير، وكان قرص الشمس ينصهر على مرمى البصر فوق أسطح البيوت فيصنع كل شيء بلون الذهب، وقد راح الهواء المنعش يصافح صدرى المشدود فيملؤنى زهوا وسعادة فتبدو الدنيا كلها فى ناظرى محض حلم من الأحلام يا خال. .

عقلى طار يا بوى عندما وقع بصرى على وجه العروس وهى تضع أمامنا صنية الشربات وتمضى، تحلف اليمين يا خال أنها غزال بكل معنى الكلمة، أنا الآخر وضعت فى الصنية مائة جنيه كاملة تعبيراً عن رضائى، صممت على الإسراع فى إتمام الزواج قبل أن يرجعوا فى كلامهم، أكلت عقلى البنية يا بوى، فكلما أعجبها شيء أقول: ماشى، حتى خرجت هى من عند الصائغ مبرقشة بالذهب فى عنقها وأذنيها ومعصميها وأصابعها وصدرها. .

فى ظرف شهر واحد جهزت دارى فى البلد كدار أكبر عمدة فى الناحية جعلتها سراية بحق، وانتقلت إلى شقتى فى مصر عتيقة فدهنتها بالزيت فى ألوان زاهية وفرشتها فرشا ملوكيا معتبرا شاورت الحاج السنى فاقتادنى إلى محلات شهيرة متخصصة فى كل ما يشرحُ القلب من المفروشات، صارت شقتى قصرا من قصور الباشوات تحت إشراف الحاج السنى واختياراته.

أقيم الفرح يا بوى، خذ عندك من لعب الخيل بالمزمار إلى لعب الحطب فى ليلة الحنة، أما ليلة الدخلة فجاءتها فرقة من فرق القاهرة نصبنا لها مسرحا فى الساحة الكبيرة، ذبحنا عجلا وبضعة أغنام، دعوت الشلة الوسخة. بسبوسة وبربش وغزولى وهندى، والحاج السنى ومحمد بك أبو شناف وحازم والمشعرانى وبعض تجار الأنتيكات

من خـان الخليلي ، الدعـوات كـانت مطبـوعـة بماء الذهب على ورق ثمين ، وتسهيلا لهم استأجرت أتوبيسا سياحيا خاصا وقف فى ميدان التحرير أمام مبنى الاتحاد الاشتراكى ووقف هليل بنفسه أمامه يستقبل القادمين ، باسم الله ما شاء الله حضروا جميعا ما عدا محمد بك أبو شناف أرسل اعتذارا مع حازم . .

تمت الدخلة فى سرايتى فى البلد وسط دهشة الجميع من مظاهر الثراء التى بانت فى الفرح فى الصباحية انهالت علينا فلوس كبيرة من أقارب العروس وأقاربى فأهديتها جميعا للعروس تشترى بها مزيدا من الذهب ، مما رفع مقامى فى نظرها ونظر أصهارى يا خال ، الأهم من ذلك يا بوى أننى ضمنت قلب البنية فوضعته فى جيبى من أول ضمة .

جوكر

النصيب غلاب يا بوى كما قلت لك. كانت نيتى أن أمكث فى البلدة عشرة أيام على الأكثر ثم أعود بعروسى إلى القاهرة كى أفرجها على كل ما تحلم برؤيته، ولكن الظروف السعيدة شاءت أن أبقى فى البلدة أكثر من شهرين، فبينما نحن لم نفرغ بعد من البوس والأحضان جاءنا الصويت من بلدة العزايزة ينعى موت سالم أبو حبة عين أعيان البلدة وعضو مجلس الأمة عن الدائرة التى تتبعها بلدتنا، لحظتها يا خال كنا نتأهب للسفر فجرا إلى القاهرة فى سيارة مخصوصة بيتنا عليها وأعطيناها العربون، لكننى تلقيت مرسالا من الجبل ينبه علىّ بعدم الرحيل ويطلبنى غدا للصعود إلى الجبل، رقص قلبى يا خال، تحلف اليمين أننى سمعت طبوله فى صدرى، كنت على علم بأن الملكة ـ الشيخة سعادة ـ سوف تجتمع بى على عجل فى استراحة الجبل السفلية فى نفس المغارة التى جمعت فيها حازم والمشعرانى بهليل يوم بيع تمثال رمسيس الذهبى، كانت الإجراءات الأمنية يا بوى تتفوق على الإجراءات الخاصة بالرئيس عبد الناصر. كان هليل مرافقا لى على طول الخط، وفى اجتماع الملكة بنا تلقينا الخطة كاملة منها، على أن نشرع فى تنفيذها فى الحال..

الولد هليل - ربنا يعطيه العافية ويطول لى فى عمره - أدار الشغلة جيدا . . ذهب على رأس وفد إلى العزايزة، وأرسل أباه فى وفد إلى الغنايم، وبعث بعدد من رجالات الجبل ووجوهه فى وفود إلى الشناينة وأولاد إلياس وأبو حجر وكل بلاد مركز صدفا، وتكفل أصهارى بإرسال وفود من جانبهم إلى كل البلاد، أما عائلة خرابة بكل ثقلها فقد انتشر رجالها فى كل مكان، ثم جاءت الوفود كلها مبسوطة ملآنة بالفرح تقول إن جميع رجال الدائرة يرحبون بترشيحى لمجلس الأمة وأن علىّ أن أتقدم بقلب جامد مطمئن إلى أن جميع أصواتهم فى جيبى من الآن، حيث أن الناس يا خال قد زهقوا من المرشحين من الباشوات القدامى والجدد الذين يستعلون عليهم بمجرد نجاحهم، فليجربوا المرشحين المتواضعين من أمثالهم، بل إن بعض العائلات أخذت المبادرة فى الحال فأقامت سرادقات دعتنى لزيارتها فى بلادها، لتقفل باب المفاوضات أمام غيرى، وجاءت تحريات الجبل تفيد بأن من سيرشح نفسه ضدى رجلان اثنان لا حول لهما ولا قوة، أحدهما مسيحى والآخر مسلم، يحترفان ترشيح نفسيهما كلما لاحت الفرصة دون أن يحالف أحدهما النجاح مرة واحدة، وكان هليل يستطيع مفاوضتهما على التنازل لكن الملكة نبهت عليه أن يدعهما وشأنهما . .

ذهبت إلى المحامى عم زوجتى وانتدبته لمساعدتى فى القيام باجراءات الترشيح التى لم أكن أعرف عنها أى شىء والله يا بوى، فبكل ترحيب سافر معى إلى القاهرة بنفسه فمكثنا بها نحو أسبوع كامل على نفقتى خلصنا فيه كل الأوراق والمسوغات؛ وقمنا بعدة زيارات لجهات أمنية لا أدرى من أمرها شيئا ولكن المحامى العقر الذى اتضح لى أنه شخصية كبيرة فى القاهرة وأنه عضو اللجنة المركزية للاتحاد

الاشتراكى على مستوى أسيوط ، أحاطنى علما بأن كل هذه المشاوير ضرورية وأننى يجب من الآن أن أتعرف على جميع شخصيات الحكام فى مصر وخاصة رجال الحزب ورجال الأمن وكل الجهات التى قال لى إن اسمها الجهات التنفيذية يعنى التى فى يدها تنفيذ القوانين والأعمال .

بدأت الدعاية الانتخابية يا خال بمجرد إعلان قبول ترشيحى الذى سعى وراءه عم زوجتى بجهود طيبة ، وآخر ما كنت أتصوره يا بوى أن الجهات المسماة بالأمنية لابد أن تقول رأيها فى المرشح بالقبول أو بالرفض ؛ ولو كنت أعلم ذلك من قبل لتكسرت مجاديفى خوفا من الشهور التى سبق لى أن أمضيتها فى السجن بسبب تهريبى للأسلحة والذخيرة من معسكر الجيش أيام كنت أبيع القهوة والشاى فيه للعسكر ، إلا أن المحامى العقر وفر علىّ متاعب كبيرة يا بوى ما ألذ هذه اللعبة وما أحلاها يا خال . .

هنا العزوة الحقيقية يا بوى والأبهة التى على أصولها : ناس يحملونك فوق أكتافهم يهتفون بحياتك وأنت ماض بينهم كالعريس لا تسعك الأرض من الفرحة ، وناس يخطبون أمامك فى الميكرفون بكلام قد لا تفهمه ولكنه ذو وقع حلو فى الأذنين ، شعرت يا خال . . كأننى مخلوق لهذه الأملة ، وأننى يمكن أن أقتل أى مخلوق تسول له نفسه حرمانى من النجاح فى هذا الطريق . .

أبرقت إلى غزولى وبربش وبسبوسة وهندى فجاءوا للمساعدة فى الدعاية منحت كل واحد منهم مائة جنيه كمصروف يد ، وكانت هذه الحركة أكبر إلهام لى من الله يا بوى ، إذا بى يا بوى لم أعرف الولد

بربش بالذات على حقيقته ؛ اتضح لى أنه خطيب مفوه يا بوى ، ابن الفـــرطوس لا أدرى من أين يأتى بكل هذا الكلام الموزون الذى يملأ الدماغ ، وبالنحوى يا بوى ، الولد ابن حرام ، عرف كل ما يحتاجه الناس فى بلادنا ، وكل ما يفكرون فيه من مشاكل تؤرقهم وأحلام تؤنسهم ، فصار يضرب على أوتارها فى كل سرادق نزوره وكل دار تستضيفنا ، يسرع فى الحال بالوقوف ليتكلم نيابة عنى قائلا إن سيادة النائب ـ يعنى أنا يا خال ـ سوف يفعل لكم كذا وكيت : مستشفيات ، مدارس ، سكك حديدية ، مواصلات ، وظائف لكل العاطلين ، شق ترع ومصارف ، . ماكينات رى ، إعانات للعاجزين ، تمليك أرض للاستصلاح . . إلخ إلخ . . وكان يتكلم بجدية كبيرة يا خال ، وينفعل مثل خطيب المسجد ، والخلق كلهم يصفقون يهتفون بحياتى ؛ فيخيل لى يا خال أننا جميعا نشارك فى تمثيل مسرحية ، وأننا جميعا بمن فينا الجمهور نستحق أكبر جائزة على إتقاننا للأدوار . .

طب ما قولك يا خال إن جدية بربش وانفعاله فى الخطب هما اللذان جعلانى أخذ الأمر بجدية ؟ ! .

نعم يا بوى ، إن اندماج بربش فى الخطب كأنه المرشح لا أنا ، كأنه كان ينتظر هذه الفرصة من زمان ، جعلنى أندمج أنا الآخر فى الدور بعد أن كنت أدارى وجهى بكمى موليا نحو الحائط لأضحك من الوضع الذى صرت فيه ، ثم إن بسبوسة هو الآخر كان ولدا جدعا لأقصى حد ، لم ينادنى إلا بسيادة النائب ، ويكلمنى باحترام كبير ، يقول لى سيادتك وحضرتك وجنابك ، ويساعدنى فى الرد على بعض الأسئلة التى كانت تنهال علىّ من الناخبين ، أما غزولى فكان أشبه بخادم

خصوصى معتبر، هو الذى يقدم لى القهوة، ويشعل لى السجائر، وينفض الغبار عن ثيابى، ويحمل عنى بعضها إن شعر أنى ضائق ببعضها، يسرب السجاير الملفوفة بالحشيش سرا عندما نتملك الخلاء، وسنة الأفيون، ومن حين لآخر يرش الكولونيا على الأيدى ليخفى فى رائحتها النفاذة رائحة الحشيش، إلى أن ثار فى وجهه أحد الصعايدة ثورة لطيفة مازحة طالبا منه منع هذه الرائحة لأنها تفسد على أنوفهم رائحة هذا الحشيش المعتبر. وكان داء السرحان وراء السطل ينتابنى كثيرا أثناء الخطب والكلام والترحيب، فاتصور أننا نقوم بعملية نصب من عملياتنا لحساب الحاج السنى.. حاجة تهوس يا بوى..

المحامى العقر عم زوجتى لم يستكبر علينا رغم كثرة مشاغله وضيق وقته الثمين، كثيرا ما فوجئت به مقبلا بسيارته الفورد العتيقة، فيشرب معنا فنجان قهوة السرادق أو يتعشى، ويقول كلمتين يشجع بهما الناخبين على انتخابى، ملمحا فى كلامه إلى أن نجاحى سوف يريحه ويزيح عنه الكثير من المهمات..

الطريف يا خال، والذى لا يمكن أن أنساه أبدا، أننى مدين لخطب بربش، وردود بسبوسة وملاحظاته وتعليقاته فى معرفة المهمة الأساسية لعضو البرلمان، نعم يا بوى، فحتى لحظة قيامى بالدعاية لم أكن عرفت أى شيء عن هذه المهمة، إنما كانت المهمة غامضة فى رأسى، فحد علمى أن عضوية البرلمان هذه رتبة شرفية أو نيشان يأخذه العضو إذا نجح فى الانتخاب، يكون جواز المرور له فى كل مكان فى الجمهورية يدخله لتخليص مصالح المواطنين، ولكن خطب بربش وتعليقات غزولى ودروس بسبوسة الصريحة ونحن نتأهب للنوم فى سرايتى آخر

الليل، كل ذلك فهمت منه أن عضو البرلمان هذا شيء كبير يابوى، إنه لابد أن يحضر اجتماعات البرلمان الدورية حيث يعرض كل عضو مشاكل وأوضاع أهل دائرته مطالبا لهم بكذا وكيت من الخدمات، ورفع كذا وكيت من المظالم، وأنه يجب أن يستجوب أى وزير يشاء وحتى رئيس الوزراء نفسه، وأن يوجه إليه الأسئلة والانتقادات حول مالا يعجبه من أوضاع البلاد كل وزير فى دائرة اختصاصه. أما أن يلف العضو على المصالح الحكومية لتخليص مصالح لأهل دائرته ولنفسه فتلك شغلة جانبية لن يفلح فيها إلا إذا أفلح فى المهمة الأساسية وبات معروفا مشهورا بكثرة استجواباته للوزراء وبحدته وطول لسانه وجرأته فى الاستجوابات، ومن النصائح التى لا أنساها للولد بسبوسة الجدع قوله لى فى وقت مبكر إننى يجب أن أبحث لى عن ثلاثة أربعة ولدان من عيال الصحافة أصاحبهم وأنفق عليهم لكى تظل أخبارى دائما فى الصحف، وهذا ما حرصت عليه بالفعل يا بوى وعملت على تدبيره..

وفيما نحن فى هذه الزيطة إذا بى أفاجأ بحضور حازم والرجل المشعرانى، أتى بهما الرجال إلى السرادق فى الدوير، أخذته إلى المندرة خلف السرادق؛ ملت عليه هامسا، مستقطبا من الحفل روحا معنوية:

ـ «تحت أمرك يا حازم بك!».

مال نحوى هو الآخر، بادلنى الهمس:

ـ «الأمر وما فيه أن محمد بك مطلوب منه بعض الحلى! أفرع! حلقان! أساور! جعارين، ولو أنك كلمت صاحبك المعلم ليبحث له عن رأس نفرتيتى من الذهب أو حتى من المرمر فإنه يشكرك ولا ينسى

الجميل!!».

قلت لنفسى: وه يابوى هذه شبكة ستصطادك يا حسن فخذ بالك ستجىء الضربة من هنا لتفسد عليك كل هذا الحلم، ما دار فى دماغى لحظتها أن أهب فيه وأنكر معرفتى بأى شىء مما يتحدث عنه لكننى عجزت عن الاستندال يابوى، نقصتنى بجاحة المرأة الداعرة، سيما وأننى لم ألحظ أية وجوه غريبة أو حركة مريبة قلت لنفسى إن اللباقة هى المنقذ الوحيد من هذه الورطة. ثم فكرت بسرعة فيما عندى من قطع، فتذكرت أن بها بعض هذه الأشياء التى طلبها أما بقية ما طلب فكله موجود عند الملكة، ولكن كيف يتأتى لى الآن استحضار شىء من هذا أو ذاك وكيف نفاصل ونساوم وعلى أى مثل تقيس الأسعار سيما وأننى غشيم فى المهنة لم أتودك بعد، رحت أبحث فى دماغى عن معنى لكلمة اللباقة التى أسمعها كثيرا فى مثل هذه المواقف، فإذا بى أقول بنبرة اعتذار فيها قدر كبير من الود:

ـ «حازم بك أنت ترى الآن ما نحن فيه من انشغال! طلبك هذا يمكن أن ألبيه على عينى ورأسى ولكن بعد أن ننتهى من هذه الشغلة فالبلدة كلها ليس عندها وقت تهرش فيه رأسها»..

ابتسم بلطف:

ـ «على فكرة» معى حقيبة ملآنة بالفلوس يعنى ما يطلبه المعلم سيأخذه وزيادة!!».

انتصب الخوف فى جوفى يا بوى، فهذا إغراء غير مريح فى مثل هذا الظرف الحرج، قلت بشىء قليل جدا من الحدة:

ـ «هذا مستحيل يا حازم بك! ليس من المعقول ولا من المقبول أن أترك الناس وأذهب للبحث عن طلب كهذا!! إنك لست تطلب علبة سجاير أتلقفها من على رف الدكان!!».

ـ «إن المرشح لن يغضب منك إذا غبت عن مجاملته يوما أو نصف يوم ولا شك أنه قد رآنى وعرف أن عندك ضيفًا!!».

شوحت بدورى مبتسما فى سخرية:

ـ «إن المرشح هو أنا يا حازم بك! أنا العريس الذى تريد منه أن يترك عروسه فى الكوشة ويهرب!!».

من فرط المفاجأة وقف على حيله يا بوى، مبهوتا:

ـ «أنت المرشح؟ هذه الدعاية كلها لك إذن؟!».

ثم انفجر فى ضحكة صاعقة:

ـ «كنت أظنك تمزح يوم حدثتنا فى هذا الأمر ذات ليلة!!».

قلت بزهو كبير!

ـ «لا يا بو العم لم أكن أمزح!!».

قال بأريحية لم أكن أتوقعها:

ـ «خلاص يا حسن! أقصد يا حسن بك! متى يكون موعد الانتخاب؟!».

ـ «بعد غد يابو العم! نحن الآن نضرب فوق الحديد وهو ساخن! وبعد ساعات معدودة يتحدد مصير العبد لله!!».

تفكر قليلا ثم أشرق وجهه :

ـ « حلو ! أنا إذن جئت فى وقتى ! شف يا عم ! نحن جدعان كالصعايدة بالضبط ! نخدم الصديق نفديه بروحنا ! سأقدم لك خدمة العمر فى مقابل أن تكون جدعًا معى وتأتى لى بطلبى من تحت طقاطيق الأرض ! ! » .

ضحكت :

ـ «ستبقى إذن لتساعدنى فى الدعاية؟ ! » .

أو مأ برأسه :

ـ «وأكثر من الدعاية ! ! » .

ـ «ومحمد بك الذى ينتظرك؟ ! » .

ـ «سأكلمه فى التليفون وأبلغه بما حدث ! وسوف يرحب طبعا ! لن يمانع فى أن أبقى هنا يومين أو ثلاثة من أجلك ومن أجل المصلحة ! ! » .

ـ «قلت إنك ستساعدنى بأكثر من الدعاية ! كيف؟ ! » .

تراجع بذقنه مستنكرا جهلى بإمكانياته ، أضاف :

ـ «يكفى أن أمر معك على اللجان ! ! مجرد أن يرانى رؤساء اللجان معك ! ! لو كنت فى ذيل القائمة تصبح على رأسها ! ! » .

ـ «وه ! وه ! كيف يا بو العم؟ ! » .

ـ «سترى ! أنت لم تعرفنا على حقيقتنا بعد يا أبا على ! ! وهذه فرصة لأريك من نحن ! ! يجب أن تعرف أننا عائلة كبيرة بمعنى الكلمة وسرها

باتع!!».

جعلت أتمعن في وجهه وقد تصور لى عفريتا من الجن فى هيئة إنسان رقيق، قلت لنفسى: خليك مع الكذاب لحد باب الدار وشف نهايتها، لن تخسر شيئا، قلت له...

ـ «وأنا يا حازم بك لن أنسى لك هذه الخدمة مدى الحياة!».

بلهجة غاية فى العملية علق:

ـ «لا تؤاخذنى! هناك مثل إنجليزى يجب أن تعرفه لكى تتعامل به من الآن خاصة بعد أن تنجح: بزنس إذ بزنس!! ومعناه شغل قصاد شغل! تكسبنى واكسبك!!».

ـ «فهمت! فهمت تماما يا حازم بك! والآن! ما يساوى مائة سأخلصه لك بعشرة فقط! يعجبك هذا؟!؟!».

رفع ذراعه فى تنبيه:

ـ «ليس هذا فحسب يا أبا على!!».

ـ «أأمرنى!».

ـ «وأن تأتى لى بالقطع النادرة!! الأندر! الأهم التى لا نتعب فى تصريفها بسهولة! وفى نفس الوقت تستأهل التعب والمغامرة!!».

لحظتئذ يا خال اطمأن بالى وهدأ بلبالى، أيقنت بإخلاصه للعمل، هو شاطر فحسب يريد أن يكون الغالب فلا بأس، قلت:

ـ « وهو كذلك يا حازم بك! ستكون أغنى واحد فى مصر بإذن الله

من ورائى!!».

نهض واقفا وقد ركبته حماسة مفاجئة:

- « على خيرة الله! اتفقنا ما أقرب سنترال هنا؟».

- «سأبعث معك مرسالاً إلى مركز صدفا!».

خرجت فناديت واحدا من الولدان من أصهارى، أمرته أن يركب مع البيك لحد سنترال مركز صدفا ثم يعود به..

عندما دخلت السرادق وحدى استوقفنى هليل على جنب، وكان قلقا بشكل أزعجنى بل زلزلنى يا خال، قلت له: تشيل طاجن ستك لماذا؟! صار يكح مسلكا صوته، قال بحشرجة قلب واجف:

- «يظهر أن الميزان سينقلب يا بو العم! أخشى أن تضيع منا الدائرة!!».

صحت فزعا:

- « فال الله ولا فالك! ما الذى جعلك تقول هذا الكلام الماسخ؟!».

قال بجدية غير مريحة:

- «أنت مع ضيفك من ساعة لم تسمع الميكرفونات المنافسة لنا!! المهم يا بو العم! أكدت الأخبار أن الرجل المسيحى العضمة الزرقاء تنازل للمرشح الثانى وسلمه كل أصواته! يظهر أنه قبض قرشين! المرشح الآخر يلف على الدور من صبيحة ربنا يوزع الأموال باليمين وبالشمال! قرر أن يشترى أصوات الدائرة مهما كلفته! إنه كما تعرف لص كبير طول عمره! ولو نجح فى الشراء فلن يبقى من الأصوات

سوى عائلاتنا فى مواجهة سواد الشعب!!».

فكأنه ضربنى بالصرمة القديمة على وجهى يا بوى. وقفت مبلما يتدفق العرق من جبينى ويجرى فى قناة ظهرى. صحوت من الحلم، قلت لنفسى: نعم هكذا تكون الأمور صحيحة طبيعية إذ ليس من الطبيعى أن مثلى يتطاول مرة واحدة إلى مثل هذه الأملة. شعرت أن الغضب قد بدأت ناره ترفع ألسنتها فى صدرى، وخيل لى أن شخصيتى الحقيقية: الحرامى حسن أبو ضب، رد السجون، قد أوشكت أن تطل من ثيابى لتفسد كل هذه الصورة البديعة. جاءنى صوت لعله صوت أبى بحكمته الساخرة: أنت لن تخسر شيئا يا ولد الناس خليك فى الحلم لنهايته فعلى الأقل تستمتع الساعات الباقية بارتفاع صيتك بدلا من أن تنكد على نفسك من الآن. طغى عليه صوت الملكة فى صدرى: اثبت فى مكانك يا عبيط يا أحمق فهذه كلها أخبار ولا أحد يدرى أين يتجه سهم النصيب المقدور على الخلق فإن كانت هذه الأخبار صحيحة فإنها تدل على قوتك الواضحة فدع من يلعب يخسر كل أوراقه واستمر أنت فى اتكالك على الله وحتما لن يخذلك لأنك ربما كنت أفيد للناس من غيرك حتى لو كنت جاهلا وهو متعلم نكرة وهو شهير..

قلت لهليل:

ـ «نحن معنا الله يا هليل! نفعل ما نقدر عليه والباقى على الله! والعبرة بالخواتيم كما يقول المثل!!».

وسحبته إلى المقعد المخصص له فى السرادق، فرافقنى خطوات ثم ارتد شاردا يباشر استطلاعاته وتحرياته..

تلقفنى بربش بنظرات هلعة، تطل من عينين مضيقتين كشقين مفتوحين على جهنم، لدرجة أننى هربت منها يا خال، فوقعت عينى فى عين بسبوسة الواسعتين طويلتى الرموش كبحيرتين من صفاء مريب، فإذا فيهما نظرات ابتهاج مفعم بالتفاؤل والرضا. أما غزولى فقد نكس رأسه فى حياء مفتعل وراح يشد خيطا خفيا مدككا فى شفتيه مثل استك السروال، يشده فتنكمش الشفتان على بعضهما ليصير شدقاه مثل بك الفلوس الحريمى، ويرخيه فتنفرج الشفتان ببسمة شديدة الخبث تنضح بحسد معلن يكاد يفخر به. قلت فى توجس هامس:

ـ «مالكم يا أولاد الفرطوس؟ شكلكم ليس طبيعيا!!».

قال بربش فى حسد واضح:

ـ «لا! لا أمرك صار ملفتا للنظر! هناك سر!!».

ـ «لا حول ولا قوة إلا بالله! لا سر ولا حاجة يا بربش! استهدى بالله ولا تسرح بعقلك بعيدا!!».

ـ «يا مـاء من تحت تبن!! أنت يطلع منك كل هذا؟! إنك إذن لمن الأقوياء الخطرين!! أنت عضمة ثقيلة!!».

ـ «اكشف عن غرضك يا بربش!!».

ـ «كيف وصلت إلى أنور السادات يا عكروت؟!».

ـ «أنور السادات؟!».

وشملنى الرعب يا بوى، أمسكت بطوق جلبابى هززته:

ـ «إيش أوصلنى أنا لأنور السادات يا بربش؟! أنا لم أره فى حياتى ولا أستطيع الوصول إليه!!».

ـ «إطلع من دول يا عكروت!! كـيف إذن يرسل بأخـيـه ليـقف بجوارك فى الدعاية؟!».

ـ «أخوه حتة واحدة؟!».

ثم ضحكت إذ أدركت حقيقة اللبس:

ـ «هذا الضيف يا بو العم اسمه حازم أبو شناف!!».

انفجرت الضحكة الساخرة من ثلاثتهم، وقال بسبوسة فى ابتسامة جميلة وغمزة أجمل:

ـ «على كل حال الاسم لا يهم! أبو شناف أبو جلمبو!!».

وأومأ غزولى بخبث:

ـ «ما يضر!! بالعكس! أبو شناف أحسن!!».

حتى هندى، الذى لم يفتح فمه بكلمة منذ وصوله قال فى تريقة:

ـ «تستغفلنا أم تستغفل نفسك؟! يا راجل عيب!!».

وقال بربش كأنه يخلص ذمته من الله:

ـ «هذا الذى كان هنا منذ دقائق هو أصغر أخوة أنور السادات النائب الأول لرئيس الجمهورية جمال عبدالناصر!!».

صحت فيه بقليل من الغضب، ربما لأستفزه ياخال، للإدلاء بمزيد من المعلومات:

ـ «من أدراك أنه هو؟! منجم حضرتك؟ أم تراك تعرف جميع أبناء الخلق؟!».

نقر بأصبعه على ذراعى فى ثقة :

ـ «إننى أعرفه جيدا! اشتغلنا معه كثيرا! هو ولد طيب على كل حال وجدع، وصاحب صاحبه!!».

اغتظت رغم الفرحة الكبيرة يا بوى، صحت فى بريش :

ـ «يا أبا الحاج! هذا حازم أبو شناف وهو من معارف الحاج أحمد نوار السنى وعن طريقه عرفنى وعرفته! جاءنى فى فرحى لكنكم لم تروه لأنه انصرف بعد دقائق!!».

ضحكوا فى نفس واحد، وركز بربش نظراته الثاقبة فى عينى، نظرات صايع كبير عجوز :

ـ «ولماذا جاء الليلة يا ترى؟!».

ارتبكت قليلا، فانفعلت :

ـ «كان هنا فى مشوار ورأى أن يفوت ويسلم علىّ! ! أنت قلت إنه ولد جدع وطيب وخدوم! لما علم الآن أننى داخل الانتخابات صمم أن يبقى بجوارى يساعدنى وهو حاليا يتكلم فى التليفون!!».

تبادلوا نظرة ذات معنى غامض، نضحت نفس البسمة على وجوههم. قال بربش :

ـ «هنيئا لك يا عم! اقتنعنا الآن أنك عبقرى زمانك أنت لعبتها صح! ونفعت اللعبة!».

وقال بسبوسة :

ـ «النتيجة بانت فى الحال!!».

ـ «كيف يا بسبوسة؟!».

رد غزولى:

ـ «كل من كانوا هنا ساعة دخوله ذهلوا وقالوا لبعضهم أنور السادات بعث بأخيه لتأييدك وتهديد خصومك!! بعضهم قال بإعجاب وفرح: رئاسة الجمهورية بنفسها تؤيد حسن بك وتقف وراءه وهذا المرسال معناه: يا أهل الدائرة هذا الرجل سينجح يعنى سينجح فاجعلوها تجىء من عندكم أحسن!! أنا أراقب الناس من ساعتها وأتنصت عليهم!! كان الواحد منهم يخرج ويعود ومعه عشرة!! ألست تلاحظ أن السرادق ازدحم الآن بشكل غير طبيعى؟! كل هؤلاء جاءوا ليتأكدوا من الأمر!!».

فعلا يا بوى، السرادق ازدحم بصورة لم يسبق لها مثيل، الواقفون أضعاف الجالسين، والمتجمعون خارج السرادق أضعاف هؤلاء وأولئك، آخر نظاكه يابوى، كلهم عيونهم هائجة تبحث عن الضيف، قلت لنفسى: منصورة بإذن الله يابوى، أيقنت أنه دعاء الوالدين وبركة الشيخة سعادة..

اقترب بسبوسة منى أكثر، وأشار بطرف عينه إلى الرجل المشعرانى الذى كنت قد نسيته تماما يا بوى، وكان جالسا قرب باب السرادق فى حالة من حب الاستطلاع الشغوف بالزحمة. قال بسبوسة:

ـ « هذا الشاب ابن رأس كبيرة فى مجلس قيادة الثورة! من أكابر الضباط الأحرار! لكنه مختف عن الأنظار لا نشاط له!! وأم صاحبنا

هذا شبه مطلقة حاليا! المهم أنها تعيش بأولادها منه ـ وهذا أكبرهم ـ وحدها فى شقتهم القديمة!! أما الرجل الكبير فإنه مزواج مطلاق!! يعيش الآن مع زوجة صغيرة السن فى فيلا بعيدة!! حالته على فكرة ميسورة يعنى يجد كل طلباته والحمد لله!! فلأنه خائب فى مسائل المكسب والاستفادة من المركز لأنه كما يقولون عنه فى الأصل رجل مبادئ فإن جمال عبد الناصر يعطف عليه ويرسل له نفقة شهرية كبيرة!! وهو من جانبه كل حين يفزع فزعة يثير بها بعض الزوابع حتى يلهف قرشين كبيرين من الرياسة أو من أى مكان!! الرياسة تداديه تحمد الله أنه ترك لهم شئون السلطنة وابتعد ليعيش حياته!! هم ربك والحق فرحون بهذا فليأخذ ما يشاء طالما أنه لا يشاركهم فى السلطنة!! أما هذا الولد الداهية ـ ابنه ـ فمن أشطر الشطار! له نشاط دولى معروف! يتاجر فى أشياء كثيرة جدا من الخردة إلى الآثار إلى السلاح للفدائيين الفلسطينيين! وبدون رسمال على شرط!! يعتمد على السمسرة والعمولات! يعيش عيشة الأمراء الصعاليك كل يوم فى بلد كل ليلة مع امرأة جديدة لكنه هو الآخر طيب رغم ذلك!! غير شرير بمعنى أصح! ولهذا يتركونه فى حاله ويخلصونه من كل ورطة وورطة!!».

لأننى أحب بسبوسة يا بوى، وأثق فى كلامه ومعلوماته. فقد اقتنعت بكل ما قال بربش، لأن بسبوسة لم ينفه، فكرت يا خال فى أن أغير مظهرى وطريقة احتفالى بالضيف تبعا لهذه المعلومات المبهرة، لكى أرسم الوضع كما ينبغى يا خال. لكن صوت الملكة صاح فى أذنى: دع كل شىء يمضى كما هو فلا تتدخل بأى تصرف قد يفسد عليك الطبخة الإلهية..

رفعت بصرى بعد شرود، فإذا بهليل على باب السرادق يشير لى أن تعال. انسلخت من الشلة الوسخة ذاهبا أتعثر فى الكراسى والأكتاف والمناكب، وأرد على التحيات البهيجة المنهمرة من كل ناحية. لاحظت بقلب واجف فرحان أن الجميع يقولون لى: يا سعادة البيه، فجعلت أكتم ضحكتى بقوة خرافية..

سحبنى هليل إلى بعيد جدا، إلى قلب الطريق الزراعى على شاطئ الترعة: ضغط بأصابعه على ذراعى فى فرح:

ـ «ما الخبر؟! البلاد من حولنا انقلبت! الطرقات تدلق ناسا على السرادق!!».

ـ «خبر ماذا يا هليل؟!».

ـ «هناك شائعة جرت فى بلدان العب كله كالحريق: أنور السادات جاء بنفسه إلى السرادق لتأييدك!! أين هو؟! ناس من الشناينة ومن العزايزة ومن الغنايم وكله آت يسألنى أضحك وأعمل كأننى أعرف ولا أريد أن أتكلم!! لقد زعق لنا نبى من السماء يا بو العم!!».

ضحكت فى جزل، صرت أعض على نواجذى، أكمل هليل:

ـ «لماذا تضحك هكذا؟!».

ـ «فعلا يا هليل: زعق لنا نبى من السماء! المضحك أنك رأيت الضيف وزميله عدة مرات! من يوم الجبل إلى اليوم!!».

ـ «وه!! نكتة هايلة يا بو العم! الولد فعلا يشبه أنور السادات الخالق الناطق، نفس الدم نفس الوجه نفس الصلعة نفس العود!! طويل سرح!!».

اندمج فى الضـحك هو الآخـر يا بوى . صـرنا نروح ونجىء على الطريق، والآتون يهـبطون عن الركـائب ليـسلمـوا علينا فى حـرارة، والسؤال على شفاههم : هل أنور السادات فى السرادق؟ ونكاد نجيبهم بنظراتنا أن : نعم . .

بربش وبسبوسة وغزولى وهندى أصبحوا يبيتون عند هليل . وعندما ظهر حازم والمشعرانى أصر أصهارى على استضافتهما فأوعزت إليهم بألا يتقلوا عليهما فى الأسئلة؛ وأخيرا فضلت أن أبقى معهما، وذهب وفد من نسوان دارنا للمبيت مع العروسة التى فضلت ألا تترك دارها درءا للفأل السيئ فى شهر العسل وفى الليل انفردت بحازم مع كوبين من الشاى وحجرين، ثم سألته مباشرة دون لف أو دوران :

ـ « قل لى يا بو العم! هل أنت حقا شقيق أنور السادات؟ ! » .

لم تظهر عليه أية مفاجأة يا خال، قال بسرعة :

ـ «لا بكل أسف! لست شقيقه ! ! » .

ـ «عجايب ! ولكنك صورة طبق الأصل منه ! ! » .

ـ «وما الضرر فى ذلك؟ ! » .

ـ «لا ضرر ولا ضرار يابو العم ! » .

ـ «الجميع هنا طبعا تصوروا أننى شقيقه ! ! » .

ـ «طبعا يا بوى ! » .

ـ « مصلحة ! دعهم يتصورون ! ! » .

ـ « ولكننى نفيت لهم ذلك ! » .

ـ «لا تنف ولا تؤكد! دع الأمر عائما ! ! » .

ـ «خلاص يا بوى ! » .

لكننى يا بوى كنت إلى التأييد أميل : التأكيد من خلال النفى ، حتى إذا ما جاء يوم الانتخاب صار العبد لله كالإمبراطور ، يا ربى ، ما كل هذه الواجبات التى فعلتها معى؟ لقد رسمتنى بعنايتك حقا حقا إن من ينصره الله لا غالب له . ماكنت أتصور يا بوى أن سيارة ملاكى تشبه الطائرة بنمر قاهرية سوف تأتينى فى اللحظة المناسبة لكى تكون تحت أمرى وإذنى أتنقل بها بين اللجان فتضفى على مظهرى أناقة وأبهة ؛ تلك هى سيارة حازم . عند كل لجنة من اللجان ننزل وسط احتفال كبير ، نمر على أعضاء اللجان مجرد مرور . كان أصهارى قد عينوا فى كل لجنة مندوبا عنى من طرفهم يراقب العملية الانتخابية ، كل مندوب مزود بقدر كبير من المال يغدق به على أعضاء اللجنة شايا وقهوة ومرطبات وغداء ، وسجاير وهدايا غير مرئية . وقد روعى فى اختيارهم أن يكونوا على قدر كبير من الذكاء والتفتح والوعى والفهلوة مع إجادة القراءة والكتابة . هؤلاء يا خال لعبوا دورا خطيرا فى إرهاب اللجان بصنعة لطافة ، أكدوا إشاعة أن شقيق السادات جاء مندوبا عن أخيه لتدعيم مركز مرشح الثورة الذى هو أنا بل زعموا أننى عضمة كبيرة فى التنظيم الطليعى الذى كونه عبد الناصر ليضرب به الاتحاد الاشتراكى . فما يكاد حازم يظهر فى مدخل اللجنة حتى يكون المندوب قد هيأ اللجنة لاستقباله بحرارة ويريه رئيسها مدى جدية العمل وخلوه من أى لبش ، وكل من لا يعرف القراءة من الناخبين ـ وما أشد كثرتهم ـ

ملأت له اللجنة بطاقته باسمى تلقائيا حتى لو ذكر لهم شخصا آخر غيرى . .

سارت الأمور كما ينبغى يا خال ، تم كل شىء بنجاح وسلام . فما أن أغلقت الصناديق ورحلت إلى لجنة الفرز حتى صحبت حازم إلى منزلى فجلسنا فى المندرة نستريح استعدادا لملاقاة لجان الفرز . وكانت أثناء تجهيز البيت للزواج قد أجريت تعديلات ، فجعلت من حجرة نومى السابقة مخزنا للأشياء الخصوصية وفتحت فى حائطها الداخلى دولابا سحريا يتفرع منه نفقان سريان فى قلب الجدار ، للأسلحة وللقطع الأثرية . تسللت إليه لأجهز لحازم بعض القطع المطلوبة ، فإذا بى أفاجأ برأس نفرتيتى من الذهب الخالص موجودة بين القطع ، ففرحت جدا يا خال ، وقلت فلتكن هذه القطعة وحدها هدية لحازم إن جاءنى نبأ النجاح . وفعلا يا خال ، تلقيت النبأ كاملا فى اليوم التالى ، فارتفعت الطبول والأعلام والزغاريد ، عمت البلاد فرحة صاخبة ، وبدأت الوفود تتدفق علينا للتهنئة ، استدعيت حازم إلى حجرة داخلية ، قلت له إن المعلم قد نفذ له طلبه بخصوص رأس نفرتيتى ويعده بتنفيذ كل طلباته بعد أن نفيق من دوشة التهانى ، انشرح صدر حازم وهو يتفرج على القطعة بفرح عظيم ، قال :

ـ «كم يطلب المعلم فيها؟!» .

قلت بعد تردد قليل :

ـ «إدفع ما معك وأنا أكمل الباقى من جيبى !» .

قال فى شىء من الخجل والتلعثم :

ـ « والله! صراحة يعنى! محمد بك أعطانى خمسين ألفا فقط!!».

اعتقلت فرحتى الطاغية ورسمت بدلا منها صدمة كبيرة:

ـ «تعرف طبعا ثمنها الحقيقى!».

بقليل من الخبث المفضوح:

ـ «كم تظن أنت؟!».

ـ «مفصول للمعلم بثلاثمائة ألف!!».

ـ «ليس خسارة فيها! ولكنك تستطيع أن تتفاهم مع محمد بك فيما بعد!!».

ـ «خل عنك! خذها ووصلنى ثمنها!».

ـ «قد القول!».

وفتح الحقيبة بغير تردد، عد لى خمسين رزمة مؤستكة. وكان من الواضح أن الحقيبة لا تزال عامرة، وأنه سيسفح مبلغا رهيبا من وراء هذه الصفقة، لكننى كنت راضيا تماما. عانقنى بحرارة قال إنه وأخاه تحت أمرى فى كل ما أطلب فى كل وقت، ثم انصرف عائدا إلى القاهرة بشبه مظاهرة أوصلته حتى طريق أسيوط. أما أنا فذهبت إلى هليل لأتناول الغداء عنده مع الشلة الوسخة، فانتابتنى نوبة كرم عاتية، نفحت كل واحد منهم ألف جنيه: مش خسارة فيكم يا أولاد الفرطوس. ثم قلت لهم: أنا الآن عضو بالبرلمان وأنتم من الآن رجالى وباتت مصلحتكم عندى فوق كل اعتبار. وودعتهم على موعد محدد فى القاهرة فى شقتى بعد أيام. أما يوم سفرى أنا والعروس يا خال، فحدث ولا حرج.

شايب

جاءنى المعلم شندويلى يقدم التهنئة الحارة الطالعة من قلبه فعلا يا خال كانت هذه أول مرة يدخل فيها عمارته منذ أن بارحها إلى مصر الجديدة هربا من الغازية الساكنة قبالتى . أهلا وسهلا كيف الأحوال ، كلمة فى حدوته عرفت أنه يعمل الآن فى تجارة أراضى البناء ، يشترى القطع بأسعار تافهة نظرا لأنها فى أماكن بعيدة عن العمران ، ثم يركنها وينساها واثقا من أن العمران سيمتد إليها إن عاجلا أو آجلا ، وعندما يقترب منها العمران يشرع فى بيعها بأسعار خيالية : فى الهرم والجيزة والكيت كات ومصر الجديدة والزيتون والوراق . قلت والله إنها لشغلة مربحة ومكسب مضمون ، فقال إنه مستعد لإرشادى إلى الأماكن التى تباع فيها الأراضى . أمهلته شهرا واحدا حتى أنتهى من تعلم قيادة السيارات . ذلك أن الولد بسبوسة ـ الله يستره ـ طلعها فى دماغى ، وتكفل بالبحث عن سيارة محترمة ، ثم اصطحبنى إلى معرض سيارات يدعى السعودى فتفرجنا على عدد من السيارات المعروضة منها الجديد على الزيرو ومنها النصف عمر . توقفنا أمام واحدة ماركة شيفروليه . وهذه كما قال بسبوسة من أشهر وأجود الماركات لا يركبها إلا الناس

الأبهة، الدليل على ذلك أن هذه السيارة يملكها مدير الأمن السابق وهو من عائلة صعيدية ثرية مشهورة، يبيعها لأنه يريد أن يركب واحدة جديدة، فالعظماء المهمون دائما هكذا يا بوى، قلت لبسبوسة هل السيارة جيدة فى نظرك يابسبوسة؟ قال: تمام التمام على ضمانة المعرض جئنا بالميكانيكى ففحصها وشهد لصالحها، فانتهينا فيها بثلاثة آلاف جنيه لأن السيارة كانت بحالتها لم يمض على إنتاجها سوى عام واحد، ومزودة بكل الكماليات وفى حقيبتها ثلاجة تنفع للرحلات الطويلة، ثم إن لونها أسود. قلت إنها لا ينقصها سوى الراية لكى تصبح دبلوماسية. فضحك بسبوسة قائلا:

ـ «دبلوماسية إيه وراية إيه يا عبيط؟! إن حصانتك أقوى بكثير!».

طلبت منه إيضاحا لهذه الكلمة يا بوى. فلما شرح لى معنى الحصانة التى يتمتع بها عضو مجلس الأمة فردت صدرى من فرح وزهو حتى خيل لى أن البلاد كلها صارت ملكى مسخرة لخدمتى، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه. ثم إن بسبوسة تكفل بتعليمى فى ظرف شهر واحد حتى أصبحت كأنى ولدت سائقا..

أول مشوار ركبتها إليه كان إلى منطقة الوراق ومنها إلى أرض اللواء فالهرم، حيث اشتريت مجموعة من القطع تتراوح مساحاتها بين المائتين والثلاثمائة وخمسين مترا، واخترت بسبوسة ليكون مديرا لأعمالى، إن عمله فى الحكومة لا يتطلب منه وقتا طويلا، فليمكث كل وقته معى، بمرتب شهرى يساوى مرتبه من الحكومة فى عام كامل، مما جعله يتفانى فى خدمتى، ولما كان أشد واحد فى الشلة حفظا للأسرار وكتمانا فقد أشركته سرا فى العمليات التى تتم بينى وبين حازم

والمشعرانى، سيما وأن دائرة هذه العمليات قد اتسعت فأصبحت أتعامل مباشرة ـ فى السر أيضا ـ مع الحاج قدرى والحاج الأصفراوى والمعلم عطاطس وهذا الأخير قبطى من أغنى أغنياء الكرة الأرضية، تقيم أسرته كلها فى أمريكا ويعتبر أحد ثلاثة فى العالم يتحكمون فى سعر الذهب، فهو أكبر تجاره فى مصر والمنطقة العربية كلها ومحلاته منتشرة فى جميع أنحاء البلاد يديرها أقاربه فى حين يتفرغ هو لتسويق النحاس القديم ومشغولات الذهب والانتيكات وكل ما هو ذو طابع أثرى. المعلم عطاطس والحاج قدرى والأصفراوى وحازم والمشعرانى يعرفون أننى مجرد وسيط فوق العادة، وأنا لبست الدور جيدا يا خال، فلا فصال معى ومن هنا انعدم الفصال من أساسه، وكل كلمة أسمعها من واحد منهم لا أرد عليها فى الحال، بل أقول: سأكلم المعلم وأرد عليك وهذا الرد يقلق طالب الشراء فيتصور أننى سأتنصل من البيع فيعمل جهده لينهى البيعة على نحو يرضينى. وقد أبرمت اتفاقا مع الملكة أنها تعطينى القطعة بثمن معين نحدده معا، وأبيعها أنا بالثمن الذى يروق لى، وجيب بسبوسة هو المخزن الأمين للقطع حتى تنتهى المساومات وإن استمرت أياما. ولما رأت الملكة أننى أعطيها أسعارا خيالية كشفت لى ما أذهلنى يا بوى: لديها مخزن لا ينضب أبدا مدى الدهر من القطع الأثرية النادرة المتنوعة، من قطع توضع فى الجيب إلى قطع تحتاج لبلدوزر يا بوى، وحتى هذه لم نعدم وسيلة لتفكيكها ونقلها مع الحديد الخردة..

جاءنى بسبوسة ذات يوم يخبرنى أن الراقصة الساكنة قبالتى تزوجت أحد شيوخ النفط فابتنى لها قصرا فى مصر الجديدة، وترى

الآن أن تفاوضنى فى بيع الشقة لى. فاشتريتها فى الحال، وسويت الأمر نهائيا مع المعلم شندويلى بأن اشتريت العمارة كلها بثمن بخس. جهزت الشقة كمكتب لى، وبواسطة بسبوسة تم تركيب خطين تليفونيين فى الشقة والمكتب، وخط ثالث فى دارى بالبلدة..

محب للخير أيضا هذا الولد، وحبه للشلة الوسخة أكبر من حبه لأى شىء آخر طلبت منه أن يستأجر لنا شقة صغيرة فى حى شعبى آمن نقضى فيها سهراتنا لزوم شرب الحجرين بعيدا عن الواغش على أن تكون لنا وحدنا لا يدخلها مخلوق آخر، ففوجئت به يوم كلمته يصطحبنى لمعاينتها. كان يعرف ما سأطلبه فيجهزه قبل أن أطلبه. قال لى ونحن نتفرج على الشقة إننى لا يجب أن أتخلى عن الشلة لأنها ستكون يدى اليمنى فى أى عمل أقوم به، فإذا كان هو قد أصبح المدير التنفيذى لأعمالى فإن بربش فى رأيه يستطيع أن يكون أكثر من عشرين مديرا فى مدير واحد: ينظم شئون المكتب ومواعيدى مع المسئولين ومواعيد الزوار معى، يكون حلقة الوصل بينى وبين هؤلاء وأولئك، يستمع إلى أصحاب المشاكل والطلبات نيابة عنى. ثم نبهنى إلى شىء لطيف، فثمة فرق كبير بين أن أطلب المسئولين بنفسى وأن يطلب ذلك موظف عندى يقول للطرف الآخر: حسن بك مع حضرتك حسن بك يطلب المقابلة! حسن بك سيكون هنا الساعة كذا.. إلخ، يستطيع أيضا أن يكون مديرا للدعاية، يتصل بالصحف يبلغها ويرد عليها نيابة عنى يجند المحررين للكتابة عن أعمالى الخيرية التى ليس من المهم أن أقوم بها فعلا. أما غزولى فالفوائد من ورائه لا تحصى ولا تعد، ابتداء من المشاوير البسيطة إلى المهمات الثقيلة، فهو متودك، مدرب على المشى

وجمع التحريات، لديه خبرات كثيرة، وحسن تصرف، ولباقة، وأمانة، أما الولد هندى، صديقى المقرب من زمن مضى، كيف يتأتى لى أن أهمله؟ قلت له:

ـ «غلبتنى يا بسبوسة! وأظنكم جميعا مخلصين لى!!».

تبسم الولد بسمة متألم مندهش:

ـ «شف يا صاحبى! نحن عيال جدعان نساوى ثقلنا ذهبا! نحن الذين علمناك التفتيح والشغل المربح! عاشرتنا وعاشرناك على الحلوة والمرة ولكن الله أعطاك وكبرت! هنيئا لك يا عم! مهمتنا الآن تكبيرك أكثر وأكثر ففى تكبيرك مصلحة لنا! أنت الآن عضو فى البرلمان تملك الحصانة! ووقوفنا معك الآن لايزيد عن وقوفنا معا فى أى عملية قمنا بها!! كنا نسرق ونهجم ونكسر الدكاكين ضامنين متضامنين لا أحد يفتن على الآخر وإلا فتن على نفسه! لا أحد يخون الآخر وإلا خان نفسه! نحن الآن وقد غيرنا شكل النشاط وطرقه يصبح العمل هو هو! كل ما هناك أننا أصبحنا نملك الحصانة! اتسعت السكك أمامنا!! أنا وإخوانى نعرف لعبة الحكم والسياسة فى بلادنا: إنها أربح تجارة فى مصر وسرقة مشروعة غير أنها تحتاج لكلام وشعارات ودعايات وأونطة زائدة! كنا بالأمس لصوصا صغارا يسرقون الأفراد فى جنح الظلام سرقات صغيرة أما الآن فقد انضممنا إلى صف الكبار لنسرق شعبا بأكمله فى وضح النهار تحت حماية قانونية وبموافقة المعتدى عليهم!! فإذا كنا لم نخنك ونحن صغار فى عمل غير شرعى فكيف يمكن أن نخونك ونحن كبار فى عمل شرعى أنت رمزه ومديره؟! لكننى أحب أن أخلص لك النصح ولابد أن تسمعنى وتعى الدرس الذى سأقوله

لك جيدا! السياسة ضد الأمانة على خط مستقيم! ضد الشرف ضد الأخلاق ضد المبادئ إنها تستخدم هذه الكلمات فحسب لتحكم باسمها! يتذرع السياسى بالأمانة ليصنع ستاراً سميكا يخونها من ورائه!! يرفع راية الشرف لكى تظلله وهو يفقد الشرف فى كل لحظة! يتشدق بالأخلاق والمبادئ كحلة أنيقة يرتديها ليعوض بها غياب الأخلاق والمبادئ من نفسه!! هم جميعا هكذا يا صاحبى والجو السياسى نفسه موبوء واسأل بربش يقول لك أسراره التى يعرفها جيداً، جراثيمه قوية لا تصمد أمامها أى مقاومة! وإذا اتضح لها أن الشخص أمين حقا شريف حقا صاحب خلق ومبادئ حقا فإنها توقعه فى مصيبة!! لابد أن يتكاتف عليه الجميع حتى يطعنوه فى أمانته فى شرفه فى أخلاقه فى مبادئه! لأنه نشاذ بينهم! مرفوض! فى عالم السياسة يا صاحبى لا مستقبل إلا لغير الأمين غير الشريف منعدم الأخلاق والمبادئ! عليك أن تضع هذه النصيحة حلقا فى أذنيك!! تذكرها فى كل لحظة فى كل كلمة تقولها فى كل فعل تفعله عند كل من ستتعامل معهم من الأعضاء والوزراء وغيرهم من أصحاب المناصب!! ولكن! وآه من لكن هذه على رأى المكاتبين، عليك أن تجيد الأونطة السياسية! أن تجيد الكلام فى الأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ ومصالح الجماهير وحماية تراب الوطن وقدسية الرأى العام إلخ إلخ! تجيد هذا بقدر ما فيك من قدرة على التلون والتحول المفاجئ من النقيض إلى النقيض!! إدهن نفسك بالعسل! عليك أن تشعر كل واحد بأهميته؛ تحدث مع الواحد منهم كأنه سيد الكون!! إياك إياك أن تهاجم أحد الوزراء أو الكبراء هجوما عدوانيا يطعن فى كفاءته أو فى شرفه أو فى وطنيته خاصة عند الاستجواب! ابدأ استجوابك دائما بالاعتراف

للوزير بكل الأفضال والمزايا فإن كان عندك اعتراض أو نقد فلتقدمه بصنعة لطافة وفى صيغة مدح على أساس أنه تكاملت أفضاله ولم يبق إلاّ هذا الغبار القليل الذى يجب أن ينفضه عن نفسه!! من ناحية أخرى فإنك إذا رأيت أحد الأعضاء يهاجم أحد الوزراء هجوما عنيفا فلا تأخذك الحماسة للمشى وراءه! كن آخر من يتكلم فإن تكلمت فكن محضر خير!! بهذا يحبك الجميع! أعود فأذكرك بأن جميع زملائك من الأعضاء وكذا الحكومة هم جميعا يلعبون نفس اللعبة كلهم يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبار لكنه يختار يافطة يقف وراءها فلا تتحمق ولا تنفعل لأن المسألة كلها أهيف مما تتصور!! غيرك إذا انفعل على حس المصلحة العامة فاعلم أنه ينفعل بقدرما يستفيد من وراء الانفعال!! غدا تعرف قيمة هذه النصائح وعلى كل حال ما دمنا معك أنا وبربش بالذات فسوف تعرف كل شىء بسهولة! وربنا معنا جميعا!!».

ربك والحق يا خال! إنفتح مخى على كلام الولد بسبوسة وشربته. لكن ورق الشيخة سعادة وما تمخض عنه من نبوءات انتصب فى دماغى واقفا، وصوت الشيخة يشيلنى ويحطنى، فأشعر بوجع فى عظامى ولحمى. شيئا فشيئا راح صوت الشيخة سعادة يواجه صوت بسبوسة كل منهما يحاول أن يعلو فوق الآخر ليسكته، إلا أن صوت بسبوسة كان هو الأعلى يا خال، ويظهر أنه كان مسنودا على شىء فى داخلى يؤيده، نعم يا خال، وكان لهذا الصوت منطقه: هذه فرصتك ياولد أبى ضب لن تتكرر بسهولة إلا كل دهر، إنها مثل اختناق القمر وكسوف الشمس ولو أنك ضيعتها فذنبك على جنبك، لابد أن تخرج

من هذه الفرصة أغنى من المعلم عطاطس ومن الدولة نفسها. توجست من الشيطان الشاطر.. يال خال، خفت أن يحبكها معى فأضيع فى الكازوزة. لست أقصد الشيطان الشاطر الذى يحرضنا فى العادة على الفسق، إنما قصدت الشيطان الأشطر الذى يحرضنا على الصلاح فى زمن كله فسق وفجور وظلم وقهر واستبداد. لو كنا فى زمن مبدؤه الصلاح والتقوى لكنه معطوب فى بعض البقع لاستطعت أن أقاوم الشيطان الذى يحرض على الفسق. أما فى زماننا هذا فإننى يجب أن أقاوم الشيطان الذى قد يغرينى بالصلاح يحرضنى على الالتزام بالأمانة والشرف والأخلاق والمبادئ وسط قوم لايعترفون بشىء من هذا كما قال بسبوسة صادقا. وجدتنى أقول له وأنا فى غاية الألم:

ـ «لكننى يا بسبوسة أحب أن أخدم أهل دائرتى الذين وثقوا فى وانتخبونى دون غيرى من الكبراء!!».

ضحك بسبوسة:

ـ «الشعب المصرى لا تهمه هذه المسائل!! إنه لم يكتب معك عقدا يحاسبك به فى المحكمة!! إنه ينتخب للمجاملة أو من الخوف! وتنتهى علاقة الناخبين بالنائب بعد نجاحه!! لم يحدث أن دائرة حاسبت نائبها فى نهاية الدورة! لم نسمع عن ذلك طول عمرنا! بل إنهم ينتخبونه هو نفسه فى دورة جديدة رغم أنه ربما يكون اشتغل ضدهم طوال الدورة السابقة!! شعبنا يا صاحبى طيب وفى حاله ولا يهمه من الذى يحكمه لأنه فى النهاية يفعل ما يشاء والحكومة هى الأخرى تفعل ما تريد!! فى مصر من يركب لا ينزل أبدا إلا إذا مات هو أو نفق البعير من تحته! والشعب طول عمره لم ينجح فى إسقاط أحد عن عرشه!! ثم تعال

هنا : الناس انتخبوك فى آخر لحظة خوفا وظنا بأن الثورة تؤيدك وراءك! اللجان هى التى انتخبتك!! هى صحيح لعبة عيال وصدفة جاءت مع العمى طبات ولكن النتيجة أنت حصدتها!! ولعلمك فإن المصائب الكبيرة والأحداث الجليلة تحدث فى بلادنا بسبب أمثال هؤلاء العيال الذين لهم أقارب من الحكام!! وعلى كل حال يا صاحبى فلن يمنعك أحد من خدمة أهل الدائرة! ولكن بصنعة لطافة! عن طريق الالتماس المهذب! وبالأجر فثق أن أحدا لن يخدمك أو يخدم أحدا من طرفك إلا بالأجر بالفلوس أو بالخدمة مقابل خدمة! وهنا يجب أن أقدم لك النصيحة أيضا : لا تقدم خدمة بالمجان مهما كانت لا تكلفك شيئا!! فمجانية الخدمة تقلل من قيمتها فى نظر المخدوم!! تنقلب الآية هنا يا صاحبى! فحيث كل الناس يخلصون أمورهم بالأجر فلا مصداقية ولا شكر لمن يخلص بالمجان!! يظن المخدوم أنها كانت سهلة عليك فلا يكون للخدمة أى أثر فى نفسه!! إن المخدوم فى بلادنا أصبح لايشعر بطعم الخدمة أو لذتها أو أهميتها إلا إذا اكتوى بنارها ودفع ثمنها غاليا!! قرأت مرة عن شاعر يدعى إبراهيم ناجى مؤلف أغنية الأطلال لأم كلثوم لابد أنك سمعت اسمه! هو فى الأصل طبيب ذهب إليه أحد الفقراء ليكشف عليه فى عيادته فى شبرا! فكشف الرجل عليه فوجده مصابا بالأنيميا يعنى سوء التغذية فشعر بفقر الرجل واحتياجه فلم يأخذ منه أجرا على الكشف بل أعطاه جنيها كاملا من جيبه مع روشتة كتبها له ببعض الفيتامينات المقويات وقال له : خذ هذا الجنيه إصرف به هذه الروشتة وتعال بعد أسبوع لأكشف عليك ثانية! فمضى الرجل الغلبان ثم جاءه بعد أسبوع وكان مهزولا! فقال له ناجى : ألم تصرف الروشتة؟ قال : لا! قال : أعطيتك جنيها لتصرفها به فلماذا لم

تفعل؟! قال الرجل بسلامة نية: ذهبت بالجنيه إلى طبيب آخر جيد!! فتصور ياصاحبى! الرجل الغلبان فقد الثقة فى الطبيب لأنه تنازل عن أجره وساعده!! هذا هو الشعب المصرى يا صاحبى مع الأسف الشديد: تضربه وتأخذ كراء يديك ومن يحاول خدمته بالمبادئ والأخلاق والضمير قام فى وجهه الفسقة الفجرة وألبوا الشعب المسكين الجاهل ضده فيضربه!!».

الولد لخبط غزلى يا بوى، طمس صوت الشيخة سعادة تماما فبدت لى إنسانة طيبة القلب ساذجة. لكنى يا بوى سرعان ما فطنت إلى أنها لم تكن تقدم النصيحة بقدر ما كانت تقدم النبوءة لينتفع بها من يشاء. الواقع يا خال أننى صرت محيرا فى أمر الشيخة سعادة، فأنا على ثقة أنها تحب الوطن والعدل والإنصاف بقدرما فى نفسها من ورع وتقوى، فكيف بها هى نفسها تقبل المتاجرة فى الآثار، وتؤوى فى مملكتها سفاحين وقتلة ومدمنى إجرام؟! إلا أن صوتا كصوت الشيخة سعادة نفسه سرعان ما رد علىَّ بكلمات من كلام بسبوسة! إنها فعلا تميل إلى فعل الخير وتتمنى أن يكون كل شىء على ما يرام لكنها لا تستطيع إلا أن تعامل المجتمع بنفس العملة الرائجة فيه وإلا أصابها العطب والبوار يا خال..

موجز القول يابوى أننى نويت أن أوفق بين صوتين يزعقان فى صدرى بقوة: صوت الشيخة سعادة وصوت بسبوسة؛ أن أخدم ما استطعت، وأن أكسب ود الحكومة ما استطعت؛ بشرط أن يؤدى هذان السبيلان إلى تكبير مصالحى ووضعها فوق كل اعتبار.

قــص

بلدياتى فى القاهرة كثيرون جدا يابوى، أكثر من عدد التراب فى جميع أحياء القاهرة الفقيرة والغنية على السواء. بل أكثر من عدد البعوض الذى يملأ ليل الصعيد. فنحن فى الصعيد لا يبارينا فى التكاثر سوى مثل هذه الكائنات السريعة الانتشار، وليس فى الصعيد يابوى سوى فقر أو غنى، ليس ثمة من وسط ياخال. أنت إما فقير أو غنى. متى ما كبر الولد شد الرحال إلى القاهرة أو الإسكندرية أو أى بلد بعيد، هذا وإلا فمآله الجبل فى نهاية الطراد. ما من بائع سريح يحمل أثواب القماش على ظهره والمتر فى يده يجوب بلدان الوجه البحرى إلا وكان صعيديا بارز الصعيدية. ما من عامل من فواعلية البناء الذين أقاموا كل عمائر البلاد إلا وكان صعيديا صرفا، لا تنى أصواتهم الأسيانة الشقيانة الزعلانة ترن فى سمع البلاد كلها أبد الدهر رنينها العذب الشائق الأبدى: يا وابور الساعة اتناشر يا مقبلع الصعيد، يا بهية وخبرينىع اللى قتل ياسين، وأنا كل ما أقول التوبة يا بوى ترمينى المقادير..

آه يا خال مما يصيبنى كلما استمعت إلى هذه الأغنيات، يذوب قلبى عشقا للصعيدى والصعيد، سمعت بعض التلاميذ وهم يذاكرون ويقولون إن رجلا يونانيا قديما اسمه لا أدرى ماذا . . قال إن مصر هبة النيل . . رأيى يا خال أنه رجل حمار لا يفهم حقيقة الأمر، خواجه لف مصر لفتين وراح يفتى فى بلده عن مصر، وما هكذا الأمر يا خال، مصر هبة الصعيدى، اللهم إلا أن يكون هذا الخواجة يقصد القول بأن النيل صعيدى وهنا يجب أن أصدقه. ها نحن منجعصون متكئون على الأرائك فى شرفة قصرى فى حضن المقطم لا نحمل للدنيا هما طالما يقف صعيدى بعربة الخضار تحت باب القصر، وصعيدى آخر بعربة الفول، وصعيدى ثالث بعربة أنابيب البوتاجاز وصعيدى رابع يكنس الشوارع، وصعيدى خامس يمد قضبان السكك الحديدية، يسوق شاحنات النقل، يسهر فى قصر رئاسة الجمهورية يحكم مصر والعرب يهز طرابيش العالم أجمع، فما الذى ننتظره من الصعيدى بعد كل هذا يا بوى؟!

جميع باعة السمك فى جميع أنحاء القاهرة يا بوى هم من بلدياتى كما قلت لك من قبل، من بلدة (كوم اسفحت) المجاورة لبلدتنا، من متعهد لشيال لبائع سريح. إن قابلك أى سماك فى القاهرة فاعرف أنه من كوم اسفحت. أما ولد بلدتى نفسها والنجوع المتاخمة لها فما أكثرهم فى سوق الخضار وفى شوارع القاهرة وكل حواريها وفى جبل المقطم يفتتون صخوره بالديناميت يحولونها إلى ثريد. كل هؤلاء وأولئك يا بوى يلزمهم مأوى، فالقادرون منهم قلة، معظمهم لا يأبه بالمنظر، ينام فى أى مكان، تحت أى عراء، يأكل أى أكل، يلبس أى

لبس، المهم أن يشتغل والسلام يا بوى، فيهم جرأة كبيرة وبساطة، وميل إلى التعشيش، بنفس طويل جدا يا بوى، يختار الواحد منهم أى ناصية أى ركن أى عطفة، يفرش عليها أقفاص الفاكهة فى شكل يسر الناظرين، يشغل الكلوبات فى الليل يؤنس وحشة الحوارى والأماكن المقطوعة، ينصب خيمة فى أى أرض خلاء شرط أن تكون مملوكة للحكومة. فى تسعة وتسعين فى المائة من هذه الحالات يا بوى ستمر الأيام ويصبح شاغل المكان صاحبه ومالكه. بفلوسه من عرق جبينه يشتريه من تحويشة المليم فوق المليم بصبر أيوب. ما من صاحب محل كشرى أو فول كبير فى البلد إلا وكان صعيديا يقف بعربة يد بجوار هذا المحل أو فى قلبه، هى الوقفة يابوى لا يتحول عنها، عشر سنوات عشرون، مائة، المهم لابد أن يجىء اليوم الذى يشترى فيه هذا المكان أو يستولى عليه..

بلدياتى هؤلاء يابوى كان منهم عدد كبير شغله قريب من المقطم، لاحظوا بفطرتهم أن الجبل كله فضاء يحتاج لتعمير سفوح تمتد هابطة قليلا لتلتحم بصحراء المماليك المتاخمة لحى الدراسة. صعب على بلدياتى أن يروا هذه المساحات الهائلة تصفر فيها الريح وهم بلا مأوى. هم يدركون أن الطريق إلى مكاتب الحكومة مفروشة بالذل والهوان أو بالمال المسفوح، ومن لديه المال يضن به على صنف الحكومة، جنس الحكومة، فى نفس الوقت لا يحتمل الذل والهوان من موظف، ولا يثق حتى فى أى قاض يعوج الطربوش على ناحية ويحكم بأربع سنين فى قضايا الدم. وما الداعى لأن يتطوع الصعيدى بنفسه لينبه الحكومة إلى شىء ينتويه. إنه إذا أراد شيئا فعله فى الحال وليحلها بعد ذلك

الحلاَّل، ثم إن احتياجه للشيء لايعطيه فرصة لأن يأخذ الإذن من أحد. . وهكذا يابوى هجموا على فضاء المقطم. منهم من اختار رقعة فسيحة فى سفوح الجبل أو صحراء المماليك فحوط عليها بعيدان الحطب والبوص والقش وأقام فى وسطها كوخا يأوى تحت سقفه. ومنهم من كان قادرا فابتنى حجرة بالطوب وحوط على الباقى بسور يحتاط مساحة تكفى لبيت صعيدى كبير. لا شىء أسرع من التقليد فى بلادنا المصرية يا بوى. الناس كلهم كحيتة متشردون بصاصون، ما أن يرى الواحد منهم مشروعا ناجحا حتى يأخذ نفس الفكرة وينفذها بحذافيرها، ربما بجوار صاحبها الأصلى بقفا غليظ ووجه كالح، ذريعته فى ذلك أن الله مقسم الأرزاق ولابد أن يرسل لكل واحد رزقه. وهكذا رأى بقية الصعايدة من بلدياتى إخوانهم قد غنموا هذه القطع من الأرض البراح التى لا صاحب لها ينازعهم فيها، فتواتروا جميعا على سفوح المقطم وصحراء المماليك، كل حسب قوته وعزوته واجتهاده وجرأته وذكائه وخبرته، منهم من حوط على فدان وبناه فعلا، ومن حوط على ثلاثة أفدنة بنى بعضها وزرع البعض الآخر حديقة. هم يدركون أن الأرض ملك للحكومة، وفى اعتقادهم أن يوم الحكومة بعام كامل، فإلى أن تنتبه الحكومة وتطالبهم بالجلاء وينازعونها وتنازعهم يكون قد حلها الحلال الذى لا يغفل ولا ينام، يكون الظرف قد تغير وتوافرت الفلوس والإمكانيات لمساومة الحكومة. هم أيضا أذكياء يابوى ذكاء حيوانات الصحراء الماكرة القادرة على التنكر والزوغان والهروب فى عراء الرمال. لقد فهموا من مجريات الأمور أن البلاد فيها أزمة مساكن تعترف بها الحكومة وتعلن عجزها التام عن حلها ومن ثم فإنها تتغاضى عن ناس حلّوا مشكلتهم

بأنفسهم وبنوا لأنفسهم فى أرض حكومية كان من المفروض أن تبنيها الحكومة لهم، يعنى لابد أن الأمر سيكون فى صالحهم فى النهاية يابوى . .

وقد كان يابوى . اكتسبوا بطول البقاء شرعية البقاء كأمر واقع منذ سنوات طويلة، فمن يلقى نظرة على هذه الأعشاش يدرك لأول وهلة أن الحياة قائمة هاهنا منذ وقت طويل مضى، بهذا تشهد الأرض التى رطبتها المياه المتدفقة باستمرار فاختفت بصمة الصحراء، وبهذا تشهد هذه الاكشاك والدكاكين التى تبيع البقالة والخضروات والسجائر والحلوى واللحوم، وحلاقون وسمكرية وميكانيكية ونجارون وسباكون وقطع غيار سيارات، كذلك تشهد هذه الهوائيات القائمة فوق الأعشاش وقد علاها الصدأ والتراب، وهذه الأشجار الوارفة ونباتات الخروع وأشجار الموز والأسوار المخضوضرة . .

إلى أن شرعت الحكومة فى تخطيط مدينة نصر فى الطرف القصى من صحراء المماليك . وبدأ المقاولون فى البناء لحساب الأهالى العائدين من ليبيا والعراق والكويت ولصوص القطاع العام وتجار المخدرات وكبار التجار الذين أثروا على حساب أقوات الشعب . الحكومة شجعت على البناء وسهلت أموره، وفرت حديد التسليح والأسمنت بأسعار رخيصة، حتى الأرض باعتها لهم بسعر تكلفة المرافق تقريبا وبالتقسيط المريح، فى المقابل يابوى كانت هناك صفوف من عرسان وعرايس واقفين بالمرصاد يتسقطون أخبار أى بناء، فبنت لهم الحكومة بعض المساكن الشعبية . فلما فرغت أراضى التخطيط الرسمى تكالب الأهالى على الأراضى المجاورة، حيث التحويطات الكثيرة بوضع اليد

صارت فى حكم الملكية الشخصية. قامت سوق جديدة فريدة: واضعو أيديهم على الأرض يبيعون قطعا منها لملاك جدد بأسعار باهظة، العجيب يابوى أن واضع اليد البائع يستطيع فى النهاية - بلفة طويلة معقدة فى دواوين الحكومة - أن يسجل للمشترى، إلى أن فرغت هذه المساحات بدورها فبدأت الأنظار تتجه إلى سفوح الجبل فى مواجهة قرافة المجاورين، حيث أفقر الفقراء من واضعى اليد الذين رغم طول مدة وضع اليد لم يستطيعوا إقامة بنيان واحد، والإكادة يا بوى أن الحكومة التى صهينت على الحيتان الكبيرة فى صحراء المماليك وطرمخت على كل المخالفات لم تتشطر إلا على هؤلاء، طبعا يا خال، لأنهم أفقر من أن يساوموا، وبدأ شبح البلدوزر يطل عليهم فى الظهيرة يابوى، فألقوا بأنفسهم فى طريقه تحت عجلاته بكل جسارة، داس البلدوزر من داسه يابوى، ولكن سيل الدم أعجزه عن المواصلة فتوقف ريثما يتشرب أنفاسه وتتشرب الأرض دم المجروحين التعساء. وهنا يابوى تذكروا فجأة، أو ربما جاءتهم الأخبار مؤخرا، أن حسن ولد أبوضب، بلدياتهم، الذى طالما اشتغل معهم فى تفتيت الجبل بالديناميت وحمل جنبة السمك على رأسه فى الأسواق، قد أصبح بقدرة قادر عضوا فى مجلس الأمة، ويستطيع نقل استغاثتهم إلى سمع الحكومة..

فجأة رأيت المعلم شندويلى يصعد إلى مكتبى، كالنبى موسى عليه السلام يجر خلفه رهطا من بنى إسرائيل المطاريد، بتأثر شديد، وعبر انفعالات هتماء مليئة بالحروف المكتومة الصافرة، حكى لى المعلم شندويلى قصة شعبه المختار، وما نالهم من آلام وخسائر فادحة، صار

يردد بصوت يكاد يكون باكيا ـ وكأننى المسئول عما حاق بهم يا خال :

ـ « يروحوا فين دول؟! بنى إسرائيل دول اللى تايهين فى صحراء المماليك وجبل المقطم أكثر من أربعين سنة ؟! بقى يعنى الحكومة لامنها ولا كفاية شرها؟! خلاص! تدور لهم على متوى يلمهم! ولا يعنى خلاص ما عادش لهم لازمة فى البلد؟! والله الصعايدة لو روحوا بلادهم القاهرة تنتن وما تلاقى لقمة تاكلها! طب أهم بكره يرحلوا على الخليج يعمروه ونبقى ندور على نفر بطلوع الروح ما نلاقيهش!!» .

جريت إلى سيارتى الشيفروليه السوداء ذات الستائر الحاجبة، بسبوسة بجوارى، وهندى خلفى مباشرة باعتباره حارسى الخاص حاملا المسدس، ناهيك عن مسدسى المرخص باسمى والنائم دوما تحت ابطى، بجوار هندى كل من بربش وغزولى. ومن خلفنا المعلم شندويلى بسيارته المرسيدس العتيقة المجنحة ملآنة بالخلق من بلدياتى. ومن خلفه سيارة أجرة تحمل الباقين . .

ذهبنا من فورنا إلى ذلك الخلاء الرابض فى سفح الجبل، حيث تكون القلعة على الجانب الآخر من الطريق، ومن بعدها حوش العائلة الخديوية الشبيه بقصر من القصور الملكية بحديقته الكبيرة الزاهرة. أمام حوش العائلة الخديوية صفوف من المقابر الخاصة بعائلات أخرى كبيرة، بعضها داخل أحواش وبعضها فى العراء ـ مكانها الآن طريق الأوتوستراد وهو وحده قصة سأحكيها فيما بعد ـ أمام هذه الصفوف من المقابر توجد قضبان فى سكة حديدية خاصة بالقطار الحربى المتخصص فى نقل الأسلحة والذخيرة بجميع أنواعها من حلوان إلى معسكرات العباسية، هو طريق موحش يا بوى، لكن بعض سكان حى

قايتباى الذى يخدم هذه المقابر ويعيش عليها تخصصوا فى التربص بهذا القطار الحربى من أيام الجيش الإنجليزى، فنظرا لأنه يمشى ببطء شديد خاصة وهو يجتاز هذه المنطقة فإن مجموعة من الولاد المخربشين يربضون تحت الجسر ثم يقفزون إلى العربات، ليدحرجوا الأسلحة وصناديق الذخيرة وشكائر المؤن والتموين، فتتساقط على الأرض، حيث تكون بقية أفراد العصابة قد لاحقوا الجسر لتجميع ما ألقى لهم . .

وكنت أعلم منذ مدة أن نفرا من بلدياتى الذين استولوا على رقع فى هذا المكان الموحش البعيد وحوطوا عليها يتخذون من أكواخهم هذه مرابض ومحطات ومخازن لهذه العصابات، إذ يبادر الواحد من أفراد العصابة بتسريب المسروقات إلى كوخ من هذه الإكواخ بسرعة هائلة ليمشى بعد ذلك بأعصاب مطمئنة يترقب من قد يستوقفه أو يشتبه فيه . قل إن هذه المسروقات مآلها كلها فى النهاية لمن قاموا باخفائها من بلدياتى؛ فحينما يقفل الأولاد عائدين، يتجمعون فى كوخ من أخفوا عنده هذه المسروقات، حيث يساومهم على شرائها، هو وشطارته، وغالبا هو الكسبان يابوى، يأخذها بتراب الفلوس، يبيعها بأغلى الأثمان للصعايدة المقتدرين فى القاهرة، أو يصدرها للصعيد الذى لا يشبع من السلاح، سيما وأن معلمى شادر السمك الذين يقعون فى ضديات مستمرة يعلنون الحرب على بعضهم البعض دائما أبدا، ولكن دون أن يظهروا فى الميدان، إنهم يكتفون بشراء الأسلحة والذخيرة وتكديسها تحت أيدى صبيانهم ورجالهم هنا أوفى الصعيد، لأنهم هم الذين يخوضون الحرب الضروس نيابة عن المعلمين، ومن يموت منهم فالمعلم يتكفل بعياله، أو يسجن فالمعلم متكفل به على أكمل وجه . .

كنت أعرف هذا يا بوى بل كنت فى يوم من الأيام ضمن من يفعلون هذا. المهم يا بوى، أوقفنا السيارات ومشينا على أقدامنا بين برك ودروب ملتوية. المكان موحش جدا ولكنه جميل يابوى: مجموعة أكواخ متناثرة، بين الكوخ والآخر مسافة يقطعها السائر فى مشوار سخن، وبين التحويطة والأخرى مرتفعات وصخور وأتربة وقمامة، ولكن كل كوخ وكل تحويطة تنبع منه وتحوطها أشجار وارفة وتكعيبات عنب، فوجئنا بسيارات ملاكى فخيمة راكنة بحذاء بعض الاكواخ فعجبنا كيف دخلت إلى هنا، رائحة احتراق الحشيش تملأ أنوفنا تستدرجنا للنشوة، حقا يا خال إنه لمنتج عظيم، فأصحاب هذه السيارات الفخيمة ناس من علية القوم من كبار الفنانين وكبار الموظفين والرأسماليين، جاءوا إلى هنا لتدخين الحشيش فى أمان الله بعيدا عن دوشة القاهرة اللعينة. ثمة موسيقى شجية يصحبها غناء أجش لكنه مستساغ ومؤثر. قال واحد ممن يسيرون معنا إن أحد أشهر كبار الملحنين زبون يومى دائم عند صاحب هذا الكوخ، يحشش ويلحن، فقررت يابوى أن أتخذ لى أنا الآخر منتجعا ها هنا ابتداء من اليوم..

تجولنا فى المنطقة من أقصاها إلى أقصاها، عاينتها جيدا يابوى، تقابلت مع الكثيرين القاطنين فيها، استمعت إلى المشكلة من جميع أهلها وكيف أنه قد بات من المستحيل عليهم اقتلاع جذورهم من هذا المكان. أكملنا الحديث فى قعدة الملحن نفسها، فتعرف علينا وتعرفنا عليه، كان ضريرا، وله ألحان كثيرة تذاع فى الإذاعة، واسمه سيد أبو العرب، فى هذه القعدة استراحت أعصابى يابوى، هفهفت روحى مع النسيم العليل والهواء النقى. حقا يا خال، أولاد الفرطوس بلدياتى

وضعوا أيديهم على أصح وأجمل مكان فى القاهرة كلها. قديما حظى الموتى بحى يرم عظامهم، والآن يحظى به بلدياتى بالمجان، فليكن من نصيبهم إن شاء الله . .

الولد بسبوسة استأذن وقام بعد حجرين، قال إنه سيلف لفة ويعود. وبعد أن خطا خطوتين أشار إلى غزولى أن يتبعه، فتبعه. القعدة احلوت يابوى، وسيد أبو العرب صوته فاتن، وعوده أفتن، والجو أكثر فتنة، أما الحشيشة فعلى الكيف البريمو. بعد حوالى نصف ساعة عاد بسبوسة وغزولى وقد ظهر على وجهيهما تعبير شيطانى وحد بينهما. فملت على بسبوسة هامسا:

ـ «ما الأمر يا ولد الفرطوس؟!».

قال مبتسما فى انتصار شيطانى:

ـ «سأقول لك بعد قليل!!».

ثم بدأت ألاحظ أنه يتململ، ويتعجل انصرافنا قبل انصراف ضوء النهار. عند خروجنا اقتادنى نحو أعماق بعيدة على أرض منبسطة مستوية، يبدو الجبل فى نهايتها كحائط بارتفاع ناطحة سحاب، وعرض شارع بأكمله. أشار بذراعيه حولنا قائلا:

ـ «ما رأيك فى هذا المكان؟!».

ـ «ساحر يا بو العم!».

بغمزة من عينيه أضاف:

ـ «تخيل هنا صفا من العمائر الكبيرة على نظام فيلات فوق بعضها؛

أو فيلات متجاورة بحدائق! شف ماذا يمكن أن يدفع فيها!!».

أصابتنى الغمزة فى الصميم يابوى:

- «كم تبلغ هذه المساحة فى نظرك يا بسبوسة؟!».

- «حوالى سبعة أفدنة!!».

- «يابو.. و.. ى! تصلح منطقة سكنية كاملة!!».

- «إسكان فاخر على شرط! قرية سياحية! مدينة ملاهى مثلا! مشروع العمر يا حسن بك!!».

لعبت «حسن بك» هذه بأعصابى لعبا حلو المذاق والله يابوى. ومع أننى شعرت أن بسبوسة يقصد بها بث الحماس فى نفسى وإشعارى بأننى لو نفذت هذا المشروع فإن البكوية تليق بمقامى، فإننى رغم ذلك أحببت اللقب وتمنيته بل اعتبرته فألا حسنا يا بوى، إن اسمى نفسه حسن، فلقب البكوية وإن ألغته حكومة الثورة لم ينقرض، ويظهر أنه بات قريبا من اسمى يابوى. وهكذا رسمت الجدية على وجهى، تقمصتنى روح البكوية الحقة، فأشرت لبسبوسة فى أمر حاسم:

- «من غد يابسبوسة تبعث بالرجال لتحويط هذه المساحة كلها بالأسلاك الشائكة! ويستحسن أن تقوم ببناء حجرتين ثلاثة لخفير ينام فيها لحراستها! والخفير نفسه يقوم بزراعة السور كله ساير داير بأفرع الفل والياسمين وشجر الموز والخروع! حتى لو اقتضى الأمر أن نرسل لها سيارة بفناطس الماء كل يوم إلى أن يكرمنا الله ونتمكن من إدخال المياه والنور فى هذه المنطقة كلها!!».

هز بسبوسة رأسه فى اقتناع تام، بثقة من كان متأكدا من نجاحه فى إغرائى بوضع اليد على هذه المساحة اللقطة، ثم استدرك بلهجة ذات معنى:

ـ «هذا رزق جاءنا لحد عندنا! وما يجرى على غيرنا يجرى علينا! لن نكون الخاسرين على كل حال!».

إنشد عقلى ياخال، انشغلت فى التفكير، رحت أتصور منظر مدينة على الطراز الحديث يؤمها السياح والرواد من علية القوم الأثرياء، ونهر الفلوس الذى يمكن أن يتدفق علىّ وعلى أولادى وذريتى. ويظهر ياخال أن الملعون بسبوسة قرأ أفكارى، فأضاف بلهجة من يضع شرطة اعتراضية:

ـ «لا بد أن يكون لنا من الحب جانب خل بالك! نحن طبعا رجالك! تكون لنا مساكن فى هذه المدينة! وعلى كل حال تاهت ولقيناها يا حسن بك! لماذا نكلفك؟! أنا وزملائى من الشلة الوسخة كل واحد يحوط له على مساحة معقولة من هذه الفدادين التى بلا صاحب! مثلنا مثل أى واحد من هؤلاء! نحن لسنا أقل منهم فى شىء! نحن الذين بدعنا الفتاكة والفهلوة والضحك على الحكومة!! أنت تحوط على هذه السبعة الأفدنة! وأنا سأكتفى بهذه المساحة التى ستفصل بينك وبين العشش! وأما غزولى وبربش وهندى والمعلم شندويلى لو أراد فكل منهم أمامه البراح كل واحد يحوط على المساحة التى يرى أنه قادر على الانتفاع بها!!!».

قلت برضاء تام:

ـ «عداك العيب يا بسبوسة! وماله! ربنا معنا! من يدرى؟ ربما أكرمنا الله وأصبحت ملكنا فعلا!!».

ـ «هى خلاص أصبحت ملكنا من الآن!!».

هكذا قال بربش بكل ثقة. فنظرنا جميعا إليه فى إعجاب كأنه قد منحنا صك الملكية بالفعل يا خال، وضوعفت حماستى بصورة غير طبيعية، فشوحت بعصبية:

ـ «المهم التنفيذ فورا يا بسبوسة!!».

شوح بسبوسة مؤكدا!:

ـ «من صبحية ربنا سيجىء الأنفار بالأسلاك الشائكة والطوب والشتلات! دع الأمر لى! اعتبره قد حصل!!».

ابن الفرطوس نفذ كلامه بالفعل يابوى من اليوم التالى. فبعد حوالى ثلاثة أيام لا أكثر فوجئت به يقدم لى فاتورة الحساب. كانت كبيرة على عكس ما توقعت، لكننى سرعان ما فطنت إلى أنه قد حملنى تكاليف العملية كلها: مساحتى ومساحاتهم، وبدلا من عشرة أنفار أكترى ثلاثين لكى تنتهى العملية فى زمن قليل وتصبح امرًا واقعا. قلت لا بأس فهم رجالى واليد الواحدة لا تصفق. ذهبت فى مشوار سريع خاطف للمعاينة ولتعيين خفير من بلدياتى إختاره المعلم شندويلى على ضمانته، ثم عدت فى ذلك اليوم فرحا إلى الشقة التى استأجرها لنا بسبوسة فى حى المنيل فى مواجهة بر الجيزة لنشوف مزاجنا فيها. وكان مقررا أن نستمع فى تلك الليلة إلى نص الاستجواب الذى كلفت بربش بكتابته لكى أحفظه جيدا وألقيه فى البرلمان بين يدى الوزير المختص ومحافظ القاهرة. والواقع أننى لم أكلف بربش، بل لم يخطر هذا على

بالى يابوى، إنما خطر على باله هو، إذ رأيته فجأة يسألنى فى اهتمام شديد:

ـ «هل حضرت الكلام الذى ستقوله فى حضرة الوزير؟ هل عرفت أولا معنى الاستجواب؟! معناه أن تعرض أمام الوزير المختص وزملائك الأعضاء مشكلة كبيرة تخص أهل دائرتك أو أى فئة من الشعب! ثم تطلب من الوزير إيضاحات حولها!! فإذا اقنعك بالوثائق والأرقام والبيانات الصحيحة أن موقف حكومته سليم وأنها غير مقصرة وغير متراخية فى أداء واجبها بالنسبة لهذه المشكلة بالذات! كان بها فتشكره وتعتذر له!! وإذا لم يقنعك فإنك تحاول إقناعه وإقناع البرلمان بسلامة طلبك وبضرورة أن تتخذ الحكومة فيه موقفا إيجابيا يعنى تبدأ فى حل المشكلة بالفعل!! وهذا بالطبع يتوقف على مدى استيعابك لحقيقة المشكلة وإلمامك بكل تفاصيلها الواقعية فلربما استطعت أن تثبت كذب الوزير فى بياناته!! أنت وشطارتك وقدرتك على الكلام والتأثير! ولكن! دعنى أكتب لك هذا الاستجواب! سأعرض المشكلة جيدا من ناحية! ومن ناحية أخرى سأضع مجموعة من الأسئلة المحرجة لأحاصر بها الوزير حتى يعترف بحقيقة موقف الحكومة من مسألة كهذه تهم عشرات المئات من الأيدى العاملة التى لاغنى للقاهرة عنها وفى نفس الوقت لا يمكن ترحيلها إلى بلادها بعد أن استوطنت هنا عمرا طويلا!! المهم الآن يا حلو أن تفتح مخك معى! تصحو! تحفظ الكلام جيدا! صحيح أنك ستقرأ من الورق ولكن يجب أن تتدرب جيدا على النطق السليم للكلمات الفنية! سأدربك فى يومين اتنين فلا تحمل هما!!».

عندما بدأ بربش يقرأ علينا نصّ الاستجواب يا بوى تيقنت فى هذه اللحظة فحسب أننى بالفعل فى البرلمان . هذا البربش المتشرد المخربشاتى مخزن ثقافة يا بوى ، ولا أدرى كيف يكون هكذا ويتشرد؟! يملك كل هذه المعارف والمعلومات ويشتغل لصا نتنا بدل أن يكون لصا محترما . وكنت أظن أن حرصه على قراءة الجرائد والمجلات كلها هو الذى علمه السياسة ، فإذا هو يخبرنى أن فهمه فى السياسة أصلا هو الذى دفعه لقراءة الصحف من الطفولة حينما كان فى البلاد سياسة حقيقية وساسة حقيقيون وصحف حقيقية لا نشرات إخبارية حكومية . لقد تعلم السياسة فى الشارع وعلى المقاهى وفى البيت لأن جميع الناس كانوا آنذاك يشغلون أنفسهم بالسياسة . وليست الصحف هى كل ما يقرأ بربش ، إنما هو لا ينام مطلقا إلا بعد أن يقرأ فى السرير ساعتين أو ثلاثة فى كتاب يشتريه أو يستعيره أو يستأجره ، مما جعلنى أحسده وأتمنى لو فعلت مثلة ليستنير مخى الصعيدى الصرف ما دمت سأشتغل بالسياسة كما نصحنى هو نفسه . .

كلام كبير يا بوى ، لا تقل لى مرافعات المحامين فى محاكم الجنايات فى الأفلام ، لا ولا خطب عبد الناصر نفسه . كلام يهز يابوى ، وفيه معلومات وأرقام وبيانات أتى بها الخربوش من جهات متعددة لم أكن سمعت بوجودها من قبل ولا أعرف طبيعة عملها . صور من الواقع ، مقارنات بين المحظوظين والتعساء كيف يعيش هؤلاء وهؤلاء . . إلخ . . إلخ . صاح غزولى منبهرا :

ـ « يا ابن الكا . . ا . . لب . . ! كلام عتيق لم نسمعه من أيام سعد زغلول ومصطفى النحاس ! ! » .

وقال بسبوسة :

ـ «دماغه جوهرة هذا الولد المتعوس!» .

وقال هندى :

ـ «يضرب ويلاقى!» .

وعلق بربش فى زهو :

ـ «الأهم من كل هذا أن الكلام فى النهاية لا يسىء لأحد! كما أنه لا يصلح دليلا لاتهام قائله بأى قذف أو عيب!! لقد راعيت فيه تجنب المآخذ القانونية المحظورة!! استخدمت لغة السياسة وأصول الحوار البرلمانى المحترم! كيف استجلب تعاطف البرلمان كله مع مشكلتى! لقد كنت طول عمرى أحلم بأن أكون سياسيا وبرلمانيا ورئيسا لحزب! هذا الحلم هو الذى ضيع مستقبلى الدراسى وشردنى من السجن مع الوفديين إلى مصر الفتاة إلى السجن مع الإخوان المسلمين ثم مع الشيوعيين!! ضعت بين جميع الأحزاب والفرق السرية فلم أنسجم مع أى أحد!! وأفقت فى النهاية على موت أبى ومن بعده أمى ولم يعد أمامى سوى احتراف الشغب السياسى! تستأجرنى الأحزاب والفرق لإثارة الشغب فى أى محفل ومحاولة إفشال أى مؤتمر والقيام ببعض العمليات السرية لكنها كلها أوصلتنى إلى احتقار الجميع والتمرد على الجميع والشغل ضد الجميع لحساب الجميع أو لحساب الشيطان إن دفع لى أجرا مغريا!! ثم كسدت هذه السوق فانتميت إلى شلتكم الوسخة! وها أنذا أعود مرغما للاشتغال بالسياسة ولو من وراء ستارة الأراجوز ـ لمؤاخذة يا حسن بك!!» .

صحت فيه مبتهجا، متغاضيا عن نكتته الحراقة:

ـ «اعتبر نفسك صرت برلمانيا يا بربش! فأنا هو أنت! وكل ما تحلم به لقنه لى وأنا أحققه نيابة عنك!!».

ثم إننى أخذت الأوراق منه، وإنزويت بها فى الكرسى الأسيوطى متربعا، صرت أقرؤها. كان قد كتبها بخط كبير جدا، وحروف مشكولة، مما سهل علّى نطقها بلذة فائقة. أحببت الكلام يا خال، عشقته لما فيه من حلاوة وطلاوة ومعان كبيرة فى السياسة أتعرف عليها لأول مرة وأعرف من خلالها معنى أن يشتغل الإنسان بالسياسة وأن يكون برلمانيا بالذات، ومعنى البرلمان، وكيف أنه صاحب التشريع لكل القوانين والدستور. من فرحتى بالكلام وبالاكتشافات، وفرحتى الأكبر بالدور الذى وجدتنى سأمثله، كدت أحفظ الكلام بعباراته عن ظهر قلب..

تكررت القراءة خلال يومين آخرين، معهم أحيانا، ومع نفسى أحيانا، أمام المرآة تارة، وأمام زوجتى تارة فكنت كمن يستعد لامتحان الكفاءة يابوى، والغريب المدهش يا بوى أننى يوم قراءتى للاستجواب أمام هيئة البرلمان كلها فوجئت بأننى أتكلم بطريقتى الصعيدية البالغة الوضوح دون أن أقرأ من ورقة، بل أضفت إلى ما فى الورقة ما ألهمنى به الله من عبارات مؤثرة، خطبت بها ود الحكومة، وحمدت لها سهرها الدائم فى خدمة الشعب، وكيف أن حرصها الشديد على فئات الشعب العاملة، وخاصة أبناء الصعيد الذين يقدمون لنا أجمل الخدمات سوف يجعلها تمد يد العون لهم، دون أن تكلف نفسها شيئا، فالأرض ملك للحكومة، وإذا لم تكن الحكومة قادرة على بناء المساكن

فعلى الأقل تقدم للناس تسهيلات أهمها الأرض التى لن تكلفها شيئا، وأن الذين سيبنون على نفقتهم يمكن أن يتكفلوا بنفقات المرافق، بل إن الحكومة ستستفيد بنسبة العوايد المقررة على المبانى، إن قرارا حكيما من الحكومة يسمح لهؤلاء الناس بالبناء على الأماكن التى عششوا فيها واستوطنوها كفيل بحل مشاكل سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة، ويساهم فى تدعيم الأمن . . إلخ . . إلخ . .

عندما رأيت ملامح التأثر بادية على وجوه المستمعين ياخال، وأنهم ينصتون باحترام كبير، وأيقنت أن شخصية حسن ولد أبى ضب القديم، الحرامى النتن رد السجون، قد انمحت ، وحل محلها لص كبير واعر، لص شرعى يحميه الشرع يستره القانون يعطيه كل يوم ما يسرقه، عجبت من تصاريف هذه الدنيا العجيبة الغريبة بأوضاعها المقلوبة، لكننى فرحت مع ذلك يا خال، وقلت لنفسى: مالى أنا؟ هل أنا المسئول عنها؟ إن اسمها دنيا، يعنى من الدناءة. ولا يمكن أن تكون الدنيا دنيئة والزمن خوانا كما يقول المثل الشائع وأكون أنا من دون الخلق نبيلا أصيلا. ألسنا نحن أولادها وهى أمنا الرءوم؟ خلاص! دناءة بدناءة فالشاطر هو الفائز أما الخاسر فلا عذر له، ولا عزاء للشرفاء التعساء الواهمين ياخال . .

بعد مشاورات ومناورات ومداولات بين البرلمان ومجلس الوزراء استمرت أياما طويلة صدر قرار مشفوع بموافقة شفوية من أبى عبد الناصر بأن تباع الأرض لشاغليها بأسعار رمزية تزيد عن تكلفة المرافق بقليل . .

هب للنبى، نصبنا معسكرا هناك، أقمنا احتفالا من ليالى العمر لا

أنساه يا خال، كنت فيه العريس وصاحب الفرح، أعلنت فيه أن هذه المدينة سيكون اسمها من الآن : منشية ناصر، تقديرا لأبى عبد الناصر على جميله مع ولد بلده. وصحيح أنهم على مرمى حجر منا يقيمون مدينة جديدة أسمها مدينة نصر، إلا أنها من فعل الحكومة أما مدينتنا هذه فمن فعل الشعب تحية لرئيسنا المفدى، فهتف ولد بلدى كلهم، ورقص الخيل على نغم المزمار الصعيدى العظيم، وانتشى المقطم من أطنان الخمر والحشيش التى دخلت فى نخاع صخوره ليلة كاملة . .

دبت فى المنطقة خلية نحل عاملة، حركة بناء على جميع المستويات يابوى، من حجرتين مسقوفتين بعروق الخشب والبوص، إلى فيلات متباعدة لا يقدر على تكلفتها سوى مليونير ملآن، إلى عمائر عالية يدفع السكان تكاليفها مقدما، إلى حظائر للسيارات، ومخازن ودكاكين. ثم ظهر المخبوء يابوى، اتضح فجأة أن هذه الأرض الشاسعة لها ملاك بوضع اليد لا نعرف أين كانوا مختفين ولا كيف علموا بالتطورات، معظمهم من مطاريد جبل الصعيد القدامى، الذين تلقوا أوامر من مباحث الصعيد بالرحيل إلى أى مكان بدلا من اغتيالهم أو سجنهم، فعاشوا فى مغارات فى جبل المقطم يفرضون الإتاوات على كل من ينتفع بالمكان من حولهم، أو يفرضون حراستهم على المنشآت والأعمال. وكان كل واحد منهم قد خطط للاستيلاء على مساحة معينة ينقض عليها فى الوقت المناسب. وإذا بابن خالتى دياب من بين هؤلاء يابوى، وكنت أظنه انقرض من الحياة لكثرة غيبته، فإذا بى أمامه وجها لوجه يوم دعونى لفض النزاعات الدامية التى نشأت، فإذا هو يعرف كل أخبارى. بالحضن يا دياب كيفك يا حسن، بينى وبينك فرحت

بظهوره واعتبرت أن السماء باركتني بواحد من صلبي يحمي ظهري، فكان لابد أن أريحه على الآخر يابوي، تركته يبيع للخلق أجزاء من المساحة التي زعم أنه واضع يده عليها منذ عشر سنوات. أما كيف يوثق للمشترين عقود البيع فهذا ما لا شأن لي به كما قال. فلما كثر ظهور أمثاله ممن يبيعون للخلق عرفت أنهم يبيعون للمشترين وهما، إذ يكتب الواحد منهم للمشترى تنازلا عن قطعة الأرض ـ التي يحددها مساحة واتجاهات ـ مقابل خلو رجل كبير، يعتبره المشترى بمثابة خلو رجل مهما كان يعتبر نوعا من البقشيش بالقياس لثمن قطعة الأرض كهذه في مكان كهذا. إحتفظ دياب لنفسه بقطعة تكفي لبناء عدة بيوت صعيدية واسعة، ثم شرع في بناء عمارة كبيرة بالمبالغ التي اغتصبها عنوة واستقدارا. أما أنا فقد احتفظت بدياب نفسه، ضممته للخفير وادخرته ليوم قادم بإذن الله..

بسيارتي الملاكي سافرت إلى الصعيد، زوجي بجواري، وهندي حارسي الخاص في المقعد الخلفي، وبجواره بربش الذي أصبح سكرتيري الخاص ومدير مكتبي ومدير أفكاري ومثقفي ومنقذي من كل ورطة طارئة. وقد درب نفسه على نطق حسن بك ودربت نفسي على نطق الأستاذ محمد. قابلتنا البلاد باحتفال صاخب، واتضح أن خبر بلدياتي مع منشية ناصر قد وصلهم، فارتفعت قامتي إلى عنان السماء وأنا أتلقى المديح والثناء، وأعطي وعودا مؤكدة بالنظر في أحوالهم في القريب العاجل إن شاء الله، وأوزع أنصاف الجنيهات وأرباعها على الفقراء. في الليلة الأولى لوصولنا نبتت الفكرة في ذهن بربش فنفذناها في الصباح، التقينا مجموعة من الشبان كانوا تعلموا

قيادة السيارات فى الجيش أثناء فترة التجنيد الإجبارى، استكتبناهم طلبات لبنك ناصر ليعطى لكل منهم سيارة بالتقسيط المريح لتشغيلها فى نقل الركاب أو نقل البضائع كل حسب طلبه، أخذ بربش على عاتقه مهمة متابعة هذه الطلبات فى بنك ناصر الاجتماعى، والإلحاح بكل وسيلة حتى يوافق عليها. والحق أنه لم يدخر وسعا يابوى، فلم تمض شهور ثلاثة حتى كان الجميع قد تسلموا السيارات ماركة الرينوه والسوزوكى والهوندا والزاستافا، فكان لهذه الحركة دويها الكبير يا بوى.

أما فى الليلة التالية فقد شرفتنا الشيخة سعادة بمرافقتنا إلى مكتب المحامى عم زوجى فى أسيوط، حيث أبرم لنا عقد شركة مساهمة مكونة من العبد الله وهليل وأبيه وأولاد خرابة، لإنشاء مزرعة كبرى للخيول والعجول والماشية مقرها منشية ناصر، يلحق بها مصنع لمنتجات الألبان، وتعتبر مزرعة البلدة فرعا منها للتوليد والتسويق، على أن يتولى إدارة المركز الرئيسى دياب ابن خالتى لأنه يعتبر موسوعة فى علم الخيل طباعة وأنواعه وأسواقه وأمراضه وعلاجه فضلا عن خبرته الكبيرة فى تدريب الخيل على الرقص والسباق.

أثناء عودتنا لحق بنا هليل والشيخة سعادة لمعاينة المكان. بمجرد رؤيتهم له بلغ سرورهم أقصى مداه. اقتطعنا مساحة تقدر بثلاثة أفدنة خصصناها للمزرعة والمعمل، وألحقنا بها حديقة تحوى كل نادر أصيل من الأشجار، يتوسطها قصرى هذا الفخيم، الذى انتدبت لإنشائه مهندسا كبيرا شهيرا يعرفه بربش بحكم أنه مخطط القاهرة الكبرى ولديه شركة مقاولات ضخمةوذات فروع دولية. أطلعنى المهندس

على رسومات كثيرة وأقنعنى باختيار واحد منها يشبه القصور الملكية أعجبتنى فيه شرفاته وكرانيشه وحلياته، هو ذلك الذى نجلس الآن فى إحدى شرفاته نملى هذه الأمالى، مطلين على القاهرة من جميع الاتجاهات فنراها بجلالة قدرها مجرد علب صغيرة كصناديق القمامة مرمية تحت أقدامنا فى سفوح سحيقة غائرة فى الأرض. المهندس - بارك الله له فى صحته وأولاده وعلمه - هو الذى صمم ونفذ جميع ما يتعلق بالقصر من مداخل ومنافذ وطرق ومسالك. هذا الطريق المرصوف الذى يبدأ من داخل الحديقة من أمام القصر مباشرة لينتهى خارج الجبل فى السفح الموصل إلى القلعة معمول على حسابى يابوى. هن قرشك ولا تهن نفسك، فرجل مثلى وفى وضعى سوف يزوره ناس كثار يركبون سيارات فارهة، فلابد من تسهيل الدخول عليهم وإيجاد مكان آمن يركنون فيه سياراتهم براحتهم. وقد صح توقعى يا بوى، ففى هذا القصر تعشى وتغدى وسكر وحشش وقامر خلق غلاظ يقشعر بدنك إن ذكرتهم لك، ناس من أعلى علية القوم يابوى، صاحبونى وانتفعوا بمعرفتى وجمعوا من ورائى ثروات طائلة هائلة بارك الله لهم فيها. وفى هذه الحديقة غنى ورقص ومزك أكبر مشاهير المطربين والراقصات والموسيقيين فى حفلات أين منها حفلات أضواء المدينة.. أمال يا بوى.

دوه

استغرق بناء القصر حوالى نصف عام يا بوى. وكان المهندس الكبير قد بدأ بتعبيد الطريق وتمهيده وتبطينه بالحجر المبشور تمهيدا لرصفه بعد الفراغ من البناء. وقد سهل ذلك دخول عربات الأسمنت والحجارة والزلط والحديد. كانت الحديقة قد أقيمت بالفعل وتولاها بستانى محترف أتى بالأشجار كبيرة زاهرة ثم رشقها. كذلك أقيمت المزرعة والمعمل بواسطة خبراء تعاقد معهم بربش من أساتذة كلية الزراعة. بعدها مباشرة شرعنا فى بناء القصر جاعلين أبوابه الأساسية تفتح على جهة القلعة، مع الاحتفاظ بممرات مرصوفة بالحصباء تربطه من الخلف بالمرزعه. وحينما ارتفع بناء القصر بطوابقه الخمسة العالية الأسقف والشرفات أصبح يحلو لنا السهر كل ليلة فى الحديقة نتفرج على البناء نتخيل شكله بعد أن يتم دهنه وتلوينه على النحو الذى رأيته فى الماكيت المجسد، الذى نضعه أمامنا كلعبة أطفال ضخمة ونتفرج عليه

مسحورين من جميع جهاته .

كانت زوجتى قد أنجبت ابننا البكرى أدهم، وكان قد تم فطامه منذ أشهر قليلة حين علمت بأنها قد حملت، فأسعدنى هذا النبأ . صارت قعدتنا على المساند والشلت تطول فى الحديقة أمام التليفزيون الذى يعمل بالبطارية السائلة، فتروح زوجتى تحلم بشغل كل غرف القصر التى بلغت سبعين غرفة بخلاف الردهات ودورات المياه والمطابخ والحمامات المتعددة . وكنت أداعبها وأقول لها إن عليها أن تنجب لى عيالا بعدد هذه الغرف، وكان المهندس أعطانا عددا من المجلات الأجنبية الملونة تعرض ألوانا وأشكالا من الغرف المؤثثة . فهذه أنماط من غرف السفرة وتلك من غرف الصالون وثالثة من الاستراحات وهكذا وعلينا أن نختار منها من يعجبنا لكن المهندس بعث لنا بمهندس آخر يدعى مهندس الديكور تولى جميع الاختيارات الملائمة لطراز القصر كما قال . .

فتك فى الكلام يا بوى . فلابد من الإشارة إلى أن سر الشيخة سعادة الباتع هو الذى غض عنا بصر المتطفلين المتجسسين الذين يمكن أن نقدم بسببهم إلى المدعى العام الاشتراكى أو نقع تحت الحراسة . ذلك أن شخصيات كبيرة جدا فى الدولة كانت تعتقد فى الشيخة سعادة ولا تكف عن استدعائها لقراءة مستقبلهم السياسى بل ومستقبل البلاد فى ظلهم، وكثيرا ماكنا نفاجأ بالسيارة الليموزين السوداء بسائقها ذى الملابس الموشومة تزحف نحونا بأضوائها، ثم تتوقف على مقربة، وينزل السائق مهرولا ليفتح الباب الخلفى للشيخة . وكانت توحى لكل المتصلين بها أنها من أصدقائنا، وأننا من عائلة تعد من أغنى أغنياء

الصعيد، وأننا كذلك من أصل عربى منسب يمتد إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه، سيما وأن لهذه النسبة إدعاء فى شجرة العائلة إن بالوهم أو بالحقيقة وكان أعمامى المشايخ دائمى الترديد لهذه المقولة . .

الشيخة سعادة كانت بارعة أشد البراعة يا خال فى عقد الصلات مع الأسر العريقة فى حكم البلاد سواء من استمر منهم فى الحكم بعد الثورة أو من ابتعدت عنهم العزوة. كل أسرة تتصل بها يا بوى كانت تدعونى للحضور فى سهراتها كى أختلط بهم أتعلم منهم فنون التعامل مع الحكومة ومع الناس ومع الحياة، حتى لقد أصبحت رغما عنى أقلد الدكتور سيد مرعى فى التحدث بصوت عريض مستريح النبرات ملآن بالشبع، وأعتذر عن كل ما يخيل لى أنه إساءة للغير، وأشكر الناس عمال على بطال، بسبب وبدون سبب، وأغدق على كل من ألتقيه من سعاة البرلمان وصغار موظفيه، وأبعث بالهدايا السرية لبيوت كافة المسئولين: أقفاصا ملآنة بالطيور الداجنة والحمام والفاكهة النادرة وأجولة الأرز الأبيض وأفخاذ الضأن، فى المواسم والمناسبات، حتى باتت أمورى كلها مقضية بعون الله، أصبح هناك من يتطوع للدفاع عنى يا بوى، وتقديم خدمات لم أطلبها يا بوى، وتلك هى الحياة فى مصر يا بوى: تدفع ثمن كل شىء تعيش ملكا متوجا يا بوى، ومن يزعم غير هذا فهو فلحاس يضحك على نفسه . .

ذات ليلة هلت علينا الشيخة سعادة ونحن جلوس: زوجى وأنا وابننا أدهم يزأط بين الأشجار، والشلة الوسخة شغالة فى رص الحجارة. التليفزيون أمامنا يذيع الأغنيات الوطنية، ويقطع الإرسال من حين لآخر لينتقل الميكروفون إلى إذاعة خارجية من مطار القاهرة،

حيث نرى الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل وافدا جديدا من الملوك والرءوساء العرب، حيث أن اجتماعا للقمة سوف يعقد فى القاهرة لإيقاف المذبحة التى يقيمها الملك حسين للفلسطينيين فى الأردن، والتى أطلقت عليها الصحافة مذبحة أيلول الأسود، مما يجعل بعض العامة من بلدياتى يتصورون أن أيلول الأسود هذا رجل أسود القلب يذبح إخواننا المسلمين، فصرخ فى وجهى بانفعال وأسى: كيف يتركون أيلول الأسود هذا يذبح أشقاءنا؟! خذونى إليه وحدى وأنا أطحنه!!..

كان يخيم علينا جو من السكينة أميل إلى الحزن الدفين الغامض. قالت الشيخة سعادة وهى تتابع حركة الرئيس عبد الناصر وهو يستقبل الملوك والرؤساء. جعلت تهمهم بكلمات مضغمة وبصوت فيه رهبة، ثم هتفت فجأة كأنها تلقت خبرا مزعجا:

ـ «اللهم لا حول ولاقوة إلا بالله! اللهم لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه!!».

وراحت الدموع تنهمر من عينيها بغزارة كأنها تبكى لسنين طويلة مضت يا خال..

انزعجنا بالغ الانزعاج يا خال، تشاءمنا، توقعت أن تكون أشفقت على الرئيس من هذه الدوخة بين الملايين الذين لا يحلو لهم التشدد إلا مع أنفسهم وأشقائهم ولا يضمر أحدهم للآخر إلا كل شر وضغينة منذ أيام الخطف والهجمات إلى أيام النفط الذى اتضح أن أعماقنا جميعا أسود منه:

ـ « هذا الرجل ميت! سيعلن موته بمجرد تمدده على أول فراش يقابله!!».

هتفنا جميعا فى رعب حقيقى:

ـ «سبحان الله ولا إله إلا الله! كيف عرفت؟!».

وكانت الكاميرا قد استقرت على وجهه، فأشارت الشيخة إليه كأم يائسة تشير إلى ابنها الكسيح فى الفراش:

ـ « انظروا إليه!! دققوا فى عينيه!! الموت فيهما ظاهر كالشمس واضح كالموت!! لاشىء أوضح من الموت! أين اختفى بريق هاتين العينين الصقريتين؟! انطفأ طبعا!! لم يعد فى حدقتيه سوى بقايا فحم بارد!!».

قال بسبوسة:

ـ «كتر خيره! الرجل من صبحية ربنا واقف على حيلة!!».

قال بربش:

ـ «إنه إرهاق فحسب! مثل هذا الرجل لا يموت بهذه السهولة!! إنه كالقطط بسبعة أرواح!!».

قال غزولى:

ـ «فليمت! النبى محمد نفسه مات!!».

قالت الشيخة سعادة:

ـ « لو مات الآن تبقى مصر فى الوحل زمنا طويلا! بكائى ليس عليه

بل على مصر! الآن فحسب تذكرت أكبر خطيئة ارتكبها فى حياته! لقد كتم أنفاس كل الرجال فلم يعد هناك رجل حقيقى يخلفه! لسوف يتدخل فى حكم بلادنا كل من هب ودب من أسافل القوم فى المنطقة!!».

قلت فى استياء:

ـ «على كل حال ربنا عالم بنا!».

زفرت الشيخة سعادة:

ـ «حالنا لاتسر! أنا التى لم أكن أفهم فى السياسة ولم يكن يخطر على بالى أن أفهم شيئا من أسرارها أصبحت بحكم عشرتى لأهلها أعرف كل شىء فيها!! إننى أقولها ورزقى على الله: كل من يحكمنا اليوم ليس فى دماغه أى نفع للبلاد!! إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون! إننى أقرأ لهم الطالع جميعا! وكل واحد منهم يطلب منى أن أكشف له عن حقيقة شعور الآخر بالنسبة له وما الذى يضمره له وللبلاد؟! إننى لولا التوفيق من الله لذهبت طوعا إلى سراى العباسية من كثرة ما يصيبنى من الذهول من فراغ هؤلاء الناس!!».

صار قلبى يدق يا خال. وجدتنى أسألها:

ـ «وبعد ياستنا الشيخة؟ ما الذى تنصحيننى بفعله فى هذه الظروف الغبراء؟!».

ـ «ضع عينك فى وسط رأسك! كن مع القوى حتى ولو كان مغلوبا على أمره فالقوى مهما غلب على أمره سوف ينتصر!! إمسك العصا دائما من الوسط حتى تكون قريبا من طرفى النزاع فتعرف أى الكفتين

أرجح!! لمصر رب يحميها يا خوى أما أنت فإن لم تكن مراوغا ذكيا تجيد اللعب على جميع الحبال فسوف تدهسك الأقدام!! ولكن أكبر نصيحة أقولها لك يا خوى: إن رآك كلب وأنت تأكل فارم له بلقمة يألفك يصبح حارسك الوفى!! لا تلعب ولا تخاطر بنفسك إلا فى الكبير الكبير وعليك أن تعف عن كل صغير تتركه للصغار! كن كالأسد لا يقبل أكل الجيف ولا يأكل وهو شبعان!!».

حصيفة أريبة والله يا خال. كرامة لها أكاد أصدق أننا نمت بصلة قربى للإمام الشافعى، وإلا فمن أين جاءتها كل هذه الشفافية يا بوى إن لم تكن ورثتها عن جد قديم؟

الشاهد، سافرت الشيخة سعادة فى تلك الليلة لتبيت فى أسيوط فى البيت الذى يطلبها فيه المحافظ حينما يحتاجها القوم حيث يسرع خدمها الموجودون هناك دائما إلى الاتصال بها فى الجبل لتبليغها. وقد علمت أنها ليلتذاك ظلت ساهرة حتى الصباح بجوار الراديو، وبقيت فى أسيوط قريبة من الناس والأخبار..

أما نحن، الشلة الوسخة، فقد إلتقينا فى شقة المنيل عصر اليوم التالى ورحنا نشوف مزاجنا بالحجرين، والتليفزيون مفتوح أمامنا. كنا قد اندمجنا فى الكلام الحماسى حول مشاريعنا التجارية المقبلة وهل تكون ـ بتعبير بربش ـ صناعية أم ترفيهية أم استهلاكية؟ كان رأى بسبوسة أن أى مشاريع من أى نوع فى مصر بالذات مهما نجحت لا تساوى عشر معشار مشاريع الأكل والشرب، فإن أردنا ربحا مضمونا غير ممنوع ولا مقطوع فعلينا التفكير فى افتتاح مطاعم ومقاه ومحلات بقالة ومحاصيل زراعية أو مخابز للحلويات. كان كلامه صحيحا تماما

يا بوى، ولكننا أردنا أن نبحث فى وسيلة لتحقيق مثل هذه المشاريع الأكلوية الشربوية على نطاق واسع وكبير يحقق لنا الأرباح ونحن جلوس فى أعقار دورنا . .

وحينما خفتت حدة المناقشة قليلا وبدأنا نتنبه لشد الأنفاس بعمق، لاحظنا أن شاشة التليفزيون ملآنة بفقيه يقرأ القرآن، ثم بدأنا نتذكر أنه بدأ القراءة منذ وقت طويل جدا يا خال، فالتقت أعيننا على نظرة كأنها نسخة واحدة لمعنى واحد فى نفوسنا جميعا، تنضح بالفجيعة الغامضة يا خال، لأمر ما، نكس غزولى رأسه فى منقد النار فيما يشبه الشعور بالذنب كأن فأله السيئ بالأمس قد تحقق. لهذا ترك ما فى يديه ونهض إلى التليفزيون، حول المؤشر على القناة الثانية فقيه يقرأ القرآن، قلنا جميعا : بس جاءك الموت يا تارك الصلاة، فتحنا الراديو : فقيه يقرأ القرآن يمشى وراء المؤشر على جميع المحطات، نفضنا كل ما فى أيدينا، بقينا مسمرين فى مواجهة الشاشة لا ينطق أحدنا بحرف يا خال. فى لمح البصر يا خال صرنا كالأطفال التعساء ينتظرون صدور الحكم بالإعدام. وأغرب وأطرف شىء لا أنساه يا بوى أننا لحظتذاك شعرنا جميعا بالجوع، فجأة قال بربش : أنا جعت، فقلنا جميعا فى نفس واحد : ومن سمعك، فهرول هندى إلى المطبخ وفى دقائق معدودة تمت تسوية كباب الحلة فنزلنا عليها حتتك بتتك مثل المفاجيع، وفيما نتناول الشاى خرج علينا أنور السادات بنفسه ينعى جمال عبد الناصر للأمة العربية وللعالم. كان وجهه الصدئ صورة بالكربون من محمد بك أبو شناف حتى تحيرت فالحركات هى نفس الحركات، وعوجه الفك السفلى، ونطق الحروف بل والصوت والظل وكل شىء من الملامح

حتى الزبيبة على الجبهة واحدة ولا يمكن أن يكون هذا غير ذاك يا خال . مع ذلك فأنا مرغم على الاعتراف بأنهما شخصيتان منفصلتان يابوى . فإذا كان كل من يعرف الاثنين قد أكد أنهما اثنان فكيف لى أن أزعم أنهما واحد يابوى؟! هناك من يزعم أنه قابل الاثنين فى جلسة واحدة لكننى أشعر أن القائلين بهذا يكذبون لأنى لاحظت أنهم فشارون يبالغون فى إشعارك بأهميتهم، وأنا لا أدقق مع هؤلاء بل أترك كل واحد يفشر كما يشاء لأنى استمتع بالفشر، والفشر ينشط خيالى لكى أفشر أحسن منهم، فهكذا الدنيا يابوى، فشر فى فشر والشاطر من يجعلك تصدقه فى كل ما يقول . .

وه يا بوى، كيف أصف وقع الخبر علينا؟ إنفجرنا فى بكاء صارخ ولطم خدود، لكن الشرارة التى اندلعت فى الخلاء سرعان ما شملت الكون كله أشعلت فيه الصراخ والجعير واللطم وشق الهدوم ودبدبة الأقدام على الأرض. الكون فى زلزال رهيب يا خال، كأن الدنيا كلها قد تيتمت. نزلنا نمشى فى الشوارع تائهين مسلوبى الإرادة والشعور والعقول يا خال. التحمنا بالجموع الضالة التعسة البائسة ، وقد ألقت الجموع ظلالها الكثيفة على الشوارع فسحبت أضواءها واختنق الهواء وخيمت الكآبة كأنما السماء دلقت على الأرض جموعا بلا جذور بلا أهل، تتعرف أقدامها على الطريق لأول مرة . .

عدنا إلى الشقة نفسها فى أواسط الليل، أغلب الظن لنبحث عن شخصياتنا التى فقدناها فى الجموع المتلاطمة. استأنفت الجوزة دورتها. بدأت ظلال من شخصياتنا تتعرف على أجسادنا وتنحاز إليها. وجدتنى أقول لبربش :

ـ « عندك تفسير لكل هذا الهلع الذى رأيناه؟!» .

سحب من الحجر نفسا عميقا ، أتبعه برشفة من كأس البيرة المغرم دوننا يشربها ، ثم قال فى هدوء الفلاسفة :

ـ « الجميع يشعر بالفجيعة طبعا! لأنهم كالأطفال الصغار الذين عودهم أبوهم على أن يفعل كل شىء بنفسه لا يترك لهم أى شىء يشاركون به فى إدارة البيت! فهو ربُّ البيت وكل شىء فيه! هو الذى يمنح ويمنع! لا رجل غيره والجميع عيال حتى ولو كانوا أفضل منه فى كل شىء لا صوت أعلى من صوته! لا كلمة لأحد فى ظله وكلمته تمشى فوق رقاب الجميع!! لا يقبل نقدا ولا مشورة ومن يتقدم بشىء من هذا فهو عدو يجب إبادته فى الحال أو بتره من شجرة العائلة!! وهكذا أراح الجميع أنفسهم وتركوه ينفرد بكل صغيرة وكبيرة حتى الذين اختارهم ليعاونوه يفعلون ما يأمرهم به فى العلن وينقضونه فى السر بأفعال مضادة!! فلما يموت فجأة لابد أن يشعر الجميع بأنهم صاروا فى العراء بعد أن انهدم سقف البيت على رءوسهم!!» .

ثم استأنف الشرب وشد الأنفاس كأنه كان يكلم نفسه أو يفكر بصوت عال . قلت له :

ـ «والعمل الآن يا بربش؟!» .

قال بتلقائية وبغير انفعال :

ـ «العمل عمل ربنا طبعا! جاءت لأنور السادات على الطبطاب!! هو نائبه الأول! سوف يتولى رئاسة الجمهورية مؤقتا إلى أن يحدث الاستفتاء الشعبى! المتوقع طبعا أن الشعب سوف يوافق على رئاسة أنور

السادات! الشعب الذى لم يقل لا طول تاريخه، لن يقولها فجأة لأنور السادات! وحتى لو قالها فإنها لن تصل إلى أسماع القائمين على الاستفتاء!!».

ـ «وما الذى تراه إذن بالنسبة لنا؟!».

ـ «أرى أن نتصرف على أساس أن أنور السادات هو رئيس الجمهورية إلى الأبد! وأن نبلغه من الآن تأييدنا له بكل الصور! هو سوف يكون رئيسا غصبا عن التخين فى البلد! فخلها بجميلة وأعلن مساندتك له من الآن ضد من سيحاولون منافسته من رجال عبد الناصر الذين كانوا قريبين منه وفى حوزتهم كل أسراره وأسرار الحكم والبلاد والناس!! هؤلاء لن يسكتوا بسهولة خل بالك! ليس لأنهم يحتقرون أنور السادات فحسب بل لأن منصب الرئاسة أجل من أن يفرط فيه القريب منه!! ستحتدم المعركة وهنا يجب أن نكون نحن بعيدا حتى نتفرج ونتسلى ونستمتع كبقية الشعب المصرى! إنما نكتفى بإظهار ولاءنا لأنور السادات! صدقنى إن الشعب يمكن أن يختاره بالفعل وبدون حاجة لتزوير لأن فى الشعب فئات كثيرة قوية يمتعها أن يكون رجل كأنور السادات رئيسا للبلاد! وسواء كان هو عبيطا بالفعل أم هو يستعبط ويتدروش لاكتساب حب الناس فإن الناس يهمها أن يكون الحاكم درويشا لأنهم حينئذ سيسهل عليهم توجيهه لخدمة مصالحهم!! غدا سأفكرك بأن هذا الثعلب الماكر هو عبد الناصر مضروب فى عشرة ولكن فى الاتجاه المضاد للثورة!! سيقف وراءه الأغنياء القدامى! العائلات التى ضربتها الثورة ستضحى فى سبيله بالكثير وهو سيستجيب من أول نظرة لمغازلتهم لأنه مصاب بعقدة العائلة! كان

يتمنى أن يكون من عائلة ذات جاه وعزوة وسلطان كعائلة عبد الغفار مثلا فى بلدتهم بالمنوفية!! سوف يفتح صدره لتلك العائلات الإقطاعية القديمة ويحتويها يبسط حمايته عليها لكى يشعر بالنشوة من توافق الأقدار إذ يرى هذه العائلات الضخمة ذات التاريخ قد أصبحت تقف بأعتابه تتمسح فيه تخطب وده وأصبح منها بمثابة السيد ذى اليد العليا والقامة الأعلى!! إسألونى أنا عن أنور السادات فإنى أعرفه جيدا عجنته وخبزته شاركت فى تهريبه ذات يوم قبل الثورة أنا وممرض بالقصر العينى أصبح الآن كاتبا مشهورا فى الإذاعة! وكنا قد عرفناه وصاحبناه عن طريق كاتب مشهور اسمه زكريا الحجاوى لعلكم سمعتم اسمه فى الإذاعة أيضا! ذلك الذى تزوج خضرة محمد خضر الموالدية!! أصيع ما فيكم جميعا لا يساوى سنة واحدة فى حياة أنور السادات ومن هنا فإنه سيعلم الناس كيف تمشى على العجين فلا تلخبطه!!».

كلام بربش عميق يا خال، إنه ولد مخربشاتى يفهم فى أشياء كثيرة وبالأخص فى أنور السادات. خربشته أهم من خربشتى ومن خربشات بسبوسة وغزولى وهندى لهذا يفيد بعضنا البعض فائدة كبيرة، صياغة بربش شملت الحوارى والشوارع السياسية منذ وقت مبكر يا خال، فليس فى البلاد كلها سياسى واحد غير معروف لبربش بالاسم الثلاثى والعنوان وتاريخ الميلاد، بل قد يعرف اسم زوجه وأهله وأخباره العائلية الدقيقة، وهو يصدع رءوسنا كل ليلة بهذه الأخبار، وبمشاريعه الشريرة فى استخدام هذه الأخبار ضد أصحابها ذات يوم قريب، يعرف كم صفقة مشبوهة عقدها هذا الوزير، وكم استفاد ذاك من

عمولات بحكم منصبه، يعرف لماذا أقيل فلان، وهل أقيل أم أنه استقال. وبهذه المناسبة يابوى فقد ظللت وقتا طويلا لا أعرف الفرق بين الإقالة والاستقالة إلى أن عرفتها من بربش العفريت هذا. وما أكثر ما عرفت منه يا بوى. على أننى بعد أن كنت أحاول إسكاته عندما يدير شريط مثالب الوزراء وفضائح مجالس الإدارات أصبحت أناشده أن يستأنف الكلام كلما سكت، ذلك أننى قد بدأت أعرف قيمة هذه الأسرار يا بوى ومدى إفادتها لنا فى تثبيت علاقتنا بأنور السادات.

أما صياعة بسبوسة ـ وهى الأخرى مفيدة جدا فى هذا المجال ـ فإنها صياعة فريدة: يعرف أسرار كل نسوان البلد تقريبا يا خال، وخاصة نسوان الوزراء والكبراء والوجهاء، ذلك لأنه كان مكلفا بمراقبتهن من بعض أزواجهن أو عشاقهن أو بعض الجهات، يعرف متى تقابلت إحداهن مع أحدهم فى المصيف البعيد جدا، وعلاقة المساحقة بين هذه وتلك. يعرف أخبار جميع دور اللهو فى شارع الهرم وشارع عماد الدين، فهذه السينما ملك فلانة وهذا الكازينو ملك الراقصة علانة، ومن الذى يسهر فى منزل الراقصة المعتزلة فلانة، ومن الذى يلعب القمار عند من، ومقدار الخسائر. يعرف عدد صناديق الويسكى التى تم تهريبها لملهى كبير بواسطة فلان الفلانى مقابل مبلغ كذا. يعرف من هى الصحفية المجهولة الداعرة التى نظمت حفلا غنائيا راقصا للضباط فى أنشاص ليلة أن تم ضرب جميع المطارات المصرية فى النكسة المشهورة، ومن هى الراقصة التى أحيت الحفل شبه عارية، وكيف أنها هى التى جلبت بقية الفنانين للترفيه عن الرجال، يعرف أخبار وأسرار الخلافات التى نشبت بين المشير أبو عامر وبرلنتى عبد الحميد، وكيف استولى

عليها المشير وتزوجها رغم أنف المعترضين وعلى رأسهم عبد الناصر. يعرف الممثلات اللائى أرغمهن صلاح نصر رئيس المخابرات على العمل بالدعارة مع بعض السفراء وكبار الزائرين للحصول على معلومات تفيد البلد فى حربها مع العدو. كل هذا وغيره ياخال يعرفه اللعين بسبوسة، غير أنه أثقل من بربش فى الإفضاء بما عنده، ربما لأن مهنته الأصلية كمخبر فى الآداب علمته الكتمان كصنعة يستفيد بها عند اللزوم، لكنه عندما ينفتح يمكن أن تملأ منه مكتبة شرائط كاملة فى الجلسة الواحدة..

أما غزولى يا بوى فصياعته محدودة لكنها مهمة جدا يا بوى. يعرف جميع تجار ومهربى المخدرات على أعلى مستوى، معرفة شخصية، بل لديه أسرارهم الخاصة إذ أنه ـ وهو من المفروض أنه عين الحكومة عليهم ـ يصبح عينهم على الحكومة. يعرف جميع اتصالاتهم بل ويقوم فى أحيان كثيرة بمهمة المرسال بين المهربين والتجار وبين ضباط الحدود ومباحث الأقسام، يتفاوض من أجل تمرير صفقة أو غض البصر عن بيعة، ويأخذ عمولته من الطرفين. يعرف كيف يقوم ضباط الحدود بالاستيلاء على بعض الصفقات بتواطؤ مع المهربين ذرا للرماد فى العيون. يعرف من من كبار مستوردى الأخشاب والسيارات يتخذون من هذه السلعة المستوردة ستارا يخفى الحشيش والأفيون والهيروين. ومن الذى يشاركهم أو يعاونهم من أعضاء البرلمان البارزين. يعرف أن تاجر المخدرات الكبير فلان الفلانى هوالذى اشترى سيارة أحد المسئولين بمبلغ كبير رغم سوء حالتها لكى يستفيد من حصانتها بقية الشهور المثبوتة فى الرخصة باعتبارها سيارة معروفة

لجميع السلطات. يعرف أن محل الأزياء الكبير فى شارع الشواربى تملكه زوجة الوزير فلان وتكتبه باسم خالتها وهى التى تستورد الملابس الأجنبية وتهربها من الجمرك. يعرف ثروات أبناء الضباط الأحرار ورئيس الوزراء وعدد وأنواع المشاريع التجارية المستترة التى تدر عليهم أنهار الفلوس. ولأنه صايع كبير فإنه يعرف مساكن مشاهير الكتاب والصحفيين الكبار ونجوم المسرح والسينما والتليفزيون ويحلف أنه يشاهد الكثيرين منهم عند تجار المخدرات بل إنه كثيراً ما باع لهم بنفسه. كل هذا وغيره يعرفه غزولى الخلبوص مع أن شكله يبدو كأنه لا يعرف السما من العمى. وربما كانت هذه الموهبة هى سر نجاحه يابوى..

أما صديقى هندى المجدع فإن صياعته هو الآخر تبدو سطحية لكنها مع ذلك توقفه على الكثير من الأسرار والأخبار المهمة جدا يا خال. إنه متخصص تقريبا فى معرفة أخبار اللصوص كبارهم وصغارهم على السواء. يعرف كيف يسرق المحافظون وكبار رجال الدولة الأرض الحكومية بتسهيلات وأوراق ملفقة، وكيف يستغلون الفلاحين فى زراعتها، أو المقاولين فى بيعها للبناء، يعرف كيف يستفيد رجال الأوقاف من أموال الوقف التى بلا صاحب على كثرتها. يعرف مزارع الفاكهة التى استولى عليها بعض الضباط الأحرار من قدامى الإقطاعيين فى الشرقية والمنوفية والصعيد، يعرف أخبار الإختلاسات فى محلات القطاع العام والهيئات الغذائية والمؤسسات وكيف يتم تلفيقها لصغار الموظفين الغلابة. يعرف حجم المواد الغذائية النظيفة التى تخرج من مخازن الجمعيات الاستهلاكية إلى منازل المسئولين بالمجان فى حين يقف الشعب فى الطوابير طول النهار ينتظر مجىء ما لا يجىء مطلقا.

يعرف الكثيرين جدا من أمثال الحاج أحمد نوار الدين السنى فى مجالات كثيرة متنوعة. كما يعرف الذين يتعاونون معهم من كبار الموظفين اللصوص. يعرف عدد سيارات الأجرة التى يمتلكها المسئول عن هيئة النقل العام وكيف يتم إصلاحها وتركيب قطع غيارها بالمجان فى ورش الهيئة نفسها. ويقول هندى دائما إنه كان جديرا بأن يرأس مباحث الأموال العامة لأنه يعرف جيدا أين تذهب وكيف يمكن أن يردها للدولة.

حين استعرضنا كل هذه الخبرات يابوى فى قعدتنا تلك عقب وفاة الزعيم الراحل شعرنا بأننا قوة لا يستهان بها يا خال، وأننا إن فشلنا فى التعامل مع أى رئيس أيا كانت شخصيته فإننا نكون غير جديرين بالحياة أصلا. معنى الكلام يا بوى أننا يجب أن نعمل بالقاعدة الشعبية الشهيرة: اللى تعرف ديته اقتله، واختها الأشهر: اللى تغلب به إلعب به. وبما أننا لدينا الكثير من الكروت الصالحة للعب فإننا يجب أن نعرف كيف نلعب بها فى حرفنة وتودك وإلا خسرناها وخسرنا الجلد والسقط.

وهكذا وضع لنا بربش خطته الجهنمية للالتفاف حول أنور السادات فى وقت مبكر. ولقد أوصانى بادئ ذى بدء بأن أنسى بل أنزع من دماغى مسألة المشابهة بين أنور السادات ومحمد بك أبو شناف، لأنها فى نظره غير مجدية من ناحية، ولأن السياسى عموما بحكم طبيعة عمله يمكن أن يكون أكثر من شخص فى وقت واحد، حتى لو ظهر أمامنا بشخصية واحدة من ناحية أخرى. ثم إنه من المصلحة أن نشعر من يعاملنا بشخصيتين أننا لم نفطن للعبته، حتى يتصرف أمامنا بكل

حـظ

انخرطنا فى خطة بربش المحكمة : برقية عزاء باسمى فى وفاة الزعيم الراحل، تحث السادات على حمل الأمانة باعتباره أكثرهم وفاء لبلده وأشدهم خبرة بالسياسة وإلا ما اختاره الزعيم الراحل ليكون نائبه الأول. ثم انهالت البرقيات يا خال بعدد المناسبات التى تفنن بربش فى استقطابها : عيد ميلاد ابنته، ابنه، زوجته، أبيه، عيد زواجه، عيد خروجه من السجن قبل الثورة، عيد عودته إلى الجيش بعد فصله منه. . إلخ أطواق الورد المرسلة لاحصر لها، من أكبر المحلات وأرقى الأنواع يا بوى، وقد نشط بربش فى أمور الدعاية لى بشكل جهنمى يا بوى، فهو تقريبا يعرف تسعين فى المائة من محررى الصحف المصابين بنقاط ضعف كثيرة، يلتقى بعضهم فى البارات، وغرز الحشيش، فى عموم الأماكن المشبوهة. ومادام قد عرف خصالهم ونقاط ضعفهم فقد عرف بالضرورة أثمانهم : فهذا يحتاج لامرأة، وهذا جائع للفلوس، وهذا يخر أمام زجاجة الويسكى أو قرش الحشيش، وهذا يرضى بقليله، ربما بكلمة يا سعادة البيه، أو يمدح فى عبقريته وشرفه. وهكذا يابوى انهالت التحقيقات الصحفية معى دون أن أنطق فيها بحرف

واحد يا خال، عن مشاريع وهمية يجرى تنفيذها لخدمة دائرتى والنهوض بالصعيد الوسطانى، وعن أعمال البر والخير، والتبرعات للجمعيات الخيرية. وفى كل تحقيق صحفى لابد أن يشار على لسانى بكلمتين حلوتين فى حق أنور السادات وتاريخه السياسى الوطنى المشرف.

كنت قد عينت بسبوسة - الذى أصبح أفنديا على درجة عالية من الأبهة والفخامة ويتكلم فى وعى ولباقة أكثر من وزير للخارجية - جاسوسا لنا فى اللجنة المركزية بالاتحاد الاشتراكى، وكذلك اللجنة المركزية العليا، تلك التى لم أكن أعلم عنها شيئا إلا بعد أن ثقفنى بربش سياسيا. ولأن بسبوسة ناعم ولذيذ فقد سهل عليه اختراق جميع الاجتماعات - حتى السرية منها، عن طريق أصدقاء وأعوان من صغار الموظفين الذين تؤول إليهم الأوراق والمحاضر فى النهاية. كان يأتينا كل ليلة بأخبار طازجة ليفاجأ بأن بربش قد علم بها من مصادره الخاصة وكان ينتظر - فقط - تأكيدا لها من بسبوسة..

أبلغنا بسبوسة أن أنور السادات بعد أن كان قد أكد للجنة المركزية العليا أنه سيبقى نائبا لرئيس الجمهورية إلى أن يتم الانتخاب الحر فى وقته الطبيعى أى بعد أن تتم إزالة آثار العدوان الإسرائيلى كما أعلن عبد الناصر فى خطاب عودته بعد حادث التنحى، رجع فى كلامه وطلب اجتماع اللجنة المركزية العليا - المكتب السياسى - وطالب بضرورة إجراء الانتخابات للرئاسة، وطالب بعرض اسمه على الشعب كرئيس للجمهورية، وقد ثار ورثة عبد الناصر بقيادة على صبرى، وتحفظوا على هذا الطلب قائلين إن الشعب لا يحبه وسوف يرفضه

لامحالة وحينئذ تسقط هيبة مجلس قيادة الثورة وتنتهى ثورة يوليو، فأصر السادات على طلبه وقال إنه لا بأس من المحاولة فإن رفضه الشعب قدموا له مرشحا آخر وثالثا ورابعا إلى أن يوافق الشعب. هنا أضاف بربش أنه علم أن الكثيرين من أعداء عبد الناصر فى مصر والأمة العربية ـ وخاصة الإخوان المسلمين ـ هم الذين أوعزوا للسادات بعدم التفريط فى فرصة انتزاعه للرئاسة من ألاديش عبد الناصر الذين ظهر أن معظم الشعب يكرههم لكنه يخاف من بطشهم، إضافة إلى الملوك العرب الذين ما صدقوا أن رحل عبد الناصر فسعوا لاستئصال شأفته من السياسة المصرية ليعود كل شىء فى المنطقة إلى هدوئه الذى كان قبل الثورة. هذه التيارات قوية يا خال ولا يستهان بها مطلقا، فمعها الأموال الطائلة يا خال، ومعها القوة الأمريكية الإسرائيلية الكارهة للشيوعية والاشتراكية، وهى تملك الأسلحة والأجهزة الرادعة الكاشفة فى حين لايملك ألاديش عبد الناصر سوى جهاز المخابرات بجهاز بث الإشاعات، جهاز بث الرعب مع الفقر المادى المدقع ياخال، مع انعدام الأسلحة، ومناورات ومخادعات الاتحاد السوفييتى الجبان الذى لم يكن صادقا فى دعمه لمصر بقدر ما كان يتخذها مقرا لمناوأة أمريكا. تلك هى تحليلات بربش الداهية.

يا خال. والحق يا خال لقد لخبط لى مخى بقدر ما أضاءه، فقد كنت أظنه من عشاق الاشتراكية فإذا به ليس من عشاق أى شىء، وإذا به يقول لى:

ـ «ما يهمنى هو مستقبلنا السياسى وكيف نكون أقوياء نشوف لنا يومين قبل أن نتوكل على الله!! وعلى فكرة يا حسن! إن ظاهرة الحزن

على عبد الناصر التى رأيناها بأعيننا لم تكن حقيقية إلا فى جزء منها!! الأغلبية العظمى وهى الأقوى تكره عبد الناصر كره العمى صدقنى: الإقطاعيون الذين انتزعت أراضيهم! أصحاب الشركات والمصانع والمحلات التى أممت! الأغنياء والرأسماليون الذين وضعوا تحت الحراسة ظلما وعدوانا ليستمتع بخيرهم اللصوص والأفاقون! آباء الجنود الذين قتلوا فى حرب وهمية قادها ضابط حشاش بتاع نسوان! السياسيون والمثقفون والشرفاء الذين جند أبناؤهم كمخبرين عليهم! الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال والعزل السياسى! أعضاء الأحزاب التى حلت وكان لها فى الشارع حضورا قويا من قبل! الطلبة المستنيرون الذين قلمت أظافرهم وحرم عليهم الاشتغال بالسياسة وتم إخصاؤهم وإبطال دور ومفعول الجامعات! حتى التقدميون الذين من المفترض أن عبد الناصر يحقق لهم حلم الاشتراكية يقفون ضده كدكتاتور! وصحيح أنهم اليوم يتزعمون موجة التباكى عليه والإبقاء على تراثه لكن ذلك مؤقت وسببه خوفهم من ضياع ثورة يوليو وعودة البلاد إلى عهد الملكية وهذا بالطبع مستحيل حدوثه!! وإنهم يعملون بمقولة: نار عبد الناصر الثورية الاشتراكية ولا جنة السادات الرجعية! وهذه مقولة غبية لا نفع لها فى السياسة والدليل على ذلك أن معظم القوى التى تملك المال والسلاح والنفوذ فى مصر مدعومة بالعالم العربى المدعوم بأمريكا هى الآن مع السادات وإن لم تظهر على السطح بعد خوفا من بطش رجال عبد الناصر الذين قد يظهر أنهم يملكون قوة سرية مدخرة!! فلا تنس أن الحكم كان محوطا بالسرية لأنه حكم الفرد وأذنابه وليس حكم الشعب كما كان المرحوم يزعم!».

ـ «والخلاصة يا بربش؟!».

ـ «بكل صراحة كان المرحوم كابوسا والناس كانت تبكى من الفرح لا من الحزن! أو قل من الحزن على المستقبل الغامض والورطة المهببة التى أوقعهم فيها المرحوم بموته المفاجئ! إن الموت فى حد ذاته هزيمة مضاعفة!! هزيمة بهزيمة فمن الأفضل أن يراجع الشعب نفسه فى هذه الثورة من أساسها ويعمل على الخلاص منها! وهذه هى الأرض القوية التى يقف عليها أنور السادات ونحن معه!!».

ـ «هل سيفرط السادات فى الثورة التى صنعته؟!».

ـ «الثورة عنده كانت لاستكمال الأبهة كما قلت لك من قبل يحقق بها النفوذ والعزة الشخصية! فإذا كان هذا سيتحقق له من مصادر أخرى فلتذهب ثورة يوليو إلى صفيحة القمامة غير أنه لن يفعل هذا مرة وحدة إنما سيظل مستمسكا فى الظاهر بشعارات الثورة كأسباب شرعية لبقائه إلى أن يثبت أقدامه!!».

ـ «وما الموقف الذى يجب أن أتخذه غدا فى البرلمان؟ ففى جلسة الغد سيجرى الاستفتاء على ترشيحه!».

ـ « لابد أن تكون على رأس الأصوات المؤيدة له!!».

صدقت نبوءة بربش يا بوى وتم انتخاب أنور السادات بالإجماع فى السادس عشر من أكتوبر رئيسا للجمهورية.

وكانت هذه صدمة كبيرة لألاديش عبد الناصر من أمثال على صبرى وسامى شرف وشعراوى جمعة وغيرهم من أعضاء المكتب السياسى الذين تمكنوا من بث الخوف فى دراويش عبد الناصر ممن

يتخذون من الاتحاد الاشتراكى سندا للنفوذ والوجاهة .

وقد نقل لنا بسبوسة أن أعضاء المكتب السياسى بثوا هذا الخوف فى الدراويش والمريدين ليصبح لديهم ذريعة يواجهون بها السادات لكى يحكموا هم من خلاله يحولوه إلى طرطور وحسبه لقب رئيس الجمهورية يرضى به غروره أما الحكم الفعلى فيكون للمكتب السياسى . فقال بربش إن عشمهم فى هذا عشم إبليس فى الجنة .

وقال غزولى : ـ «لى أصدقاء فى مباحث أمن الدولة والمخابرات العامة يقولون لى أن ألاديش عبد الناصر يفكرون جديا فى اغتيال أنور السادات بخطة جهنمية يجرى الترتيب لها حاليا» .

فاعتبرنا هذا الكلام مجرد خرف ولم نعلق عليه رغم أننى يابوى شعرت نحوه بشىء من الاهتمام نظرا لتزايد خطر السادات والتأييد الشعبى له وقد يدفعهم هذا إلى التعجيل بالخلاص من عدوهم قبل أن تبرد دماء عبد الناصر فى عروق المؤيدين لهم . .

سجلنا اسمنا فى دفتر الزيارات برئاسة الجمهورية ، تقدمنا بطلب لمقابلة الرئيس لتقديم التهنئة وللتحدث معه فى بعض الأمور . المفاجأة كانت عظيمة يا بوى وافق السادات على هذه المقابلة وحدد لها موعدا بعد ساعات قليلة .

فى تلك الليلة سهرت الشلة كلها محتاطة بى تلقننى ما ينبغى أن أقوله للرئيس وما أرد به إذا سألنى عن كذا وكيت . كل واحد من جهة راح يصب فى رأسى أطنانا من الكلام كأننى سأمكث فى مقابلة الرئيس عشر سنين . أو كأننى مطلوب منى مناقشته فى مستقبل الكون كله يا

بوى .

رغم ضيقى بكل ما سمعته وشعورى بعدم قدرتى على تذكره أثناء المقابلة ، فوجئت فى الصباح بأننى استوعبت كل ما قيل . فرغم تخانة مخى الصعيدى التى يعيروننى بها فهمت جميع عبارات بربش ومصطلحاته وصرت أرددها بكل طلاقة ووعى ، صرت أتكلم بأسلوبه ومفرداته من قبيل : بيد أن ، مطلقا ، طرأ ، حاشا وكلا ، عن بكرة أبيها ، برمتها ، الشارع السياسى أزمة الشرق الأوسط ، التيارات التقدمية الإلحادية ، ماركس ، إنجلز ، فائض القيمة ، الصراع الطبقى ، مستقبل التيتوية ، عدم الانحياز ، التفوق النووى ، شد البساط من تحت الأقدام ، سحب الثقة . . . إلخ إلخ ، بل استطيع الهمبكة بالكثير من الكلام فى شرح هذه العبارات إذا ما وقعت فى مأزق حرج . .

قابلت الرئيس يا خال . كان جسدى كله ينتفض ، أحاول السيطرة عليه بكل قوة . وكنت واثقا أن هذه الرهبة مصدرها الجو المحيط بالزيارة للقصر وأنها ستنتهى بمجرد رؤيتى للرئيس لأن الشبه الكبير بينه وبين محمد بك أبو شناف سيخدمنى فكأننا أصدقاء قدامى .

كان اللقاء فى بيته بجوار الشيراتون ، وكان الرئيس يرتدى بذلة فاخرة كأنه المانيكان يا بوى ، شياكة لا مثيل لها يا بوى ، عطور نفاذة . وكنت بدورى قد ارتديت بذلة تضارع بذلته فى الفخامة من مجموعة البذلات الفاخرة التى اشتريتها من شارع الشواربى ، مع قمصان من الحرير الطبيعى وأربطة عنق من أشهر الماركات العالمية ، ومجموعة أحذية يستخسر الواحد المشى بها على الأرض ولو مفروشة بالبساط .

خلعت العمامة وصففت شعرى عند الكوافير مساء أمس ، ودربت

نفسى جيدا على نسيان الزى الجديد حتى لا أرتبك وأبدو كمحدث نعمة. قالت الشلة إننى أبدو مثل قدامى الباشوات، وذهبوا ينتظروننى فى استراحة الشيراتون . .

بعد انتظار حوالى خمس دقائق فى الصالون شربت خلالها جرعتين من كوب الليمون المقدم لى فور دخولى، أقبل الرئيس نحوى فانتفضت واقفا، هرولت نحوه لمقابلته متوقعا أن يفتح حضنة لأرتمى فيه، لكنه يا بوى كالنخلة المصلوبة، فيما عدا وجهه المسترخى بابتسامة عريضة مشرقة. مد ذراعه الطويلة، فقبضت على يده صرت أهزها بحرارة، فتستجيب يده بحرارة أشد، ثم أشار لى بالجلوس، فجلست على أقرب كرسى له بعد أن جلس هو أولا . . .

من لحظة وقوع بصرى عليه يا خال، أيقنت أننى أمام محمد بك أبو شناف الحميم لى لكن ملامح وجهه، طريقة سلامه علىّ، ثم أمره لى بالجلوس، وقوله: أهلا وسهلا شرفت، كل ذلك كان محايدا تماما يا خال، وصادر عن شخص لايعرفنى على الإطلاق من قبل. ثم أنه وضع ساقا على ساق، وأعاد الترحيب:

ـ «تشرب قهوة معى؟!».

ـ «يزيدنى شرف يا سيادة الرئيس!».

ـ «مضبوطة؟!».

ـ «نعم يا سيادة الرئيس!».

فصفق بيديه تصفيقة خفيفة، فظهر السفرجى ذو العمامة المرتفعة جدا والوجه الأسود، عاجله الرئيس قبل اقترابه:

ـ «مضبوطتان» .

انحنى السفرجى وخرج : قال سيادته :

ـ «هيه! ما الأخبار؟!» .

انبريت أخطب خطبة حسدت نفسى على قدرتى فى ارتجالها . ويظهر ياخال أن البنى آدم منا عنده قدرات كبيرة لا يعرفها ولاتبين إلا فى الزنقة . هنأته وهنأت الشعب المصرى والعرب وكل شعوب عدم الانحياز وكل المقهورين فى الأرض . أعربت عن سعادتى وسعادة كل هؤلاء برئاسته الميمونة . دعوت الله أن يقيه شرور ألاديش ودراويش عبد الناصر . وأن يحميه من الشيوعيين ، ومن خبث الصهاينة الأشرار .

كررت أننى بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن أهل دائرتى نتمنى له النصر المؤزر ونضع أنفسنا بكل ما نملك تحت تصرف سيادته .

صار هو يتابعنى بهزة من رأسه فى إعجاب ورضا وامتنان ، مع ابتسامة كبيرة والبايب ـ نفس بايب محمد بك أبو شناف ـ بين أسنانه البيضاء الناصعة ، ثم فوجئت به يسألنى عن اسم دائرتى وعن موقعها بالضبط من خريطة الصعيد وعن حالة الأمن فيها ، وحالتها الاقتصادية والاجتماعية بوجه عام ، جعلت أحدثه فى كل ما طلب الاستعلام عنه حديثا مستفيضا .

استمع لى فى شغف وهدوء وروية ، لم يبد عليه مطلقا أنه على علم سابق بأى من هذه المعلومات . فأيقنت يا خال أننى بالفعل أمام حضرة الرئيس وليس محمد بك أبو شناف ، وأن هذه الشخصية تختلف عن تلك اختلافا بينا رغم تطابقهما فى الشكل والطول والصوت والعادات

ولهجة الكلام. كدت أعتقد أنهما توأم، لولا أن ذلك ليس موجودا فى تاريخ السادات.

ثم إنه شكرنى على هذه الروح الطيبة الشجاعة التى تتسم بها شخصية الصعيدى بوجه عام، وفى منتهى الرقة أبدى ملاحظة بسيطة استشفها من كلامى إذ قال إنه يهمه أن يوضح لى نقطة بسيطة ربما كانت غائبة عنى وعن البعض من أبناء شعبنا الطيب الأصيل، تلك هى أنه ـ فى الواقع. يحب ويحترم عبد الناصر، وأنه ماض على طريقه بإذن الله، غير أن له طريقته الخاصة فى الحكم. ثم سألنى:

ـ «وبالمناسبة ما هى الأخبار التى تسمعها عن ألاديش عبد الناصر هؤلاء كما تسميهم؟!».

أدليت بكل ما عندى من تقارير سرية وعلنية، جميع ما أخبرنى به بسبوسة وبربش وغزولى وهندى، حتى الإشاعات المتطرفة حكيتها له باعتبارها معلومات.

وسعدت بأنه استمع لى يا خال فى صبر واهتمام. وكان الدفء ينبعث منه حارا غازيا، فكأننى جالس إلى أخى الأكبر فعلا، إذ يميل نحوى ويهمس متسائلا أو مستفسرا عن شىء، موحيا لى بأن أخفض صوتى، فأخفضه إلى حد الهمس الحميم، مما أشعرنى بأننا صديقان فى حالة ود، أوحى لى ياخال! أنه يبادلنى الأسرار، والصفاء بمجرد نطقه لعبارات من قبيل: أعرف يا حسن! أنا لست غافلا يا حسن! سوف ترى عاقبة الشر والخيانة يا حسن! ربنا على الظالم يا حسن! المهم أن نضع يدنا فى يد كل الشرفاء يا حسن لخدمة مصر وانتشالها من الكرب! ادع الله يا حسن أن يوفقنا فى خدمة هذا الشعب المسكين! فى اشباع

الجياع. وسيادة القانون! خلك على اتصال بى يا حسن! مكتبى مفتوح لك ولكل الناس الطيبين! مع السلامة يا حسن! شرفت!!..

هذه العبارات يا خال أقنعتنى بأننى فى حضرة ولى من أولياء الله الصالحين، وأنه مثلنا يتحدث ويفكر كما نتحدث ونفكر. قل إننى أحببته يا خال، آمنت بزعامته، وعقدت النية على أن أكون من رجاله المخلصين..

أثناء خروجى من البيت متجها إلى استراحة الشيراتون لم أفلح فى طرد شبح محمد بك أبو شناف الذى شعرت أنه كثيرا ما كان يطل من حديث الرجل فى لمحات خاطفة، صار يلطشنى فى رأسى فيخيل لى كأن الحرس الجمهورى المبثوث حولى سوف يضبطنى متلبسا بالمقارنة بين الرئيس وشخصية كهذه.

رأيت الشلة تتحلق مائدة بجوار حمام السباحة. ضحكوا ضحكا عميقا لرؤيتى، هتفوا فى نفس واحد الحمد لله، فاستربت فى لهجتهم يابوى.

صمموا على الغداء هنا قلت: وماله، حلاوة مقابلتى للرئيس. وفيما أنا منهمك فى دفع فاتورة الحساب الحراقة قال بسبوسة ـ أغلب الظن ليصرف ذهنى عن استهوال المبلغ ـ:

ـ «ألم تر جدول مواعيدك؟!».

ـ «لا!».

قال بربش:

ـ «غدا بإذن الله نحن مدعوون على العشاء فى منزل ضيفنا القديم الحاج أحمد نوار الدين السنى!».

أخذتنى المفاجأة يا خال، فهذه أول مرة أدعى فيها إلى بيت الحاج أحمد نوار الدين السنى وأنا فى ثوبى الجديد بشخصيتى الجديدة، فكيف ترانى سأتصرف حيال مأزق كهذا يا بوى؟! قعدة الحاج أحمد نوار الدين السنى عرفتنى كصبى غرزة، مجرد نفر من أنتن اللصوص يقوم بخدمة البكوات يمسك لهم بالجوزة، هذا واقع ماثل لم يمض عليه وقت طويل، فكيف أذهب إليها الآن وأنا عضو فى البرلمان ولى خدم وحاشية وسائق وهيئة مكتب وسيارة ملاكى وبطاقات مطبوعة باسمى!! وهل ترانى سأجلس بين البكوات حسب وضعى الآن؟! أم أن أصلى سيغلب ويعود بى رغما عنى إلى وضعى القديم؟ ومن هم البكوات الذين سيحضرون حفل العشاء يا ترى؟

يظهر يا خال أننى فكرت هكذا بصوت عال، لأن بربش رد فى الحال قائلا:

ـ «المدعوون ليسوا غرباء عنك! إنهم نفس الوجوه التى تعرفها: محمد بك أبو شناف (وانفجرت ضحكة صاعقة لفتت إلينا الأنظار بكثير من الاشمئزاز والاستنكار إذ كانت بالفعل سوقية يا بوى» والشيخة سعادة! وحسن بك عضو مجلس قيادة الثورة! والحاج قدرى! والمقدس زخاروس تاجر الآثار والمعلم عطاطس وحازم وأصدقاؤه وبقية الناس الهردبيس! المناسبة طبعا هى عيد ميلاد ابنته! غير أن الحفل هذه المرة كما يقول سيكون على القد وليس مثل كل سنة!!»

لمستنى هذه العبارات الأخيرة. وجدتنى أصيح :

ـ «أ. . . أ. . . أ. . لماذا على القد هذا العام بالذات؟ .

قال بسبوسة كأنه يفسر شيئا فى غير حاجة لتفسير :

ـ «السبب واضح : الرجل يئس من الحفلات الواسعة!! الهدف منها لا يتحقق أبدا!! فسلم أمره لله وقال لا داعى للتكاليف الباهظة!!» .

ـ «وما هو هذا الهدف الذى لايتحقق يابو العم؟!» .

ـ «البنت عانس كما تعلم! فرغم جمالها الصاروخى ورغم ثراء أبيها الفاحش لم يتقدم لها العريس المناسب!! كانت حفلات عيد الميلاد هذه كمصيدة للإيقاع بعريس ترضى عنه البنت ويوافق مزاج الحاج! فالرجل وابنته لديهما اعتقاد بأن كل من يتقدم لها ـ وهى الوحيدة ـ لابد أن يكون طامعا فى ثروتها الكبيرة التى سترثها!! البنت نفسها تضع شروطا معقدة فيمن تتزوجه! منها أن تحبه وأن تتأكد من أنه يحبها لشخصيتها كانت النتيجة أن تعقرب أمر زواجها! كثر الخطاب دفعة واحدة وانفضوا دفعة واحدة أيضا!! على فكرة! هذا هو السر فى أن الشيخ السنى يكثر من دعوة الشيخة سعادة لعلها تنجح فى عمل سحرى يفك عقدة ابنته!!» .

ـ «انتظر هنا يا بسبوسة! كيف تتأكد البنت من حب شخص أو عدم حبه مادامت هى محبوسة فى البيت وليس لها علاقات كما أنها ليس لها عمل تحتك فيه بالشباب؟!» .

شخر بسبوسة شخرة خافتة لم يسمعها لحسن الحظ أحد سوانا :

ـ «من قال إنها محبوسة يا سعادة البك؟! إنها أولا تخرجت فى الجامعة الأمريكية وتجيد عدة لغات إجادة تامة يمكن أن تعيش فى الخارج بدون أى مشاكل!! ثانيا هى عضو بارز فى نادى الجزيرة وسيارتها البويك مركونة دائما أمام النادى! وتنزل حمام السباحة باستمرار! ومشجعة كبيرة لفريق النادى الأهلى لكرة القدم وتدفع للاعبين مكافآت فوز وتعزمهم فى كل مناسبة! ولها صداقات قوية بين جميع كبار الفنانين بجميع مستوياتهم وألوانهم! ولعلمك فهى على علاقة وثيقة بكثير من الأميرات العرب تعزمهن ويعزمنها باستمرار وتعرف بدلا من الشاب ألف شاب!! أما أن تعطى مفتاح قلبها ومفتاح خزينة أبيها لأحد فهذا هو بيت القصيد! فهمت يا سعادة البيه؟!».

قال هندى بهدوئه المعتاد، وثلاثة أرباع كلامه دائما غمز بالعينين والشفتين والحاجب واليدين، إذ يبدأ العبارة ويكملها بالغمز والحركات.

ـ «نسى بسبس أن يقول لك: إن بعض نجوم الفن اللامعين جدا جدا تقدموا لها! لكنها! كما تقول: إنها هى! هى المشكلة! والمشكلة هى! أخذت بالك؟ العقدة كلها فيها! دماغها! تعرف؟ دماغ مقطوش كدماغ أبيها بالضبط! وللعلم أقولها ورزقى على الله! هى ليست! أقصد طبعا تصور؟ جاءنى شعور بأننى سأقبل الحاج أحمد نوار الدين السنى فى شفتيه! هى جميلة طبعا ما قلت فى ذلك شيئا! إنما دمها! هو نفس دم الحاج! والحاج يمكن أن يكون خفيف الظل ولكن دمه على امرأة؟! إسمح لى!!».

ضحكنا فى مرح. قال بربش بلهجة حكيمة رصينة!

ـ «سيبك من كل هذا! البنت سوقها واقف لما يشاع عن علاقة محرمة بين أبيها وبينها! أستغفر الله العظيم يا جماعة!! أنا شخصيا لست متأكدا!! وما أستطيع تأكيده هو أن البنت مصابة بعقدة اسمها عقدة أليكترا قرأت عنها كثيرا وفهمت أنها معروفة للأدباء وأطباء النفس!! مشهورة!! ومعناها أن البنت تعشق أباها أو أخاها نسبة لشخصية فى مسرحية عالمية اسمها اليكترا كانت هكذا والله أعلم!! وفى ظنى أن الحاج وإن كان بريئا من الانس فإنه مسئول بشكل أو بآخر عن تنمية هذه العقدة فى نفسية البنت فقد أغدق عليها عطفا مبالغا فيه لأنها وحيدته ويتيمة من أم كان يقدسها لأنها صاحبة هذا العز الذى هو فيه وهذا البيت فى الأصل بيتها! البنت الآن عمرها فوق الثلاثين ولا ترى غيره أمامها! ومع ذلك تبدو كفتاة فى الاعدادية!!».

علق بسبوسة بخبث شديد:

ـ «والحاج هو الآخر عنس ولم يجد من تتزوجه رغم أنه حاول كثيرا من أجل انجاب ولد يرث ثروته! كل النساء اللاتى تقدم لهن أيام الشقاوة كن يقبلنه فى الفراش ويرفضنه كزوج!! إنه فى الفراش دقرم جبار! لكن النساء مدربات على اكتشاف الرجل البسكوتة! فالرجل البسكوتة أحسن من يضاجع! وذوق الحاج يرميه دائما على نوع معين من نساء الذوق القديم اللائى لا يعجبن ابنته ولا توافق عليهن!! يموت فى اللحم الكثير! والملحمات يفضلن ابتزازه بدلا من وجع الدماغ مع ابنته! فابنته هذه يكفيك شرها! أكبر متسلطة شفتها فى حياتى والحاج لايخاف إلا منها!!».

قرفت والله يا خال من هذه الشلة الوسخة ولد الأبالسة، صحت

فيهم بأعصاب متوترة :

ـ «المهم الآن ياولد الأبالسة هل سنروح الحفلة؟!» .

قال بربش فى حماسة :

ـ «طبعا! نحن أول من يروح!!» .

ـ «حلو! هل سنكون بكوات هذه المرة أم ياترى سيصر البكوات على معاملتنا القديمة كخدم وألاديش؟!» .

قال هندى ساخرا :

ـ «من فات قديمه تاه!!» .

وقال غزولى :

ـ « اللهم علّى مراتبنا ووطى نفوسنا!!» .

وقال بسبوسة :

ـ «الناس على دين ملوكهم يا حسن بك! مثلما تفعل سنفعل!!» .

وهتف بربش فى انفعال وجدية ، مقطب الجبين :

ـ «ما هذا الكلام الفارغ؟ سنحضر كبكوات طبعا! نضع أرجلنا فى عين التخين ونطلب من يخدمنا! نحن لابد أن نروح لنشعر ببكويتنا! نفرضها!! المثل يقول : أصلك وقتك! ونحن الآن فى وضع مختلف لقد محونا الماضى بأستيكة! والحاج نفسه لابد أن يكون واعيا بهذا من قبلنا!! وإن لم يفطن نفطنه غصبا عنه!! من فيهم سيكون أشيك منك؟! سيارتك أفخم!! والأهم من ذلك معك حاشية ورجال!

وقابلت رئيس الجمهورية شخصيا وتحدثت معه كأصدقاء! أنت يجب أن تكون نجم الحفل أنسيت الدرس الذى علمته لك؟ تصرف دائما كواحد من كبار رجال الدولة المتمتعين بالحصانة!!».

ـ «تشكر يابو العم! أنا فعلا يجب أن أتذكر هذا دائما!! خلاص يا بوالعم! نروح الحفل غدا كبكوات!!».

فى مساء الغد كنا ـ أنا وولد الأبالسة ـ على سنجة عشرة. لبست بذلة كحلية اللون غامقة من الصوف الهيلد المعتبر على قميص لينوه الشوربجى زهرى اللون بياقة صلبة، ورباط عنق قرمزى اللوم عليه رسوم زخرفية رصينة مشبوك بدبوس من الذهب الخالص.

أما الحذاء فإيطالى الصنع يلمع كالمرآة المصقولة رغم سواده الفاحم. كل ما كان يضايقنى هو منظر أصابع يدى بما يتراكم عليها من صدأ خشن لم تفلح الليفة فى تنعيمه. كذلك كانت شياكة الشلة كلها، حتى أن صياع مصر عتيقة الذين يعرفون أصولنا ظهر الانبهار الشديد فى عيونهم فانحنوا لنا فى تبجيل، وتلك هى الدنيا يا بوى، مظاهر فى مظاهر.

أوراق السر الأصغر

الولد بسبوسة الدقرم عينه ثاقبة طول عمره. لاحظ ونحن نقترب من بيت الحاج نوار الدين أن الجو فيه شيء غير طبيعي: ثمة سيارات سوداء تركت في زوايا مظلمة تطل من وراء زجاجها عيون متلصصة متفحصة وشبان في ثياب بسيطة يقفون في زهو ولا مبالاة مفتعلة يقول منظرهم: نحن مهمون، يحتلون النواصي وحول البيت وسرادق البضائع - تكاد عين الواحد منهم تستوقفك تشدك من قفاك، لا لتستعلم عن شخصيتك وتستطلع هويتك بل لمجرد أن تقول لك. نحن هنا...

في مدخل البيت، ذلك الممر الضيق القصير المؤدي إلى الباب الرئيسي وقف ثلاثة أشخاص لم نرهم من قبل ولا نعرف عنهم أي شيء مع أننا نعرف كافة المتصلين بالحاج سواء من العملاء أو اللصوص أو السماسرة أو البلطجية أو الأصدقاء.

كانوا على شيء كثير من اللباقة والمرونة والفهلوة، يوهمون كل داخل أنهم من ألاديش الحاج أوقفهم هنا لإدخال المدعوين فحسب ممن

يحملون بطاقة مطبوعة باسمهم، واحتجاز كل ذى شكل مريب .

كانوا ـ تقريبا على وعى بكل داخل، ينادون البعض بأسمائهم مسبوقة أو متبوعة بلقب : بك أو باشا .

ربك والحق لم أسترح لهذا الجو ـ بابوى . بالفهلوة شعرت أن ولد الأبالسة من الشلة الوسخة يعرفون حقيقة الأمر ولا يريدون كشفها لى لسبب من الأسباب، فلربما وقر فى أذهانهم أننى لو عرفت السر الذى يعرفون فقد أرتبك أو تنهار شخصيتى حيث كثيرا ما يشعروننى بأن لهم الفضل فى تلفيقها بنجاح يشهد ببراعتهم .

كنا نمشى بقوام مشدود ووقار يليق ببكوات أصلاء : بربش على يمينى، وبسبوسة على يسارى، وغزولى وهندى خلفنا لزوم الحرس والتأمين متعمدين إظهار ذلك المظهر للعيان سيما وأن هندى كان بارعا جدا فى تقليد دور الياور أو البودى جارد المطلوب منه حماية شخصية كبيرة . همست لبسبوسة :

ـ «ماذا فى الأمر يا بسبوسة؟! المسألة فيها سر! ويظهر لى أنك تعرفه!!» .

فبادر بربش بلهجة من يطمئن طفلا متوجسا :

ـ «بالعكس! الأمر واضح ومفهوم! فمن بين المدعوين عضو وربما أكثر بمجلس قيادة الثورة! ومن المؤكد طبعا أن محافظ القاهرة ومحافظ الجيزة مدعوان! ولو شغلت مخك الصعيدى فإنه يقول لك إن المدعوين فى مثل هذه الحفلات الكبيرة هم دائما أشبه بالمجاميع المرتبطة ببعضها! بمعنى أنك إذا دعوت فلانا فلابد أن تدعو بقية الطاقم الموازى له فى

الأهمية! يعنى سيكون هنا بالضرورة مدير الأمن ومساعدوه ورجاله! وعلى كل ماذا يهمنا؟

رأسنا برأس الجميع هنا! أنت أيضا طاقم! فبما أنك عضو فى البرلمان، وصاحب أعمال فلابد أن يرافقك رجالك!!».

رفع يده بالتحية العابرة للثلاثة الواقفين، بحركة غاية فى الرصانة المتقنة لا يفعلها إلا كل شخصية خطيرة ذات نفوذ. بذلك ردوا عليه فى احترام وحماسة كبيرين:

ـ «أهلا يا افندى! شرفتم! تفضلوا!!».

تقدمنا أحد الأدلاء إلى الطابق الثانى حيث الردهة الكبيرة المستطيلة العريضة المعدة فى الأصل لمثل هذه الإحتفالات حيث ترتفع أرضها فى ركن منها بما يشكل مسرحا. جعل الدليل يرشدنا إلى الأماكن المخصصة لجلوسنا وفقا لترتيب محكم.

المقاعد أفخم من مقاعد سينما الدرجة الأولى، سمعت أن شركة متخصصة تأخذ الحفل من بابه مقاولة، من المقاعد حتى العشاء والحلويات وجميع أنواع المشروبات. جلسنا متفرقين يابوى، أنا فى مقدمة الصف الثانى بجوار وزير الداخلية مباشرة، فى حين جلس رجالى فى صف يبعد خلف ظهرى بحوالى عشرة صفوف.

أكون كاذبا يا خال لو قلت إننى لم أرتجف من وزير الداخلية. تصور يا بوى، لم أرتعب من جلستى مع الرئيس وارتعبت من وزير الداخلية وكتفى تلامس كتفه وفخذى يكاد يلتصق بفخذه. كنت أشيك منه بكثير جدا، ومع ذلك فقد تجمع كل خوفى الأزلى من البوليس

وكرهي الشديد له وانتصب واقفا فى جوفى كعود الحديد فى كير الحداد المشتعل . .

تذكرت فى الحال نصيحة بربش : أنت حيث تضع نفسك بشرط أن تكون قويا من داخلك . عند ذلك اصطنعت كأننى لم أكن قد انتبهت للوزير أثناء جلوسى بحكم التهائى فى الزحام والأضواء والحركة الصاخبة على الحلبة المرتفعة ، وها أنذا بدأت أتبين ما حولى ، و :

ـ «أهلا يا فندم فرصة سعيدة! لامؤاخذه! العتب على النظر ! !» .

بكل أريحية واحترام هز الرجل رأسه فى امتنان :

ـ «أهلا يا حسن بك! إحنا الأسعد! !» .

أخرجت علبة السجائر الأجنبية الطويلة ماركة دوموريه ، ثم قدمتها له :

ـ «سيجارة حضرتك !» .

ـ «شكرا!» .

وأطفأ عقبا كان بين أصبعيه ، فى طفاية واقفة بين كل مقعدين ، ثم تناول سيجارة من علبتى . وبسرعة أخرج ولاعته الرونسون البيضاء و . . تك أشعل لى ، ثم له . .

فجأة رأيت عبد الحليم حافظ واقفا على الحلبة ، فضجت القاعة ضجيجا لا مثيل له يا بوى صياح وصفير وهياج وزغاريد مدوية ، شكرهم عبد الحليم ممسكا بالميكروفون فى زهو حبيب ، وقال إنه رغم مرضه وانشغاله لم يطاوعه قلبه فى عدم الحضور وأنه ـ بعد إذنهم وإذن

الآنسة العزيزة ـ سيغنى أغنية واحدة يختارونها فضج الحضور بالطلب حتى استحالت معرفة ما يطلبونه ، لكنه هو الوحيد الذى عرف أنهم طلبوا أغنية : زى الهوى ، إذ سرعان ما شوح بذراعيه للفرقة الموسيقية فانسابت على أوتار نغمات زى الهوى يا حبيبى زى الهوى وآه من الهوى يا حبيبى آه من الهوى . . يا حبيبى .

صارت القاعة تصاحبه بالتصفيق على الواحدة ، وصار هو يعيد ويزيد ويترنم حتى استغرقت الأغنية نصف ساعة كاملة .

لوح بيديه بالتحية فالتقته الآنسة وهو يهم بالانصراف ، احتضنته محتفظة بمسافة على قدر الحرج ، فقبلته على خديه ؛ رشقت على صدره جعرانا فرعونياً مطعما بالأحجار الكريمة بالغ الجمال ، فمال عليها قبلها فى خديها ، ثم انصرف وسط تهليل وتصفيق وصفير . . بعده طلعت نجاة الصغيرة فغنت !وصفوا لى الحب وأما غريبة ، وتألقت فعلا يا خال .

ثم توالت النمر ، وكلها دسمة مبهجة : محمد رشدى مع الراقصة سهير زكى ، على نغمات عدوية وآه ياليل يا قمر ، محمد قنديل مع الراقصة نجوى فؤاد وأغنيتى جميل واسمر وأبو سمره السكرة ، عبد اللطيف التلبانى وبرج الجزيرة الله على سحرها ، ماهر العطار وبلغوه ، ومحمد العزبى ومواويله ، فايزة أحمد ويا أمة القمرع الباب ، عادل مأمون وياللى مالكش حبيب بعدى تعالى هنينى وحدى ، شادية وعلى شط النيل يا حبيبى ، عايده الشاعر أيوه أه ، ليلى نظمى وع الزراعية يا رب اقابل حبيبى ، أما شكوكو فقد أكل الجو كله يا بوى ، وكان الحاج قد استلمه بمجرد وصوله فأرسله إلى القمرة العليا حيث عجن الصبيان

دمه بالحشيش الصافى، ونزل منها مرتديا الجلابية والطوطور، متحزما بشـال، وهات يا رقص ويا تنكيت ومـواويل فكاهيـة وحـوار مع الأراجوز. . بعده انصرف الكثيرون، صفصفت القاعة على الصفين الأماميين وبدأت فرقة موسيقية أخرى تدوزن أوتارها استعداداً لوصلة سيد مكاوى. .

أثناء ذلك حاذانى الحاج نوار الدين ولكزنى، ثم غمزنى بأن أتبعه، فإذا هو يصعد بى إلى القمرة العلوية، فوجئت على آخر سلمة بأننى وحدى، فهممت بالنزول طالبا رجالى، فلكزنى بلهجة مفحمة حازمة:

ـ «لا تكن مخلولا!! هذه قعدة سرية وخاصة جدا!! ولولا علاقتك بالشيخة سعادة وكونك برلمانيا مادعوتك إليها!! ولكن اطمئن فرجالك هم أولادى كما تعرف وقد طيبت خاطرهم وشرحت لهم الموقف بوضوح وصراحة فتقبلوه عن طيب خاطر!! هم الآن سابحون مع الويسكى المعتبر وسيد مكاوى! خش خش!!».

دخلت يا بوى. محمد بك أبو شناف ـ تانى(! فى المواجهة كالعادة، تحلف اليمين يابوى كدت أهتف صائحا: أهلا سيادة الرئيس. هو بعينه يابوى الخالق الناطق، ولولا أن الطاقية الشبيكة على رأسه، والجلباب السكروتة الأبيض، والعصا الأبنوس بجواره، كل ذلك يشهد بأنه فلاح قادم لتوه من العزبة، لا يمكن أن يكون هذا العمدة الريفى القح هو نفسه ذلك البك المانيكان الذى استقبلنى بالأمس فى قصره بجدية هائلة وملامح وجه محايدة تماما.

إلتعشت ملامح وجهه بمجرد رؤيتى، وبنفس الصوت المألوف

صاح :

ـ «من ؟ حسن؟ معقول؟ يا أرض احفظى ما عليك! ألف مبروك يا سيادة النائب! ألم أقل لك تشجع وافعلها؟ ها أنت فعلتها ونجحت! مليون براوة عليك! لا أحد أحسن من أحد!!» .

سلمت عليه بحرارة، وعلى ذلك المدعو حسن بك ذى اللحية السكسوكة والوجه المتجهم الذى سبق والتقيته فى استراحة القناطر. وكانت الشيخة سعادة قد راحت ترقبنى من قعدتها فى الركن من تحت الخمار الشفاف الذى أمعن فى إبراز ملامح وجهها، بأنفها المستقيم المدبب قليلا فى شموخ، وخديها البارزين، وعينيها الواسعتين السوداوين الساحرتين ومع ابتسامة ثقة وإعجاب وزهو تضىء ثغرها فيما هى تتأمل ـ شبه زاهية ـ شياكتى وبكويتى التى بدت متسقة على هيأتى .

سلمت عليها ناظرا فى الأرض، قبلت يدها الملفوفة فى قفاز حريرى، ثم جلست بجوارها متربعا على الشلتة العالية .

قال محمد بك أبو شناف :

ـ «الليلة ياستنا الشيخة أنا مشوق لمعرفة طالعى!! إفتحى لى الكوتشينة! أقصد اقرئى لى ورقى عندك!! أنت سحرتنى بالفعل ليلة قرأت لحسن بك طالع البلد ومستقبلها كدولة! من ليلتها وأنا أحلم بأن تقرئى لى ورقى فأنا فى الحقيقة أمر الآن بفترة انتقال جذرية وصعبة وأحب أن أعرف رأسى من قدمى!! فمن يدرى؟ ربما استنرت برأيك واستبصرت حقيقة سككى وحظى معها كما يرمز له الورق! فابدئى

باسم الله!!».

فتحت الشيخة سعادة حقيبتها السوداء، أخرجت حزمة الورق، فكت لفافتها الحريرية الحمراء، فصلت الجزء الصغير الذى مازلت اذكر أن اسمه أوراق السر الأعظم، أعادته إلى الحقيبة، أبقت الجزء الكبير فى يدها وهو المسمى - فيما أذكر بأوراق السر الأصغر. قالت لمحمد بك أبو شناف:

- «كم عمر سيادتك؟!».

قال بنبرة من التفاخر المصطنع:

- «ستة وخمسون عاما على وجه التقريب!!».

صاحت الشيخة فى ابتهاج:

- «بعدد أوراق السر الأصغر!! هذا فأل سعيد من أولها!!».

- «الحمد لله! كله بفضل الله وبركة دعاء الوالدين!!».

هكذا قال وهو يتلمظ ثم يشعل البايب فى استمتاع طفولى كبير. الشيخة قدمت له الأوراق يا خال:

- «قم بنفسك بتفنيط الورق دون أن تنظر فيه!!».

بحركة لاعب كوتشينة عريق ومدرب قام بتفنيط الورق عدة مرات بحيث يضمن أن كل ورقة كانت تالية للأخرى لم تعد تالية لها. ثم قدمه إليها مقلوبا على وجهه مثلما نفعل مع ورق الكوتشينة بالضبط يا بوى.

قلبت هى الورق على ظهره فى يدها، نازعة الورقة ملوحة بها فى غبطة، ثم أعادتها فوق الورق، وأزاحت الخمار عن وجهها، فأضافت إلى ضوء الحجرة ضوءا جديدا يا خال حتى لقد بحلق فيها الجميع منسحرا بهذا الجمال الخمرى الهادئ الرصين بكبريائه العظيم.

عندئذ قال محمد بك أبو شناف متعمدا إظهار نبرة الغزل:

ـ «يا أرض احفظى ما عليك!!».

وقال حسن بك فى تحفظ وتحرج:

ـ «ما شاء الله! ما شاء الله!! جوهرة مكنونة!».

وعلق الحاج أحمد نوار الدين السنى وقد برقت فى عينيه نظرته الطفولية الشقية المرحة العابثة:

ـ «قل لها يا حسن بك: حرام إخفاء هذا الجمال الربانى!! هذا بخل يا ستنا الشيخة!!».

نكست وجهى فى الأرض وقد غلت الدماء فى عروقى يا خال، صرت أقرأ الفاتحة فى سرى حتى لا تفضحنى عيونى أو أفقد توازنى. أما الشيخة سعادة فقد احمر وجهها وتحول إلى بسمة نضرة، ولما راقبتها من تحت لتحت رأيتها تعيد النظر فى الورقة المسحوبة وتنقل بصرها بين الورق وملامح وجه محمد بك أبو شناف. كانت الورقة عبارة عن مجموعة من السيوف المتقاطعة كأنها غابة من السيوف كل سيف يحاول قطع الآخرين من منتصفه.. قالت الشيخة سعادة:

ـ «كنت تنوى السفر فى هذا الأسبوع!!».

شحب وجهه فى الحال يا بوى، دمدمت البوارق فى عينيه حتى كدنا نسمع لنظراته صوتا يا خال. لكنه قال:

ـ «صح!! أنا أنوى السفر بعد غد إلى مكان ما!!».

ـ «زيارة عمل استطلاعية!!».

ـ «داخل مصر طبعا!!».

ـ «ينصحك الورق بعدم السفر إلى هذا المشوار!!».

ـ «كذا!!».

ـ «هكذا يقول الورق!!».

نكس رأسه متفكرا فى عمق وحيرة تدخل حسن بك فى شىء من القلق الذى يخفى رغبة قوية فى معرفة ما وراء هذه النصيحة. قال بلهجة من يعرف حقيقة المشوار المقصود:

ـ «رأيى يا ستنا الشيخة أن تكشفى له الورق أكثر!! صارحيه بما ترينه فى الورق!!».

هزت الشيخة سعادة رأسها بالموافقة:

ـ «واجبى أن أنبهه إن كان سيادته مصرا على معرفة السبب فإننى أقوله!!».

ـ «قوليه طبعا! ليس هنا من أحد غريب!!».

ـ «هناك نية غدر فى طريقك! مؤامرة لقتلك من ناس متلاحمين بك تلاحم هذه السيوف ببعضها! السكة معقربة تماما! سيوف تتقاطع!!».

زام فى قلق كبير جدا يا بوى:

ـ «الأمر هكذا إذن! والله لقد حدثنى قلبى بشىء من هذا صباح اليوم! قلب المؤمن دليله فعلا!! وبعد ياستنا الشيخة؟ ماذا يقول الورق أيضا؟!».

ـ «دعنى أرتب أوراق الكشف فى مجموعاتها الأربع لكى أقرأ لك الورق من جميع النواحى!!».

شخصنا إليها جميعا يا خال، فيما راحت هى تفرق الورق على الأرض فى أربع مجموعات متجانسات، كل مجموعة أربع عشرة ورقة. أظن أننا جميعا حفظنا شكل الورق، ورقة ورقة.

هذه هى المجموعة الأولى: الورقةالأولى منها مرسوم عليها سيف بتار تمسكه يد. الورقة الثانية مرسوم عليا سيفان متقاطعان فى حركة التفاف مقوسة بيضاوية يتوسط الفراغ بينهما وردة حمراء على بساط من زهور وأغصان صفراء وخضراء. والورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاثة سيوف، اثنان منها فى حركة التفاف بيضاوية، والسيف الثالث يخترق هذا الشكل البيضاوى عموديا، تتفرع من هذا السيف أغصان الزهور بأوراق حمراء وخضراء وصفراء فكأن السيف هو الذى طرحها.

الورقة الرابعة أربعة سيوف متعاشقة فى نفس الشكل البيضاوى كل سيفين يخترقان السيفين المتقابلين من الأطراف، وفى قلب البيضة غصن أخضر على أصفر تتوسطه وردة حمراء، وعند الأطراف المتعاشقة ورود، وأغصان.

الورقة الخامسة تشبه الرابعة فى شكل رسمها إلا أن السيف الخامس

يخترق البيضة عموديا، يلتف حوله غصن بأوراق خضراء، أما مقبض السيف فأصفر على أحمر على أزرق.

الورقة السادسة ستة سيوف، كل ثلاثة تتعاشق أطرافها مع الثلاثة المتقابلة فى شكل بيضاوى يتوسطه غصن بأوراق خضراء وصفراء وحمراء فى نهايته زهرة لوتس متفتحة عن أكمام صفراء. الورقة السابعة تشبه فى رسمها الورقة السادسة إلا أن السيف السابع يخترق البيضة عموديا، والأرضية تخلو من أى زهور أو أغصان. الورقة الثامنة مرسوم عليها ثمانية سيوف كل أربعة تتعاشق أطرافها مع الأربعة المتقابلة فى شكل بيضاوى، تتوسط الأرضية زهرة على شكل النيشان. والورقة التاسعة تشبه فى رسمها شكل الورقة الثامنة إلا أن السيف التاسع يخترق البيضة، والأرضية بيضاء من كل رسم. الورقة العاشرة تشبه التاسعة هى الأخرى إلا أن السيفين التاسع والعاشر يخترقان شكل البيضة فى تقاطع من عند الرأس على شكل ميزان القبانى. الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه ويمسك بيمناه سيفا أصفر اللون كلون التاج مسكة تشريفية وسن السيف مرفوع لأعلى، أما بذلة الملك فلونها خليط من الأصفر والأزرق وهى قطعتان عبارة عن سترة ووشاح وحول ساقيه جوربان أحمران وفوق الوشاح عباءة حمراء. والورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها؛ هى الأخرى تمسك بيمناها سيفا أصفر اللون مثل تاجها، وإذا كان الملك يمسك السيف جالسا على كرسى العرش فإنها أمسكته واقفة بحركة من تتأهب لأداء رقصة وقد بسطت كف يسراها كمن يشرح شيئا لأحد، سيما وأن قوامها رشيق بديع، فستانها ينساب

ذيله على الأرض أزرق اللون فوقه مريلة بكتفين أحمرين حتى الجذع أما بقية المريلة فلونها بنى فاتح، بكورنيش فيه زخارف زرقاء على أرضية صفراء، الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس بدرع أزرق وعباءة حمراء، يركب فوق حصان جامح مندفع مرفوع القدمين الأماميتين فى حالة انقضاض، فيما أمسك الفارس بيمناه السيف فى حالة من يهم بالضرب. أما الورقة الرابعة عشرة والأخيرة فمرسوم عليها شاب فتى عارى الساقين يرتدى ما يشبه الفستان لونه أزرق بخطوط حمراء، واضعا يسراه خلف إليتيه فى حركة انثناء رشيقة، وبيمناه أمسك السيف مسكة تشريفية خالصة.. حاجة تهوس يا بوى.

تلك هى المجموعة الأولى يا خال. أما المجموعة الثانية فالورقة الأولى فيها مرسوم عليها قطعة نقود دائرية، فوقها نقوش زخرفية، والقطعة موضوعة بين غصنين عموديين على شكل الرسوم الزخرفية التى نراها فى بعض البوابات الحديدية، مما يدل على أن جميع النقوش الزخرفية التى نراها اليوم على البوابات والأبسطة وحوائط الريفيين المدهونة بواسطة الاسطنبة إنما هى مأخوذة من هذه الرسوم وأمثالها يا خال.

الورقة الثانية مرسوم عليها قطعتا نقد كالبريزة الفضية يحتاط بهما شريط طبق الأصل من شريط التصوير السينمائى قبل تحميضه يأخذ شكل علامة استفهام برأسين، وكل قطعة موضوعة داخل رأس من رأس علامة الاستفهام هذه.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث قطع دائرية، والورقة مقسمة نصفين بالطول فى قلب النصف الأول قطعة تحتاط بها الغصون

والأوراق. فى قلب النصف الثانى قطعتان متجاورتان تفصل بينهما غصون وأوراق، القطع الثلاثة منقوشة بالأصفر والأخضر الزرعى والأغصان زرقاء على حمراء، يفصل بين نصفى الورقة وردة على شكل النيشان.

الورقة الرابعة عليها أربع قطع وهى الأخرى مقسومة نصفين، كل نصف عليه قطعتان متجاورتان بنفس اللونين الأصفر والأخضر، وكل قطعتين يفصل بينهما غصن مهيب قاعدته حمراء وأوراقه زرقاء على الجانبين، وفى الوسط أكمام لوتس صفراء متفتحة.

الورقة الخامسة عليها خمس قطع نقدية، اثنتان فى اليمين واثنتان فى الشمال وخامسة فى المنتصف، ويفصل بين القطع غصون وأوراق لوتس حمراء.

الورقة السادسة مرسوم عليها ست قطع نقدية بنفس النقوش بنفس الألوان، كل ثلاث فى جانب فى وضع مثلث: اثنتان وفوقهما واحدة، ويفصل بين المثلثين غصون حمراء على زرقاء تتفرع من شىء شبيه بالنيشان.

الورقة السابعة تشبه هذه الورقة فى تشكيلها. كل ثلاث قطع فى وحدة ثلاثية الوضع فى ناحية أما القطعة السابعة ففى منتصف الورقة تحيط بها الغصون والأوراق.

الورقة الثامنة مقسمة إلى نصفين، فى كل نصف أربع قطع متقابلة تشبه فى وضعها شكل الصليب كل ضلع من أضلاعه الأربعة تمثله قطعة، أما مركز الصليب عند نقطة التقاطع فيشبه مخدة بنية اللون

غائرة من أطرافها الأربعة كأن كل قطعة قد طبعت على طرفها مستقرها المقوس، ولكنك يمكن أن ترى الورقة على شكل آخر بأن ترى ثلاث قطع فى كل جانب وبينها قطعتان متجاورتان يفصل بينهما غصنان متعاكسان.

الورقة التاسعة شكلها أبدع: أربع قطع متجاورة فى أعلى الورقة، وأربع قطع متجاورة فى أسفلها، والقطعة التاسعة فى قلب الورقة كأنها نقطة الربط بين الأربع والأربع، يمتد بالطول من جوار القطعة التاسعة هذه غصن زهرة لوتس مزدوجة متفتحة من ناحية ومضمومة من الناحية الأخرى، والطرفان المتفتحان يفتحان على القطعة التاسعة من الجهتين، الغصنان لونهما أحمر، وكل غصن يتفرع منه فرعان متقابلان لونهما أزرق.

الورقة العاشرة منقسمة إلى وحدتين، فى كل وحدة خمس قطع، اثنتان فى الأعلى واثنتان فى الأسفل، والخامسة فى القلب، يفصل بين الوحدتين غصن متفتح أحمر اللون.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج على رأسه أصفر اللون ويلتحف بعباءة حمراء غامقة يجلس على كرسى العرش ممسكا بيسراه عصا صفراء، وبيمناه قطعة نقد كالرغيف، كأنه يهم بقذفها إلى بعيد.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها ملكة تلبس التاج الأصفر، ترتدى ثوبا سماويا فوقه بلوزة فى لون عسل النحل وهى الأخرى تمسك بيسراها عصا صفراء وبيمناها قطعة نقد مشجرة كأنها تعرضها فى المزاد.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان فى لون جذوع الشجرة، يمسك بيمناه سيفا مخفوض الرأس لأسفل، على رأسه خوذة يبزغ من رأسها زر كخصلة من ذيل الحصان، وخلف رأسه قطعة نقد سابحة فى الهواء كأنها من أضغاث أحلامه.

أما الورقة الرابعة عشرة فمرسوم عليها صورة شاب فتى عارى الساقين على صدره درع مشغول بالقصب، ويرفع بيمناه قطعة نقد ويشير بسبابة يسراه إلى الأرض.. حاجة تهوس يا بوى.

أما المجموعة الثالثة يا خال، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة كأس لها غطاء كالسكرية عليه زخارف باللون الأصفر والسمنى والأخضر والبنى، فى وسطها رسم صليب واضح ومحدد.

الورقة الثانية يا خال عليها كأسان من شكل مختلف بلا غطاء، أرشق من الأول وأرق يفصل بينهما غصن كشجرة تحتوى الكأسين من الجانبين.

الورقة الثالثة مرسوم عليها ثلاث كئوس، اثنتان فى القاعدة وواحدة فى الأعلى فى منتصف المسافة بين الكأسين، لكن الزهور والأغصان تملأ الفراغ من جانبيه تحفظ للصورة توازنها، يفصل بينه وبين الكأسين، وبين الكأسين وبعضهما غصن مزدوج بعنقودين من العنب.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع كئوس، اثنتان متجاورتان فى الأسفل، والمساحة الفاصلة بين الاثنتين والاثنتين ملآنة بالزهور المتفتحة، لونها لون الكئوس خليط بين الأحمر والأصفر والأخضر.

ويفصل بين الكأسين العليين عصوان متقاطعتان مربوطتان عند التقاطع بشريط حريرى أزرق .

الورقة الخامسة تشبه الرابعة : كأسان فى الأعلى وكأسان فى الأسفل ، والكأس الخامسة فى المنتصف بين غصنين أحمرين متفتحين .

الورقة السادسة مرسوم عليها ست كئوس ، ثلاث متجاورة فى الأعلى وثلاث متجاورة فى الأسفل ، والمساحة بينهما ملآنة بغصن يأخذ شكل العقرب . ملون بالأحمر والأزرق ، أما الكئوس فكلها صفراء اللون مشوبة بالاخضرار الخفيف ومكرنشة عند القاع بحزام أحمر فاقع كحبات عناب متكومة .

الورقة السابعة تشبه السادسة فى شكلها إلا أن الكأس السابعة فى منتصف الورقة ، تحتاط بها زهور ثمار فى لون التمر وشكله .

الورقة الثامنة مقسمة إلى ثلاث وحدات : ثلاث كئوس متجاورة فى الأعلى ، ومثلها فى الأسفل ، واثنتان متجاورتان فى المنتصف ، والمساحات بينها ملآنة بالزهور والثمار .

الورقة التاسعة مرسوم عليها تسع كئوس : أربع فى الأعلى وأربع فى الأسفل والتاسع فى المنتصف يحف به من الجانبين غصنا زيتون .

الورقة العاشرة تشبهها فى الشكل إلا أن الكأسين التاسع والعاشر فى المنتصف ، فوقهما غصن زيتون وتحتهما غصن زيتون .

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش يتكئ بيسراه على منضدة سطحها الرخامى مثبت على رقبة حصان وقائم كقدم الحصان طبق الأصل ، عصا الملك نائمة

على كتفه الأيسر، وقد أمسك بيمناه كأسا كأنه يقول: فى صحتك.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج الأصفر وتقف ممسكة بيسراها نفس العصا وفى يمناها كأس كأنها تقدمها لمجهول غير ظاهر.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها صورة فارس فوق حصان يخب خبا ويمسك بيمناه كأسا كأنه ينادى على من يملأها له.

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها صورة شاب فتى كامل اللباس يمسك بيمناه غطاء رأس كالقبعة، وبيسراه كأس فى مستوى وجهه يبحلق فيها بعينيه حاجة تهوس يا بوى.

أما المجموعة الرابعة، فالورقة الأولى منها مرسوم عليها صورة عصا غليظة جدا كفرع مقطوع لتوه من شجرة لا تزال أغصانها وأوراقها عالقة به، تمسكها يد قوية بألوان حمراء وصفراء ومخضوضرة.

أما الورقة الثانية فمرسوم عليها عصاتان متقاطعتان بعلامة إكس، تشبهان أعمدة السرير الفلاحى القديم ذا ت العساكر النحاسية، وكل الفراغات حول التقاطع من جميع النواحى ملآنة بأوراق شجر كبيرة تأخذ شكل طيور بمناقير، لونها أصفر وأخضر أما العصاتان فالأولى جزؤها الفوقى أحمر ورأس زرقاء فوقها رأس أخرى صفراء، والجزء الأوسط أزرق والجزء السفلى بنفس لون الجزء الفوقى، وكذلك العصا الثانية جزؤها الوسطى أصفر والفوقى والسفلى أزرق ورأسها حمراء وصفراء.

الورقة الثالثة يا خال مرسوم عليها ثلاث عصى، اثنتان منها

متقاطعتان والثالثة تخترق التقاطع عموديا، والفراغ فى الجانبين ملآن بأوراق شجر على شكل طيور مريشة.

الورقة الرابعة مرسوم عليها أربع عصى، اثنتان منها تتقاطعان مع اثنتين، وفراغ الجانبين مشغول بأوراق شجر على شكل طيور تنوعت أجناسها أما الفراغان الفوقى والسفلى ففى كل منهما غصن مورق ينتهى بوردة.

الورقة الخامسة مرسوم عليها خمس عصى، وشكلها يشبه شكل الرابعة إلا أن العصا الخامسة تخترق التقاطع عموديا، وقد طرحت العصى أغصان ورد مورقة وامتلأت الفراغات بأوراق شجر على هيئة طيور.

الورقة السادسة ثلاث تتقاطع مع ثلاث تحتاطها الأغصان المورقة والورود، المورقة السابعة شكلها نفس شكل السادسة إلا أن العصا السابعة تخترق التقاطع عموديا والفراغات ملآنة بالأغصان المورقة.

الورقة الثامنة أربع تتقاطع مع أربع، والفراغات القليلة تزدان بأغصان ورد مورقة.

الورقة التاسعة شكلها نفس شكل الثامنة إلا أن العصا التاسعة تخترق التقاطع عموديا مع زهرتين فى موضع التقاطع.

الورقة العاشرة شكلها نفس الشكل إلا أن العصا التاسعة والعاشرة تخترقان التقاطع عموديا مع زهرتين فى موضع التقاطع.

الورقة الحادية عشرة مرسوم عليها صورة ملك يلبس التاج ويجلس على كرسى العرش ممسكا بعصا طويلة كالحربة.

الورقة الثانية عشرة مرسوم عليها صورة ملكة تلبس التاج على رأسها وتقف ممسكة بعصا، نفس عصا الملك فى يمناها، وفى يسراها شىء غامض تشير به إلى العصا.

الورقة الثالثة عشرة مرسوم عليها فارس فوق حصان شرس متمرد رافع قدميه الأماميتين فى نكوص وإحجام، والفارس يرفع العصا بيمناه كأنه يهم بضربه لإلزامه حد الطاعة.

الورقة الرابعة عشرة مرسوم عليها شاب فتى يقف فى وضع انتباه، يمسك بيسراه غطاء رأس كالقبعة وبيمناه العصا بمسكة حربة.. حاجة تهوس يا بوى..

كلنا يا خال دفعنا الفضول إلى التفرج على هذه التصاوير وفحصها ورقة ورقة كأننا نبحث خلف تصاويرها الغريبة هذه عن أسرار مهولة غامضة.

وقال محمد بك أبو شناف:

- «شىء فى منتهى العجب! هى بالفعل أوراق سحر! ولابد أن راسمها قصد من ورائها شيئا رمزيا!!».

وقال حسن بك ذو اللحية السكسوكية غير المتسقة على شكله كواحد من الضباط الأحرار وعضو مجلس قيادة الثورة كما يزعمون:

- «أوراق السحر هكذا دائما يا محمد بك! سبحانه جلت قدرته يعطى أسراره لمن يشاء ويلهم قراءتها من يشاء! لقد خاطبنا سبحانه وتعالى بالكلمة المصورة فى قرآنه فلا عجب أن يلهم عبيده مخاطبته بالصورة المرسومة الملونة!! يضع سره فى أضعف خلقه يا محمد بك!

وأنا وأنت وأمثالنا من المتعلمين تعليما عاليا لا نفقه شيئا فى مثل هذه الأمور السحرية على سبيل المثال فى حين قد يفقه فيها من لم يدخل المدارس!! ملك يا محمد بك نظمه سيده!! سبحانه تبارك وتعالى!!».

أخذ الحاج أحمد نوار الدين السنى يلوح بأصابعه الطويلة الصدئة المزادنة بخواتم فضية وذهبية غليظة، فى الأصبع الواحد خاتمان وربما ثلاثة.

نظرته الصبيانية العابثة المرحة تتلألأ فى عينيه وهو يقول:

ـ «شف يا حسن بك! والكلام لك أيضا يا محمد بك! هذه الأوراق مصرية أى نعم لكنها مرسومة فى العصر الرومانى! هذا واضح!! ملامح الوجوه رومانية! حتى الشعر وطريقة تصفيفه! طبعا! هذا لا يمنع أن تكون الأفكار مصرية فرعونية ولكن..».

قاطعه حسن بك:

ـ «الله أعلم على كل حال!! ولكن ما قولك أننى كنت على علاقة ذات يوم قريب ببعض الأسياد من الجن من ذوى الجنسية المصرية!!..».

قاطعته الصاعقة، أقصد الضحكة يا خال، التى فجرها محمد بك أبو شناف، فاتسعت فى التو أصواتنا جميعا فيما راح حسن بك ينظر فينا بحرج شاحب السمات.

وكان محمد بك يهتز من فرط الضحك العميق ويمسح عينيه بمنديل.

قال الحاج أحمد نوار الدين السنى بلهجة اعتراض يشوبها التحفظ الساخر.

ـ «هذه أول مرة أعرف أن هناك جنيا مصريا وآخر سودانيا وشاميا وتركيا!!».

هتنف حسن بك فى غضب مشيرا إلى الشيخة سعادة التى كانت تكتم ضحكها قوة خرافية:

ـ «إسأل ستنا الشيخة وهى تقول لك!!».

فى ذكاء منقطع النظير وسرعة بديهة تحسد عليها قالت الشيخة سعادة:

ـ «عدم المؤاخذة! الجن يتشكل للإنسان فى صور كثيرة! ربما جاء على هيئة امرأة جميلة من أولاد البلد المصريات! فلا تستغرب يا عم إذا لا سمح الله الشر بره وبعيد ـ ركبك جن إنكليزى أو فرنساوى!!».

بلهجة من لايريد الدخول فى تفاصيل رفع كتفيه فى عدم اقتناع واضح:

ـ «ممكن على كل حال! كل شىء جايز!!».

ـ «طبعا يا عم الحاج! مادمت أمنت بوجود الجن فلابد أن تؤمن بكل ما يفعله وما يظهر به من أشكال وأرواح وشخصيات وكل ما لا يخطر على البال!!».

ـ «أفادك الله يا ستنا الشيخة!! الجن نفسه كان يزورنى فى أوقات عصيبة! أحيانا وأنا مجتمع بزملائى! ويقول لى كلاما غريبا: أنا

مصرى وخائف على مستقبل البلاد منكم! يقصد زملائى فى الحكم! وكنت ومازلت أوافقه!!».

كأنما لينهى المناقشة المغرقة فى الفكاهة قال محمد بك :

ـ «المهم يا ستنا الشيخة سعادة! أكملى قراءة ورقى!!».

أشارت الشيخة إلى المجموعات الورقية بعد أن انتهت من ترتيبها ورصها بعد أن عبثت بها أيادينا . قالت :

ـ «تحب أن نبدأ بأى مجموعة من هذه؟!».

أشار محمد بك إلى المجموعة الأولى، أغلب الظن ليدرأ عن نفسه مأزق وشؤم المفاضلة فى الاختيار . قال :

ـ «هذه!».

قالها بلهجة من يقول : بختك يا بو بخيت . فرفعت الشيخة سعادة المجموعة وأعطتها له قائلة :

ـ «فنطها!».

فنطها وأبقاها فى يده . قالت له :

ـ «اختر ورقة لأقرأها لك!!».

هنا ارتعشت أصابعه يا خال، وارتبك . حاول نزع ورقة بطريقة عشوائية عميانية، فالتقطت أصابعه ورقتين مضمومتين على أنهما ورقة واحدة، سلمهما للشيخة، فإذا بها تبتسم قائلة :

ـ «هكذا شاء بختك فالورقتان الآن ورقة واحدة بالنسبة لك

والمثبوت فيهما متصل ببعضه وبك فى معنى واحد!! نشوف على كل حال!».

وكانت الورقتان مقلوبتين، فعدلت الأولى وعرضتها لنا ثم نظرت فيها.

كانت هى صورة الملك جالسا على كرسى العرش ممسكا بالسيف فى يمينه. قالت الشيخة سعادة:

ـ «باسم الله ما شاء الله أنت على كرسى العرش جالس غير أن الحرب مفروضة عليك فرضا لا مفر من خوضها ولا مهرب يعنى ستحارب ستجارب ندعو الله سبحانه وتعالى أن ينصرك!!».

فتبسم محمد بك أبو شناف، وشملته رعدة فرح تنضح زهوا، كأن النبوءة قد أصابت فيه منطقة غرور يحبها، ثم جعل يردد فى تهدج كأنه يختم الصلاة:

ـ «اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم أعنى على قدرى وامنحنى الفطنة!! تمام يا ستنا الشيخة! أفادك الله!!».

قلبت الورقة الثانية التى كانت لصيقة بالأولى. تجهمت فجأة. كانت هى صورة الشاب الفتى ممسكا بالسيف. قالت متحاشية النظر إلى أحد:

ـ «ولكن! هذا قضاء الله يا محمد بك! ستفقد فى هذه الحروب واحدا من ذريتك! ابنك أو أخاك هذا ما يقوله الورق والله أعلم طبعا لكن علينا أن نتقبل الضرر والحزن مثلما نتقبل الخير والفرح بروح طيبة!!».

ارتعد محمد بك بالفعل يا خال، ظهر عليه قليل من الاضطراب والتشاؤم، ولكنه قال:

ـ «ونعم بالله!! أنا مؤمن شديد الإيمان!! ومادمت سأخوض حربا مقدسة من المحتمل أن أموت فيها فمن باب أولى أتقبل استشهاد أحد أبنائي فيها!!».

ـ والآن أي مجموعة تختار؟»

. أشار إلى المجموعة الثانية:

ـ «هذه بإذن الله!».

كانت هي مجموعة النقود. فرفعتها الشيخة عن الأرض سلمتها له. صار يفنطها عدة مرات، وبنفس الطريقة العشوائية سحب ورقة فإذا هي الورقة العاشرة ذات القطع النقدية العشرة.

أشرق وجه الشيخة سعادة، فتسربت عدوى الإشراق إلى وجوهنا قالت:

ـ «يعطيك الله مالا بغير حدود فعسى أن تنفقها في أعمال البر والخير ومهما أنفقت فإن الله يزيدك على الدوام أضعاف ما تنفق ولسوف يضاعف لك حتى لو لم تنفق في سبيله وهذا حظك مرسوم وناطق بالسعد!!».

رمقه حسن بك في كثير من الحسد والغيرة، ولكنه سرعان ما عدل النظارة الطبية على وجهه ونكس رأسه في الأرض مهمهما:

ـ «لا إله إلا هو!!».

وتهدج صوت محمد بك :

ـ «اللهم لك ألف حمد وألف شكر ! ! الهم إنى زاهد فى المال وأنت تغرقنى بنعمتك ! ! » .

ثم مد يده تلقائيا ورفع المجموعة الثالثة وجعل يفنطها بعناية .

كانت هى مجموعة الكئوس يا بوى . وسحب ورقة مسبوقة بالبسملة ، فردتها الشيخة سعادة فإذا هى الورقة التاسعة تضم تسع كئوس . صارت تتأملها مقطبة الجبين وقد صرنا جميعا فى حالة ترقب ووجل . هتف محمد بك :

ـ «خيرا يا ستنا الشيخة؟ ! » .

تنحنحت قليلا ممسكة بصوتها :

ـ «ورق الكئوس يقرأ الحظ بالذات ! حظك يا محمد بك ضارب فى السما كما هو واضح والورقة التى اخترتها بنفسك تقول إنك أوتيت والحمد لله جميع كئوس الحظ إلا كأسا واحدا ولو أنك اخترت الورقة العاشرة بالكئوس العشرة لاختلف الحظ أما وقد كشف حظك عن غياب الكأس العاشر فإنه يبدو أنه الكأس الوحيد الذى تسعى أنت إليه بكل وسيلة وربما دون أن تدرى والله وحده يعلم ماذا سيحتويه ذلك الكأس الغائب لكن المرجح أنك إن لم تسع إليه فسوف يسعى هو إليك وهو بكل أسف فأل ليس حسنا ! ! » .

ـ «أى كأس سيكون يا ترى؟ ! » .

ـ «الظاهر أنه يمثل شيئا غاب عن بالك وغير متوقع منك لكننا نطلب

الستر من الله على كل حال!!».

ـ «أيكون كأس الموت مثلا؟!».

ـ «ربما!!».

ـ «فهو إذن كأس دائر على كل العباد؟!».

ـ «نعم ولكنه قد يأتى فى ظرف حرج وغير متوقع بل غير مناسب!!».

ـ «مرحبا به فى كل الأحوال! أنا رجل مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر بقدر ما أنا مؤمن بواجبى تجاه وطنى!!».

ـ « دعوتى لك بالتوفيق يا محمد بك!».

ثم سلمته المجموعة الرابعة، مجموعة ورق العصى.

راح يفنطها بغير عناية هذه المرة، وقد ظهر فى وجهه لون من الشحوب يعكس قلقا غامضا. أخيراً سحب ورقة سلمها للشيخة سعادة التى راحت تتأملها.

كانت الورقة تحتوى على صورة الملكة المتوجة الممسكة بالعصا. قالت له:

ـ «امرأة مقربة إليك ربما كانت زوجك أختك ابنتك أو من نسلك لكنها من أقرب الناس إليك مقدر لها ولك وللناس أن تمسك هى بالعصا فى يدها لتضرب بها كل من ليس على هواها ولسوف تضرب الكثيرين وتسبب الألم للكثيرين مالم تفطن أنت لها وتوقفها عند حدها فلربما نالتك عصاها أنت نفسك وانك فى الواقع لمحبوب من الله ولذا

فهو يكشف لك الأوراق كلها كي ينبهك إلى الأشياء قبل حدوثها بوقت طويل لتكون منها على بينة فلربما استطعت تدارك الأمور ومن المتوقع أنك ستفعل بإذن الله نسأله التوفيق لنا جميعا آمين يارب العالمين ! ! » .

شاركناها جميعا فى هذه العبارة الأخيرة يا خال . رغم ما ظهر على وجه محمد بك من زهو وإشراق إلا أن مسحة من القلق كانت واضحة عليه ، فيما راح يوجه عبارات الشكر للشيخة سعادة والثناء على بصيرتها النيرة ، ويقول لها إنه تحت أمرها فى كل وقت إذا ما احتاجت لأى خدمة .

جعلت هى تدعو له بطول العمر ودوام الصحة وروقان البال ، فيما أخذت تجمع ورقها تضمه إلى بعضه تعيد ربطه بالشريط الحريرى تضعه فى حقيبة يدها ناظرة إلى حسن بك نظرة ذات معنى حرت أنا فى تفسيرها يا بوى : أغلب الظن أنها تنبهه إلى رغبتها فى الانصراف .

سألها حسن بك إن كانت فى عجلة من أمرها فيأمر بتوصيلها حالا أم أن عندها فسحة من الوقت لقضاء يوم آخر أو يومين فى ضيافته .

فشكرته ودعت له بأن يظل بيته عامرا أبد الدهر ، ثم نهضت واقفة . فنهضنا فى أثرها . تقدم حسن بك وهى فى أعقابه ، ومن خلفها محمد بك ، فالحاج أحمد نوار الدين السنى ، فأنا . سلمت علينا ، وغمزت يدى غمزة دافئة كأنها تبلغنى رضاءها عنى . ثم ركبت الليموزين السوداء فى المقعد الخلفى ، وركب حسن بك مع محمد بك فى سيارته ، واتجهت أنا إلى سيارتى وقد شعرت أن حركة مفاجئة استيقظت فى الشارع تحيط بنا فى خفاء ظاهر ، أى والله يا بوى .

بنـط

صـحوت ذات عـصرية على أحداث غـريبة : مـوجة كـاسحـة من الاستقـالات : رئيس مجلس الأمة ، وزير الإعلام ، وزير الحربية ، وزير اللجنة المركزية العليا ، كل هؤلاء استقالوا يا خال مرة واحدة فى نشرة أخبار واحدة احتجاجا على قيام أنور السادات برفت وزير الداخلية ، حيث قيل إن الرئيس السادات اكتشف أن هذا الوزير تآمر على حياته ووضع خطة لاغتياله أثناء سفره إلى مديرية التحرير ، وأن السادات قد حصل على دليل حقيقى فى يده . .

خيل لنا يا خال أن البلد قد انحلت عقل ظهرها وستقع فى الحال مغشيا عليها .

ربك والحق يا بوى كنا لانزال خائفين من شبح عبد الناصر القوى الممثل فى كل رجاله وألاديشه الذين كانت البلاد كلها فى أيديهم يا بوى .

لكن شيئا من ذلك لم يحصل يا خال ، لم يخرج أحد فى مظاهرة ، ولم يفك أحد فمه بكلمة . الظاهر يا خال أن الشعب أحب أن يتفرج

فقد جاءته الفرصة على الطبطاب يا بوى: وقعت الثورة فى بعضها وياحبذا لو فتكت ببعضها وأراحتنا من كابوسها.

لكن السادات العقر انتصر يا بوى، تغدى بهم قبل أن يتعشوا به، كل شيء كان جاهزا عنده، أعلن التليفزيون إعادة تشكيل الوزارة، ومضت الحياة يا بوى والناس تضحك وتنبسط فى الشوارع، غرز الحشيش شغالة على سنجة عشرة، والبارات مصهللة، وأم كلثوم فى المقاهى تردح بأعلى صوت، والنغمة التى كانت تتحدث بها الإذاعة مع الصحف عن عبد الناصر هى بنفسها الخالق الناطق التى تحدثت بها عن أنور السادات، أصبح عندنا عهدان بائدان:

عهد ما قبل جمال عبد الناصر وعهد ما قبل أنور السادات.

أجمعت الصحف على أنها ثورة على الثورة واسمها ثورة التصحيح، هى الأخرى لها أغنيات وأناشيد، ومحمد عبد الوهاب جاهز فى الحال ومن ورائه حملة العيدان والآلاتية والشعراء والأصوات.

ذلك هو الشعب المصرى يا بوى: اللى يتجوز أمى أقول له يا عمى، والكتاب والصحفيون ورسامو الصورة المشلفطة الذين رفعوا عبد الناصر إلى السماء السابعة رفعوا أنور السادات إلى السماء الثامنة، هات يا مدح هات يا رقص هات ياتلسين على عبد الناصر وثورته وذمته المالية وتسلطه وتكسيره لكرامة الشعب المصرى مع أن الذى يكسر كرامة الشعب المصرى حقا يا خال هو هذه الفعال نفسها أكثر من غيرها.

بينى وبينك يا خال أنا لم تكن تعجبنى هذه الفعال، فعبد الناصر مهما كان بلدياتنا، ورافع رأسنا فى البلاد، ومحررنا من الملك والاستعمار، ومهما كانت فعاله فلا يصح أن نجلده وهو ميت ولكن هل أستطيع أن أقول شيئا يا بوى؟ لا طبعا يا بوى، فالعيب فى الشعب المصرى قبل أن يكون فى حكامه وألاديشهم.

هذه خميرة زرعتها أمم وأجناس شريرة من الذين احتلوا بلادنا فبقيت بذورها فى أرض مصر.

ومادامت مهمتنا ليست إصلاح الكون يا خال فلنعش أيامنا ـ على رأى بربش ـ بقدر ما نستطيع من الفخفخة ولا شأن لنا بالصح والغلط إلا إذا كان الغلط ضد مصلحتنا الشخصية.

إن الفيصل فى حكم مصر يا بوى ـ كما يقول بربش دائما ـ هو مدى قدرة الشلة المسيطرة على شكم غيرها من الشلل الطامعة فى سرقة السيطرة، ومدى قدرتها على التبجح وإنكار التهم وإخفاء الحقائق وطمس نور البصر عند الناس ومسح أمخاخهم..

من حسن الحظ يا بوى أننى صار لى رأس بين الرءوس يمكن أن يكون له سعر وثمن، فمالى لا أختار ذهب المعز دون سيفه؟ ثم إننى أحببت الرئيس السادات فعلا يا بوى، أرى أنه ولد فتوات أخذ الكرسى بذراعه من أنياب الأسود الشرسة الغادرة.

فإذا كان ألاديش عبد الناصر بكل جبروتهم المعروف قد سكنوا الجحور منذ أن حدد إقامتهم إلى أن حاكمهم وأودعهم السجون، فهل يستطيع فلفوس مثلى أن يقول تلت التلاتة كام؟ لا يا بوى، يفتح الله،

أنا لا أعرف شيئا اسمه تلت التلاتة من أصلة . .

وهكذا يا بوى أصبحت صديقا للرئيس السادات ، يطلبنى كثيرا فى قعداته الخاصة ، فى أماكن غير معروفة ، يستأنسنى فأظل طول السهرة أعمل على إضحاكه والتسرية عنه كأننى بشهادته بعضمة لسانة أكبر ممثل كوميدى فى مصر وليتنى اتجهت للتمثيل من بدرى ، إلا أنها ـ فى رأيه . نفس الظروف التى منعته هو أيضا من احتراف التمثيل إذ حودت به على السياسة رغما عنه .

وهذا ما كان يملؤنى زهوا ونفخة يا بوى إذ ها أنذا أشترك مع الرئيس السادات فى بعض الصفات . كنت أقلد له عبد الناصر وهو يخطب ولكن بكلام هزلى اخترعه فور اللحظة بحكم ما أصبحت أعرفه من معلومات وأسرار ، أقلد الوعاظ النصابين الذين ينتشرون فى الصعيد وهم أجهل من أمى ، وبكلام هزلى أيضا ، أرفع ذراعى صائحا فى جدية شديدة وورع مصطنع بإتقان .

أقلد له من أسماهم بمراكز القوى ، فى كلامهم فى مشيهم فى صورتهم التى تنشرها الصحف ، أحكى له أحدث نكتة عن الصعايدة ، فيستلقى على قفاه من الضحك .

وكان ضحكه يا بوى هو الشىء الوحيد الذى يقنعنى بأنه يقلد محمد بك أبو شناف لحظة انبساطه فى قعدة المزاج . .

النكتة التى عششت فى دماغه ، جعلته يطلب منى إلقاءها كلما التقانى ، ويضحك بعمق كأنه يسمعها دائما لأول مرة ، هى نكتة بخيت وبخيتة : بخيت أخذ بخيته لزيارة سيدنا الحسين ، ركبا القطار ، بعد

قليل صاحت بخيتة: عايزه اعمل زى الناس، فأشار لها على المرحاض فذهبت وأغلقت الباب عليها فاطمأن وجلس ولكنها غابت، حيث خرجت من المرحاض فاختل دماغها فذهبت فى اتجاه آخر فتاهت فى القطار، فقام بخيت إلى المرحاض فوجده لايزال مغلقا من الداخل، فطرقه بقبضة يده، فأتاه من الداخل صوت رجل يصيح: إحم فهتف بخيت فى الحال: بخيتة عندك؟!».

كان يقول إن هذه النكتة دليل على طيبة قلب الصعايدة وخفة ظلهم، بعكس أهل مدن القناة الساحلية مثلا، فهم فى رأيه لؤماء وخبثاء.

ثم يتباسط معى فيحكى هو الآخر نكتة عن أهل مدن القناة: «كان فى زيارة لمدينة السويس بعد توليه الرياسة وقد دفعه الحنين لزيارة بعض سائقى الكميون الذين صاحبهم أثناء فترة الهروب من الإنجليز حيث اشتغل سواقا للكميون هو الآخر، فوجد أحدهم على قيد الحياة فقرر أن يزوره فى بيته إمعانا فى التواضع وحلاوة النفس، فسبقه البوليس والحرس والمخبرون فمشطوا المنطقة كلها فزرق هو إلى البيت فى أمان، وفيما هو جالس يتبادل حديث الذكريات مع السائق العجوز دوى صراخ امرأة تتألم، فقيل له إنها زوج ابن السائق تلد وهذا فأل طيب، فقرر فى الحال صرف إعانة كبيرة عاجلة، بعدها بقليل جاء زوج المرأة ليشكره على هذه الإنعامة الشريفة، قال: الحمد لله يا سيادة الرئيس كنت قدم السعد علينا فنتعها الله بالسلامة بعد أن كادت تموت!!

فسأله الرئيس: ولد ولا بنت؟ فقال الرجل: ولد يا سيادة الرئيس! فسأله الرئيس: وناوى تسميه إيه؟! قال الرجل: صراحة بصيت فى

شكله لقيته كشر وباين عليه حيطلع مفترى رحت مسميه جمال عبد الناصر!!».

وينفجر ضاحكا بعمق، وأجاريه في الضحك ولكن يتحفظ، ثم كان يتباسط معى أكثر فيقول لى ـ بما لا أدرى إن كان يقصد المدح أم الذم في الشعب المصرى:

ـ «الشعب المصرى لئيم يا حسن!! ولابد لمن يحكم هذا الشعب أن يكون ألأم وأمكر واحد فيه! لأن أفراد الشعب سيعاملوه بكل لؤم ومكر على أساس أنه أكثر لؤما منهم حتى ولو كان هو بريئا من المكر واللؤم والخداع!! فلابد له إذن أن يكون ألأم وأمكر حتى تتوازن الأمور!!».

الشاهد يا خال، صرت أبرطع فى البلاد طولا وعرضا أفعل كما أشاء، أحقق أية فكرة تطق فى رأسى مهما كانت مجنونة.

أصبحت أنا الآخر استعمل سيف المعز وذهبه، فسيف المعز هو معرفة من بيدهم الحل والربط أننى من خلصاء الرئيس وأننى سميره ومضحكه، أما ذهبه فيتمثل فى الفرص التى تواتينى بسبب هذه العلاقة، يعنى أنا أعيش فى خيره يابوى.

بسيفه انخفضت لى الرءوس وانزاحت العقبات كلها عن سككى، ومن خيره أغدقت على كل من يقدم لى خدمة ولو بسيطة. والشعب المصرى ـ عدم المؤاخذة يابوى ـ يموت عشقا فيمن يغدق عليه.

مستعد هو لأن يغفر له كل ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كن سفاحا يقتل القتيل ويمشى فى جنازته، كن لصا يسرق الكحل من العين، وثق أنك واجد من يغطى على سوءاتك ويدافع عنك بحماسة كبيرة مادمت

تدفع، وكلما دفعت تحصد يا خال . .

دفعت أموالا طائلة لناس لا يتصور المرء أن الواحد منهم يمد يده يا خال، ناس على رأسهم الريشة كما يقال: الواحد منهم يفاجأ بى طبيت عليه فى الوقت المناسب، حيث يكون غزولى قد أتى لى بأخباره فعرفت أنه مزنوق فى كذا، فإذا هو يفاجأ بى قد عزمته على العشاء، فبعد أن يتعشى وينبسط أسرب له المظروف المنتفخ حالفا بأيمان المسلمين ألا يفتح فمه بأى كلام، ثم تمر الأيام والشهور وأنا لا أسأله شيئا، لكنه يفاجأ بعد حين بهندى أو بسبوسة أو غزولى يذهب إليه من طرفى يطلب خدمة معينة، تحلف اليمين يا خال أنه يؤدى الخدمة حتى لو كانت على رقبته، ولو كان يملك مفتاح المدينة لقدمه لى عن طيب خاطر.

وماذا يكون مفتاح المدينة هذا يا خال بالنسبة لما قدموه لى من خدمات؟ لقد أعطونى جميع المفاتيح التى يمكن أن تتخيلها يا خال. طبعا، من ذقنه افتل له حبلا يا بوى.

مجنـونـة

انتقلنا إلى القصر يا بوى . يوم افتتاحه جاءت الشيخة سعادة وكل أصهارى ونفر من عائلة خرابة . فكان يوما مشهودا يا خال ، اقترح هليل أن يقام أمام القصر فرح بالطبل والمزمار البلدى ترقص فيه خيول المزرعة المرشحة للبيع ، فكتب بربش بطاقات دعوة بعثنا بها إلى عائلات كبيرة كثيرة مشهورة فى الزقازيق والمنوفية والصعيد والبحيرة يدعوهم لمشاهدة ما أسماه بمهرجان الخيل ، فجاء نفر كثير ، وليلتها باع هليل كثيرا من المانجو والخوخ والتفاح والبرقوق والبرتقال وهى كلها أسماء يطلقها على الخيل . .

الشقتان على الكورنيش فى مواجهة المنيل حولناهما إلى مكتب للاستيراد والتصدير ، استيراد كل شيء يخطر على البال ، وتصدير كل مالا يخطر على البال .

اقترح بربش أن نوظف عندنا فى المكتب شخصيات كبيرة من رجال الاقتصاد ومن أساتذة الجامعات المتخصصين فى التجارة الدولية والمحلية ، ومن كافة التخصصات التى تخدم الإدارة ، وقام بنفسه

بالإرشاد إلى وزراء سابقين، ورؤساء مجالس إدارات أحيلوا إلى المعاش، وضباط أحرار متقاعدين، وضباط شرطة مغضوب عليهم، وما أكثر المغضوب عليهم يا بوى من أعلى الكفايات فى مصر، هذا ما كشفه لى بربش وهو يحكى لى عن عمالقة فى العلم والاقتصاد والسياسة والقانون غضبت عليهم الثورة السوداء فركنتهم وحاربت بعضهم فى رزقه وحريته.

جئنا بهم يا خال، أتى بربش بعناوينهم وأرقام هواتفهم ثم دعونا الجميع وعقدنا معهم لقاءات ومفاوضات ثم اتفاقيات ثم عقود عمل.

إن هى إلا أيام حتى صار المكتب يعج بذوى الرءوس العالية والكفاءات النادرة والأسماء الكبيرة الرنانة ممن كنت أظن أن مقابلة الواحد منهم مستحيل لعلو شأنه وارتفاع صيته ومقامه، فإذا بالفلوس لها فعل السحر يا بوى، الفلوس فى عصرنا هى القبلة التى أصبح يركع فى اتجاهها أعتى الرجال.

كلهم يا بوى تم توظيفهم عندى بمرتبات شهرية يسيل لها لعاب التخين، أرقام لم يسمعوا بها فى حياتهم خاصة بعد أن كانت الأضواء والخيرات قد انسحبت عنهم.

وأنت تعرف خصلة شعب الثورة يا خال، فمن تغضب عليه الثورة ولو بالإشاعة فإن حياته تصبح جحيما، يهرب منه الناس ويتم عزله، ولهذا فلا أستطيع وصف الروح الطيبة والحماسة التى أقبلوا بها على العمل..

هؤلاء يا خال هم الذين نظموا لنا المكتب من الألف للياء، وضعوا

هيكله الإدارى والتنظيـمى، ملؤوه بالعناصـر المطلوبة من خـريجى كليات التجارة والحقوق والزراعة والعلوم ومعاهد السكرتارية وكلية الألسن، هم الذين فتحوا عيوننا على نوعيات العمل، ما الذى يجب أن نستـورده الآن ومن أين؟ ومـا الذى يجب أن نصدره وإلى أين، وضعوا لائحة مطاطة بحيث يكون للمكتب صلاحيات بلا حدود فى البيع والشراء، حدّدوا حجم الميزانية المطلوبة أشرفوا على فتح حساب لها فى البنك الأهلى. عينونى رئيسا لمجلس الإدارة، فضلا عن كونى المالك، وعينوا بربش ـ بكثير من نبرة المجاملة مديرا عاما وكان بربش من الذكاء والإخلاص لى بأكثر مما قدرت، إذ نشن على واحد يعرفه جيدا من أعضاء مجلس الإدارة وطلب منى تعيينه عضوا منتدبا يتولى الإدارة الفعلية ويتحمل المسئولية كاملة على أن يظل منصبى شرفيا ومنصب بربش رقابيا سريا..

اشتغل المكتب يا خال عقبال أملتك ربنا يعطيك ويعطى كل مجتهد. صدق من قال إن أصحاب المال لا قلب لهم يا بوى..

هذا صحيح مائة فى المائة، فرأس المال خوان ونذل لا يعرف أباه ولابد أن يكسب الطاق عشرا وربما ألفا ليظل يحمى نفسه بالتكاثر المستمر، فهو إما أن يتزايد أو يتناقص وليس من حال وسط.

الانفتاح الذى مشاه أنور السادات فتح علينا أبواب الرزق بغير حساب استوردنا الجبن ولبن الأطفال والبولوبيف ولحوم الديوك الرومى والفراخ المجمدة وكافة المعلبات من مأكولات ومشروبات.

استوردنا الأخشاب بجميع أنواعها، العطور الأدوات المنزلية والكهربائية من سلع معمرة وأخرى غير معمرة. دخلنا فى علاقات مع

الشركات المتعددة الجنسية لبناء القرى السياحية فى أسوان والأقصر والغردقة ومرسى مطروح.

حصلنا على توكيلات من كبريات الشركات المنتجة فى العالم: السيارات والموتوسيكلات والدراجات وقطع الغيار، والسجائر الأجنبية التى أصبحت أنا وشلّتى من كبار مدمنيها.

ضاق السكان بالسكنى فى العمارة باتوا جاهزين لأى مساومة على الرحيل، رحلوا بالفعل مقابل تعويضات تملأ العين لكنها ملاليم بالنسبة لنا، فى ظرف شهر واحد أحال المقاول هذه العمارة إلى عروس تتصل شققها ببعضها فى جميع الطوابق بواسطة مصاعد داخلية صغيرة تنقل الأوراق والتأشيرات، أقمنا خزينة صرف ثانية كبنك صغير بنينا عدة عمارات جديدة فى قطع من الأراضى التى اشتريتها آنفا، جعلناها مخازن وأفرع إدارية فى وحدات متخصصة، منها وحدة للمتاجرة فى أراضى البناء وإقامة عمائر لشقق التمليك بأسعار خيالية، باتت مجموعة شركات الصفا والمروة أكبر بيت للمال فى مصر.

علمنى الجهابذة والأساتذة من موظفى كيفية إخفاء ثلاثة أرباع الأرباح فى البنوك الأجنبية بعيدا عن أخطار المفاجآت غير السارة، كما كانوا بارعين فى خلق مشاريع استثمارية تعفى من الضرائب لعدد من السنوات تشجيعا لها على منتجات تحتاجها السوق المحلية كمصانع للأسمنت وحديد التسليح ولابأس أن تقوم هذه المصانع بصنع أشياء أخرى.

قمنا بتصدير البطاطس والبصل والخضروات بجميع أنواعها والفواكه، والمنسوجات القطنية من ملابس داخلية وفوط وبشاكير

وملاءات وأطقم سراير وسجاجيد يدوية من شغل الكرداسة وكنت أرى الناس تدوخ وراء السلع المحلية فلا تجدها فأعرف أننا قد استنزفنا السوق كلها بل أوقفناها لأننا نتعامل مع المصادر نفسها نشترى الحدائق والحقول قبل نضج الثمر بوقت كاف ليتولى خبراؤنا رعايتها بالطرق العلمية الناجعة، نتعاقد مع المصانع عقود احتكارات طويلة المدى.

ذمة ودين يا خال كان قلبى يوجعنى حينما أرى الناس محرومين من خيرات بلادهم، ولكن ماذا يفيد وجع القلب؟ لقد أصبحت ماكينة العمل دائرة لا تستطيع إيقافها بأى حال، فجميع الموظفين يحصلون على حوافز وإضافيات وإكراميات تكفل لهم الاستغراق التام فى العمل بحماسة.

وكان بربش متألقا فى دفع العمولات والرواتب الشهرية لأعداد هائلة من المسئولين فى جميع الجهات..

البنى آدم منا طماع يا بوى لا يملأ عينيه إلا التراب، هكذا كان كل العاملين فى شركاتى وعلى رأسهم بسبوسة، لم أستطع إيقافهم عند حدهم، فجميعهم ناس يلعبون بالبيضة والحجر يا بوى.

سافرت معهم مئات المرات إلى جميع أنحاء العالم، أمال يا بوى: مال وحصانة، شفت لندن وباريس والهند واليابان وألمانيا وأمريكا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد وسويسرا والنرويج ناهيك عن تركيا وإيران وبلاد العرب، أترك المختصين يشوفون شغلهم فى التعاقدات والمعاينات، وأمضى بصحبة زوجى ومعنا ترجمان خاص من عشرات المترجمين العاملين عندى شغلتهم الترجمة من وإلى العربية وجميع اللغات، نتفرج على دور اللهو والمحلات نشترى كل مبهر من الطلبات

نأكل فى أفخم المطاعم نبيت فى أعظم الفنادق، آخر نزاهة يا بوى.

وكنت على يقين من أن المختصين بأمور البيع والشراء والتعاقد يتقاضون العمولات الكبيرة، وأطرمخ، فهذا رزقهم، ويابخت من نفع واستنفع ولكننى لم أعرف أنهم على هذه الدرجة من الفجور وانعدام الضمير يا خال: ما تكاد البضائع المستوردة تصل حتى افاجأ بأننى مطلوب للذهاب إلى الجمارك لتخليص إحدى الرسالات بمعرفتى مستغلا صفتى البرلمانية، لماذا يا ولد؟ يقال لى: هناك مشكلة بسيطة. أذهب يا خال، أفاجأ بأن الفحص الطبى قد أثبت أن صفقة الفراخ المجمدة كلها غير صالحة للأكل بعد أن فقدت عمرها الافتراضى من قبل أن نتعاقد عليها، فأبعزق بضعة آلاف من الجنيهات وبضع مكالمات هاتفية فيتم تعديل التقارير وتغيير الأوراق وأخرج بالصفقة كاملة غير منقوصة.

ما تكاد أيام قليلة تمر حتى أطلب ثانية: صفقة البولوبيف اتضح أنها معمولة أصلا للكلاب ومكتوب عليها هذا بصريح العبارة باللغة الأجنبية طبعا.

طلب ثالث: لحوم الديوك الرومى هذه ليست لها صلة بالديوك الرومى إنما هى طيور جارحة اصطيدت من الغابات وأعدت كطعام للكلاب أيضا. طلب رابع: الجبن والمكرونة ولبن الأطفال كله ملىء بالإشعاعات الذرية!! ما الحكاية يا بربش؟! إن مديرى المشتريات - يقول - يسترخصون ويدخلون فى هذه الصفقات المضروبة وهم على علم بأنها كذلك.

عال عال، وكيف يا رجل الرقابة تسمح لهم بهذا؟! أمن أجل

عمولات كبيرة تخرب بيتنا؟!

قال: بالعكس فإن الفروق الهائلة فى الأسعار تضاف إلى مكاسبنا ثم إن البضائع فى النهاية تباع فنحن نبيع لشعب يأكل الزلط ولا يعترض إنما الذى يعترض هم القاعدون للساقطة واللاقطة كى يسترزقوا من حجة تأدية الواجب وهؤلاء مقدور عليهم فى النهاية! وعلى كل حال خليك انت بعيد وأنا أتصرف سيكون تصرفى أقل تكلفة من تصرفك فأنت تنفق بسخاء لأنك طيب من ناحية ولا تعرف المختص الرئيسى من ناحية أخرى ووصولك إليه يكلفك إضافات باهظة أما أنا فأخرم على واحد بعينه قبل وصول الصفقة فينتهى كل شىء فى ستر وكتمان!!

قلت: «وهل يرضى ضميرك بهذا يا بربش؟!».

قال: «ضمير ماذا يا أبا الحاج؟! هل فى البلاد كلها شىء اسمه الضمير حتى نتمسك نحن به! الناس جعانة وحياتها أرخص من الأموال بكثير! اقتلنى وادفع لى هكذا يقول كل واحد فى البلد!! ألست تدفع عمولات ومرتبات لشخصيات كبيرة جدا من المفروض أن يحاسبوك ويحاكموك؟! إنهم إذن يوافقون على كل شىء! فكيف تحبكها أنت؟! حكامك أنفسهم أباحوا لك هذا بمجرد أن مدوا أيديهم لهبر المعلوم! بركة ورثك يا عبيط!! استهدى بالله ولا توقف حالنا بعد أن جاءت الدنيا إلينا فى أواخر العمر!!».

ما أسكتنى يا بوى هو أننى ثور الله فى برسيمه فى مسألة الإدارة هذه. ثم إن ماكينة الشغل تضخمت وقويت تروسها وتشعبت وتداخلت فروعها واتجاهاتها وأغراضها أصبحت شيئا منفصلا عنى يا خال، لم أعد قادرا على السيطرة عليها فأخذت للراحة والاستمتاع

بآطايب النعيم من كل ما قلبك يحبه ويتمناه ، صارت مهمتى تنحصر فى عد الفلوس العائدة كقواديس تصب الفلوس فى جيبى بغير توقف ومن كل ناحية وكانت زوجتى ـ التى شجعتها على مواصلة التعليم الجامعى ـ تقرأ لى التقارير النهائية واشعارات البنوك عصر كل يوم فى شرفة القصر المطلة على المقطم ، تقول إن ثروتنا باسم الله ما شاء الله لو وضعت فوق بعضها لصارت كهذا الجبل !

الأرباح فى تزايد أى نعم يا خال ، لكن الرائحة فاحت فى كل مكان ، والأمراض بدأت تنتشر بين الناس من سرطان إلى التهاب كبد وبائى إلى فشل كلوى إلى تسمم إلى ارتفاع فى ضغط الدم ، كما أن ضبط الرسائل لا يتوقف والبرطيل فى تزايد نشوان ، حيث امتدت جهود بعض الكبراء من العاملين عندى فشهدت القاهرة نشاطا كبيرا فى الندوات والمؤتمرات حول تلوث ماء النيل الذى يسبب كل هذه الأمراض .

وكنت أرى صور رجالى فى الصحف وهم يتحدثون فى المؤتمرات والتحقيقات الصحفية باعتبارهم أساسا من أكابر العلماء ، فاندهش من هذه الازدواجية التى تنطوى عليها شخصيات كبار المتعلمين فى بلادنا بحيث يحمل الواحد منهم الضمير ونقيضه معا .

الدليل على ذلك هذه التقارير المغرضة التى يكتبها بعض أطباء الرقابة الصحية بعد أن يظرفهم بربش بالمعلوم ، إذ تقول بكل علمية أن المادة المسممة فى الفراخ المجمدة واسمها السلمونيلا توجد فى جلد الدجاج فقط وأنها تموت على النار ولهذا فمن الأفضل شوى الدجاج بدلا من سلقه ، وفى حالة سلقه تنزع قشرة الجلد وترمى .

طب ماقولك يا بوى أننى يا صعيدى ضحكت من هذا التقرير الفكاهي وظننت الطبيب يسخر منا ومن كافة عقول شعبنا الطيب، ومع ذلك حاجة تهوس يا بوى.

تناقلت الصحف هذا التقرير بكل احترام وتوقير وردده الناس في اقتناع.

الناس فعلا جعانة يا بوى والجائع يمكن أن يصدق كل شيء ويقول ما تطلبه أنت. أذكر كلمة لعمى الفقيه الكبير قالها ذات يوم ورسخت في بالى: قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: «لا تشاور من ليس فى بيته دقيق».

فعلا يابوى صدق الإمام الشافعى، إذ كيف تنتظر من الجائع أن يعطيك المشورة فى شيء؟ فى انتخاب أو تقرير أو شهادة؟! مستحيل يا بوى وإلا ما ظهر مثل شعبى يقول: «إحيينى اليوم وامتنى غدا!.

يبقى ضميرى أنا يا خال، وخوفى من نقد الشيخة سعادة لو علمت أن شركاتى هى المتسببة فى كل هذه المصائب الكبيرة. ضغط شبح الشيخة على نافوخي ذات يوم ففكرت فى حل هذه الشركات. فلما صارحت زوجى بهذه الرغبة صرخت فى وجهى: لاتكن فقريا وتسد نهرا سيروى نسلك الكثير من بعدك! هذه فكرة عبيطة يا أبا أدهم فالشركات أصبحت أشد رسوخا مما تتصور والقائمون على إدارتها لن يمكنوك من هذا وربما اشتروها منك بتراب الفلوس فلا أنت أوقفت الغش ولا أبقيت على نهرك الفياض فاحمد الله واسكت ودع الملك للمالك ولاتزن على خراب عشك لأن حل الشركات ربما يؤدى إلى تقديمك للمحاكمة لأنه اعتراف بعدم سلامة العمل!!

طبعا يا خال ، فقد باتوا عصابة قوية متماسكة مستعدة للدفاع عن مصالحها بكل نذالة ، سيما وأنهم جميعا قد ملينوا وصارت أرصدة لهم خصوصية مثلى فى بنوك العالم .

انفصلت عنهم ظاهريا فحسب ، بمعنى أن شركاتى راحت تمارس فسقها فى واد ، وأنا فى واد آخر ذلك الرجل الصالح فعال الخير ، الذى يتبرع بالأموال الطائلة لكل مشاريع البر والإحسان يقيم فى كل عام قرعة للسفر إلى الحجاز على نفقته يفوز فيها أكثر من ثلاثين حاجا ، ويخصص عمارة بين كل خمس عمائر مما تقيمها شركاته للعرائس الغلابة ، صحيح أن معظم شققها يذهب إلى أبناء كبار رجال الدولة المهمين ولكن هناك من يأخذ نصيبه من العامة كما أن أبناء كبار رجال الدولة هؤلاء يمكن ادراجهم ضمن المحتاجين أيضا يا بوى .

وهكذا ملكت البلاد من أقصاها إلى أقصاها يا بوى .

ملعوبة

الرجل الواعر خيَّبَ كل توقعات العالم يا خال. ظل ثلاث سنوات يتذرع بالضباب الذى يملأ الأفق أمامه، يعشم الناس بالإصلاح، يزعم أن الرخاء قادم لا محالة يسافر إلى روسيا للتفاوض مع الزعماء السوفييت على أسلحة، زعماء السوفييت يظهرون له الاحترام والتوقير وهم فى حقيقة الأمر يحتقرونه يستهزئون به، وذلك ـ كما يقول بربش ـ لغبائهم الشديد فى السياسة الخارجية، والأخص فى علاقتهم بمصر والعرب كما أضاف بسبوسة..

كان المفهوم لنا أن عملاءهم فى مصر من ألاديش عبد الناصر يوهمونهم أن السادات لن يستمر فى الحكم أكثر من شهور معدودة لأنه غير محبوب من جماهير الشعب العاملة ولأنه من ناحية أخرى غير كفء لحكم دولة كمصر، وأنهم هم الذين ساعدوه على النجاح فى الانتخابات إنقاذا لثورة يوليو وهيبتها من الضياع.

وحتى حينما هزأ هو بهم وأودعهم السجون ظل السوفييت على وهمهم بأنه غير باق فى الحكم، فراحوا يماطلونه، حتى فوجئوا به يفعل

بهم ما فعله فى مراكز القوى فى لحظة غير متوقعة : طرد خبراءهم من مصر شر طردة .

وبدلا من الكلام فى الحـــرب راح يتكلـم عن الســـلام ، يقـــبل المبادرات ، ويقـترح المبادرات ، وهو ماء من تحت تبن يابوى و . . هب للنبى ، فوجئ الناس كلهم بأن قواتنا الباسلة عبرت خط بارليف المنيع .

تصور يا خال أننى ليلة خمسة أكتوبر لبيت طلبه فى الهزيع الأخير من الليل ، فـذهبت إليـه فى مكـان سـرى بعـيـد لـم أتبـينه لأن سـيـارة المخابرات التى أقلتنى إليه كـان زجاجهـا حـاجبـا للرؤية إضافة إلى أن الوقت كان ليلا .

سهرت معه أقلب فى القديم وفى الجديد ، ولكى أضحكه كما أراد :

ـ «عـاوز أضـحك يا حسن ! نفسى مفتوحة للضحك الليلة بشكل غـريب لدرجة إنى فكرت أبعث أجيب العيال بتوع مدرسة المشاغبين وثلاثى أضـواء المسرح يعملوا عـرض خـاص هنا لولا أن الوقت تأخـر والظرف مش مناسب ! ! » .

قلت له :

ـ «مشاغبين وبتاع مين يا سعادة الرئيس؟ وسع لى وسع ! » .

صـرت أتشـقلب مـثل القـرد ، وأفـعل مـالا يخطر على البـال من حركات فكاهية ، وهو مستغرق فى الضحك لكن على من يابوى؟

أنا أعرف الضحك الأصلى من الضحك التقليد . ضحك ليلتذاك كان ضحكا برانيا مغشوشا . مما جعلنى أفكر فى سكك بعيدة تصورت

أنه متخانق مع الجماعة فى البيت ويريد النسيان لكن يظهر أن الخناقة كانت حامية خصوصا أنه يحب جماعته بشدة والجماعة أشداء بعض الشيء عليه لثقتهم فى مكانتهم عنده. وإذا بهذه الداهية يابوى قد أمضى قرار الحرب وانتهى الأمر وكان القلق يطارده وهو يحاول الهروب منه بأى شكل.

لم تجئ سيرة الحرب فى سهرتنا إلا بكلمة واحدة عابرة على الماشى حينما سألنى فجأة:

ـ «إلا قوللى يا حسن! أنت تبرعت للمجهود الحربى ولا لأ؟!».

صحت بصوت جهورى:

ـ «طبعا يا سيادة الرئيس! دفعت ثلاثة آلاف جنيه حتة واحدة!!».

تراجع بذقنه فى استنكار:

ـ «بس؟!».

ـ « هل هناك من دفع أكثر منى؟!».

ـ «أوهو.. وه! الناس الطيبون كثار فى مصر! الأخوة المؤمنين بالله والوطن! على كل حال! ادفع خمسة لتتساوى رأسك برأس الكبراء المساهمين! الجيش محتاج لنهر من الفلوس!!».

ترددت بعض الشيء بحثا عن الرد المناسب، لكنه أسكتنى برفع ذراعه:

ـ «بكرة تذهب إلى إدارة المجهود الحربى وتدفع خمسة آلاف أخرى! حرب الاستنزاف مصت دمنا يا حسن لابد من وقوف كل

المؤمنين بالله معنا فهذه حرب مقدسة!!».

ـ «أمرك يا سيادة الرئيس! هناك دفتر الشيكات إملأ منه شيكا بالمبلغ المطلوب وأنا أوقعه وتتفضل سيادتك بإرساله للإدارة!».

وكتبت شيكا باسم المسئول عن المجهود الحربى فنادى سيادته على شخص، سلمه الشيك أمره بتوصيله إلى إدارة المجهود الحربى من صبيحة ربنا..

الحرب قلبت كل الموازين يا بوى. فرحة المصريين لم تكن تقدر بمال. وفرحتهم بأنور السادات كانت لا مثيل لها.

فجأة أصبح أنور السادات بطلا من أعظم أبطال مصر. مع ذلك فإن بربش أعلن سخطه عليه وعلى الصحافة والإذاعة. مالك يا بربش؟ ماذا يغضبك والناس كلها فرحانة؟!..

ـ «كيف يسمح للإخوان المسلمين بالركوب على هذا النصر العظيم؟! إياك تظن أن أنور السادات هو الذى انتصر فى الحرب!! لا المنتصر الفعلى يا أستاذ هو الشعب المصرى! إذا كان هناك مجموعة من تجار الإخوان المسلمين تبرعوا للمجهود الحربى بمبالغ كبيرة جاءتهم من مشايخ النفط! فإن الذى حارب هو الجندى المصرى! أبناء الفلاحين والعمال هؤلاء هم الذين حاربوا بغل شديد وانتقموا لأهلهم أرادوا الخلاص من العار! ودماؤهم فى سيناء تشهد على أربع حروب ضارية! فكيف يجىء الإخوان المسلمون اليوم ويركبون على النصر؟ ويقول عملاؤهم فى الصحافة والإذاعة إن هذا النصر تحقق لأن ملائكة من السماء يلبسون الأبيض فى أبيض نزلوا إلى الميدان وشاهدهم الجنود

وهم يطيحون فى العدو؟! ما هذا التخريف يا مسلمين؟! هذا معناه يا أستاذ أن هذه الفئة المخرفة ذات العقول الخربة تحرم الشعب المصرى من الشرف الوحيد طول تاريخهم الحديث! معناه أن المصريين ليسوا أقوياء ولا يحزنون والنصر جاءهم على الطبطاب!! غلطة أنور السادات أنه سمح لهذا الكلام المضحك أن يتردد فى الصحف والإذاعة بحجة أنهم يريدون جذب الناس إلى الإيمان كأنهم يريدون القول إن ثورة يوليو الاشتراكية الشيوعية جلبت علينا الهزائم فلما تخلصنا منها كافأنا الله بالنصر كلمة حق يراد بها باطل! والحقيقة إن الإخوان المسلمين طلعوا من جحورهم بدأوا نشاطهم بالركوب على نتائج حرب أكتوبر العظيمة ومن الآن فصاعدا يجرون الناس إلى البلاهة والدروشة حتى تسترد إسرائيل أنفاسها وتهجم علينا ونحن حينئذ نجرى لنصلى صلاة الاستسقاء وصلاة النصر ننتظر نزول الملائكة لتحارب نيابة عنا كما فعلت!! سننصرف كلية للتعبد وعلى الله أن يكافأنا بإرسال الملائكة تدافع عنا!! لا يا أستاذ أنور السادات لم يعجبنى فى هذه النقطة وفى نقاط كثيرة أخرى! إنه الآن يعتبر متحالفا مع التيار الإسلامى المتطرف وهو يتحالف فى نفس الوقت مع أمريكا لصالح إسرائيل ألم يوقف إطلاق النار حتى تمكنت إسرائيل من الاختراق وتطويق الجيش الثالث والوصول إلى السويس؟! لا يا أستاذ! المسألة غامضة وفيها أسرار كثيرة وربنا يستر!!».

بينى وبينك يا بوى اغتظت من بربش ومن كلامه المسموم هذا، لقد سمم فرحتى يا بوى. لكننى تعودت دائما أن أتشرب كلامه وأستنير به إذ هو يفهم فى السياسة ربما أكثر من أنور السادات. وهذا ما جعلنى

أشعر أن شخصيتى كثيرا ما تنقسم على نفسها حتى أصبحت أؤمن بالشيء ونقيضه معا، وأصبحت غير قادر على البّت النهائى فى أى مشروع من المشاريع دون وجوده.

فعلا يا خال صدقت نظرة بربش، فوقف إطلاق النار نكد علينا قطم فرحتنا قطم الخيار، نصف الفرحة بقى، النصف الآخر أكلته الثغرة التى فتحها الجيش الإسرائيلى فى قلب جيشنا ما كسبناه فى الحرب خسرنا أضعافه فى هذه الثغرة يابوى.

أمواج السخط بدأت ترتفع يا خال منذ بدأ السادات يتكلم عن السلام والصلح مع إسرائيل. أنصاره يقولون إن الصلح هنا لا عار فيه لأنه يتم بعد الانتقام ورد الهزيمة فهو إذن صلح من منطق القوة.

والحكماء ممن أقابلهم من أبناء الشعب يقولون إنه فى النهاية صلح مع العدو، والصلح مع العدو قبول للعدو وتسليم بكل شروط عيشه فى المنطقة إلا أن أنور السادات فاجأنا بقوله بأعلى صوت أنه مستعد فى سبيل السلام ـ أن يسافر إلى إسرائيل.

كلنا تصورنا أنه يمزح يا بوى، ولعله شرب حجرين من صنف ردىء هيأ له مثل هذه التخيلات الضارة. قامت قيامة البعض، وانكتم البعض كتمة العدس، وهاجت الأغلبية المسماة بالمنسحقة صار الشارع يغلى بالتناقضات: شتائم صريحة فى أنور السادات، مدح كبير فى أنور السادات.

المهلباتية وتجار المخدرات وثعالب الأسواق والحرامية كلهم كانوا مبسوطين من السادات آخر انبساط، يقولونها لبعضهم البعض

صراحة: من لا يعمل ثروة كبيرة في عهد أنور السادات سيحكم على عياله بالجوع مدى الحياة وهذا صحيح يابوى: عصر أنور السادات عصر سبهلله، عصر يابخت من نفع واستنفع انهب واسرق وكوم ثروة كما تشاء بأى شكل تشاء فلن تجد من يحاسبك مادمت تلحلحت وفتحت مخك فأعطيت للجميع من «الحب» جانبا . .

لكن ولد الأبالسة من كارهى السادات يريدون قطع رزقنا صارت الجرائد كل يوم تطالعنا بأخبار القبض على تنظيم سرى، شيوعى أو إسلامى متطرف، تحلف اليمين يا خال أنه لا يمر يوم واحد دون خبر اكتشاف تنظيم سرى يعمل لقلب نظام الحكم ضبطت فى حوزته منشورات وأسلحة وأموال وخرائط وقوائم شخصيات عامة مرشحة للاغتيال، حتى ذعرت، فلو كان هذا صحيحا يا خال فإن الشعب كله يكون قد تحول إلى تنظيمات سرية تعمل على قلب نظام الحكم فى البلاد، إذن فالحكومة فى هذه الحالة غير شرعية، وتعتبر مغتصبة للسلطة.

جاء علينا وقت نكاد نستورد فيه وكلاء نيابة بأعداد هائلة تكفى للتحقيق مع كل هذه الأعداد المهولة من التنظيمات السرية المعادية للحكومة لأن جميع وكلاء النيابة باتوا يستنزلون اللعنات على النبوى إسماعيل الذى يستكردهم كل يوم بتنظيم يحتاج التحقيق فيه إلى جهاز كامل وهم - على كثرتهم - أقل عددا من حجم هذه التحقيقات والقضايا، والمحاكم ازدحمت بمئات الألوف من المشتبه فيهم لأسباب واهية بلهاء، وحتى لقد خيل لى يابوى أن النبوى إسماعيل عقد اتفاقا مع أحد مقاولى الأنفار، أو موردى الكومبارس، لتزويده بكل هذه

المجاميع التعسة ليشتغلوا متهمين كعمال موسميين . .

كنت أرى هذا وأغتاظ من غباء الحكومة التى لا تريد أن تدعنا نشوف شغلنا فى ستر وهدوء بال، وتخلق لنا التوترات المزعجة بتلفيق القضايا وتنشرها فى الصحف والإذاعات .

فلتقبض على من تشاء يابوى فهى حرة ولكن لماذا الفضيحة؟ تريد أن تطلع الرأى العام كى تكسبه فى صفها؟ رأى عام ماذا يا خال؟! هل بقى هناك رأى عام ولا زفت؟! الحكومة تفعل ما تشاء وصحفها شغالة فى التسبيح بحمدها ومن يتمرد يأخذ بالحذاء على أم رأسه فعلام الفضائح والشوشرة التى تقلق راحتنا وتلفت الانتباه إلينا؟! . .

أصبحت أعتقد أن الحكومة ظلت تلفق وتلفق حتى صدقت نفسها، وصدقها الواقع هو الآخر، أصبحت هناك تنظيمات سرية بالفعل تعمل على قلب نظام الحكم، وأخشى ما أخشاه أن تضطر الحكومة ذات يوم للقبض على الشعب كله . مجنونة وتفعلها . ولكن هل ترانى استطيع الجهر بهذا الرأى ولو من باب الحرص على مصالحها؟ حاشا وكلا سينظرون لى نظرة استرابة والنبوى إسماعيل جاهز فى كل لحظة لاكتشاف كل ما ورائى من تنظيمات سرية، ولديه الوثائق الدامغة على الدوام وفى الحال .

فهل أنا مجنون يا بوى؟! من يحمل قربة مثقوبة تخر على دماغه . مع ذلك فأنا أدعو ليل نهار : يارب احفظ لنا أنور السادات .

الكتـاب الرابـع

الفـــــورة

١

ما كنت أتصور مطلقا يا خال، وما كان يدور بخلدى، أن الشيخة سعادة بجلالة قدرها ـ شقيقتى من لحمى ودمى وبنت أبى وأمى ـ يمكن أن تقاطعنى، بل أن يصل الأمر بيننا إلى حد الصدام. أكثر ما كنت أخشاه أن تعاتبنى مثلاً أو تلومنى بشدة على ما تفعله شركاتى فى البلاد من نهب وهبر وتسفيح. وهذا ما حدث كثيراً بالفعل يا خال ربك والحق، غير أننى ظننت أن الأمر يقف عند هذا الحد، ولم يكن ذلك الظن إلا قلة مفهومية من جانبى.

فذات ليلة عصيبة ـ والبلاد كلها مقلوبة بحادث اختطاف الشيخ الذهبى واغتياله بأيدى جماعة التكفير والهجرة التى أعلنت ـ لأول مرة فى تاريخ مصر ـ مسئوليتها عن الحادث ـ فوجئت بالشيخة سعادة تزورنى على غير انتظار كعادتها دائمًا، يرافقها هليل هذه المرة، وهو الذى قاد سيارتها المرسيدس الخاصة السوداء ذات الستائر والزجاج الحاجب. كان من الواضح أن العلاقة بينهما دخلت فى طور جديد يا خال، صار الحب القوى الجارف بينهما معلنًا سافرا مبطنا بالاحترام والمعزة والفضيلة التى أعرفها فى كليهما. بدا لى أنه لم يبق إلا أن يعلنا عقد القران ولكن بعد قليل، ربما انتظاراً للوقت المناسب. ولم يكن ذلك ليقلقنى يا خال، بل لعلنى على يقين تام بأنه لو تم يكون أنجح قصة حب حقيقى على ظهر الأرض، ويكون أعدل زواج تم بين اثنين كلاهما يتبتل ويتفانى فى حب الآخر كما لمست بنفسى يا بوى. .

إنما القلق جاءنى من حالة التجهم الشديد التى شملتهما فى زيارة

تالية، لدرجة عدم الاستجابة للفرحة المعلنة بقدومها، والتى ترددت أصداؤها الصاخبة من أول الخفير فالحارس فالجناينى فالتشريفاتى الذى صحبهما من مدخل الحديقة حتى منتجعنا فى الطابق الثالث، وما أبديناه جميعًا من مظاهر الحفاوة، إذ نودى على الطباخ والسفرجية فى الحال لتجهيز العشاء. كل ذلك لم يلق منهما أى بادرة اهتمام أو امتنان أو انبساط، مما بعث فينا توجسا كبيراً. .

من سذاجتى يا خال تصورت أنهما مأخوذان مثلنا بهذا الحادث الجلل. فما أن جلست قبالتى فى الركن المضاء فى الردهة الكبيرة حتى بادرتها قائلاً:

ـ «البقية فى حياتكما! ربنا يستر على مصر من هذه العصابة السوداء العمياء القلب! أفينبغى أن نعامل شيخًا تقيًا ورعا بكل هذه الوحشية! نضربه بالرصاص فى رأسه؟ الذى امتلأ بعلم الله والقرآن والسنة والحديث! تلك والله علامة من علامات الساعة!!».

فكأننى لم أقل شيئًا يا خال. لم يبد عليهما أدنى تأثر، كلاهما جالس فى أدب واحتشام وتزمت كضيف غريب غير آمن غدر مضيفه. حينما جاء السفرجى الأسود اللطيف بملابسه الزرقاء المزركشة بالقصب الأحمر، ووضع أمامهما عصير المانجو صائحًا فى غبطة ومرح كالعادة: «مرحب ستنا الشيخة»، لم تبتسم له كالعادة أو تلاطفه؛ إنما اكتفت بهز رأسها بوجه مقطب، بلهجة من يريد قول: إخرس. فارتد الرجل مأخوذا ومضى يتصبب عرقًا. أبدا ليست هذه هى الشيخة سعادة يا خال؛ وليس هذا هو هليل الفياض بالدفء والمودة، فسرت ذلك ـ أيضا بأنه ربما كان شدة تأثر بالحادث الأليم، فاستطردت:

ـ «لابد أن يأخذوا هذه العيال بالشدة!! لابد من تعليقهم فى المشنقة فى ميدان عام وإلا عمت الفوضى وخربت البلاد!».

فإذا بها تصيح فى غضب من بين أنيابها:

ـ «لم لايعلق غيرهم»» قبل أن تطلب هذا لعيال أبطال مجاهدين كهؤلاء لا يعجبهم الحال المائل وحالة الكفر التى تفشت فى البلاد اطلبه للمجرمين الأصلاء الذين يتاجرون فى قوت الشعب وفى أرواح الناس يبيعون البلاد للأعداء!!».

دُشٌ بارد انفتح فوق دماغى ياخال، برد كل شىء فى جسدى حتى صرت أقاوم الرعشة، تملكتنى حمى مفاجئة فغامت الأشياء فى نظرى وخيل لى أننى صرت عاريًا فى مهب ريح عاصفة. لذت بالصمت طويلاً، رشفت جرعة من كوب المانجو أبل بها ريقى الذى جف كالعصا، ثم أشرت لهما على الأكواب:

ـ «تفضلاً!».

ـ «شكرًا!».

نطقاها فى نفس واحد بصوت مشروخ من شدة الصمت، حاسمة باترة تعنى رفض الشرب بصريح النبرة. اعتقلت دموعى شعرت بها تنزل فى صدرى:

ـ «ما الأمر يا جماعة؟! حالكما لا يسر!!».

لحظتها كانت زوجتى قد أنهت ارتداء ثيابها الرسمية وجاءت تجرى من الطابق الرابع معلنة الترحيب بصوت يسابق صوت خطواتها على

السلم الخشب الجعجاع :

ـ «ما كل هذا النور؟ من العصر وأنا أشعر أن طيفا من الجنة فى طريقه إلينا!» .

لَمّا اندفعت نحو الشيخة سعادة لكى تأخذها بالحضن فوجئت بها ترتد قليلاً ، وتمد يدها الملفوفة فى الطرحة لتسلم عليها من بعيد فى أنفة وتأفف . أما هليل فقد لف يده هو الآخر فى منديل قبل أن يسلم . غلت الدماء فى عروقى يابوى ، غرقت زوجتى فى الحياء والخجل وقد انطفأت فرحتها ؛ لكنها جلست على كرسى مجاور للشيخة سعادة مستأنفة الترحيب بها كأن شيئًا لم يكن .

ـ «أهل البلد كلهم بخير؟!» .

ـ «الحمد لله!» .

ملت على هليل :

ـ «ما الأمر يا هليل؟!» .

صوت جديد وغريب فى حنجرة هليل أجاب :

ـ «يستحسن يابو العم أن نتكلم فى حجرة مقفلة بعيداً عن الخدم والسفرجية!! هناك أمور جئنا لتصفيتها!!» .

ـ «أهى أمور تستدعى أن يكون منظركما هكذا؟ انظر بجوارك فى المرآة لترى غضب الله على وجهك ووجهها! عمرك ما كنت هكذا ولا هى! ما الحكاية بالضبط يا هليل؟!» .

نكس هليل رأسه ؛ وردت الشيخة سعادة :

ـ «بعد قليل تعرف كل شىء!!».

ـ «هل زوجتى ممن لا يجب حضورهم؟!».

ـ «لتبق إذا أرادت! هى وشأنها!!».

تقدمتهم إلى الطابق الخامس والأخير، حيث توجد حجرة مزنوقة فى جدار المقطم بشرفة عريضة تشبه المحراب أو الخلوة كنت أحب الصلاة فيها بل كنت قد أعددتها خصيصًا من أجل الشيخة سعادة تختلى فيها حينما تكون فى ضيافتنا وأسميناها محراب الشيخة سعادة. جلسنا متربعين فوق الشلت:

ـ «خير يا ستنا الشيخة؟!».

ـ «شف يا خوى! لقد نصحتك كثيراً لكنك تصر على أن تستمر فى الضلال!! أنت بكل صراحة تعتبر فى نظرى ونظر الشرع من أكابر المجرمين فى البر المصرى! كل ثروتك التى جمعتها من وراء شركاتك المتعددة هى حرام فى حرام! أنت تقبل الحرام على نفسك وأولادك أما أنا وهليل فلا! سننفق كل ما نملكه فى البر والإحسان!!».

ـ «كسبنا صلاة النبى!».

ـ «لا تذكر اسم النبى على لسانك لأنك تفعل كل ما يغضب الله ويغضبه! لقد حاولت أنا أن أطهرك أنقلك من الوحل الذى كنت فيه! بذلت كل ما أستطيع لأجعل منك كبير قوم لعلك تعود إلى الله مؤمنا كامل الإيمان لكنك مع الأسف الشديد كبرت فى الضلال أيضا! وبعد الانحراف أصبحت غارقًا لأذنيك فى الرذيلة!! صلاتك باطلة من أساسها إن كنت لا تزال تركعها!!».

ـ «اللهم طوِّلك ياروح!» .

ـ «جئتك الليلة لأضع حدًا لهذا الكفر الذى تجره علينا أنا وهليل بغير ذنب جنيناه! ولكن كيف؟! أقول بغير ذنب فى حين أننى المذنبة الكبرى؟! ليتنى تركتك مجرد لص صغير يسرق أفرادًا لكننى مع الأسف كبرتك لتسرق شعبًا بأسره! الناس الذين انتخبوك نسيت أمرهم لم تقدم لهم آية خدمة حتى كرهوك! أما هذه الأموال التى تدفعها كما تقول الصحف لأعمال البر والإحسان فخير لك ـ إن كنت تدفعها بالفعل ـ أن توفرها على نفسك لأن حسنة واحدة لن تكتب لك بسببها فهى من الحرام! عذرى عند الله ـ إن قبله سبحانه وتعالى ـ أننى قصدت الخير يوم وقفت معك كما أننى نصحتك مرات ومرات فلم تهتد ومن الواضح أن الله لم يكتب لك الهداية بعد!!» .

انسحبت زوجتى من لسانها غاضبة :

ـ «هذا كثير علينا ياستنا الشيخة! الإنسان لا يجب أن يهان فى بيته إلى هذا الحد حتى ولو من أخيه ابن أمه وأبيه!!» .

سلقتها الشيخة بنظرة حارقة :

ـ «لو كنت مكانك لهجرت هذا البيت سكنت فى عشة فراخ أطهر منه وأشرف!! هذا القصر المبنى بجماجم الفراعين القدامى! ودم الغلابة المساكين الذين ماتوا بأغذية مسممة يستوردها زوجك هذا والشقق السكنية التى تكلفت الملاليم وبيعت بشقاء عمر كامل فى الغربة! إن الذين ماتوا فى النكسة وفى الحرب الأخيرة لا يستاهل أهلهم أكل الفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب ولا أن يشرب أطفالهم حليبًا

ملوثًا بالإشعاع الذرى!!».

تفجر الغضب على وجه زوجى وانسابت الدموع على خديها غزيرة مهانة

ـ «هذا ما لم أكن أنتظره منك أبدًا ياستنا الشيخة!! طول عمرك لسانك لا يعرف العيبة فكيف يطول علينا هكذا مرة واحدة؟!».

قلت على سبيل المزاح لأطيب خاطرها:

ـ «يظهر أن ستنا الشيخة انضمت إلى جماعات التكفير والهجرة وها هى ذى تتشطر علينا وتكفرنا فى عقر دارنا!».

قالت بجفاء:

ـ «أنا لا أنضم لأحد الناس هى التى تنضم لى وأنت تعرف! إن كان ولا بد من الانضمام فاعتبرنى منضمة لطريق الجهاد فى سبيل الله طول عمرى ولا يصح أن أكون مجاهدة ويكون أخى فى هذا الفسق والضلال تحت سمعى وبصرى! وقد قال الرسول عليه السلام من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان!! ولما كنت غير ضعيفة الإيمان فإنى نويت أن أغير هذا المنكر بالوسائل الثلاثة: اليد واللسان والقلب!!».

رمقتنى زوجى بنظرات مشحونة بالانفعال، فيها فضول وتحريض. وكنت قد غضبت بالفعل وتعبت من نزيف كرامتى؛ قلت بلا مبالاة وبرود:

ـ «زين والله زين! أرينى إذن كيف ستفعلين!!».

قالت ببرود أشد:

ـ «أما باللسان فقد فعلت! وأما باليد فهو ما جئت من أجله اليوم أنا وهليل لنقول لك إن محامينا الخاص سيمر عليك ليفض الشركة التى بيننا!! إما أن تبيع لنا وإما أن تشترى ولكننا فى الواقع نحب أن نشترى لأننا حرّمنا فلوسك الملوثة ولا يصح أن نمسكها أو نخلطها بفلوسنا!! سنشترى منك وقد نبيع لغيرك أو لا نبيع هذا شأننا!!».

ـ «ما بينى وبينكما هى المزرعة فحسب!! خذاها إذن بكاملها ووصلنى ثمنها! إنك فى نهاية الأمر شقيقتى وهليل صديق عمرى!

بعد صمت طويل نطق هليل:

ـ «كنت صديقك فيما مضى! أما الآن فلا!!».

خبطت زوجتى على صدرها فى هلع وقد عراها التوتر والخوف فانتفشت صارت كالبلونة الموشكة على الفرقعة. أردفت الشيخة سعادة:

ـ «شقيقتك هذه لم يعد لها وجود! انتهت رسميا وعمليا من الحياة! اختفت! الجالسة الآن أمامك هى الشيخة سعادة!!».

ـ «حتى علىَّ أنا الآخر هذا الكلام؟ لقد دفناه سويا!! أنا تسترت عليك وهذا يكفى!!».

ـ «أنا لم أدفن معك شيئا! الماضى هو الذى اندفن بإرادتى وبفعلى أنا وقدرتى أنا! ولو أنك حاولت كشفى فلن يصدقك أحد! أما أنا فلو تكلمت فأنت تعرف جيداً ما تفعله كلمتى فى أكابر الرءوس!! التى

تكلمك الآن هى الشيخة سعادة بمعنى الكلمة!! أقصد التى تغير قلبها من ناحيتك!!».

كدت أبكى يا خال، لكننى أدركت أن أوان البكاء لم يحن بعد، وأننى يجب أن أعالج هذه الأزمة الداهمة بأقصى ما أستطيع من هدوء أعصاب. انغلق دماغى واسودت الدنيا كلها فى عينى، فلو أنا بعت لها المزرعة فلست أضمن أن تبيعها لجار سيئ ينازعنى فى ملكيتى يصبح شوكة فى جنبى، قد يهد المزرعة ويبنيها محلات أو ورش؛ فى نفس الوقت هى رافضة قبض فلوسى فهى إذن تريد أن تضايقنى والسلام. فى قلب هذه الحيرة نط بربش فى رأسى فتشعلقت به.

* * *

دخل بربش علينا كمانيكان يستعرض الأبهة والفخامة بملابس اشتراها من أشهر بيوت الأزياء فى العالم كانت رائحة الخمر واضحة مع أنه كان فى غاية الاتزان. أجلسته بجوارى. لم يكن قد دخل هذه الخلوة من قبل، ولذا راح يتلفت حواليه فى شغف مستطلعا جمال زخرفتها ومشغولاتها سقفها المقبب المليء بالمنحوتات والبروازات. وكانت الشيخة سعادة ترمقه فى تأفف واحتقار ظاهرين، إضافة إلى أنها لم ترد عليه السلام لكنه لم يكن من النوع الذى يتأثر بسهولة بل هو يتلذذ باللامبالاة فى مثل هذه المواقف إمعانا فى الكيد للطرف الآخر. فى أثره مباشرة جاءت صينية القهوة التى طلبها وهو يصعد السلم. قال بربش بروحه العملية السريعة الإيقاع فيما يرشف القهوة والدخان معًا بشراهة:

ـ «شغلتنى يا رجل! أنا تحت أمرك!».

تفكرت قليلاً قلت له :

ـ «جاءتنى الآن برقية عاجلة من الصعيد من شركائى فى المزرعة يطلبون بيع نصيبهم بشرط ألا أشتريه أنا لأنهم يستحرمون فلوسى وأنا أخشى أن أبيعها لهم فيبيعونها بدورهم لواحد غير مضمون السيرة يكون شوكة فى جنبى فبماذا تشير علىّ لحل هذه الورطة البايخة؟ السخيفة؟ مع ملاحظة أن محاميهم سيصل صبح الليلة للتخليص!!» .

بلا مبالاته الخفيفة الظل قال :

ـ «يعنى شركاؤك هؤلاء يعتبرون أن أموالك ملوثة كأموال تجار المخدرات والقوادين؟!» .

صاح هليل على غير انتظار :

ـ «بالضبط يابو العم! هم يرونها أسوأ من هذا إذا لم يعجبك!!» .

لم يلتفت إليه بربش، لم يعره أدنى التفات، بل رشف ما تبقى من الفنجان ثم جعل يهز الفنجان بهدوء وجسده يتراقص ليذيب البن المترسب فى قاع الفنجان للرشفة الأخيرة التى طوح بها فى فمه ثم وضع الفنجان فى الصينية وجذب نفسًا من السيجارة :

ـ «الحل بسيط : إغسل أموالك الملوثة هذه قبل أن تعطيها لهم! نظفها جيداً!!» .

ولم يضحك، بل كان وجهه جاد الملامح رصينا، فصحت فيه بغيظ وألم :

ـ «الأمر لا يقبل الهزار، ما معنى هذا الكلام الفارغ الذى نطقت به؟

نضع الأموال فى الغسالة؟ بالرابسو أم بالصابون؟ يارجل قل كلاما ينسمع!!».

جذب بربش نفسا عميقًا بكل هدوء ثم التفت لى فى اندهاش عظيم:

ـ «أصبحت بنكيراً كبيراً ولا تعرف أن الأموال هى الأخرى تنغسل وتتطهر؟! ألم تعرف كيف يودع تجار المخدرات أموالهم فى بنوك ويسحبونها من بنوك أخرى بترتيبات بنكية معينة ومعروفة؟! على كل حال هذه فكرة وسوف أشرحها لك فيما بعد! أما الخروج من هذه الورطة التافهة التى تحيرك الآن فالخروج منها يتم على النحو التالى: دياب ابن خالتك يشترى نصيب شركائك ويدفع لهم من جيبه وبهذا يقبض شركاؤك أموالاً طاهرة!! ثم يقوم دياب بالبيع لك!!».

الفكرة على بساطتها وبدهيتها كانت مشرقة فعلاً فنظرت إليهما أتكشف رأيهما، أقصد هليل والشيخة سعادة، فلم ينطقا: فسألتهما:

ـ «يرضيكما هذا الحل؟!».

قال هليل دون أن ينظر إلىّ:

ـ «يرضينا يابو العم».

ـ «اتفقنا إذن! فليأت المحامى للتنفيذ من صبيحة ربنا وسيجد محامىَّ الخاص جاهزا!».

خبط بربش على ركبتيه فى استعجال:

ـ «انتهت مهمتى؟!».

ـ «شكراً!».

ونهضت مسلما عليه فجذب يدى بغمزة خفيفة فمضيت بجواره لأوصله إلى السلم، فهمس لى بعبارات مضغمة بأننى من الغد يمكن أن أضع مبلغا فى البنك لحساب دياب ابن خالتى وأن أكتب معه عقد بيعه لى قبل أن يكتب هو عقد الشراء، ولا بأس من تكسيب دياب مبلغًا معقولاً يشجعه. ثم هبط السلم مهرولا . .

وقد تم التنفيذ فى السر والكتمان، وبهدوء تام، وفى أقل من ساعتين؛ ولكننى لم أستطع مداواة جرحى ياخال؛ شعرت أننى خسرت خسارة فادحة؛ إذ كيف تصل الأمور بينى وبين شقيقتى إلى حد العداء هكذا؟ وهليل صديق عمرى الوحيد كيف يتنكر لى هكذا؟! ما الذى جرى فى الدنيا يا خال؟ ما سر هذا العطب الذى أصاب الناس فى مقتل فأتلف قلوبهم؟ . .

الحياة أصبحت ماسخة. وأنا يا بوى ما كان مرادى أن أخسر أختى وصديق عمرى، لكن هل أفرط فى مستقبل عيالى ومستقبلى فى سبيل إرضائهما؟ من يقول هذا؟ من يقول أن الإنسان يحاسب أخاه على الإيمان أو عدم الإيمان؟ لم نسمع من قبل يا خال أن الله قد عين شرطة للإيمان تتحرى عن قلوب الناس.

٢

باعتبارى من ألاديش الرئيس السادات بطل الحرب والسلام على سن ورمح، فإننى كنت أتبعه كظله. نعم، وعن عشق والله يا خال بصرف النظر عن المصلحة الشخصية فأنا والحمد لله كنت قد أصبحت قادراً على الاستغناء عنه بل أصبح بإمكانى الاستغناء عن مصر كلها، أستطيع أن أعيش فى سويسرا، فى النمسا، فى باريس فى أى مكان فى أفخم القصور فى أجمل الجزر لدّى من الأموال ما يكفينى ويكفى نسلى لعشرة أجيال قادمة على أقل تقدير. .

ولما بلغتنى أخبار تحركات التيارات الإسلامية المتطرفة منذ وقت مبكر، وأن الإخوان المسلمين يدبرون لاغتيال الشخصيات العامة تسهيلاً لوصولهم إلى حكم البلاد وأنهم قد اخترقوا معظم الأجهزة وصار لهم رجال فيها، فكرت جيدا فى الهجرة التامة إلى الخارج وإدارة أعمالى من أى عاصمة عالمية؛ سيما وأننى قد أصبحت أجيد التكلم بالإنجليزية إلى حد يكفل لى التعامل مع الناس والبنوك كما أصبحت زوجتى تجيد الفرنسية والألمانية قراءة وكتابة بل وكانت تؤلف شعراً بالفرنسية لأنها باسم الله ما شاء الله تخرجت فى الجامعة الأمريكية ودخلت فى سباق مع سيدة مصر الأولى جيهان السادات قائلة لنفسها ولى: إذا كانت السيدة جيهان وهى الأكبر منها سنًا وفى مركز يحقق لها كل شىء وقد أصرت مع ذلك على مواصلة التعليم والحصول على الدكتوراة ودراسة الشعر الإنجليزى فمن باب أولى ـ وهى الشابة الصغيرة لا تزال ـ أن تفعل ذلك هى وفى العمر أمامها

متسع لتحقيق درجات علمية تنفعنا فى الحياة.

بتشجيع منها قمت ـ فى نوبة شبه جنونية ـ بشراء مجموعة من القصور فى بعض العواصم العالمية: لندن وباريس وروما. لعلمك يا خال إن كنت تستهول هذا الأمر فإنه لم يكلفنى إلى حد الإبهاظ، بل إننى لم أشعر بالإرهاق مطلقًا، فثمن قطعة أرض واحدة من الأراضى التى سبق أن اشتريتها بتراب الفلوس، والتى ركنتها فلم أدخلها فى حساب ثروتى المتزايدة، كان يشترى قصرا بكامل مفروشاته فى واحدة من هذه العواصم الكبيرة. فى البداية يا خال فكرت فى الإقامة الدائمة فى باريس الساحرة، ليكون قصرى استراحة جيدة لاصطياد السياسيين المصريين والوزراء والأمراء العرب؛ فمنها أستطيع إدارة أعمالى أفضل من القاهرة؛ ومنها أحقق خلوة تمكننى من شراء أى رأس يشكل نتوءًا فى طريقى، فسيف الدولار هو أمضى سيف لكشف أى نتوء يضايق حركتك. أنت فى الخارج ـ كما عرفت يابوى ـ تستطيع امتلاك جميع المسئولين إذا كان عندك شقة للمبيت والصهللة فما بالك لو كنت تملك قصراً فخيمًا ونهر فلوس لا ينفد؟!..

إلا أن بربش العفريت نصحنى بالابتعاد عن لندن وباريس بالذات لأنهما تحويان الواغش. فهناك ثلاث جهات تعيث فساداً فى المثقفين المصريين بالذات والعرب عامة، تنفق عليهم الأموال الطائلة ليكونوا جنودا يخدمون سياستها بالدعاية لها وإضفاء الرهبة عليها من ناحية، ولتسخيرها لضرب الحاكم المصرى وإشاعة البلبلة والقلاقل فى مصر من ناحية، وبأوهام وشعارات اشتراكية وحدوية فهلوية ثورية من ناحية أخرى. فهذه الجهات هى العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا. ما

من واحد من مثقفى الناصرية والشيوعية المصرية إلا ويعيش مليونيرا أو على الأقل لورداً فى بلهينة من العيش على نفقة واحدة من هذه الجهات الثلاث ؛ بعضهم متسق مع نفسه لأنه يعمل فى إطار المبادئ التى آمن بها بصرف النظر عن القوة المادية المسيطرة التى توجهها فى خير أو فى شر ؛ وبعضهم يعرف جيداً أنه مجرد لاعب على الحبال بهلوان يرغب فى تجميع ثروة طائلة فى زمن محدود ولذا فهو يجيد القفز على التناقضات القائمة دائمًا بين الأنظمة السياسية العربية ، ليضع نفسه فى خدمة أى منها إلى أن تواتيه فرصة أكبر للوثوب على تناقض أكثر ثراءً ؛ منهم المراسل الصحفى ، والكاتب المتفرغ . والمدمن إصدار مجلات وصحف تتلقى التمويل من كل حدب وصوب مقابل السكوت عن الشوشرة أو توجيهها فى اتجاه آخر ؛ ومنهم السياسى المعزول فى بلده وقد أوهم إحدى هذه الجهات بزعامته وقدرته على إقامة تنظيم مصرى فى الخارج يستطيع القفز على الحكم فى الداخل ، ومنهم الجاسوس المحترف ذو الوجوه السبعة ، ومنهم الشاب المخدوع بأوهام الثورة والاشتراكية والقومية . . إلخ ومنهم المذيع الحنجورى المتخصص فى تدبيج وإلقاء البيانات ضد مصر وأنور السادات خائن العروبة . لكل هؤلاء ـ يقول بربش روافد وقنوات داخل القاهرة! والدولار النفطى فى يدها يستقطب كل من يجيد الإمساك بالقلم ممن يلزمهم مسكن وزوج وسيارة ومصروف جيب يقاوم به الإرتفاع الجنونى للأسعار بعد حرب أكتوبر ، ولذا فإن الصحافة النفطية هى صاحبة الصوت الأعلى الآن بل هى صاحبة الصهوة والصولجان فى مصر ، ثقافة معلبة لا تخدم قضية ولا تبنى شعبًا ، تفح منها رائحة الجاز ؛ كل ذلك يتم طبخه فى لندن وباريس أكبر سوقين فى العالم لتجارة السياسة والفنون وصنع الأبطال

المزيفين والإرهابيين والمفكرين الأدعياء . .

ولو أننى أقمت فى باريس أو لندن يابوى فإن هذه القوى الجهنمية ستتخطفنى بأى شكل، على الأقل تورطنى فى أشياء قد تغضب الرئيس السادات منى، خاصة وأن المثقفين المصريين هناك يسببون له كثيراً من الضيق والإزعاج، وهو محق فى الثورة عليهم والتنديد بهم فى خطبه وأحاديثه، لأن الفرق بين محاربة الرئيس المصرى فى الخارج وبين محاربة مصر نفسها شعرة رفيعة ينسى المحاربون المحترفون دائما أنها كثيراً ما تنقطع رغمًا عنهم فإذا هم يحاربون بلادهم فى الصميم تحت علم الجهاد فى سبيل مصلحتها فى حين أن مصلحتها فى سكوتهم. وجودى بين هؤلاء خطر ياخال كما نصحنى بربش، مجرد اتصالى بهم أو اتصالهم بى قد يجر علىّ الإشاعات والوشايات خاصة إننى لست هاربًا من شىء فى مصر، وبالأخص لأنى صديق لأنور السادات ومؤمن مثله ومقتنع بأنه السياسى الوحيد الذى يمكن احترامه بين جميع زعماء العرب على الإطلاق، والعمل معه أشرف بكثير جداً من العمل مع أى ديكتاتور عربى لا يملك إلا السيف والذهب؛ فى نفس الوقت أنا لست محتاجًا للمال أو الشهرة أو المركز لكى أعمل مع أى قوة عربية مضادة لأنور السادات؛ الأهم من ذلك أننى أعشق تراب مصر ولا أطيق من يسىء إليها أو إلى رئيسها فى الخارج، أى إننى باختصار يابوى سأخلق لنفسى من المشاكل ما هو أشد خطورة من بقائى فى مصر. ثم إننى عضو فى مجلس الشعب ياخال، وعضويتى أصبحت مضمونة فى كل دورة يعنى ناجح ناجح غصبًا عن الجميع مهما حوربت من خصومى فى الدائرة بل أصبح عندى دائرة احتياطية

مضمونة فى جيبى هى منطقة منشية ناصر والجمالية والدرب الأحمر، وهى منطقة لو سحبت منها أموالى الشغالة فيها لخربت ثلاثة أرباع تجارتها . .

قل إننا نحينا فكرة الهجرة جانبًا . ونصحنى بربش بتوجيه اهتمامى إلى المظاهر الإسلامية الزاعقة حتى أصبح رمزًا من رموز الإسلام ترضى عنه جميع التيارات المؤيدة والمعارضة على السواء . فبدأت أتجه لبناء المساجد وإقامة المستوصفات فى الأحياء الشعبية الفقيرة تعمل بالمجان وتسمى بأسماء إسلامية الصفا، مكة، الريان. . . إلخ . ولم يكن ذلك يكلفنى كثيرًا يابوى، بل على العكس كان يفيدنى؛ ذلك أن تكاليف هذه المستوصفات كانت تخصم من الضرائب المستحقة على شركاتى ثم أن بربش وبسبوسة وغزولى أقنعونى أن عدوان جماعات التكفير والهجرة منصب فى الأساس على الشرطة، وحدها وإلى أن يمتد عدوانها إلى الشخصيات العامة يكون قد حلها الحلال .

* * *

كنت قد انضممت إلى حزب مصر الذى كونه الرئيس السادات - صرت أفخر بأننى عضو بالهيئة التأسيسية مما أتاح لى أن أصبح عضوًا بلجنته المركزية العليا . دفعت أكبر مبلغ تبرعت به فى حياتى لتأسيس الحزب، ثم مبلغًا آخر لتأسيس جريدة مصر . وحينما انقلب الرئيس السادات على الحزب لسبب لست أدريه ولم أعن بسؤال بربش تفسيرًا له! تبعته فى الحال ياخال! وفسرت انقلاب الرئيس بينى وبين نفسى أن الرئيس قد أدمن الإنقلابات! وقلت لنفسى : ما دمت قد أحببته وآمنت به ولد فتوات فيجب أن تكون بجواره أينما ذهب . .

شاركت فى تأسيس الحزب الوطنى يابوى ؛ دفعت مبلغًا أكبر من السابق تبرعًا لميزانية الحزب ؛ قدمت شركاتى كل خدمات ممكنة تحتاجها مقار الحزب وجريدة الحزب ووسائل انتقالاته . .

بعد ذلك انضم كل من بسبوسة وغزولى إلى حزب الوفد لأنهما يحبان هذا الحزب بحكم الميراث . أما هندى فقد انضم إلى حزب العمل لأنه قرأ ذات يوم مقالة عن أحمد حسين فأحبه واعتقد أن هذا الحزب يشبه أحمد حسين وأيامه ! ! أما بربش ـ وهذا هو المثير المدهش يا خال ـ فقد انضم إلى حزب التجمع الوحدوى الناصرى . ظننته يمزح يابوى ؛ لكنه صفعنى بابراز بطاقةالعضوية ؛ ثم بدأ يكتب فى جريدة الأهالى من حين لآخر وعلى حس الأهالى صار يكتب فى صفحات الرأى فى الجرائد المسماة بالقومية الأهرام والأخبار والجمهورية ، بشكل متواصل ، لا يمر أسبوع إلا وتقرأ زوجتى علىّ مقالة بقلمه فى جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ؛ كما أنه صار يلمع نفسه بالأخبار الدائمة فى كل الصحف معتزما دخول الحقل السياسى من جميع أبوابه عن طريق الحزب وجريدته . قلت له :

ـ «ولكنك يابربش من ألد أعداء عبد الناصر والاشتراكية والشيوعية وغير مؤمن بفكرة الوحدة العربية وإمكانية تحققها فى العصور القليلة القادمة على الأقل ! ورأيك أن الاتحاد السوفييتى نصاب بل أشد وساخة من أمريكا فكيف تنضم إلى الحزب الذى ينادى بكل ما أنت ضده؟ ! » .

قال ببساطته ووضوحه المعهودين :

ـ «هذه هى الشلة التى أعرفها جيدًا فى الحقل السياسى كما أعرف نفسى ! ! ليس من شخص فيها لم أختلط به فى السراء والضراء وأعرف

نقاط ضعفه ومكامن قوته! إنها المجموعة التى أستطيع التعامل معها فى يسر وسهولة لما بيننا من لغات مشتركة وتفاهم سريع سهل! فهى إذن مجموعتى! فريقى الذى استطيع أن ألعب به أية مباراة سياسية ولا تنس أنهم أكثر وعيا بالسياسة وأكثر قيمة فى معظمهم بصرف النظر عما يصيب بعضهم أو كثرتهم من عطب وعفن وضمور فى عضلة الضمير وجروح غائرة بسبب ما أصابهم من تعذيب داخل السجون!! إنهم أكثر السياسيين مدعاة للاحترام!! إننى أشعر بينهم بالتواؤم! لقد انتهت المبادئ فى نظرى منذ سنوات!! وبحكم سفرياتى العديدة فى السنوات الأخيرة إلى كل العواصم الاشتراكية كتاجر وكسائح وكمثقف يلوح لى أن المسألة الاشتراكية هذه أصبحت على حافة بركان لابد أن ينفجر عما قريب!! فالشعوب ضائقة مخنوقة ومستوى الحياة والمعيشة يؤكد أن درجة القهر الاجتماعى والسياسى بلغت الحلقوم ولم يبق إلا الانفجار!! ومعظم من نادوا بالاشتراكية والشيوعية فى مصر عرفوا هذا وتأكدوا منه لكن أصبح من العسير أن يتحولوا هكذا ببساطة عن أشياء آمنوا بها عمراً طويلاً وقدموا فى سبيلها زهرات شبابهم! إن أكبر سلطة فى العالم الآن هى سلطة النفط حتى وإن كان مالكوه ضعافًا جهلة متخلفين إنما العبرة فيمن يسيطرون عليه!! أموال النفط مثل طبيعة النفط تمامًا عندما يكشف عن نفسه بالفيض إذ أنه ينتشر فى بقع عشوائية تأخذ فى الاتساع والتشعب حسب درجة صلابة التربة!! هكذا أمواله أيضًا تزحف على سطح المجتمعات العربية والنامية على شكل رقع عشوائية حتى تصبح الطبقات العاملة والفقيرة من صغار الموظفين والفلاحين معرضة للثراء الفاحش بغير مناسبة!! حينئذ تبدأ مقتنيات التكنولوجيا فى الانتشار فى الأحياء الشعبية وتكثر مظاهر الرفاهية

فتبطل بالتالى كل دعوة للمبادئ السياسية المسماة بالاشتراكية والشيوعية لأن الطبقات المقصودة بالخطاب السياسى لم يعد لديها أذن تصغى ولا وقت تضيعه فى عمل سياسى منظم!! كل البطولات السياسية تصبح وهمًا أخرق فى ظل سوق نفطية عارمة تبعثر الأموال بغير حساب على كل من ينضم إلى قافلة الزيت أو يحتك بها مجرد الاحتكاك إننا مقبلون على العصر الذى يسميه حسنين هيكل بالعصر السعودى حيث تسعى السعودية بقوتها المادية والدينية إلى أن تكون مركزًا للحكم فى العالم الإسلامى وتصبح مصر بجلالة قدرها إيالة سعودية أو إسلامية كما كانت من قبل إيالة عثمانية! كان من المفروض أن أنضم إلى حزب موال للمد السعودى أو أشارك فى اليغمة الكبرى لكننى فى هذه المسألة حنبلى! لقد تعلمت الوطنية الحقة من كبار الشيوعيين وما دام الله قد أعطانى المال فى أواسط العمر فلا داعى للنذالة فى المسألة الوطنية!! أنا مصرى قح! وعربى ثانيًا! ولا أقبل أن تصير مصر بجلالة قدرها مجرد إيالة لا سعودية ولا حتى جن أزرقية!!».

ذلك هو بربش ياخال، معلمى ورائدى وصاحب أكبر فضل فى بزوغ نجمى؛ ولولا نصائحه وتوعياته وخططه وعلاقاته الواسعة ولباقته فى الحديث وقدرته على إتقان شخصية محبوكة منضبطة تقنع من يراه بأنه زعيم سياسى بالسليقة والفطرة؛ لولا كل ذلك لتعثرت فى أول الطريق يا خال..

فليقل بربش وليفعل ما يشاء فإننى أحببته. وإذا كان هو ـ كما وصف لى نفسه ذات يوم فى شقة المنيل ـ نتاج عصره المضطرب المليء

بالتناقضات والحروب والخوف والرعب والتطلع المجنون والطموح الأخرق؛ فإننى بدورى نتاج بربش إضافة إلى كونى من نفس العجينة التى ديست فى قعر المجتمع . .

صرنا خصومًا سياسيين فى الظاهر يا خال بحكم انتماء كل منا إلى حزب مختلف، أنا فى الحزب الحاكم وهو فى الحزب المعارض لكنه أصبح يسبب لى الكثير من البلبلة يا خال، بل الكثير من الحرج أمام سيادة الرئيس والهيئة البرلمانية للحزب التى أنا عضو فيها. كنا نسهر كل ليلة معًا فى شقة المنيل أو فى قصرى أو فى استراحة خارج القاهرة؛ وأثناء السهرة يؤكد لى مجددًا أهمية إتفاقية كامب ديفيد للسلام التى عقدها الرئيس السادات مع إسرائيل؛ ويؤكد لى بكل اقتناع أن السادات بها وحدها دخل التاريخ كبطل للحرب والسلام معًا؛ وهو ليس يستحق جائزة نوبل فقط بل يجب أن نقيم له تمثالاً من الذهب فى قلب كل مصرى المدهش أنه هو الذى قرأ لى بنود الاتفاقية بندًا بندًا، حتى ما خفى منها، وفى اللغات التى كتبت بها يا خال، وفور صدورها، بل فى مسوداتها الأولى قبل إعلانها على الملأ؛ وتولى شرح البنود على حدة، وتعليقات الأجانب المحللين وأصداء ذلك فى وكالات الأنباء العالمية، وردود الفعل الاقتصادية، والتوقعات لما ستسفر عنه هذه الحركة العدائية الناشبة ضد مصر بين العرب فيما عرف بجبهة الصمود والتصدى بقيادة صدام حسين الذى أوهمه المثقفون المصريون المحترفون بأنه الوريث الشرعى لعبد الناصر فى المنطقة أو لعله النسخة المحسنة المعدلة منه وأنه لا محالة واصل بالعرب إلى بر الأمان؛ وكيف أن هذه الحركة ستأكل نفسها بنفسها، ستغرقها بحيرات البترول

الأكثر تدفقًا فى بقعة من بقاع الجبهة المزعومة؛ مصلحة البترول الحاكم ستكون هى فصل الخطاب؛ هى التى لابد أن تسود. إن البترول ـ يقول يا خال ـ الذى سيطرت عليه القوة الأجنبية الشيطانية سينضم تلقائيًا لخدمة سادته أصحاب الهيمنة؛ وبالتالى فغدًا أو بعد غد تتشرذم هذه الجبهة الهشة من حالها، التى لا يجمعها سوى الشعارات والانفعالات ولا تملك من أسباب التلاحم الحقيقى سببًا واحدًا؛ سرعان ما تنفتح لكل منها جبهات داخلية مدمرة تستهلك كل قواها فلا يبقى من جبهة الصمود والتصدى سوى فراغ المنطقة من أى جبهات على الإطلاق؛ تظل كما كانت وكما ستبقى لدهور مجرد سوق للنفط يستهلكه السادة إياهم ونحن مجرد حرس وخدم نعيش على الفتات الفوضوى، ولسوف تؤوب المسائل فى النهاية إلى سريان ما خطط له السادة إياهم وأرادوا. وإن عشنا لسنوات قليلة قادمة فسيفكرنى حينما أرى بعينى أن الجميع يسعون للصلح مع إسرائيل لأنهم لا خيار أمامهم سواه بعد أن تفتتت كل الجبهات واضمحل شأنها. كل طرف سيمنى النفس ولو بربع ما حصل عليه أنور السادات فى اتفاقيته؛ وما حصل عليه السادات ليس بالقليل فى الواقع؛ يكفيه استرداد الأرض المغتصبة منه شبرًا شبرًا. ثم إنه لم يلجأ لهذه الاتفاقية إلا بعد أن تركه أشاوس الصمود والتصدى وحده فى مهب الريح يتراخون فى دفع أنصبتهم فى تكاليف المعركة هم يريدون استمرار الحرب مع إسرائيل حتى آخر جندى مصرى وآخر قرش فى خزانة مصر فهل هذا حلال أم حرام؟! تقولون بأن المعركة عربية؟ نعم؟ إذن فليكن الجيش عربيا والسلاح صفا والقيادة واحدة؛ أما أن يكتفى البعض برمى الفتات كتعويضات مادية دون مشاركة فعلية صارمة حاسمة، شراءً لخواطر سادتهم المهيمنين على

نعيمهم النفطى فهذا محض تهريج وتخريف وتخلف؛ ولا جناح على أنور السادات إن هو ولى وجهه نحو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من مصير بلاده قبل تفاقم الخسائر ووصول الأمور إلى المراحل الصعبة ثم المستحيلة.

ذلك هو رأى بربش ياخال وبكل حذافيره كما شرحه لى مرارا وتكرارًا فى سهراتنا إبان القلق العام والدوار الذى أصاب الجميع بصدمة الإتفاقية المفاجئة؛ بل إنه صاحب التعبير القائل بأن المستحيل أصبح ممكنًا بهذه الاتفاقية فَلِمَ لا يعيش الجميع من سكان المنطقة فى وئام وحذر طالما أنه أمر واقع ومفروض بإجماع العالم ولا مفر منه؟

إلا إننى أفاجأ ـ ربما فى صباح نفس الليلة يا خال ـ بمقال بتوقيعه منشور فى جريدة الأهالى يهجم فيه على السادات يصفه بأشنع الأوصاف يا خال؛ يمزق إتفاقية كامب ديفيد شر تمزيق، واصفا إياها بأنها اتفاقية الخيانة والهزيمة والخور وبيع التاريخ كله بنصف خردة!! ثم يصف الحزب الوطنى الحاكم بأنه حزب التجار وأغنياء الحرب والصدفة، والسماسرة والوكلاء الذين لا يعنيهم مستقبل الوطن فى كثير أو قليل.

تكررت هذه الحركات النص كم يا خال من بربش حتى فهمت انه حينما يريد أن يكيل اللعنات للسادات فإنه يرفع اسم الرئيس ويضع بدلاً منه الحزب الوطنى الحاكم؛ وحينما يكيل اللعنات على الحزب الوطنى الحاكم فإنه يضربنى أنا تحت الحزام يا خال. أما حين أعاتبه، يضحك؛ وفى ضحكه ـ ياعجبًا ـ صفاء الطفولة وبكارة الأبرار، ثم يقول:

ـ «هذا شغل سياسة لا بد منه يا صاحبى!! أنا حينما أكتب فى جريدة الحزب فلأننى عضو فى هيئة كبيرة تمثل الحزب أمام جمهور السياسة وأعضاء الحزب!! إن الحزب الذى أشرف بالإنتماء إليه يرفض الاتفاقية شكلاً ومضمونًا بل لا يعترف بها من الأساس فكيف أخالف الحزب بإجماعه؟! إننى إذن لمنشق ويحق له طردى منه!! أنت يجب أن تفرق بين بربش صديق عمرك وبربش عضو الحزب السياسى! أنا مع الاتفاقية بقناعة شخصية لكننى مع حزبى بالموقف والمساندة بجميع أنواعها!! هذه أصول حزبية لا بد من مراعاتها!!».

ـ «ولكنك يا بربش يا خوى تشهر بنا! تحرض الجماهير علينا تحريضًا صريحًا تهيج مشاعر الرأى العام! خاصة وأن القراء المهمين انصرفوا عن الجرائد القومية إلى الجرائد النفطية اللندنية ونشرات المعارضة!! فما معنى أن تكون صديقى وعدوى فى نفس الوقت؟!».

ـ «هذه هى السياسة يا صاحبى! أنتم بالفعل خصومى السياسيين فى الواقع! ولسنا وحدنا خصومكم الشعب كله فأنا إذن أقف مع صف الشعب! لقد رضى الشعب بالحرب وقدم أولاده ولف الحزام على بطنه جاع تعرى أهين فى المواصلات سكن فى المقابر كل ذلك فى سبيل الخلاص بالحرب فلما تحقق النصر ساءت الأوضاع واسودت عيشة الناس بدلاً من الرخاء المنتظر!! اشتعلت الأسعار عزت المساكن انعدمت السلع نضبت المرتبات والمهايا!! سنوات الضباب التى تذرع بها الرئيس لم تمطر بالذهب والفضة بل أمطرت البلاوى السوداء والعياذ بالله!! قيل السلام قرين الخير! فرضى باتفاقية السلام ودم أبنائه لم يجف بعد فإذا بالأوضاع تزداد سوءًا حتى أولادنا الذين كفونا

مئونتهم بالعمل فى بلاد النفط أصبحوا يتعرضون للذل والهوان والطرد بسبب الاتفاقية! حتى الذين رضوا بالذل والهوان هربًا مما هو أمر منه فى بلادهم خفضت أجورهم إلى أدنى حد عنوة واستقداراً!! إن البلاد يا صاحبى تغلى غليانا مخيفا وأنت لا تدرى!! الفرق بينى وبينك أننى شوارعى أصيل استمرت علاقتى بنبض الشارع حتى وأنا فى رحلة فى الخارج أما أنت فاستمرأت النعيم!!».

تصور يا خال، بربش يقول هذا الكلام. عندئذ يا خال ايقنت أننا فى عصر التبجح البهلوانى المتقن، إذ يحق لبربش أن يفعل ما فعل ويرتكب ما ارتكب ضد الناس فى إدارته لشركاتى ثم يقول مثل هذا الكلام الوطنى الحار!! هذا درس آخر مما تعلمته فى شغل السياسة يا خال: أن تكون محبوك الشخصية قادراً على الإقناع بالكلام المسبوك فهذا يكفيك وافعل خلف ذلك ما تشاء من الأفعال.

٣

كان فرح سماسم بنت بسبوسة ـ الذى أقمناه فى فندق المريديان ـ على وشك الانتهاء حينما انزويت مع بسبوسة فى ركن قصى فى الاستراحة فوق مياه النيل، نستروح النسمات ونستنشق ذكريات الماضى الأليم. وإذا به يقول فى شىء من الزهو:

ـ « ضيوف بربش الليلة كانوا أضعاف ما توقعت!! الولد اتسعت علاقاته! كان معه الليلة ناس مهمون من سفارات العراق وليبيا والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية وتونس واليمن والسعودية! كُتَّاب وصحفيون ودبلوماسيون ومناضلون! رحبت بهم طبعًا حينما قدمهم لى بالواحد ملأت موائدهم بزجاجات الويسكى من أرقى نوع بخلاف ما أتى به بربش! جلست معهم بعض الوقت فاستكملوا حديثهم أمامى! جننت! ليس هذا بربش الذى أعرفه! ما كل هذا الكلام الفخيم الرنان؟ هذه الثقة؟ هذه القضايا الكبيرة التى تكلم فيها؟ لو رأيته لحظتها يخيل إليك أنه يسعى لمنصب رئيس الجمهورية!! مجنون ويفعلها!! فاجر! والله كان يتكلم كأنه المهدى المنتظر! المذهل أن ضيوفه كانوا يعاملونه هكذا!!».

ـ «ماذا كان يقول مثلا يا بسبوسة؟!».

ـ «أنت تعرف أننى لست مائى المزاج وإن كنت أشرب!! لكننى شربت الليلة بمعنى الكلمة فلعب الويسكى برأسى لولا أننى قرقشت ليمونة يخيل لى أنه كان يتكلم عن جريدة يومية باسم الفيضان تكون

سياسية انتقادية حادة! وتكلم عن شيء اسمه الميليشيات! لم أعرف معنى الكلمة ولكن ربطها بالعمل الفدائى جعلنى أفهم أنها ربما كانت تعنى الفدائيين المقاتلين! وأن يديرها بنفسه متصديًا بها لفرق التيارات المتطرفة يصفيها جسديا قبل استفحال خطرها الزاحف بقوة! وأشياء من هذا القبيل! وأظنه تكلم أيضًا عن حزب سياسى سيتقدم بطلب لإنشائه بعد أن يجمع النصاب القانونى من الأعضاء سيسميه باسم الجريدة: الفيضان! فيضان الخير فيضان الغضب فيضان النيل كله داخل فى بعضه كما قال!! يبدو أن الولد قد ركبه جنون العظمة بعد أن شبع وعمل القرشين!! لا تستهن به على كل حال!! ابنه من زوجه القديمة ـ وهو طالب فى الجامعة ـ عنده سيارة بى إم دبليو! مثل سيارة زوجه الجديدة!! أما زوجه القديمة فسيارتها بيجو ٥٠٤ لابنته الطالبة بدبلوم التجارة سيارة فيات ١٢٨!! اللهم لا حسد ولكنه بدأ يفجر فجوراً لا مثيل له وعلينا أن نحذر منه كل الحذر! لا نخسره وفى نفس الوقت لا نأمن جانبه!!».

ـ «ربنا يعمل ما فيه الطيب يابسبوسة! ربنا يهديه فأنا فى الواقع لا أستغنى عنه أبداً وأنت تعرف مدى ارتباطى بكم جميعًا فأنتم أهلى وناسى!».

ـ «أنا لا أطعن فيه لعلمك! ولا أوقع بينه وبينك فأنا أيضًا أحبه وهو قطعة عزيزة من حياتى إنما أقول ما لاحظته عليه! ولأننى مخلص لك وله فإننى يجب أن أقول لك إنك لن تستفيد منه الكثير بعد الآن فى شغل السياسة! لقد بدأ عصره الآن!! هو لعب فى السياسة من خلالك! لبس وجهك وثيابك حتى حقق ما كان يتمناه أصبح يوصف

برجل الأعمال المصرى الكبير أصبحت له شعبية فى النادى الأهلى ويرشح نفسه لمجلس الإدارة فينجح ويتزوج من نجمة سينمائية صاعدة ويقنعها بالتخلى عن طموحها السينمائى من أجله!! هو الآن يشتغل فى السياسة لحسابه باسمه! بوجهه! ولسوف ينجح بالتأكيد!!».

ـ «وما العمل فى رأيك يابسبوسة؟!».

ـ «أنت لا تزال الأقوى طبعًا بحكم موقعك فى السياسة فى الحزب الحاكم ومركزك المالى الضخم! ولا أظن أنه سيصارعك فى يوم من الأيام لأنه يحبك من جهة! ومن جهة أخرى فإن حزبه لن يصل إلى الحكم أبداً لأنه مجرد أنقاض عهد مضى وكرهه الناس كرها شديداً! كل ما فى الأمر أن بعض الأذكياء من أمثال بربش يمكن أن يقفوا فوق هذه الأنقاض فيحققوا مكاسب شخصية كبيرة!!».

ـ «وما رأيك يابسبوسة لو أننى فضضت جميع شركاتى وأرحت نفسى من وجع الدماغ وهاجرت إلى بلد أوروبى أقضى فيه بقية عمرى بعيدا عن المخاوف أربى عيالى تربية راقية وأعيش عيشة راقية؟».

ـ «تكون جننت بالفعل!! إياك أن تفكر فى هذا مجرد التفكير! إن الرأسماليين المصريين المتجنسين بالجنسية الأمريكية بدأوا يتوافدون اليوم على مصر لإنشاء المشاريع الاستثمارية المربحة! فجأة تذكروا مصريتهم التى تركوها أيام الحرب غرقانة فى الوحل وعادوا الآن يتمسحون فيها يظهرون فى برامج التليفزيون يقولون كلاما يرفع ضغط الدم من كثرة النفاق والزيف والكذب: جئت لأخدم بلدى الحبيبة مصر العزيزة فى القلب.. إلخ!! الأحرى بالواحد منهم أن يقول: جئت لأنهب وأستغل فأنا أولى من الغريب!! ماضيك كله فى التجارة والاستثمار

كوم والأيام القادمة كوم آخر!! المكسب الحقيقى سيبدأ!! القطاع العام سيتم بيعه لا محالة لأن معظم أعضاء مجلس الشعب والوزراء من كبار الرأسماليين وأصحاب المشاريع والحزب الوطنى كله كما تعلم ضد القطاع العام ومجانية التعليم ومكاسب العمال الفلاحين وتحالف قوى الشعب العاملة!! أكبر تناقض فى حياتنا السياسية الآن هو أن الحزب الحاكم يحكم باسم ثورة ٢٣ يوليو وهو نفسه الذى يقوم بتدميرها ومحو آثارها من الوجود!! ذهب عصر حكومة العمال والفلاحين وانقضى عصر حكومة المهندسين وعصر حكومة التجاريين المحاسبين وبدأ عصر حكومة رجال الأعمال! وتجىء أنت الآن بسلامتك لتفكر فى الانسحاب؟ ما الذى أصابك فى عقلك يا رجل؟! توقف نهر الفلوس؟!».

ـ «بصراحة يابسبوسة أصبحت أخشى التيار المتطرف! أسلوب الخطف والاغتيال والتفجير قد بدأ وعيونهم الآن على كل من أيد الاتفاقية أو سافر إلى إسرائيل مع الرئيس!! أنت بنفسك نقلت لى أخبارا سرية تقول إن إيران والسعودية ينفقان أموالاً طائلة على التيار الإسلامى لخلخلة النظام المصرى وتعجيزه كى يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم فإما أن يكون التيار الموالى لإيران هو الأقوى فتكون مصر ممراً لإيران إلى السيطرة على السعودية! وإما أن يكون التيار الموالى للسعودية هو الأقوى فتكون مصر سلاحًا فى يد السعودية لضرب إيران وتبقى هى زعيمة العالم الإسلامى الكبير!!».

ـ «لعلك تذكر أن بربش شرح لنا ساعتها أن ذلك سيبقى مجرد حلم تسعى إليه الدولتان وهو غير قابل للتحقيق بسهولة وإن ظل مصدراً

للقلاقل! إن أوروبا التى تستنزف الآن بترول البلاد! وأمريكا التى تدلل السعودية وتبغدد الخليج لتضمن حراسًا أمناء على مصالحهم فى المنطقة بدلاً من الشاه وحتى تصبح إسرائيل قوية بالدرجة الكافية!! هؤلاء لن يتركوا لا السعوية ولا إيران ولا الباكستان ولا حتى مصر تقيم إمبراطورية إسلامية تنازعها وتهدد أمنها بعد أن تخلص العالم من الإمبراطورية العثمانية!! وإذا كانت أمريكا تركز جهودها الآن للقضاء على الاتحاد السوفييتى كى تستقل هى بحكم العالم فإنها ليست من الغباء بحيث تسمح للتيار الإسلامى بأن يصل إلى أبعد من الحدود التى رسمتها له!! إنه هو الآخر سلاح فى يدها تلعب به فى المنطقة من بعيد لبعيد ولكنها عند اللزوم يمكن أن تدكه دكا!! هذا ما شرحه بربش وإنى أتذكره جيدًا!».

كان بربش قد انصرف مع ضيوفه إلى حيث يستأنفون السهرة فى صحارى سيتى؛ وهندى وغزولى تطوعا باقتياد سياراتنا مزوقة بالورق الكريشة للمشاركة فى موكب توصيل العروس إلى شقتها التى احتجزناها فى واحدة من عماراتى الفاخرة فى مدينة نصر كهدية مجانية لها وكسرًا لعين عريسها ضابط الشرطة، فيما جلست أنا وبسبوسة نشرب القهوة فى انتظار ولد الفرطوس بالسيارات، وكنت أهز رأسى بالتحية لكل من يفوت علينا ملقيا السلام، كأننى أحد نجوم السينما يلاطفنى الكثيرون بل إن بعضهم يصر على أن يبعث لى فنجان قهوة على حسابه، بصراحة يا خال كرهت بربش لحظتها لأنه أضر بهذه الناس وأطعمهم الفراخ الفاسدة وطعام الكلاب باسم شركاتى. عاد حب القاهرة يلعلع فى قلبى؛ قلت لنفسى: كيف طاوعك قلبك على

التفكير فى الرحيل بعيداً عن هذه العزوة الدافئة لتعيش فى بلاد لا يعرفك فيها أحد؟

واستدرك بسبوسة:

ـ« على فكرة الناس تلوم أنور السادات لأنه أفرج عن الإخوان المسلمين وترك لأشبالهم حرية العمل فى الجامعة فانقلبوا عليه!! قيل إنه أراد أن يلعب بهذه الورقة لكسب شعبية دينية كبيرة من ناحية ويخلصوه من الشيوعيين والناصريين من جهة أخرى فخانه الحظ فى هذه الورقة لأن من يربى وحشًا لابد أن يستدير عليه!! وأنت بنفسك شفت محاورة السادات مع عمر التلمسانى ساعة أن دعا عليه التلمسانى على الملأ فى الجلسة قائلاً بالفم المليان: شكوتك لله! وشفنا فى التليفزيون أنور السادات وهو مرعوب من هذه الشكوى ويطلب من التلمسانى سحبها فلا يسحبها فكأنه أهدر دمه بين القبائل المتطرفة وها هم يتآمرون عليه علنًا!! بصراحة لا تدخل دماغى فكرة الديمقراطية هذه! وفى ظنى أن السادات أفرج عن الإخوان نتيجة ضغط عليه من جهة معينة زينت له فكرة الحصول على الشعبية الدينية! الله أعلم أن تكون هذه الجهة هى السعودية أو أمريكا! المهم الآن أنه خلق لنفسه عدوا ليس سهلاً! فالإخوان بينهم وبين ثورة يوليو تار بايت» وهم أصحاب العمل السياسى المسلح طول عمرهم! وكل هذه التنظيمات الشبابية الجديدة من أبنائهم وتحت توجيههم ومخططاتهم يسخرونهم لتمهيد الطريق حتى تظهر الرءوس الكبيرة فى الوقت المناسب! إنه تنظيم دولى خطير يمتلك بدلاً من سيف المعز وذهبه كل السيوف وكل الذهب بل يمتلك المعز نفسه!!».

ـ «هذه التنظيمات الشبابية هى ما أخشاه على نفسى وأولادى يا بسبوسة ياخوى! خاصة أن تصرفات بربش وشركائه فى شركاتى سوأت سمعتى!! المسئولية مسئوليتى طبعًا لأنى كان يجب أن أقطم رقبته من الأول لكنى بكل صراحة عجزت يابسبوسة! الله وكيل يابسوبسة! أنا أيضا طمعت فى المكسب الكبير! من ناحية أخرى حسبتها فرأيت أننى حتى لو منعتهم رسميًا من التلاعب فى البضائع فإنهم كانوا سيفعلون ذلك من وراء ظهرى!! ضميرى يأكلنى يابسبوسة ولا أدرى ماذا أفعل!».

ـ «على كل حال يا حسن بك ما حصل حصل وانتهى الأمر! وعلى فكرة! الشعب المصرى أسرع شعب ينسى الإساءة ويغفرها! أنظر حواليك فى أى مكان فى مصر! فى مكان كهذا مثلاً! تجد على الأقل عشرة رجال ممن كانوا سياسيين ذات يوم من وزراء وحكام سقونا المر أشكالا وألوانًا بل وقتلوا منا المئات باعونا للذى يسوى والذى لا يسوى بتراب الفلوس، وها هم كما تراهم يبرطعون فى البلاد بالطول وبالعرض يعيشون عيشة الملوك! هل تعرض لهم أحد؟ هل انتقم منهم أحد؟ أبدا وشرفك!! الكثيرون منهم سيقبُّون فى هذه الأيام سوف يظهرون من جديد فى صورة ملائكة أطهار جاءوا لإنقاذ الشعب من أزماته الاقتصادية!! ياحسن بك ضع فى بطنك بطيخة صيفى وضع ضميرك هذا فى الثلاجة! وعند اللزوم إذا وضعك أمام المساءلة فأنت لا دخل لك فيما حدث لأنك لست المدير المسئول إنما أنت صاحب مال فحسب!!».

ـ «صدقت يابسبوسة ياخوى ولكن التسفيح فى تزايد!! إننا أصبحنا

نبيع الشقة التمليك بمائة ضعف ما تكلفته وهى مع ذلك مجرد حجرة واحدة قسمنا مساحتها على ثلاث حجرات وصالة وعفشة مياه!! شفت بعينى نوعية المونة وطريقة الكلفتة فى البناء والبخل بوضع أساس متين مع أن الأرض رخوة! فى ظنى إن هذه العمائر لن تعمر أكثر من عشر سنوات على أحسن الفروض!! إننى مرعوب يا بسبوسة ياخوى! الله نجانى من لبخة المواد الغذائية أما هذه العمائر المبنية على قشر بيض فلا أظن أن الله ينجينا منها بسهولة!! الكوابيس بدأت تطلع لى فى الليل وبربش يخطط لحزب الفيضان!!».

ـ «صدقنى إن كل شىء سيمضى فى سلام كما يحدث فى مصر دائمًا!! لا أحد ينتبه لشىء مما يدور فى ذهنك! الناس فى لهو يا حسن بك!!».

ـ «لا بك ولا زفت! الواحد ما عاد قادراً على الاستمتاع بهذه البكوية! جئت لنفسى بالوجع المؤلم حتى فى الرقاد! فى الماضى كنت أفرح بأنى وجدت شيئًا طلبته ولو كان صغيراً! اليوم كل مالا أطلبه تحت أمرى لعلنى أطلبه فى حين أنى لم أعد أطلب شيئًا لم أعد أستلذ شيئًا حتى هذه القصور التى امتلكتها فى عواصم عالمية كبيرة أراها موحشة ولا أطيق البقاء فى واحد منها أكثر من أسبوع!!».

ـ «أولادك يا رجل سوف يستمتعون بها قريبًا وسوف تتلقى دعواتهم بغزارة!!».

ـ «لا أظن يا بسبوسة ياخوى! إن من يولد ويرى كل شىء ميسراً حوله لن يشعر بالامتنان والشكر لأحد!! لا يشعر بالامتنان مطلقا إلا من كان فى احتياج لشىء وعثر على من عاونه فى تحقيقه أو حققه له!!

أما المولود بغير احتياجات على الإطلاق فإنه لو شكر الله يكون عملة نادرة!!».

ـ «هل أنت فى هذه الحالة منذ وقت طويل؟!».

ـ «تصور يابسبوسة ياخوى أن أقرب الناس لى هزأنى وقاطعنى بسبب نشاط شركاتى؟! أنت تقول: الناس فى لهو ولا أحد يدرى شيئًا! غير صحيح يابو العم! إن شقيقتى وصديق عمرى سيحا دمى فما بالك بالغريب؟!».

ـ «هذا هو السبب إذن!! قل هذا من الصبح وخلصنى يارجل! المسألة كلها أنك أخذت على خاطرك من سوء تفاهم حصل بينك وبين أختك وصديقك! صعبت عليك نفسك فوصلتك إلى الحال التى أنت فيها! هذه هى الفولة! ما رأيك إذن فى كأسين من الويسكى؟! على الأقل مجاملة لى فى فرح ابنتى أخرج عن عادتك مرة واحدة الليلة! جرب الويسكى ربما اكتشفته أحسن من الحشيش والأفيون وأحسن من البودرة التى ابتلى الله بها كل من فى يده فلوس!!».

ـ «كفانا الله شر البودرة! وهذا على فكرة مما يطمئن يابسبوسة! لو كانت فلوسى هذه حراما لابتلانى الله بشم البودرة مثل كل من أعرفهم فى سوق المال والتجارة ورأيى يابو العم أن فلوسهم حرام فى حرام ولهذا سلط الله عليهم هذا البلاء ليخرب بيوتهم أولاً بأول ويكتب عليهم العرى والفضيحة فاللهم استرها يارب!!».

ـ «طب علىَّ الطلاق أنت محتاج لكأسين!! بسْ! بسْ! يامتر! إتنين دوبل هنا من فضلك تبع الفرح! فيه قزايز جوه تبعنا ليلتك فل يا بوعلى!!».

ـ «إخز الشيطان يا بسبوسة!» .

ـ «إخزه أنت! جرب وستدعو لى بالستر بعدها! ستعرف أنك من حين لآخـر يجب أن تداوى نفـسـك بكأسين لكى تجـدد مـشـاعـرك وأفكارك! سوف تحب قصور أوروبا ونسوان أوروبا! هل جربتهن؟!» .

ـ «أعوذ بالله!» .

ـ «يا رجل شوف لك شوية عيال العب معاهم! الغنى لمثلك حرام! ما فائدة العز إن لم تستمتع به؟! غير دمك! غَيِّر العتب! غير النفس! غير السرير وقميص النوم والعطر والملاءات! غير الأحضان يابقف يا مقفول! ليس من الضرورى أن يكون ذلك فى الحرام! تزوج! اليوم ظهر فى بلادنا شىء اسمه زواج المتعة! فماذا تنتظر؟ حتى يضمك التراب؟! مثلك ليس له راحة إلا فى الهموم والمشاكل والأزمات وإن لم توجد أوجدها لنفسه بنفسه!! أرح نفسك واستمتع!!» .

بعد الكأس الأولى يا بوى بدأ كلام بسبوسة فى هذا الاتجاه يحلو فى نظرى. وحين نسيت عدد الكئوس كان كلام بسبوسة قد أحيانى بالفعل يا خال، جدد نشاطى ونفسيتى وضعنى فى حالة اهتياج لم أعهدها فى حياتى من قبل. كدت أعض بنان الندم على ما فات من العمر بغير استمتاع كنت قادرا عليه؛ شعرت كأن الرغبة الجامحة تكاد تأخذنى من لحظتى إلى مطار القاهرة لأكمل بقية الليل فى الطريق إلى سويسرا أو باريس أو روما. فى آخر الليل أقبلت على زوجى بشهية أذهلتها، فلما تشممت رائحة فمى دفعتنى بعيداً عنها، وانزوت إلى بعيد تبكى وتندب حظها العاثر، فنكدت علىَّ بقية الليل يا خال.

٤

عقد السادات لقاء فى النادى السياسى مع أعضاء اللجنة المركزية وأعضاء الهيئة البرلمانية. كان من المفروض أنه سيناقش معنا خطة الحزب فى النهوض بالاقتصاد المصرى، ورأى الحزب فى أداء تجربة القطاع العام، لكننى من لحظة ما جلس بيننا، أيقنت من منظره وشروده أنه يخفى توترًا عصبيًا شديدًا وإن بدا أنه بارد الأعصاب هادئ البال . .

كان مشتت الأفكار يا خال، يوأوئ كثيرًا حتى يعثر على الكلمة المناسبة؛ يقفز من فكرة إلى فكرة، ومن موضوع إلى موضوع كفرس النبى، يمزج بين أزمنة ماضية وأخرى حاضرة وقادمة، بلا تركيز، يستعيدك السؤال مرتين ليعطى نفسه فرصة تجميع الإجابة . .

لاحظت أنه كثيرًا ما يتلفت حواليه فى شىء من الاسترابة، يتفحص كل من يدخل أو يهم بالخروج، بعين ممدودة كالمثقاب؛ يكاد ينتفض خوفا إذا سمع طرقعة مفاجئة أو انكسار كوب فى البوفيه البعيد. لحظتئذ ياخال أيقنت أن السادات لم يكن فى حاجة لاجتماع مباحثات ومناقشات، بل كان فى حاجة لدفء الجماعة الكبيرة الموالية له، ليشعر معها بشىء من الأمان. لهذا قد انقلب الاجتماع إلى دردشة تتخللها نكات مصطنعة سقيمة لا تضحك ومع ذلك تجد من يضحك فى صخب.

وزير الداخلية كان حاضرًا بالطبع سمعته يطمئن السادات بأن «هؤلاء الأولاد» ليسوا سوى مجموعة شراذم لاوزن لها ولا

أهمية ، وأنه إذا كان قد وفقه الله فى تشريد عصابات الشيوعية من لابسى قميص عبد الناصر فإنه بالأحرى قادر على قطع دابر هذه الجماعات المتطرفة بإذن الله . أما ذلك الضابط العسكرى المدعو بعبود الزمر فإنه بات على بعد خطوات من الفخ المنصوب لاصطياده ، فعلى السادات أن يقر عينًا ويهدأ بالا من ناحية الأمن الداخلى ، لأن «هؤلاء الأولاد» إن كانوا نارا فلن يحرقوا مطرحهم ثم راح يتكلم عن ذلك التنظيم الجديد المسمى بتنظيم الجهاد وكيف أنه لعب عيال فى لعب عيال ، ولسوف يلقنهم درسا لا ينسى . .

السادات يتابعه بهزات من رأسه ، وقد ارتسم على وجهه شيء شبيه بما يظهر على وجه أى أب يبدى الإعجاب بشجاعة ابنه رغم يقينه بأنها مجرد حماسة مرتفعة وكان من المفروض أن الرئيس سيلقى خطابا يشرح فيه ظروف الحالة الأمنية التى اضطرته للقبض على عدد هائل من العناصر الدينية المتطرفة ، من كبار الكتاب والصحفيين أمثال محمد حسنين هيكل صفيه القديم ومرشده إلى الكثير من القرارات المهمة ؛ ومنهم ذلك الشيخ السكندرى المدعو بالمحلاوى الذى اتخذ من أحد المساجد السكندرية مقرًا لوعظه السياسى صار يواصل هجومه على أنور السادات والحكومة الكافرة التى تبيع البلاد وتتصالح مع العدو . البلد يا خال في حالة غليان وفوران حتى فاضت المياه المغلية واندلقت : خطباء بألسنة طويلة ينددون بجميع المصريين المحدثين ، صحف المعارضة الحزبية كلها استحلت اللعبة الديمقراطية المزعومة وهات يا شتائم من أعنف وأقذع ما سمعت فى حياتى ؛ الجامعات فى حالة اضطرابات أشد عنفًا وشراسة حيث تغولت الجماعات الإسلامية

سيطرت على اتحادات الطلاب صادرت كل الأنشطة الثقافية والفنية دخلت فى حوار وحشى بالسنج والجنازير والمطاوى فرضت سلطتها بالقوة الجبرية على الطالبات. الناس فى الشوارع غاية فى السخط يابوى وكأن حالة الرواج المادى التى أحدثتها قوانين الانفتاح وما تبعها من جريان المال فى كثير من القنوات التى كانت بعيدة عن المصبات من قبل قد أيقظت الغالبية العظمى على أحقيتها فى المال الكثير السايب كغيرها من الفئات القريبة من الأنهار والمصبات المالية. ثم إن الفلوس كثرت أى نعم ولكنها رخصت يابوى قلت قيمتها، فطالب المال فى طلب مستمر لا يتوقف، والفقير فى فقر مستمر ينزل به إلى قاع القاع بدون رحمة. حدث انقلاب مروع فى المجتمع، القوالب نامت والأنصاص قامت؛ من يستحقون العيش الكريم داسهم المجتمع ونكلت بهم الأسعار والطبقات الطالعة؛ من يستحقون الحرق والرمى فى القمامة أصبحوا بفضل النهب والسرقة ملوكًا وأباطرة يكفى أنا يا خال والشلة الوسخة، شف ماذا كنا وكيف أصبحنا. غير أننا فى نهاية الأمر اشتغلنا وتعبنا وفكرنا وبعنا أشياء محدودة؛ الدور والباقى على من تاجروا فى أوهام وباعوا الهواء والشمس وربحوا من خيانة الوطن بالانضمام إلى قافلة النفط المعادية. وكما قال لى بربش ذات يوم قريب: سقطت كل الهيبات على الإطلاق بفعل هذه القافلة النفطية التى سربت جراثيم أمراضها وإحنها الحضارية إلى لفيف من مثقفى مصر فصاروا - تحت ستار زائف من البحث العلمى والدراسات الأدبية والتاريخية المغرضة - يشوهون كل القيم الوطنية الجميلة، حتى فوجئنا ذات يوم بأن جميع زعماء مصر ورجالاتها من كبار المفكرين والسياسيين والكتاب خونة وعملاء شواذ وتافهون ونمور من ورق.

سارت هذه الموجة وعمت وأصابت حتى الذين حركوها واستفادوا منها لبعض الوقت، فالذين شوهوا أباءهم ورموزهم لن يكونوا إلا شائهين. جبلة الجراثيم التفشى، وهكذا انحطت قيمة العرب جميعًا سقطت هيبتهم فمرغت إسرائيل كرامتهم فى الوحل أدخلتهم جحور العز والفخفخة الكاذبة كجرذان محبوسة فى مخزن طعام شهى، صرنا فى عصر الصبية؛ وها هو ذا السادات يتلقى تهديدًا مباشرًا من أحدهم تمكن من الهرب من الجيش والكمون فى مأمن.

كل هذه الخواطر دارت فى ذهنى يا خال وأنا منزو فى ركن مهمل من اجتماع النادى السياسى. وكنت أشعر أن الله قد أمسك بقلبى وصار يهزه كأنما يقول لى: أفق يا هذا وعد كما كنت مجرد مواطن يكسب لقمة عيشه بشرف! اسمع نصيحة أختك الشيخة سعادة فهى أقرب إلىَّ منك أيها الضال المارق! أنتما من دم واحد فكيف صلحت هى وفسدت أنت؟! ألم تسمع قراءتها للورق فتتعظ كما اتعظت هى؟! إن الطريق للتوبة مفتوح أمامك فدعك من هؤلاء وعد إلىَّ فأنا الذى يحميك ويرفعك وليس بين البشر قوة تعادل قوتى وهؤلاء الذين تحتمى فيهم أضعف منك!!».

انتفضت يا خال مرتعش الأوصال. نظرت حولى؛ كان وزير الداخلية ماثلاً فى ناظرى أكثر من غيره. طب ما قولك يا خال أنه رغم مظهر القوة والثقة والصلابة؛ ورغم مظاهر القوة المسلحة التى أحاطت بالنادى السياسى إحاطة السوار للمعصم وامتدت ذيولها وتفرعت إلى جميع النواصى والتقاطعات؛ رغم كل ذلك بدا لى أخوف من جرذ..

عدم المؤاخذة أنا أصيع واحد فى المجتمعين كلهم أعرف حقيقة

شعور الممسك بالمطواة؛ من نظرة واحدة فى عينيه أعرف إن كان سيضرب بها حقا أم أنه مجرد هواش أونطجى. الوزير كان يغطى خوفه بقناع سميك من اللامبالاة والثقة الزائدة عن الحد يابوى؛ مما جعلنى - ربك والحق - أصير أشد منه خوفًا يصل إلى حد الارتعاد رغم ربع قرش الأفيون الخام الذى استحلبته قبل المجىء إلى هنا من أجل التطامن وهدوء الأعصاب. شعرت بالهول يابوى. قال صوت فى أعماقى لعله صوت الشيخة سعادة: أنت وأمثالك سبة فى جبين النظام السياسى الساداتى! أنتم من أقوى الأسباب التى عجلت بهذه الفورة العنيفة التى كانت نتيجة متوقعة لمن يقرأ الأوضاع جيداً. وقال صوت لعله صوتى: لو أن السادات كان جاداً فى إقامة نظام سياسى وطنى طاهر حقًا لطهر بلاده من أمثالنا فهل هذه هى غلطته السياسية الخطيرة؟ فرد عليه صوت يشبه صوت بربش: ولكن هذه هى العناصر التى التفت حوله ومكنته من الاستقرار واستتباب الكرسى فأمثالنا هم الصواميل والمسامير التى أحكمت متانة المقاعد المستتبة كلها فهل رأى السادات خيراً منا ولم يقبل؟ فتسلل صوت كصوت بسبوسة على شىء من الخبث يقول: ولماذا لا تقول إن هذه العناصر هى التى عرف السادات كيف يتواءم معها من وقت بعيد؟ ولم لا تقول إن ميوله الشخصية موالية لهذه الفئات الحوتية المطبوعة على النهم والرغبة فى الثراء السريع السهل؟

اختلطت الأصوات التى تطلع من صدرى بالأصوات التى تصخب فى الاجتماع. بدا لى الاجتماع ياخال كاجتماع أسرة ذات عزوة وصيت وأبهة لكنها من عتاة قطاع الطرق وقد اجتمعت لتبحث موضوع أمنها الشخصى وهى تعرف مقدمًا أن مصالحها تتعارض مع مصالح

بقية العائلات وأن هذه العائلات من حقها أن تثور وتغضب وتهدد لكن أن تتعدى هذه الأسر حدودها فقد وجب أن تلقن درسا قاسيًا وعاجلاً. راح كل من يضع نفسه فى مقام الأخ الأكبر يشحن كبير العائلة بعبارات حماسية هوجاء تستجلب سخطه وغضبه على المتطاولين من أبناء هاتيك الأسر وتحرضه على إنقاذ هيبة العائلة ببالغ السرعة وبكل قوة وحزم حاجة تهوس يابوى..

العجيب يابوى، إن الرجل قد تسرب إليه شىء من الاطمئنان. يظهر ياخال أن هذا الجمع الملتف حوله ينهش فى لحم المشكلة قد أحال المشكلة إلى هيكل عظمى متفتت، فخفف حملها عن الرجل؛ فإذا به قد خفت توتراته العصبية التى جاء بها. قلت استجابته للأصوات المفاجئة الصاخبة، بدأ يرى من حواليه كأفراد؛ بدأ اتصال عينيه بالأفراد يذكره بملاطفات كانت غائبة، وتحيات كانت واجبة، لمحات كانت خافية، نحى الغليون أشعل سيجارة خفيفة، رشف من فنجان القهوة رشفة، ركز بصره على وجهى ثم ابتسم، لمعت فى عينيه نظرة من عثر على شىء كان غائبا عن ذهنه رغم أهميته؛ فإذا به يعتدل فى جلسته ناظرًا لى فى إمعان:

ـ «ما أخبارك ياحسن؟ لعلك بخير!!».

ـ «الحمد لله ياسيادة الرئيس! طالما حضرتك بخير فأنا فى أسعد حال! إن شاء الله منصور على الدوام! إن النصر من صفاتك! وإن ينصركم الله فلا غالب لكم!!».

أشار إلى جواره:

ـ «تعال هنا! أريدك فى أمر!».

ـ «انقضت واقفا والجميع ينظر لى فى حسد وغبطة؛ فإذا بالذى كان جالسا بجواره يتطوع بالقيام متخليًا عن مقعده لأجلس عليه: فلما جلست مائلاً برأسى فى اتجاه وجهه الذى مال نحوى قليلاً، وضع يده فوق يدى الموضوعة على مسند الكرسى، ثم همس فى كثير جدا من الخبث:

ـ «قيل لى إنك تعرف تلك العرافة التى اسمها الشيخة سعادة! أظن أنكما بلديات أو أقارب!».

أسقط فى يدى بابوى؛ فالسؤال يلخبط اللخبطات خاصة أنه مفاجئ. ترددت قليلاً نكست رأسى فى الأرض مرددا كأنى أحاول التذكر:

ـ «الشيخة سعادة! الشيخة سعادة!!».

فازداد ضغط يده على يدى، فنظرت إليه؛ فإذا فى عينيه نظرة أذهلتنى والله يابوى. تحلف اليمين يا خال كأنها تنطق قائلة: «جرى إيه يا ابن... ؟! نعم الشيخة سعادة التى نعرفها معًا أم أنك تستعبط على؟!». ففى الحال هتفت بصوت خفيض:

ـ «نعم! أعرفها إننا بالفعل بلديات لكنى لم أرها منذ وقت طويل!!».

ـ «أنا محتاج إليها!! رح لها برسالة منى قل لها إننى أوافق على أن تقابلنى فى أسرع وقت!! قل لها إن سيادة الرئيس يطلبك فى خدمة ضرورية فلا بد أن تجىء!!».

صرت أكتم الرعشة من خوف جديد غامض :

ـ «ولكن! أنا دائمًا كنت أقابلهاصدفة! هنا فى القاهرة عند أحد أصدقائى وكانت أحيانًا تحضر فجأة إلى بيتى وسيادة المحافظ يعرف عنوانها فى أسيوط وهى يمكن أن تجىء بالأمر!!» .

ـ «لا يا حسن! مثلها لا يمتثل للأوامر! فيجب أن نعاملها برقة! لقد أرسلنا لاستدعائها بالفعل ولكن اتضح أن شقتها فى أسيوط يسكنها الآن ناس غيرها يقولون إنها عزلت إلى مكان آخر لا يعرفونه!!» .

وقع قلبى يا خال؛ فهذه معلومة جديدة تشى بكثير من التطورات الجديدة فى حياة الشيخة سعادة . قلت :

ـ « هذا يزيد مهمتى صعوبة ياسيادة الرئيس!» .

قال بلهجة أمر حاسمة لكنها مغلفة بالود :

ـ «تصرف يا حسن! هذه مهمتك تنفذها من بكرة إن شاء الله! لابد أن أهل دائرتك يمدونك بأخبار عنها!! وجودها الآن ضرورى بالنسبة لى!! لا بد أن تأتى بها من تحت طقاطيق الأرض! اتفقنا؟!» .

ـ «أمرك ياسيادة الرئيس!» .

ثم شعرت فى الحال يا خال كأننى صرت جالسا فى العراء تتخطفنى الرياح من جميع الجهات . زحف نحوى شبح رعب غامض مقبض للقلب يا خال، وانزاح كل الصخب من حولى، ليحل محله فى أذنى صوت كصوت صفير البوم فى بيوت خربة مهجورة ليلتها يا خال ظللت حتى الصباح أقلب جميع الأمور على وجوهها، أتوقع

احتمالات يقف لها شعر الرأس، ومفاجآت تسقط من عنفها الحبلى. صرحت لزوجى بكل شىء فقالت:

ـ «إفعل ما أمرك به! هاتها له من تحت الأرض! فمن يدرى؟ ربما كان محتاجا لها بالفعل فى هذه المحنة! وربما تكون هذه المهمة سببا فى انصلاح العلاقة بينك وبين أختك فالظفر لا يخرج من اللحم بسهولة والدم ليس ماء!!».

أراحنى هذا الكلام بعض الشىء يا خال. من صبيحة ربنا ركبت سيارة من سياراتى القوية المعدة لمثل هذه المشاوير؛ واتكلت على الله وحدى وليس فى صحبتى سوى حارسى الخاص هندى، على سبيل التحوط والونس. ولم أكن فى قرارة نفسى مستريحا لهذا المشوار ياخال.

٥

وصلت إلى أسيوط فى أذان الظهر بالضبط، فصليت فى جامع سيدى جلال، اتخذت طريقى إلى شقة الشيخة سعادة فى عمارة حديثة البناء فى أعماق الحقول. استقبلنى فى أول وصلة الطريق الداخلة إلى العمارة رجل ممسك بمسبحة وملتح يلبس جلبابا أبيض قصيرا، صار يمد خطوه ليسابق زحف السيارة تاركا هندى فيها فلما هممت بدخول العمارة اعترضنى ذلك الرجل ولكن فى شىء من الرقة والدماثة:

ـ «تريدمَن حضرتك؟!».

أزحته برفق ومودة وابتسام، وواصلت الدخول، بدأت أصعد السلم قائلا فى غير صلف:

ـ «هذه عمارتنا يا أبا الحاج: أنا المالك وأختى هنا فى الدور الثالث!».

ـ «يا مرحب! ولكن من تكون أختك إن شاء الله؟!».

اغتظت، لكننى لم أشأ الصدام من أول الطريق قلت فى مزيد من الرقة:

ـ « ليس من حقك هذا السؤال وقد عرفتك بنفسى فأنا الذى يجب أن أسألك من تكون حضرتك؟!».

ـ « أنا من السكان! أقوم بدور البواب هنا مؤقتا! عينتنى صاحبة العمارة!!».

ـ «الشيخة سعادة عينتك؟! منذ متى؟!» .

ـ «الشيخة سعادة تبرعت بالعمارة كلها لجمعية السنة المحمدية! هى على كل حال لم تعد تقيم هنا منذ شهور طويلة!! وجمعية السنة المحمدية تقوم بتأجير العمارة لطلبة الجامعة المغتربين نظير أجر رمزى كمساعدة لهم فى طلب العلم!!» .

وكان قد جعل يرافقنى فى الصعود خطوة بخطوة كأنه يشوف آخرتها معى، إلى أن توقفت أمام باب الشقة وطرقت بابها برفق. فإذا به يقول :

ـ « ياسعادة البيه العمارة كلها يسكنها طلبة فى حالهم أبناء ناس غلابة مجتهدون فى العلم لاشأن لهم بالسياسة!!» .

ـ «وأنا مثلهم بالضبط لا شأن لى بالسياسة إنما أنا جئت لزيارة أختى التى لم أرها من وقت طويل لأنى كنت فى سفر فى الخارج!!» .

جعل يعيد النظر فى ملامحى بتدقيق شديد، ولاحظت أن مشاعر الاسترابة قد بدأت تزايل وجهه شيئا فشيئا .

فازدادت ابتسامته تحفظا وتحسبا. قال برقة دافئة :

ـ «ملامحك بالفعل قريبة منها! الدم واحد على كل حال! تدويرة الفم! العينان! طول الرقبة! لكنك اسمر منها وأطول قليلا! صوتك فيه نفس نبرات صوتها ولكن على رجالى! يمكننى أن أصدق أنك شقيقها أو ابن عمها!!» .

ـ «أنت تعرفها جيدا إذن!!» .

ثم طرقت الباب بعصبية. فقال:

ـ «مساها الله بالخير! صاحبة أيادى بيضاء علينا كلنا! ربنا يكرم أصلها!!».

ـ «الله يكرمك! فلماذا تعترض طريقى؟!».

وطرقت الباب بعصبية أشد. فإذا به يتقدم بينى وبين الباب قائلا فى تهدئة:

«لا عليك فلن يفتحوا لك! لهم عذرهم ياسعادة البيه فالبوليس لايترك لهم فرصة للمذاكرة! كل يوم والثانى يهجم على العمارة يفتشها ركنا ركنا! ويأخذ بعض الولد للتحرى ثم يتركهم! هؤلاء ولد غلابة عندهم امتحانات! وعلى كل حال لن يفتحوا إلا على خبطاتى أنا!!».

ويظهر يا خال أنه رأى الغضب فى عينى، فعالجنى بهزة من يده فى الهواء قائلا:

ـ «سأثبت لك!!».

ثم طرق الباب بعقلة بنصره مرة ثم مرتين متتاليتين ثم الحقهما بثالثة منغمة. بعدها جاءنا صوت واهن متوجس بعد نحنحة:

ـ «من بالباب؟!».

ـ «أنا البواب! إفتح يا خالد!».

اتفتح الباب نصف فتحة، ظهر شاب فى حوالى الثانية والعشرين من العمر، ملتح، يلبس نفس الجلباب الأبيض القصير، ملامحه غلبانة جدا، من الواضح أنه من طلبة الأرياف المجتهدين بتفان وسهر،

شاحب الوجه قليلا، أسمر البشرة كالرغيف المحروق، بعينين حادتين فيهما قليل من العدوان وكثير من التحدى، طويل القامة ناشف العود، جعل يصب على وجهى النظرات القلقة المستطلعة أشار البواب نحوى قائلا:

ـ «يقول إنه شقيق الشيخة سعادة!!».

برقت نظرات الشاب واختفى منها العدوان فى الحال، تغيرت ملامحه إلى مسحة من الترحيب الشجاع. هتف:

ـ «آه! أهلا وسهلا! حضرتك عضو مجلس الشعب! أعرفك رأيت صورك فى الصحف كثيرا! تابعت أخبارك لكننى لم أكن أعلم أنك شقيق للشيخة سعادة! تفضل على كل حال!!».

وسّع فتحة الباب، وأومأ للبواب المزعوم أن ينصرف، فتلكأ هذا قليلا ثم انصرف..

العفش والفرش هو نفسه كما رأيته آخر مرة زرت فيها الشيخة هنا. نفس الأنتريه فى مدخل الصالة، وترابيزة السفرة بكراسيها ونيشها المليء بالأطباق فى نهاية الصالة تحت الشباك المطل على المزارع. حجرة الصالون هى الأخرى كما هى، مفتوحة على كراسيها المذهبة ذات التاج المرتفع، وسجادتها، وعلى حوائطها سور قرآنية على لوحات مبروزة، كل ما أصاب الحجرة من تغيير أن أضيف إلى أرضها بعض الوسائد، وثمة ملتح ينام مستغرقا على ظهره كميت يتنفس، فلما عوجت رقبتى قليلا تبين أنهم ثلاثة بين الكراسى، كلهم ملتحون بجلابيب بيضاء قصيرة، لكنهم غليظو الوجوه والملامح ولحاهم أطول

وأغـزر من أن تسـتـريـح لهـا العين يابـوى، أقـدامـهـم خـشنة مـتـشـقـقـة الكعوب، الطُرقة المؤدية إلى المطبخ والحمام وغرفة النوم منظرها كئيب يفح منها الظلام أرضها مبطشة بآثار الأقدام؛ رائحة النوم والعرق الزنخة والسجاير تملأ الشقة. ليس ثمة من كتب أو كشاكيل أو أية أدوات تدل على أنهم يذاكرون بالفعل، اللهم إلا مثلث كبير من الخشب ومسطرة طويلة، وعدد هائل من الصحف والمجلات وكتاب تلبيس إبليس، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ومصحف بتفسير الجلالين..

فتحت الشباك على مصراعيه طلبا لتجديد الهواء.

قال الشاب:

ـ «راحت علينا نومة! تعبنا جدا مساء أمس وأول أمس فى قسم الشرطة! يصرون على أن لنا صلة بالجماعات الإرهابية المتطرفة مع أنهم يعرفون جيدا أن جمعيتنا لا شأن لها بالإرهاب أو بالسياسة إنما نحن أهل ذكر وعبادة وصلاح! بهدلونا من التفتيش عن عبود الزمر وغيره!!».

ألهمنى الله الفطنة، فنافقته قائلا فى غضب متقن الصنع:

ـ «حكومة تستحق الحرق! وبوليس يستحق قطم رقبته! ماذا يريدون من عبود الزمر وأمثاله؟! والله وبعقد الهاء لو كان الله يحب هذه البلد لأعطاها كثيرين من أمثال عبود الزمر الشجعان! إن مستقبل الإسلام فى خطر وهو أمانة فى عنق أمثالكم من الشباب الناهض! نريد أن نعيد مجد الإسلام! لكى نعيده لابد أن يكون عندنا أمثال عمر بن

الخطاب وأبى بكر وطارق بن زياد وخالد بن الوليد الأبطال المقاتلين! لابد من رفع السيف فى وجه الطاغوت طالما أن المعارضة بالقول لم تعد تفيد والطغيان يتفشى!! الانحلال يستشرى وكلمة لا إله إلا الله مهددة بالانقراض!! إسمع يابنى! حلفتك بالله وقرآنه وسنة رسوله إن كنت تعرف شيئا عن الزمر أو غيره فلا تتفوه به حتى لو قطعوك إربا!! نحن لا نساعد الحكومة على ضربنا! لقد اخترنا صف الله ومن وقف فى حزب الله ولا يضام لا ينكسر! اللهم وفقنا جميعا لما فيه الخير للإسلام!!».

ويظهر يا خال أننى كنت أعنى ما أقوله بالفعل وليس مجرد تمثيل. وقف الشاب وقد عادت إليه بوادر من تلقائيته:

ـ «أعمل لحضرتك الشاى!».

ـ «وماله!».

خطا نحو الطرقة. استوقفته:

ـ «لو سمحت! كانت هنا صورة مبروزة بالحجم الكبير لأبى وعمى الشيخ أحمد! هل أخذتها الشيخة سعادة؟!».

طرقع الشاب بأصبعيه وقد ظهر عليه الاطمئنان إلى أننى أعرف الشقة جيدا. قال:

ـ «بالضبط! أرسلت مرسالا منذ أيام قليلة بطلبها فأعطيناها له! إن الشيخة بمثابة أم لنا جميعا! تنفق علينا من تبرعاتها التى لا تنفد! كما ترى تترك لنا الشقة لنقيم فيها بالمجان! إنها سيدة عظيمة من عظماء مصر الآن!!».

ـ « أنتم طلبة فى الجامعة طبعا ! » .

ـ «أنا خالد فى كلية الهندسة! ومعى وائل وهمام فى كلية الطب! وياسر فى كلية أصول الدين! وطلعت فى كلية الصيدلة! وسهير فى كلية الصيدلة أيضا ! ! » .

ـ «فتاة تعيش معكم هنا؟ ! » .

ـ «هى زوجة طلعت! تزوجها حديثا! ولذلك أمرت أمنا الشيخة سعادة بأن نترك لهما حجرة نوم الشيخة! هما الآن نائمان فيها! أما نحن فننام فى أى مكان هنا كما ترى ! ! » .

أخرجت محفظتى الكبيرة ، سحبت منها رزمة فلوس، عددت منها ثلاثمائة جنيه، ذهبت بها للشاب :

ـ «أنا أخ كبير لكم! بما أننى شقيق الشيخة سعادة فأنا بمثابة خالكم! حالتى ميسورة والحمد لله كما تعرف! هذا المبلغ هدية منى تعاونكم على شظف العيش! أنتم ستة أفراد فلكل واحد منكم خمسون جنيها! وإن شاء الله سأترك لك عنوانى فى القاهرة لتطلب منى أية مساعدة تحتاجها ! ! » .

بُهت الولد يا خال، طاف بنظراته الذاهلة على كل أنحاء جسدى كمن يرى كائنا أسطوريا غريبا . وقبل أن يفتح فمه بكلمة اقتربت منه ودسست المبلغ فى جيب صدره . لحظتها قال :

ـ «الآن فقط اقتنعت بأنك شقيق ماما سعادة! نفس روح العطاء! نفس نبرة الدفء فى صوتها ! ! » .

ـ «لاتشكرني! فهذه النفحة من باب الله جاءت لأبناء الله! ففي ميزانيتي بند ثابت لأعمال البّر والخير! بفضل الله بنيت أكثر من مسجد ومستوصف ومستشفى!!».

ـ «أعرف الكثير من هذه المعلومات! كلنا نقرأ الصحف جيدا ونفليها!! ماما سعادة أيضا كلمتنا عنك كثيرا بمناسبة تحقيق صحفي معك يوم افتتاح مستوصف الدَّراسة بجهودك الذاتية!! لكن ماما سعادة بصراحة لم تقل إنك شقيقها لكنني أتذكر الآن حماسها كان يقول ذلك!!».

ـ «أنا يابو العم شقيقها الشقيق لحما ودمًا أما وأبًا! كل ما في الأمر أن ماما سعادة ذات كبرياء عظيم! لا تحب أن يظن الناس أنها تتمسح في شقيقها! بل تحب أن يحترمها الناس لشخصها! تكره المظاهر! على فكرة! آخر مرة زرتها هنا كان البوتاجاز خربا وكانت تنوى إصلاحه لكنني اقترحت عليها تغييره بطراز أحدث!!».

هتف في مرح واطمئنان:

ـ «بالضبط! اشترت بالفعل واحدا جديدا لكن من نفس الطراز! تركته لنا وأخذت القديم تصلحه لنفسها! إنها لا تطمع في شيء أبدا!! إنها أم بمعنى الكلمة! هي التي زوجت صديقنا من صديقتنا على سنة الله ورسوله! هي تعول ما لا يقل عن ألفين من الطلاب تدفع لبعضهم مصاريف التعليم وحتى الدروس الخصوصية ولا شرط لها إلا أن يكونوا أعضاء في جمعية الكتاب والسنة!! إن الجميع حتى الأكبر منها سنًا يقولون لها يا ماما عن اقتناع حقيقي! يقبلون يدها! منهم عيال على ثقافة عالية إذا قالت للواحد منهم إرم نفسك في البحر فلن يجعلها

تكررها قبل أن يفعل!! إن فى ماما سحراً لا يستطيع أحد مقاومته مهما كان جامد القلب لابد أن يخر صريعا أمامها!! أعرف عيالا فلاسفة متبحرين فى علوم الدين حين يتناقشون معها يكتشفون أنهم بجوارها لا شىء مع أنها لم تستق العلم من كتب!! ماذا أقول لك! نحن هنا فى أسيوط كلها نسميها أم المؤمنين! بعضنا يسميها أميرة المؤمنين وإنها لأميرة بالفعل! الله يا أستاذ لو أنها حكمت البلاد لجعلت البر المصرى قبلة المسلمين قاطبة!!».

زحفت معه تلقائيا حتى وصلنا إلى المطبخ، فرأيته كما كان لم يتغير باستثناء البوتاجاز الجديد، إلا أن منظر الحلل والأوانى والأكواب القذرة كان مثيرا للقرف كريه الرائحة.

مع ذلك وقفت بجواره واضعا إحدى يدى فى جيب السروال، ممسكا المسبحة بالأخرى، وفيما يغسل الأكواب ويضع البراد فوق النار استدرك متذكرا:

ـ «ولكن منذ متى لم تر ماما سعادة؟!».

ـ «منذ شهور طويلة! أنت لست غريبا الآن! بل أنت فى مقام ابنى طالما أن أختى بمثابة أم لك! لقد حدث بيننا سوء تفاهم بسيط! هى كانت محقة حينما طلبت منى أن أصفى بعض شركاتى لأنها غير راضية عنها وأصرت على ذلك لكنى ترددت فهذه الشركات تفتح بيوتا كثيرة! المهم يابو العم غضبت هى ومشت! فتركتها حتى تروق وتتصل بى فلم تتصل! فأخذت على خاطرى منها ولم أتصل! إلى أن راقت نفسيتى اقتنعت بكلامها فنفذته أرسلت لها تلغرافا بذلك لتحضر فرجع التلغراف! فأرسلت مرسالا من رجالى فلم يستدل على عنوانها فجئت

بنفسى لأصالحها فصدمت بخبر عدم وجودها! فإن كنت تعرف مقرها الجديد فإنها سوف تشكرك شكرا كبيرا إن دللتنى عليه!!».

راح يصب الشاى مقطبا فى تفكير عميق، ثم نظر فى عينى نظرة ذات معنى وهو يلقى بورقة الاختبار الأخيرة قائلا فى شىء من المراوغة:

ـ «هى فى الواقع لم تأخذ مقرا جديدا!! هى رجعت إلى مقرها القديم!!».

ـ «فى الجبل؟!».

فى الحال انبسطت ملامحه، أشرق وجهه ببسمة عريضة مطمئنة:

ـ «أنت فعلا تعرف كل شىء عنها!!».

ـ «قل لى: هل تزوجت هليل أم لا؟!».

أشرق وجهه:

ـ «يا..ه! تعرف هليل أيضا؟!».

ـ «أعرف هليل؟! إنه صديق عمرى الوحيد!! فى حياتى كلها لا أعوض صداقته!!».

ـ «هو الآن أمير كبير! هو الآخر عملة نادرة فى هذا الزمان! يا..ه! هليل!».

ـ «أمير على من؟!».

ـ «علينا كلنا! جماعتنا!!».

ـ «ما شاء الله . . ماشاء الله! هو يستاهل! طول عمره أبيض القلب مؤمن نقى الإيمان! يده مبروكة تخر ذهبا!! اللهم قربنى من مكانته عندك يارب!!» .

ـ «بالضبط يا أستاذ! هذا هو الشيخ هليل بكل دقة! لخصته حضرتك فى كلمة! هو فعلا مبروك! يوم يوزع علينا اللحم فى عشوة يشبع الجميع ويفيض مهما كانت الكمية قليلة! المشاريع التى يقيمها بفلوس الجمعية تتضاعف فى كل ساعة وبالحلال!!» .

ـ «المهم هل تزوج ماما سعادة أم لا؟!» .

ـ «لا مع الأسف!! اقتنع كلاهما بأنه منذور من يومه لخدمة الطريق!! كل منهما أزهد من الآخر فى متع الدنيا كل منهما مع ذلك يحب الآخر حبا جنونيا لكن حب الله والإسلام عندهما أكبر وأجلّ من أن ينشغل الإنسان عنه بحب آخر دنيوى! أو بمتعة أخرى غير متعة الانتصار على الشهوات!!» .

ـ «هى إذن تقيم الآن فى الجبل؟!» .

ـ «تعرف المقر طبعا!» .

ـ «طبعا! رحته مئات المرات!!» .

ـ« أنت تقصد قصر الجبل العتيق! ببستانه الفسيح! ومسجده المحندق!!» .

ـ «طبعا هو ما أقصده!» .

ـ « هذا الذى تقصده هو مقر الشيخ هليل الآن! تركته ماما له!

البستان الآن منذور لمن يريد التدريب من الشباب يقيم فيه تحت رعاية هليل إقامة دائمة لا ينعى للدنيا هم أكل أو شرب أو كساء أو دواء!!».

ـ «التدريب على ماذا عدم المؤاخذة؟!».

ـ «على! على المجاهدة! جهاد النفس والرياضة النفسية والبدنية! وذكر الله فى خلوة!!».

ـ «ذكر الله موجود فى البستان طول عمره! ماما سعادة كانت تؤوى وتعول الكثيرين من مجاهدى الأمة الإسلامية!!».

ـ «الآن أصبح البستان مملكة ثانية! حاجة تفرح القلب حقا! مئات من الشبان المتعلم وغير المتعلم ممن أفاقوا من الغفلة على يدى ماما! خريجو جامعة أطباء ومهندسون وضباط جيش وكيميائيون زهدوا فى وظائف الحكومة وأحتقروا العلم الدنيوى فمسحوه من عقولهم واتجهوا إلى العلم الدينى الإلهى يستنبطونه من الحياة من القرآن من الحديث الشريف من السنة المحمدية من الآيات البينات فى الكون!! هناك أيضا شباب ممن لم يكملوا تعليمهم عن رغبة وممن لم يتعلموا أصلا! حرفيون عمال نجارون خياطون فلاحون كلهم تمت هدايتهم للسنة المحمدية خلصت نيتهم للتبليغ والدعوة!! اللهم قربنى منهم! أمنيتى أن أكتسب قوتهم فأهزم نفسى الأمارة بالسوء أذهب لأعيش بينهم فى هذه الجنة الحقيقية لعل الله يتقبل منى يسامحنى فى ذنوبى أيام جاهليتى! لكن كل شىء بأوان! الشيخ هليل هو الذى سيحدد لى متى أكون أهلاً للانتقال إلى البستان والصمود فيه بقوة لا تتزعزع!!».

ـ «ربنا يا ولدى يبلغك ما تتمنى! اللهم اهدنا جميعا إلى مافيه الخير

والصواب!!»

ثم إن دموعى تفجرت من فرط الروع ياخال، إنسالت بغزارة هائلة حتى أغرقت ياقة القميص ورباط العنق، ولم أكن أعرف علام أبكى بالضبط فعمرى ما بكيت هكذا ياخال.

بكائى عنيف صامت، مما أثر فى الولد تأثيرا شديدا، بل تألقت الدموع فى عينيه ياخال، صار يقول بصوت مرتعش النبرات:

- «صلى على النبى يا أستاذ! لا داعى لهذا»

- «ما يبكينى أننى لن أستطيع رؤيتها وقلبى ينفطر عليها! روحى ستطلع من أجلها!! ذمة ودين ياولدى لو كنت تتصل بها فى وقت قريب قل لها إنى أخشى أن أموت قبل أن أراها!!»

هتف فى شجاعة عظيمة:

- «ومن قال إنك لن تراها؟! ستراها بإذن الله! أعرف أننى أرتكب مغامرة حمقاء! غير مضمونة العواقب من كل النواحى! لكننى سأتحمل المسئولية لأننى اقتنعت بصدقك تماما ومن أول لحظة لولا ذلك ما صرحت بكل ما صرحت! إن أى معتوه ينظر فى عينيك بالذات لابد أن يعرف صلتك الوثيقة بماما!! لا تظن أنى عبيط أو مغفل!!»

- «لا سمح الله ياولدى! لن أنسى لك هذا الجميل وهى أيضا لن تنساه!»

- معك سيارة طبعا!»

- «طبعا!»

ـ «انحلت المشكلة!!»

ـ «لا تؤاخذنى ياولدى! المشتاق متعجل دائما!! فاقد الصبر! فلو لحقنا وقتنا مبكرا يكون أفضل!»

ـ «اهدأ وأرح أعصابك على الآخر فالأمر يلزمه ترتيب! سنفعل كل شيء حالا فاطمئن!»

حمل كوبى الشاى فى يديه، تقدمنى إلى الردهة وأنا وراءه كطفل تعيس شقى ترك الكوبين على المنضدة مطرقعا أصابعه من شدة اللسع :

ـ «بعد إذنك دقيقة واحدة!!»

اختفى فى الغرفة الداخلية المجاورة لغرفة النوم، وكانت معدة فى الأصل كغرفة للمسافرين وللمعيشة معا. . ما أن رشفت بعض الرشفات وأشعلت سيجارة حتى رأيته مقبلا وقد ارتدى قميصا أفرنجيا وسروالاً من الجينز الملطخ بالعرق والوسخ

سحب من تحت المجلات كراسة (بلوك نوت) كبيرة، وقلما من الرصاص. . انخرط فى الكتابة بسرعة شديدة. . كتب أكثر من صفحتين، نزعهما من الكراسة رشقهما بدبوس إبرة فى الستارة الفاصلة بين الطرقة والردهة مرددا :

ـ «كتبت خط سيرى لزملائى حتى لا يقلقوا!!»

بخفقة قلب صادقة وجدتنى أعترض بانفعال شديد : .

ـ خطر يا ولدى عليكم! مادام البوليس ينط هنا كل ساعة والثانية! ورقة كهذة ربما جعلتهم يتشككون فى سيركم وسلوككم! انزعها

ياولدى! وعود نفسك على الحرص الشديد طالما أنكم مستهدفون من الحكومة!!»

أومأ برأسه علامة أنه يعرف كل هذا، أضاف:

- من يقرأها لن يفهم منها أى شيء يدعو لأى استرابة! أنا أقول لهم جاء أخى الأكبر من القاهرة وذهبنا سويا لرؤية أمى فى البلد ربما أتأخر! قلت لهم أيضا إن أخى أقرضنى مبلغا قدره كذا وتركته لكم على رخامة المطبخ لتشتروا طعاما كثيرا للثلاجة الفارغة! كلام عادى لا يحتمل أى لبس!!»

أيقنت ياخال أننى أمام عيال لا يستهان بهم على الإطلاق، وإنهم ليسوا مجرد محبين للسنة المحمدية، لا ياخال إنهم أكثر وأكبر من مجرد هذا الغرض. إن وراءهم لترتيبًا وتنظيمًا وتدريبًا وأهدافًا جد خطيرة..

ما رآنى هندى حتى نزل من السيارة مقدما طقوس الاستقبال المتبعة. وكان البواب المزعوم قد ارتكن على حافة نافذة السيارة وراح يتبادل حديثا وديا ودودا تتخلله الضحكات. جرى هندى مهرولا، فتح الباب لى فدخلت إلى مقعد القيادة، ثم استدار بنفس الحفاوة والاحترام ففتح الباب المجاور لسيده الجديد، الذى تقدم فركب بجوارى، فأغلق هندى الباب ركب فى المقعد الخلفى متأهبا لكى ينقض من الخلف على هذا الرجل بمجرد إبداء بادرة عدوان تجاهى كسكست إلى الوراء قليلا، ثم اعتدلت على الوصلة. فلما صرت فى الطريق الزراعى قال مرافقى:

ـ «خلنا فى طريق الغنايم!»

قلت: طيب. ونزعت من الخرطوشة الموضوعة أمامى علبة سجائر أجنبية مددتها له:

ـ «ولع! خلها معك!»

أخذها مرددا:

ـ «متى يتوب الله عليّ منها؟! إنها من الأسباب التى تحول بينى وبين البستان! شرط البستان أن أبطل كل المكيفات لا أتعلق بشيء يكون سببا فى أن أضعف أمامه!!».

فتح العلبة وأشعل منها ثلاثة وزعها علينا، صرنا ندخن والسيارة تهدهدنا على الطريق الزراعى.

٦

عمرى ما تصورت ياخال أننى يمكن أن أتوه فى الجبل .

ويظهر ياخال أن هذه الخصلة تنتاب كل من يكون على اتصال بهذا الجبل مدمن للتجوال بين دروبه ومسالكه ، إذ يتوهم أنه قد أصبح خبيرا به وبشعابه ومنعطفاته السرية . هؤلاء سرعان ما يهزأ بهم الجبل . هذا المكان السحرى الكبير ، إذ يبقى دائما أبدا أكبر من كل الكائنات المتطفلة عليه ، يحتويها فى جوفه البعيد فلا يظهر له ثمة من أثر . .

وأنت ياخال تستطيع أن تمضى فى الجبل رائحا غاديا ليل نهار ، أو تنظر إليه من طائرة هليكوبتر مثلا تمسحه بنظراتك ونظاراتك المعظمة كيفما شئت ، فتتيقن بالدليل البصرى أن الجبل خال تماما من كافة السكان لأنك لا ترى شيئا إلا الوحشة ودروب الظلام والسفوح والوديان الملساء . . فى حين أن الجبل يشغى بكائنات لا يشملها حصر ، وتقوم فيه حيوات أشد نشاطا وحيوية مما فى المدائن والقرى . .

الواقع أن ميزة الجبل ياخال لا تتمثل فى دروبه ووديانه ومغاراته ودوراته الكثيرة الآمنة ، ولا فى كونه متاهة تعطل المطاردين وهم يتعقبون المطاريد ، فحسب إنما تتمثل ميزته الكبرى فى أنه خيمة من الصخور تحجب طرقا وبلادا تقوم تحت بطن الأرض وتتصل ببعضها وبخارجها فى سهولة وسلاسة .

نعم ياخال ، فتحت الجبل طرق كاملة ووديان وممرات سرية وسراديب لا يمكن اكتشافها إلا صدفة ، أو السيطرة عليها إلا صدفة

أيضـا . . هذا كـمـا قلت آنفًا لا يكون إلا من شـغـل الفـراعين قـاهرى الصخور والموت والفيضانات . .

كنا قد تركنا السيارة على الطريق الزراعى فى مدخل الغنايم ومشينا ـ حسب رغبة الولد ـ مشية من يستروح نسمات العصارى . منظرى كان قد تغير بطبيعة الحال منذ سنوات لدرجة أن الكثيرين ممن كانوا يعرفوننى من قبل بالعمة والجلباب لم يعد من الممكن أن يعرفونى بالبذلة الفاخرة والشعر المصفف والنظارة الريبان ذات الإطار الذهبى . ولأن الجبل يلتحم بالأرض كثيرا فى التحامات خادعة ، تتصور معها أنك لاتزال بعيدا عن الجبل فى حين أنك فى الواقع تمشى فوقه وأن هذه البقاع الزراعية هى الجزء الذى كان مغمورا منه دائما تحت الفيضانات المتكررة فاكتسب خصوبة فسرعان ما حوله الأهالى إلى أرض زراعية وتملكوها ؛ فإننى ظللت لمسافة طويلة أتوهم أننا بعيدون عن الجبل . قلت لمرافقى بلهجة ودودة حانية :

ـ «هل تعرف الجبل جيدا يا خالد؟!»

ابتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ «أنا من ديروط الشريف! عمى من مشاهير المطاريد أنت تعرفه وهو يعرفك! حكى لنا كثيرا عن أيام شقاوتك وأنت صبى!! تظن أن الأجيال الجديدة لا تعرف ماضيك الحافل؟ بالعكس! الكثيرون من جيلى يعرفونك جيدا ومنهم من يراك مثله الأعلى فى النجاح!! منهم من يراك أسطورة من أساطير النجاح الساحق فى الصعايدة المحدثين!! حتى الذين يدينونك بعض الإدانات السياسية والسلوكية يفعلون ذلك من باب الاحترام أيضا!! عمى هو محمود بخيت الذى وقف بجوارك

فى المعركة الانتخابية الأولى دون أن تدرى به شيئا! ! قد كبر فى السن! بفضل الله تمكنت ماما سعادة من هدايته! هو الآن من أكبر مساعديها فى استعمار الجبل! طبعا أنا أقصد كلمة الاستعمار بمعناها الأصلى لا بمعنى الاحتلال! ! إنا ماما تقوم الآن فعلا بتعمير الجبل والنفوس معا! !».

ـ « ما أظن يا خالد يا ولدى أننا جئنا لنتفسح وسط الحقول ونحكى الذكريات! الوقت يسرقنا خل بالك! وأخشى على السيارة وحدها فى الطريق! !».

ـ «السيارة فى أمان! لن يجرؤ مخلوق عفريت على الاقتراب منها! لأن هذه الأرض ملك لستنا الشيخة اشترتها وأوقفت ريعها على خدمة شباب الإسلام! ! أنت الآن فى مسكن ستنا الشيخة بالضبط وها نحن فى الطريق إليها فلا تكن عجولا فالأمر لو تدرى شائك وخطير! !».

لاح لنا على القرب كوخ مبنى بالطوب الأحمر مسقوف بالخشب والبوص، من تلك الأكواخ التى تقام لخفارة ماكينات المياه. صرنا نقترب منه؛ دخلناه. هو بالفعل هكذا، ماكينة المياه موجودة وشغالة، بجوارها خفير فى حوالى الخمسين من عمره، متغضن الملامح ذابل العينين من فرط السهر والإرهاق، نظراته متلبكة بكتل من العماص اللزج. كان متربعا على حشية مستطيلة من الخيش المحشو بالقش. بجواره مخدة وبطانية وبندقية وخريطة ملآنة بالذخيرة، ووابور جاز وعدة شاى. وحلة وسلة خبز..

ـ «سلام عليكم يا عم القط!».

هكذا قال مرافقى وهو يدلف داخلا ويشير لنا بالدخول أكثر فاقتربنا من الفرشة. رمقنا الرجل بكثير من التوجس المتزن ثم نهض واقفا:

ـ «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته!».

سلم علينا باليد:

ـ «يا مرحب! تفضلوا».

وانزاح عن الحشية موسعا لنا. قال مرافقى:

ـ «لنتربع!».

تربعنا بالفعل. تذكرت فى الحال أيام أبى وخفارته الطويلة لمثل هذه الماكينة وكيف كنت أبيت معه فى كوخ كهذا بالضبط إن لم يكن هو نفسه، ونستقبل المطاريد فى الليل الحالك نقدم لهم الأكل والشاى، توجه الخفير إلى وابور الجاز فسحبه أعطاه نفسا. عاجله مرافقى:

ـ «أترك هذا الأمر لى واخطف رجلك إلى أمى! قل لها: خالد كلية الهندسة ابن بيتك فى أسيوط قد حضر برسالة فحواها كما يلى: أخوك حسن يبلغك أنه قد تاب وأناب ونفذ لك شرطك عليه وجاء من القاهرة يطلب عفوك ويضع نفسه تحت أمرك من الآن فهل ترضين بمقابلته؟!».

تمعن الرجل فىّ أنا وهندى بتدقيق شديد كأنه يريد أن يعرينا من ثيابنا ليعرف ما تحتها. تردد قليلا، لكنه ترك الوابور ونهض واقفا:

ـ «حاضر!».

ومضى، ثم ارتد فى الحال وأخذ البندقية والخريطة علقهما فى كتفيه، ومشى بخطو بطىء متمهل. راقبناه وهو يبتعد، منحرفا فى

طريقه نحو الغرب قليلا، حيث يوجد كوخ آخر مشابه تماما لما نجلس فيه. تذكرت أننى كثيرا ما انزعجت من هذا الكوخ فى طفولتى، فقد كان مصدر رعب لا ينتهى؛ إذ هو مغلق منذ سنوات بعيدة جدا، تسكنه العفاريت والشياطين وأرواح القتلى من كل المطاريد. قيل إن كثيرين دخلوه فلم يخرجوا منه مطلقا؛ وأن إحدى النساء اللعوبات كانت تلتقى عشيقها فيه؛ وذات ليلة راقبها زوجها فتبعها خطوة بخطوة حتى فتحت باب الكوخ ودخلت؛ كانت تفصله عن الباب خطوات قليلة قطعها على مهله ليضمن ضبط زوجه متلبسة بأحضان عشيقها؛ فلما فتح الباب ودخل لم يجد أحدًا على الإطلاق؛ أشعل علبة ثقاب كاملة عودا وراء عود، لف جميع أركان الكوخ، لم يجد أحدا؛ رجع إلى داره فلم يجد زوجه فهى إذن لم ترجع؛ فظل طول الليل يهذى؛ ثم استمر الهذيان إلى أن أدى به إلى العباسية لأن زوجه لم تعد حتى الآن.

كان مرافقى وهو يشعل الوابور ويغسل عدة الشاى يفتعل كلاما كثيرا لم أركز الانتباه عليه لانشغالى فى مراقبة خط سير الخفير، وكان يتصنع الإتيان بإبريق الماء من ركنه البعيد فيستكمل الكلام واقفا؛ مما أشعرنى بأنه يحتجز بصرى عن مراقبة الخفير. لكننى أوهمته بأنى معه ونظراتى تخالسه وتخطف خطوات الخفير أخرج من جيبه مفتاحا فتح به قفلا كبيرا على الباب، ثم فتح الباب ودخل، وأغلقه من الداخل..

شربنا الشاى ثلاثة أدوار. دخنَّا كومة هائلة من السجائر. قمت لأصلى العصر الذى فاتنى، فانضم الاثنان ورائى: مرافقى وهندى. صلينا عصرين، فأربع ركعات لله، فأربعا أخرى لكى يوفق الخفير فى

مشواره، فأربعا لكى يعود بسرعة، لكنه لم يعد، وازداد اصفرار الشمس واغمق لون الخضرة فى الأرض؛ حتى تخيلت أن الأساطير المشاعة عن هذا الكوخ لا تزال قائمة وأنها حقيقية. قلت هذا لخالد على سبيل التسرية عن نفسى ولتبرير ما اعتورنى من قلق ممض. فقال الولد إن الطريق طويلة وليست سهلة كما أتصور..

فى اللحظة التى فقدت فيها الأمل يا خالد، لحظة الغسق، واختناق الشمس على صليب الأفق: فوجئت بالخفير يدخل منهكا لاهثا:

ـ «تقول لك هاته وتعال!!».

فانتفضت واقفا يا خال، كأننى تلقيت أمرا بالإفراج بعد سجن طويل نهض خالد:

ـ «أنت وحدك عدم المؤاخذة!!».

ـ «طبعا يا ولدى! هندى هو حارسى الخصوصى وسوف يبقى هنا فى انتظارى! هيا بنا!!».

وأشار خالد بأصابعه إشارة من يضغط على زر؛ فاستل الخفير من جيبه الداخلى كشافا يعمل بالبطارية، سلمه له، فمضى خالد أمامى نحو الكوخ الذى كان الخفير قد دخله، كوخ الأساطير المرعبة يا خال.

٧

وجد القفل موضوعا فى الرزة لكنه غير مقفل؛ رفعه فتح الباب ودخل. دخلت وراءه؛ وضع القفل فوق عرق خشب من العروق المثبت فوقها لوح الباب؛ ثم أغلق الباب من الداخل بالترباس، وأضاء الكشاف وسلمه لى. لم يكن فى الكوخ ثمة من أحد؛ اللهم إلا ماكينة مياه قديمة صدئة معطلة، والأرض من تحتها ناشعة بالزيت والشحم المتجلد. . لف خالد حول الماكينة، أزاحها كثيرا؛ ثم تقرفص، سرب أصابعه فثبتها فى حافة بلاطة كبيرة أشبه بغطيان البالوعات. وبقوة انتفخت لها عروق رقبته رفع البلاطة حتى أوقفها على سيفها وقال لى:

ـ «إنزل!!».

نظرت فى الفتحة التى ينبعث منها الظلام والمجهول المرعب، ترددت قال بحسم قاطع:

ـ «إنزل! لا تخف!!».

انحنيت ناظرا فى أعماق الفتحة مسلطا ضوء الكشاف فى قلبها؛ فإذا هو بئر ساقية مبنى بالحجارة لكنه جاف تماما؛ فى الحوائط الأربع المتقابلة قضبان حديدية مثبتة فى الحجر وبارزة كالمساكات، وهى نفسها درجات نزول وطلوع قال:

ـ «إنزل!!».

زررت السترة؛ وضعت رجلى السروال فى الجورب، نزلت،

ليست هذه أول مرة أنزل فيها داخل بئر كهذا، فقد سبق ونزلت فى شبيه له أوصلنى إلى مقبرة العز التى يملكها الحاج أحمد نوار الدين السنى. جعلت أهبط درجة وراء درجة فى حرص وحذر، حتى وصلت إلى ما يشبه الأرض؛ فتوقفت؛ رأيت خالد يهبط ساحبا بكلتا يديه مقبض البلاطة التى راحت تميل فوق الفتحة شيئا فشيئا حتى غطت الفتحة، تبعها صوت شيء صلب يفر ثم يتك تكة مكتومة، كصوت الأكرة الخشنة الفسدانة. قلت والماكينة تعود إلى مكانها إذ إنها مثبتة فى البلاطة ببكرة وزنبرك خفى، تزيحها البلاطة وهى ترتفع، وتشدها لمكانها وهى تهبط ثانية: تكنولوجيا عتيقة يا خال فكر فيها الحفاة العراة من أهلنا. هكذا قال خالد وهو يتأبطنى أخذا الكشاف منى. كنا فى قلب ما يشبه فسقية المقبرة، وهى عبارة عن صحن كبير مربع يجده النازل فى مواجهته بعد النزول مباشرة.

مشينا فيها يا خال. العجيب أنها كانت ممتلئة بالهواء ولا أدرى من أين أتاها يا خال. لففنا حول الجدار المواجه ثم مشينا فى سرداب متعرج، أرضه مبلطة بالحجارة العريضة الجافة، طوله حوالى نصف كيلو متر، تتخلله على الجانبين فتحات مظلمة كأنها دواليب منحوتة فى الحائط الصخرى بأطوال وأعراض هندسية مدروسة، حَوَّد بنا السرداب فجأة إلى الجنة. لا أجد وصفا آخر يا بوى، ما كل هذا السحر المذهل؟ أكاد أقع مغشيا علىّ من فرط الذهول والمفاجأة الصادمة. لابد أن هذا هو الطريق الملكى فعلا؛ طريق عريض رصعت طاقاته على الجانبين بالشموع، آلاف الشموع المضيئة على امتداد نهاية البصر، الشموع وحدها تحتاج لفريق من العمال كل وظيفتهم إضاءة الشموع واستبدال

الفاقد منها ليس هذا هو المدهش مع ذلك يا خال؛ فأى واحد فى مركز الشيخة سعادة وأهميتها يستطيع فعل هذا، ولكن ما ليس فى طاقة البشر، حتى فى عصر التكنولوجيا المتطورة، أن ينقش هذا الشارع الضخم على الجانبين بهذه النقوش ذات الألوان الزاهية الملعلطة ليس فحسب من أول الجدران لآخرها بل والسقف أيضا تحلف اليمين يا خال كأن هذه الألوان الزاهية خارجة لتوها من تحت يد النقاشين، رسوم، رجال ونساء بالزى الفرعونى البسيط الشبيه بملابس الإحرام حيوانات، صقور وكباش وأغربة وسباع وعصافير ودجاج وثعابين وحيات، شموس وأقمار، أهرامات مثلثة ومدرجة، مفتاح الحياة بشكله القريب من شكل الصليب، يتخلل كل هذه الرسوم حروف هيروغليفية، نفس النقوش التى رأيتها كثيرا فى كثير من المعابد الفرعونية الظاهرة فوق الأرض؛ غير أن هذه التى تحت الأرض هربت من الزمن فهرته نفته بعيدا عنها فكأنها تولد كل يوم مرة. والله العظيم إنه لشىء يلحس المخ فعلا، تصور يا خال أننى بعد خطوات قليلة تبينت أن عشرات الآلاف من الشموع المضاءة لم تكن فى الواقع إلا عددا قليلا جدا، وأنها قد ضوعفت إلى ملايين من أمثالها، لانعكاسها على السقف والحوائط اللامعة المصقولة كأنها المرآة؟! هل هو ما نسميه اليوم بالسيراميك أو الزليزلى؟ هل تم نقش هذه النقوش فوق الأرض ثم جئ بها لتركيبها فى حوائط وسقف هذا السرداب الصخرى العريض الممتد إلى مالا نهاية ظاهرة؟! وسواء كان قد تم نقشه على قطع فوق الأرض أو على الحوائط نفسها والسقف فإن العمل فى الحالتين مستحيل يا خال؛ ليس لطول المسافة وعظم الشغل فحسب، بل كيف يتسنى لهم فعل هذا داخل سرداب مظلم بهذا الطول وهذا العرض إلا أن يكون أجدادنا قد عرفوا

الكهرباء وسلطوا على مكان العمل أضواء ساطعة كالنهار؛ وحتى فى ظل الكهرباء فكيف يتم نقش الجدران والسقف هكذا دون أن تخلو عقله أصبع واحدة من نقش وتلوين، بل كيف تم نقش السقف وحده يا خال؟ هل كان الفنان ينام على ظهره فوق سلم كبير ذى عجل ليتمكن من نقش السقف بهذه الرسوم الدقيقة؟ حاجة تهوس يابوى.

الدواليب المنحوتة فى الحوائط بأطوال وأعراض موحدة، والطاقات الصغيرة، كلها مزدانة هى الأخرى بالنقوش والألوان، وفى كل منها تمثال من الواضح أنه قد تم نحته فى الصخر أولا ثم نحتت له هذه المقصورة من حوله. تماثيل كباش وصقور وثعالب وأعضاء تناسل رجالية عظيمة الحجم، ومسلات. ما بين الشرفة والشرفة ما يقرب من نصف كيلو متر.

مرقت بجوارنا ظلال أجسام بشرية تماوجت على الأرض وانعكست فى لمعان الحوائط والسقف. كركبت بطنى وأمعائى؛ خيل لى أن التماثيل تتحرك، حيث يتمخض عنها ناس يظهرون فجأة يقطعون الطريق علينا لابسين الجلاليب البيضاء والمسدسات فى أيديهم. صرخت من الرعب؛ فضحك خالد بل ضحكت الأشباح قال خالد:

ـ «لتوك شاعر بهم؟!».

ـ «بينى وبينك أشعر بوجود أنفاس بشرية من أول ما دخلنا لكنى لم أر أحدا إلا الآن!».

ـ «كأنك لم تر الذين كانوا فى السرداب المظلم؟! إنك بمجرد نزولك

من الفتحة مرصود بوضوح خطوة خطوة! وهى خطة جهنمية مدروسة بحيث لاتمكنك من رؤية راصدك فى حين تمكنه من كشفك جيدا!! من يتولون هذه المهمة مدربون على ترك النازل يمشى وحده كيف يشاء مؤجلين الصدام به حتى يصير فى الأعماق البعيدة حيث يتم افتراسه إن كان غازيا مهاجما أو احتواؤه إن كان أخا زائراً! مع العلم بأنهم يعرفون مقدما من سيجىء ومن سيخرج . .

تعبت من المشى يا خال؛ فبعد ما يزيد على ثلاثة كيلومترات طلبت الجلوس قليلا فى إحدى هذه الشرفات . لكن خالد قال إننا قد وصلنا . ثم دخل بى فى شرفة على اليمين، تبين لى بعد دخولها أن حائطها المنقوش وراء التمثال إنما هو جدار صخرى، يراه المار فيظنها مجرد شرفة منحوتة فى الحائط؛ فإذا دخلها فوجئ بفراغ مستتر فى أحد صدغيها . مرقنا فى هذا الفراغ المظلم . ماكدنا نخطو حتى انبعث ضوء كشاف آت من بعيد مسلط على وجهينا؛ ثم تبعه كشاف ثان من الجنب؛ ثم ثالث من الجنب المقابل؛ ثم رابع من أعلى؛ فعرفت أننا قد وصلنا إلى عرين الأسد، وسط ما يشبه ساحة عريضة يشرف عليها فى المواجهة درج سلم رخامى كبير، ما أن وصلنا إليه حتى تحول ضوء الكشافات فاستقر على هذا الدرج؛ فإذا بنا فى مدخل بوابة مهولة ذات واجهة منقوشة الأعمدة . دخلنا . الأرض مبلطة بالرخام الملون، والشموع كثيرة فى ردهة مستطيلة على جانبيها عدة أبواب . ضوء وشيش كلوب يأتى من الباب الأخير على اليمين فى الردهة . حوّدنا إليه . دخلنا . .

الشيخة سعادة جالسة فى صدر الغرفة على كرسى ملوكى قريب

الشكل من السرير، بقوائم ومسانده من الواضح أنها من الذهب. حولها مجموعة من الرجال والنساء كلهم يرتدون الجلاليب البيضاء يجلسون على مقاعد مشابهة فوق سجاجيد ومصليات مفروشة على الأرض. كان من الواضح أنهم فى خلوة روحية عميقة؛ وكان ثمة من يتكلم فلما دخلنا كف عن الكلام ونظر فينا مستطلعا. .

سلام عليكم، فردوا السلام وهم جلوس. خيل لى أنهم تماثيل منحوتة هى الأخرى فى الصخر دبت فيها الروح قليلا. اخترقت الطريق إلى الشيخة مباشرة؛ ارتميت فى صدرها وهى جالسة؛ اندفعت فى البكاء يا خال، صرت أنتفض على صدرها وهى تربت فوق ظهرى قائلة:

ـ «ظاهرة غير مطمئنة! إجلس على كل حال!!».

نهض أحدهم تاركا لى مقعده بجوارها. كان شابا يافعا ناضح الملامح. قال:

ـ «إسمحى لى يا أم».

التفتت إليه:

ـ «ستنصرف يا ناجح؟!».

ـ «حان وقت انصرافى فاعطنى الإذن!».

ـ «بسلامة الله!».

ومدت له يدها، فطبع على ظهرها قبلة، ثم قدم لها خديه، فطبعت فوقهما قبلتين أموميتين:

ـ «وفقك الله يا ناجح!».

مضى الولد خارجا. نادته:

ـ «ناجح!».

فتوقف فى الباب مستديرا إلينا. وهتفت به.

ـ «إذا لم تجد الظرف مناسبا فارحل! وإذا التقاك أحد من أصحابك عند الرحيل فأنت لست تعرفه ولا تود أن تعرفه!!».

ـ «فاهم يا أم!!».

ـ «فى رعاية الله!».

فاختفى، وساد الصمت برهة. قلت:

ـ «هل عطلتكم عن شىء؟!».

ـ «نعم! كان فضيلة الشيخ يلخص لنا فلسفة ابن تيمية فى معاملة الحاكم! اللهم قربنا منه فعلمه غزير وخيره وفير منير! بصره حديد ورأيه سديد!!».

ـ «إذن فأنا آسف!».

فلم تعلق، بل أشارت إلى ذلك الرجل.

ـ «تفضل يا مولانا أكمل حديثك!».

رفعت يدى بسرعة:

ـ «لا تؤاخذينى فقد...».

قاطعتنى :

ـ «ضيفك الآن فى الرعاية الكاملة! سيأكل ويشرب ويبيت فى أحسن مكان! سيارتك أيضا فى أمان! أنت لكى تخرج من هنا يلزمك وقت طويل! السكة سالكة بإذن الله ولكنها طويلة طويلة فاهدأ واتركنا الآن نكمل هذا الغرض الملح! نستقبل علمًا كنا فى حاجة إليه منذ وقت طويل لكى نسلك سلوك المسلمين الحقيقيين!! استفد معنا لعل الله يغفر لك شيئا من ذنوبك!!».

وانصرفت عنى إلى الاستماع، وبدأ الرجل يتنحنح مسلكا صوته، وأخيرا تكلم بعد أن تصفح أوراقا فى كتاب أصفر قابع بين ركبتيه على حامل خشبى. لم أفهم من كلامه شيئا، ربما لأننى لا أعرف اللغة التى يتكلمون بها. كل ما بقى فى رأسى كلمات عن التتار والمغول والصليبيين والأتراك والمماليك والطاغوت وفريضة الردع والمقومات الحقيقية للمسلم الكامل الإيمان، والغزو اليهودى وعذاب القبر. كل كلمة من هذه الكلمات تنحشر بين أعداد هائلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. صار دماغى من فرط التعب يستسلم للنعاس لحيظات خاطفة يسقط فيها دماغى على صدرى فأسترده مأخوذا. مع ذلك بقيت فى ذهنى بعض أسماء الجالسين الذين كانوا يحاورون الرجل فيرد عليهم بأسمائهم: عبد السلام، خالد، همام، فرج، عبد الجواد، ياسر.. إلخ.

أنقذنى من الكابوس رجل فى حوالى الستين من العمر وقف بالباب هاتفا:

ـ «العشاء يا أم!!».

نهضت الشيخة سعادة واقفة :

ـ «يكفى هذا الآن!».

ومشت، فنهض الجميع؛ فخيل لى أنى مندهش من قيامهم. مشينا خلف الشيخة عائدين إلى باب مجاور للبوابة فإذا هى كلها مفروشة بالحصائر الملونة وقد ارتصت فوقها مجموعة من الطبالى حفلت بأناجر الفتة وهبر اللحم والشوربة والسلطات والفجل والجرجير. جلست الشيخة أولا ثم جلسنا جميعا؛ وكانت جلستى بجوارها فلم تولنى أى اهتمام بالمرة، فلما فرغنا من الطعام وشرب الشاى نهضت الشيخة قائلة :

ـ « سأذهب إلى محرابى لأنظر فى أمر هذا الضيف ولسوف يرجع إليكم بعد قليل ليمكث معكم حتى الصباح!!».

ثم دفعتنى أمامها برفق، ثم تقدمتنى. اتجهت بى يسارا، إلى الحجرة المواجهة للحجرة التى كانوا فيها عندما دخلت عليهم. حجرة مربعة صغيرة بعض الشىء، حوائطها وأرضها مغطاة بالسجاجيد المنقوش عليها صورة الحرمين بخيوط النسيج. يوجد بعض الشلت بمختلف الأحجام؛ الشموع مشتعلة فى طاقات محفورة فى الحوائط؛ جلست متربعا شاردا فاقد القدرة على الكلام.

٨

إنقبض قلبى يا خال وشعرت بأخطار غامضة. تمثلت لى الشيخة سعادة فى شكل مارد من الجن أكاد أحترق بسعيره المتطاير شرراً من جسدها، لحظتئذ فحسب يا خال أنكرتها بكل معنى الكلمة؛ فرطت فى أخوتها، سلمت أمرى لله فيها. كانت فى غاية القسوة رغم رقتها الظاهرة. كانت شخصية رابعة أشد هولاً؛ زعيمة الجبل الملكة عليه؛ الشيخة سعادة العرافة قارئة الكتاب السحرى والكف والفنجان؛ أم الرجال الحصيفة الحادة النارية. أى دماء تجرى فى عروق هذه الكتلة الضئيلة من اللحم؟ أى شيطان تلبسها يا خال؟ أهى طبيعة الجبل زرعت فيها روح العصابة ودستور العمل السرى فى الخفاء ضد عدو إذا لم يكن موجوداً أوجدته؟! أهى اللوثة الدينية التى أصابت البلاد فى مقتل؟ ولكن كيف تسربت جرثومة القسوة والعمل الدينى المسلح ليس ضد الدولة فحسب بل ضد الناس كلهم صالحين وفاسقين معا؟! وما مقياس الفسق ومقياس الصلاح فى نظرها؟! هذه اللوثة جرثومة وفدت علينا من خارج البلاد يا خال. فأنا على يقين من أن الشيخة سعادة على علاقة وثيقة بأمراء ومشايخ نفط أثرياء وشيوخ دين مصريين أكثر ثراء يعيشون فى قلب أمريكا وأوروبا، رأيت الكثيرين من أمثال هؤلاء وأولئك عندها كثيرا فى الجبل وفى أسيوط، رأيت عندها فى الجبل حقائب سفر ملآنة بالفلوس: دولارات على فرنكات على إسترلينى على كويتى وسعودى وعراقى كأنها بنك من البنوك؛ مما يدل على أن هذه الأموال قادمة إليها من كل هذه البلاد. أذكر أنى سألتها ذات يوم

مازحا: هل تتاجرين فى العملة؟! فسلقتنى بنظرة أحرقت فى صدرى روح النكتة وقالت إنها لا تتاجر فى شىء وإن هذه نفحات من باب الله لباب الله؛ والآن جاء الوقت الذى أعرف فيه أى باب من أبواب الله تنفق فيه هذه الأموال الطائلة. .

تأملتنى طويلا، ثم صاحت:

ـ «أراك صامتا! فهل هو شعور بالذنب؟!».

والواقع يا خال أنى لم أكن عرفت كيف أبدأ حديثى؛ فما رأيته قد صعب مهمتى ووضعها فى جراب المستحيل ففى أى شىء أتكلم الآن؟

سمعنا طرقا خفيفا على الباب. صاحت الشيخة فى أمر: ادخل. فانفتح الباب الثقيل ودخل شاب غليظ الوجه والصوت، ملتح، توقف على عتبة الباب:

ـ «دقيقة واحدة لو تكرمت يا أم!».

كان يبدو عليه الاضطراب والشحوب. فنهضت هى ذاهبة إليه؛ فى طريقها وجهت لى نظرة استرابة غير مريحة ثم سحبت الباب وراءها واختفت. بقيت وحدى يا خال أضرب أخماسا فى أسداس. ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ لقد أرهقت أعصابى يا خال، وخيل لى أنى كبرت خمسين عاما من شدة القهر والغيظ. طال الوقت جدا فكأنه يأكل فى لحمى أكلا ينهشه بأسنان ثالمة، مضى ما يقرب من ساعة كاملة، كثرت خلالها الخطوات فى الردهة رائحة جائية فى توتر مصحوب بأصوات تكتكة أقرب إلى صوت تزييت البنادق وتجريب محركاتها. ثم إن الباب انفتح أخيرا ودخلت الشيخة سعادة أغلقت الباب وراءها. .

كان وجهها ركية نار فى قلبها ثقبان يفحان لونا أزرق مخضوضرا . تربعت فى مواجهتى صامتة تتحدانى بنظرات حادة فيها لوم واحتقار وغضب ونذر وانتقام شيطانى مروع . قالت أخيرا :

ـ «أراك انكتمت! فماذا وراءك أيها الكافر الفاجر! يا من تستحق السحل! خير لى أن ألقى بك حيا فى قلب النار وأستمتع برؤيتك وهى تسلقك وتشويك!!» .

راحت الدماء من عروقى يا خال، طفش عقلى، صرت أردد فى خوف :

ـ «يه . . يه! لماذا؟ ما الذى جرى لأستحق هذا؟!» .

ـ «ظننتك جئت تائبا توبة نصوحا! فإذا بك عميل جاسوس! حيوان قذر!!»

ـ «سامحك الله! أنا على كل حال جئتك برسالة رسمية وما على الرسول إلا البلاغ! حرصى على مصلحتك هو الذى جعلنى أقبل المجىء إليك لتبليغ الرسالة!!

ـ «رسالة؟! ورسمية؟! ممن يا ترى؟!» .

ـ « من أنور السادات بذات نفسه! هو لم يعرف أننى شقيقك لكنه يعرف أنى أعرفك كما قيل له!!» .

ـ «قيل له؟! يالها من صفاقة!!» .

ـ «كلمنى ! قال إنه محتاج لك فى أمر مهم! وقد طلبك المحافظ لمقابلته فقيل له إنك بعت البيت وعنوانك غير معروف! فطلب منى

السادات شخصيا أن أجيء بك بأى شكل نظرا لاحتياجه الشديد إليك فى مهمة لم يكشف لى عنها فربما كانت مهمة شخصية!!».

انفجرت ضاحكة ضحكا جنونيا يمتلئ بالحقد والكراهية بشكل ضاعف من فزعى أخيرا قالت:

ـ «هذه وحدها خطيئة تستحق القتل عليها!! الخطيئة الثانية هى ما ترتب على قبولك لهذه المهمة المشبوهة السافلة!! أتعرف ماذا حدث أيها الجاسوس الجبان؟!».

مات قلبى يا خال، صحت فى حشرجة:

ـ «إستر يا رب!».

ـ «قتل أولادى ثلاثة ضباط من مباحث أمن الدولة كانوا يراقبونك خطوة خطوة، اشتبه فيهم الخفير فراقبهم وهم يحومون حول الكوخ الذى دخلته فتركهم وخرج إلى الخلاء أطلق بفمه صفيرا معينا! فلما عاد وجدهم فى كوخه يتحدثون مع رفيقك الذى ينتظرك! سألهم عما يريدون فقالوا إنهم اشتبهوا فى نمر السيارة المركونة على الطريق فجاءوا يبحثون عمن يكون صاحبها! فأيقن أنهم أعداء! قال سأنادى لكم صاحبها! وخرج فالتقاه الشباب الذين هبوا لصفيره لنجدته ثم تسللوا إلى نافذة الكوخ وأطلقوا الرصاص عليهم من مسدس كاتم للصوت!! أجهزوا عليهم بطبيعة الحال ومات رفيقك معهم وكان يجب أن تموت أنت أيضا!!».

ـ «قتلوا هندى؟! لا حول ولا قوة إلا بالله!!».

وانفجرت باكيا ألطم خدى كالنسوان، لكنها بكل برود قالت:

ـ «العقبى لك!! الجثث تمت تعبئتها فى أجولة! حملتها الحمير فى الظلام وألقت بها فى النيل! ولكن الشبان أبنائى حماهم الله أرادوا أن يخدموك بإبعادك عن القضية فأشعلوا النار فى سيارتك فصارت كتلة من الصفيح الخردة!! لا يمكن الاستدلال عليها! رأيى أنك لا تستحق الخدمة بل إن قرار قتلك قد اتخذته منذ وقت مضى لكنى أرجأت تنفيذه لعلك تثوب إلى رشدك وتعفينى من عتاب الدم ومن شبح العظام النائمة فى قبرها!! أما الآن فإننى صرت مقتنعة بأن قتلك أصبح واجبا وحلالاً!! غير أنى سأتركك حيا لسببين : الأول أن تبلغ رسالتى لأنور السادات! والثانى لأنه هو الذى سيقتلك بنفسه!! لقد عرف أنك شقيقى منذ وقت طويل وهو يضعك تحت الاختبار! وعرف أنى أحاربه فأرسلك طعما ليصطادنى بك! لكنه نسى أن مخابراتى أنشط وأقوى من مخابراته!! ولدنا العزيز خالد الذى أتى بك إلى هنا شغلته التخابر وجمع المعلومات وتبليغها أولا بأول!! لابد أن توصل رسالتى لأنور السادات كى يمتد عمرك أياما فهل أنت مستعد لتوصيلها؟!».

ـ «ماذا أقول له؟!».

ـ «قل له إن الكتاب لا يكذب!! إن الورق لا يخون أهله ولا يخدع نفسه!! النبوءة لابد من حدوثها!! لقد قرأت لك الورق فكأنى أقرأ التاريخ الذى رأيت أحداثه المقبلة مجسدة أمام عينى!! قرأت له الورق أى أنى أنذرته! وقد أعذر من أنذر لكنه لم يرعو! بل ازداد جهالة على جهالة وكرر صورة الطاغوت مضروبا فى مائة!! إن الله الذى ألهمنى قراءة الورق هو سبحانه الذى ألهمنى مهمة تنفيذ النبوءة!! حينما كنت اقرأ له الورق كنت فى الواقع أقرأ عهدا وميثاقا أبرمته روحى مع الله

سبحانه وتعالى!! قل لأنور السادات كل هذا!! قل له إن أم الرجال أم المؤمنين لقادرة على تخليص البلاد من رأس الفساد! وإن الله لناصرها عما قريب! وإن الموت أقرب إليه ـ واليك ـ من حبل الوريد! وإن جميع قواته وحرسه وسلاحه وأسواره كل ذلك لن يعصمه من مصير اختاره له الله والدليل على ذلك اقتناع الملايين من المسلمين بهذا القصاص!! والآن فلتذهب إن ولدى الذى أتى بك هو الذى سيخرج بك من هنا! هذه آخر مرة أراك فيها!!!».

تنفست الصعداء بمجرد علمى بأنى سأخرج من هنا إلى الخلاء ثانية؛ مع أن منظر الشيخة وملامحها المسمومة الحادة كانت تشككنى فى صدق عفوها؛ فالراجح عندى أنها وصلت إلى المرحلة القصوى فى الانفصال عن كل المشاعر الإنسانية من فرط يقينها بكفر الآخرين، وبوجود كل هذا الرعيل من الشبان وهذا العدد الهائل من المريدين من جميع فئات المجتمع مثقفين ومهنيين وحرفيين وعسكريين وطلاب دراسات عليا كل هؤلاء بعثوا فى فؤادها غطرسة القوة الغاشمة القاسية التى لا ترحم. لقد تقمصتها روح زعيمة العصابة على نطاق أوسع، حيث يصبح القتل وقطع الطريق وقطع الأرحام عملا بطوليا شرعيا فى خدمة الإسلام والله..

قل إننى كنت مرتابا فى عفوها وأظنه تمويها وخداعا، وأننى ـ كما صار مرتبا ـ سيؤخذ بناصيتى فى الخلاء بعيدا عنها. إلا أننى يا خال تذكرت شيئا خطيرا فى كلامها أردت أن أراجعها فيه على أمل واهٍ بأن تغير رأيها أو على الأقل تخفف من حدته. قلت:

ـ «ولكن يا ست الكل أنت تقــولين إنك قــرأت الورق لأنور

السادات! والصحيح أنك قرأته لمحمد بك أبو شناف! فكيف حدث هذا الخلط! تحملين رجلا أوزار رجل آخر؟! ما لمحمد بك أبو شناف بأنور السادات؟! هذا رجل كان من الضباط الأحرار ذات يوم واعتزل السياسة واشتغل فى البزنس أما هذا فرئيس جمهورية بعد تاريخ سياسى كبير!!».

فضحكت ضحكة عمرى ما سمعت فى غرابتها يا خال، سعدية الرقيقة الشقيانة فى مكتبة عمها الفقيه وخدمة ضيوفه، والتى انتقمت لزوجها خرابة من قاتله فى التو واللحظة محققة العدالة بنفسها على الحكومة فى عقر دارها؛ سعدية زعيمة الجبل مطهرته ناشرة الود والسلام والعدالة بين المطاريد الأشقياء؛ سعدية الشيخة سعادة ربيبة العلماء والمتصوفين والصالحين من أنحاء العالم الإسلامى قارئة الكف والورق لرجالات الثورة فى مصر، سعدية هذه بكل وجوهها لم يحدث أن صدرت عنها مثل هذه الضحكة النحاسية الصدئة السمجة الشريرة؛ ضحكة خلفت على وجهها شحوبا اصفراريا مرعبا يا خال. قالت بنبرة تخلومن أية مشاعر:

ـ «كيف تريد أن تفرض علىّ غباءك الذى لا مثيل له بين الحمير؟! أنا لم أقرأ ورق محمد بك أبو شناف أنا قرأت ورق الحاكم المصرى!! سيان عندى أن يكون الجالس أمامى محمد بك أبو شناف أو أنور السادات!! محاولة التفريق بين الشخصيتين لم تشغلنى لم أفكر فيها أصلا!! لكننى مذ وقع بصرى عليه ليلة القراءة وعند تفنيط الورق اعتبرت كلا منهما قرينا للآخر!! أنا التقيت صاحب البزنس كما تسميه لكنى قرأت فى الورق صورة قرينه صاحب البزنس الأكبر!! كلاهما

يوضع فى مكان الآخر دونما فرق يذكر عندى!! كلاهما آثم فى نظرى!! كلاهما قنطرة يعبر فوقها الفساد لتخريب ديار الإسلام ويفتح الباب للكفر حتى يصبح الإسلام غريبا فى بلده!! كلاهما خائن للأمانة وأنت نفسك أكبر دليل وأوضحه على فسادهما معا!!».

وصفقت بيديها؛ فانفتح الباب وأطل منه الوجه الغليظ. صاحت فيه:

ـ «المهندس خالد!».

فمضى الغليظ. وبعد برهة جاء خالد. صاحت فيه:

ـ «اصحبه إلى الخلاء من سكة لا يتذكرها!!».

ولم أكن أقوى على الوقوف يا خال من شدة الرعب والخور فتقدم خالد منى ووضع يديه تحت إبطى، ثم أوقفنى، ثم سحبنى فمضيت بجواره كالمنوم مغناطيسيا؛ مجرد هيكل عظمى لا حول له ولا طول..

ظللت منتبها إلى أن غادرنا الساحة أمام البوابة إلى سرداب متفرع من الشرفة التى دخلنا منها. سرداب مظلم تماما، ضيق لدرجة أن أكتافنا كانت تحتك بجداريه. من حسن الحظ أنه لم يطل أكثر من حوالى ربع ساعة. فما أن شعرت بأننا حودنا إلى سرداب أوسع كثيرا، تهاويت على الأرض فاقد الوعى يا خال..

أفقت بعد وقت طويل، على يد تدلك قلبى وتحرك ذراعى كحركة ذراع الطلمبة فطنت إلى أنى استفرغت كل ما فى جوفى. صار خالد ينظف لى ملابسى، يجفف عرقى. ثم جذبنى بقوة فأوقفنى. استأنفنا السير. كانت الساعة فى معصمى تشير إلى التاسعة صباحا حينما

نظرت إليها فى ضوء الولاعة وأنا أشعل سيجارتين لى ولخالد. طلبت الجلوس قليلا؛ فجلسنا. أبديت دهشتى من تقدم الوقت إلى هذا الحد فهل مشينا كل هذا الوقت؟ فقال خالد إن فترة الإغماء قد امتدت حوالى خمس ساعات، وأنه ظن أنى مت وبدأ يفكر فى كيفية التخلص من جثتى لكنه من شدة الإرهاق تمدد بجوارى حتى يمر بنا أحد من الرجال يساعده على التصرف، فنام نوما عميقا فلم يوقظه إلا شخيرى الذى ارتفع فجأة يدمدم ويزلزل كقصف الرعد؛ فحمد الله وانتفض جالسا يمسح القىء عن صدرى ثم يجرى لى عملية تدليك للقلب لتنشيط الدورة الدموية.

مشينا يا خال، والسرداب يتسع شيئا فشيئا والضوء يتسع معه، فكأننا نمشى فى ميدان مسقوف تتفرع منه سراديب ضيقة لا حصر لها كجيوب يختبئ فيها الهول والمجهول. توقف خالد وصار يستطلع حواليه ويعد السراديب التى على يساره ثم يسحبنى إلى السرداب الثالث؛ دخلناه بقامة محنية قليلا؛ مشينا بالقامة المحنية حوالى عشر دقائق صعبة خانقة؛ إلى أن دهمنا جدار يسد علينا السرداب. فلما اقتربنا منه رأينا فراغا على الجنبين عبارة عن شق هائل بالطول فى الجبل؛ شق يتسع لجسدين فقط؛ والسماء ظاهرة لأول مرة، بشمسها ونورها الساطع. ثمة صخور وأحجار كثيرة تسد الطريق من الجهتين؛ تسلقناها بصعوبة. لفت بنا الصخور عبر مدق ينحدر من أعلى، صرنا نصعد فوق الجبل تحت قرص الشمس مباشرة، مشينا تحت الشمس حوالى نصف ساعة؛ ثم دهمتنا مغارة ذات بوابة تستطيع ابتلاع عمارة شاهقة. دخلناها؛ كانت مليئة بالضوء، متعرجة، واسعة؛ ما أن تضيق

حتى تتسع، وما أن تتسع حتى تضيق مشينا فى قلبها حوالى ساعة كاملة يا خال، والضوء يقترب ويزداد ابيضاضا ونصوعا، ثم ظهر الأفق من بعيد جدا، كشريط أخضر؛ ومن خلفه بيوت كعلب من الكبريت. لفظتنا المغارة إلى أرض مستوية، ثم تبين لنا أن الأرض الزراعية والمساكن فى سفح واطئ، وأننا أعلى منها بنحو قامة رجلين. صرنا كأننا نقف فوق سطح أحد المنازل، والناس تروح وتجيء من تحتنا.

كان ثمة منحدر على اليمين فمضينا إليه. صار يهبط بنا. بعد قليل صرنا فى قلب أرض زراعية، وبعد قليل صرنا فى قلب المساكن. قال خالد:

ـ «أتعرف أين أنت الآن؟!».

صرت أراجع كل منظر حولى. قلت:

ـ «البلد مألوفة لى!».

ثم تبينت فى الحال أننا فى قرية «دُرُونْكه». هتفت من أعماق خاوية:

ـ «يا...!....ه! كيف وصلنا إلى درونكه؟ يا لها من رحلة عصيبة مضنية!! إنى آسف يا ولدى! لقد سببت لك المتاعب دون ذنب ودون فائدة!!».

قال بتلقائية:

ـ «بل أنا الذى يأسف لكل ما حدث! لكنه مكتوب! والمكتوب ما منه مهروب! المهم الآن أن صلاة الجمعة وجبت! بالكاد نتوضأ!».

ـ «إذن فاتجه بنا إلى جامع درونكة!».

توضأنا؛ دخلنا إلى المصلى. كان المصلون فى حالة غير طبيعية؛ يميلون على بعضهم البعض يتهامسون فى قلق، يكاد الهمس ينقلب إلى شجار، وهم بين مؤيد ومعارض، راض وساخط، كانت عيونهم تشير إلى المنبر وتستأنف الهمس والعراك الصامت، نظرت فى الخطيب الواقف على المنبر؛ أصابنى الذهول ياخال؛ إنه ذلك الشاب المدعو ناجح، الذى رأيته بالأمس فى حضرة الشيخة سعادة، ميلت على خالد وسألته:

ـ «ناجح هذا من زملائكم طبعا!!».

ـ «نعم! أظنك رأيته بالأمس مع ماما!!».

ـ «أهو من درونكه؟!».

ـ «لا! ولكنه يجول بين المساجد فى بلاد الصعيد! إنه من أنشط العناصر وأقواها فى الإقناع والتأثير! هو خطيب جيد!».

ـ «ولكنى أرى فى الأمر شيئا غير طبيعى!!».

ـ «طبعا! فأتباعه هنا قلة قليلة جداً أو غير قادرين على اقناع الآخرين فاستضافوه ليخاطب أهلهم من فوق المنبر! ولأنه معروف بالاسم هنا فبعضهم متوجس من ظهوره وبعضهم مرحب به!!».

ثم خطب ناجح. كان فصيحا بليغا سريع البديهة قوى البيان، يربط بين الماضى والحاضر بأفكار جريئة مبهرة براقة يرصد فيها مظاهر الفسق والفساد فى كل مكان، يحمل الناس مسئولية ظهورها ومسئولية

استمرارها؛ ينذرهم بعذاب الجحيم إذا لم يقاوموها ويستأصلوا شأفتها من أرض الإسلام. أشهد أن ناجح نجح في تخدير جميع الصفوف، وفي التأثير عليهم إلى حد ارتفاع البكاء بين المصلين. ثم أقام الصلاة؛ فما أن سلم ذات اليمين وذات الشمال، وصافح المقربين منه، حتى تلقفه مضيفوه، واختفوا به في لمح البصر..

توجهت بصحبة خالد إلى الطريق الزراعي، حيث تلقفتنا إحدى سيارات النقل لتلقى بنا في أسيوط، كنت أجر ساقي شاعرا بالقهر والحزن العميق، أكتم الدموع في صدري، أمشي ذاهلا. قال خالد:

ـ «تركب القطار؟!».

قلت: لا. وعزمته على الغداء، توجهت به إلى مطعم للأسماك، فتناولنا وجبة سريعة. ثم ودعته على باب المطعم ومضيت إلى موقف السيارات فركبت واحدة: على مصر يا أسطى، ثم استرخيت متمددا على المقعد الخلفي كله، واستغرقت في نوم عميق كأنه الموت يا خال.

٩

بُهتت زوجي حين رأتني يا خال، أنكرتني، أعدت الحمام الساخن فغطست في الحوض لساعات طويلة وأنا في حالة لا تركيز فيها على الإطلاق. تناولت العشاء في صمت، وأويت إلى الفراش فنمت. أيقظتني زوجي في اليوم التالي لأتناول الغداء. فدخلت الحمام الساخن وخرجت منه فاقد القدرة على التركيز تماما. أين طفش عقلي؟ إني غير شاعر بوجوده يابوي، لا أقوى على التفكير في أي شيء، لا أعرف شيئا مما يدور حولي؛ تكلمني زوجي بالساعات فلا أفقه شيئا مما قالت، فأعاود النوم، وأصحو لأتعشى وأنام، ولا أقوى على صلب حيلي يابوي، ولا الوقوف على قدمي. .

ذعرت زوجي؛ استدعت طبيبي الخاص، فحصني جيدا؛ قال إنها حمى أدت إلى فقدان الذاكرة مؤقتا. لم توافق على نقلي إلى المستشفى. كانت المكالمات التليفونية تنهال على البيت من جهات مختلفة تسأل عني، فترد عليهم بلباقة، وتتابع العمل مع بربش دون أن تخبره بشيء عن حالتي الصحية وكانت الرئاسة قد اتصلت بي أكثر من مرة؛ فأبلغتهم بحالتي الصحية، فاتصل السادات بنفسه وسألها عن حقيقة الأمر فشرحت له الحال كلها؛ فأرسل مندوبا طبيا من طرفه ليراني على الحقيقة. أيقظوني. لم أقو على النهوض؛ لم أع شيئا مما يقال حولي؛ إنما أبحلق فيهم كأنهم جميعا غرباء، وحينما أعود للنوم يستغرقني الهذيان. .

بدأ الانزعاج الحقيقي، جاء السادات بنفسه ليعودني فصرت أنظر

إليه ولا أقوى على مواصلة النظر بل تعاودني الحمى وينكسر رأسى فوق صدرى . نقلونى إلى المستشفى العسكرى . مكثت فى غرفة العناية المركزة عشرين يوما ؛ ثم انتقلت إلى حجرة استشفاء فمكثت فيها عشرة أيام . فى هذه الأيام العشرة الأخيرة بدأت أفيق شيئا فشيئا ، بدأت أعى ما حولى ؛ أتذكر ما حدث ، أرد على الهاتف ، أتبادل الحديث مع الزوار بتركيز طبيعى ، أناقش مع بربش تقارير الوضع فى الشركات ، أحكى لزوجى حقيقة ما ألمّ بى . .

جاءتنى وفود من المباحث الجنائية ، ومباحث أمن الدولة ، سألونى عما يكون قد حدث لى فى الصعيد . راوغتهم ، زعمت أن بعض مطاريد الجبل قد اختطفونى ظنا منهم أننى أحمل فلوسا كبيرة فأرهقونى بالتعذيب والتهديد بالقتل ثم فتشوا سيارتى فلم يجدوا بها شيئا فأحرقوها ونقلونى معصوب العينين ليلا إلى أسيوط فتركونى عند المحطة ولاذوا بالفرار ؛ رجحت أن يكون ما حدث لى من فعل الجماعات الإرهابية لأن الجناة كانوا ملثمين . .

كان عدم التصديق والاستنكار واضحين فى أعين الذين حققوا معى ، لكنهم مع ذلك لم يرهقونى . بعد عودتى إلى البيت بأيام قليلة طلبنى السادات فذهبت إليه طلب منى تقريرا وافيا عما حدث لى فى المشوار المشئوم ؛ حكيت له نفس ما حكيته من قبل ولكن بشكل محبوك هذه المرة إذ أضفت بأن الذى قادنى للخطف أوهمنى بأنه سيوصلنى إلى المقر الجديد للشيخة سعادة وأنه اختفى فى شعاب الجبل ليمسك بى الملثمون . .

نظراته كانت نظرات ثعلب ماكر تبدى الاقتناع بما أقول لكنها تفلت

منهـا بوارق تتوعـدنى تقـول إن كـلامى مفكك بل مـتـهـافت لا يدخل الدماغ . لكنه قال :

ـ «على كل حال! حمداً لله على سلامتك!!» .

ونهض واقفا إيذانا بانتهاء المقابلة . وحينئذ انتبهت إلى أنه يرتدى الجلباب والطاقية الصوفية الفلاحية ويمسك بالعصا ، ولولا منظر القصر الجمـهـورى وحشـود الحـرس المتنوع الأزياء لأيقنت أنه محـمـد بك أبو شناف بلحمه ودمه . وعندما سلمت عليه تأهبا للإنصراف شعرت بيده رخـوة بـاردة ؛ فـدوى قـصـف الرعـد فى بطنى ، وقـفلـت عـائداً إلى بيـتى أعض بنان الندم لأنى لم أعترف بكل ما حدث جملة وتفصيلا ؛ ولشدة غيظى لم أفهم لماذا لم أعترف ياخال .

* * *

لحقت بى زوجى إلى المرحاض مهرولة متوجسة يشملها الكثير من الاضطراب . بقيت واقفة على باب المرحاض الموروب قليلا ؛ صارت تحدثنى بصوت مضطرب ؛ وأنا أشد منها اضطرابا أرد عليها بصواريخ من الضـراط الراعـد ، المطرطش ، ومخى كله مركـز فى بطنى . فلمـا هدأت بطنى قليلا استعدتها ما قالت ، فحكت لى أنها لاحظت شيئا غريبا مقلقا : هناك من يراقب البيت منذ بضعة أيام ، حوالى خمسة رجال كل منهم يتمركز فى جهة يظل يحوم حولها طول النهار فإذا دخل المساء انصرف وتسلم المكان بدلا منه شخص آخر ؛ كما أنها لاحظت أن هناك من يلاحقها فى الخفاء أثناء توجهها إلى أى مشوار وأن إحدى صديقاتها نبهتها إلى ذلك لكى تأخذ حذرها وأنى يجب أن آخذ حذرى أيضا إذ لابد أنى مراقب كذلك .

قدمت لى كوب الليمون على السرير وهى تقول :

ـ «لابد من الرحيل! السفر هو الحل! بقاؤنا هنا يجر علينا متاعب لا تتخيلها بسبب أختك!!» .

ـ «ومصالحنا؟!» .

ـ «نبيعها ولو بالخسارة! آن الأوان لأن نستريح من القلق والمسئولية التى نقع فيها بسبب غيرنا! فلوسنا فى بنوك الخارج تكفى لنعيش من أرباحها السنوية! ومن يدرى؟ ربما وفقنا الله فى عمل مشاريع جديدة فى البلد التى نستقر فيها!!» .

ـ «تظنين أنهم يسمحون لنا بالسفر؟!» .

ـ « سأتصرف! البلد كلها شرقانة وكل شىء يمكن شراؤه بالفلوس حتى الرجال! سأتصرف!!» .

ـ «وعملية بيع الشركات أتظنينها سهلة؟!» .

ـ «سأتصرف أيضا! هى سهلة عندى!!» .

ـ «دبور يزن على خراب عشه! أخاف أن نخسر ما تعبنا فى تأسيسه وفى نفس الوقت نمنع من السفر!!» .

ـ «أنا متأكدة أننا لو انتظرنا سنوضع تحت الحراسة لسبب من الأسباب! فدعنى أتصرف!!» .

ـ «خلاص يا أم أدهم! تصرفى!!» .

وفطنت يا خال إلى أن زوجى التى تخرجت من الجامعة الأمريكية

بعد الزواج، خدمها جمالها الفطرى الصارخ عندما أصبحت ترتدى أحدث الأزياء من أشهر وأغلى بيوتها فى باريس، فأصبحت معدودة بين أشيك نساء مصر؛ صارت شخصية لها ثقلها واحترامها وخطرها، صارت صديقة حميمة لجميع نساء الوزراء والكبراء والرءوس التخينة فى البلد ناهيك عن الرءوس التخينة فى شركاتى، كل يوم عزائم وضيوف، وهدايا ثمينة متبادلة، وحضور أفراح، وحضور ندوات، ولقاءات فى نادى الجزيرة والنادى الأهلى وهليوبوليس. كانت ملحلحة وذكية ومحبوبة وعطوفة. .

اشتغلت التليفونات عدة أيام، ثرثرة النساء ترتب عليها لقاءات متكررة وعاجلة بين محامين ومحاسبين، مستشارين ووكلاء. تكونت شركة مساهمة من مجموعة الإداريين الكبار المهيمنين على نشاط شركاتى من رجال الإدارة المركزية الأم، تقوم هذه الشركة بشراء أصول شركاتى كلها، على أن يتم التعاقد مع بنكنا الرئيسى فى سويسرا، الذى أعطيناه توكيلا وتفويضا بذلك. ولما كانوا جميعا من ذوى الأرصدة فى الخارج فقد تم التحويل بالعملة الصعبة من بنك إلى بنك، وتم كل شىء فى يسر وسهولة بواسطة المندوبين الوكلاء والمحامين والمحاسبين، فيما نحن جلوس فى بيتنا. .

سافرت زوجى إلى فرنسا وحدها لتعرض نفسها على أحد كبار أطباء التجميل ليريحها من شىء تافه كان يزعجها مع أنه كان يعجبنى. . ذلك هو أنفها الذى كان طويلا حادا مدببا فى عوجة أمامية صغيرة كمنقار الديك الشركسى. .

بعد سفرها بساعات جاءنى الخبر من أسيوط بأن أمى قد ماتت منذ

عدة أيام وتم دفنها تحت إشراف زوج ابنتها أبو هليل. أتاني بالخبر واحد من السماكين الذين يوردون السمك لقصرى كل أسبوع، وهو فى الأصل من بلدنا. قال إن أمى ماتت من الخضة، إذ فوجئت بقوة مسلحة من رجال الشرطة تقتحم عليها منزل خرابة القديم لتفتش عن أخى حسين الذى انضم للجماعة الإسلامية فى كلية الطب وأصبح من أنشط وأبرز عناصرها. قال إنه كان أميراً للجماعة وإنه هارب منذ وقت طويل فى مكان مجهول بعد أن هجر الدراسة تماما. بكيت مُرَّ البكاء ياخال، فهو أخى الوحيد الذى كنت أدخر له مستقبلا عظيما فى السنين القليلة القادمة من سفر للخارج إلى فتح عيادات ومستشفيات خاصة. يعلم الله يا خال كيف تلقيت هذه الطعنة النجلاء فى قلبى. اعتبرته قد مات، ولعنت الشيخة سعادة وسنينها السوداء وطافت بذهنى فكرة السفر إلى أسيوط لأقرأ الفاتحة على قبر أمى وأتسقط أخبار أخى حسين لعلنى أظفر به وأحاول إنقاذه من هذا الجنون. .

لحظة أن هممت بارتداء ثيابى وقعت عينى على شاشة التليفزيون فرأيت ملابس عسكرية ودبابات فى الميدان وجنود تحمل المدافع والكورس الغنائى يصيح مغنيا: الله أكبر! الله أكبر! فتذكرت أن غدا هو اليوم السادس من أكتوبر، وأننى مدعو لحضور الاحتفال السنوى بالعرض العسكرى فى مدينة نصر مع الرئيس السادات والوزراء وكل رجال الدولة المهمين؛ ولابد أن أحضر ياخال؛ فصرفت النظر عن السفر إلى ما بعد الاحتفال؛ ثم ما لبثت حتى صرفته نهائيا. فلأول مرة يا خال أشعر أن الصعيد فقد حميميته تماما بالنسبة لى، أصبح غابة عدوان بشعة مخيفة مشبعة بالظلام. وتلك كانت أكبر خسارة منيت بها

فى حياتى يا خال .

ذهبت إلى مقر الاحتفال يا خال . كنت منقبض الصدر بصورة أخافتنى ، والهواء الذى أتنفسه يبدو مشبّعا بالمؤامرات والخسة والقرف ، وكل المرئيات رمادية قاتمة . عزوت لك إلى القلق الذى أقض مضجعى حتى الصباح ، فى نوم متقطع ملىء بالكوابيس المزعجة . .

رأيت فيما يرى النائم أن أنور السادات أشبه بفلاح ممسك بفأس ومقطف يعلقهما فى كتفه . وكان يبدو أننى عزمته على الغداء فى دارنا القديمة فى البلد . ولم أكن أعرف لماذا عزمته مع أنه فى المنام لم يكن صديقى بل كان يظهر كما لو كان آتيا يصطحبنى لنعمل سويا فى العزيق تبع مقاول أنفار يعرفه . لكنه كان يبدو عليه التوجس والخوف لا تكف عينه عن التلصص ، ثم إذا به ينتفض واقفا فى خوف صائحا :

ـ «خبئنى ياحسن! شف لى ركنا اختفى فيه! المقاول سيقتلنى ياحسن مع أننى مظلوم! والله مظلوم يا حسن ولست أكره الأنفار كما صور لهم المقاول اللعين!!» .

ثم اندفع يجرى داخل الدار يبحث عن منفذ يهرب منه ؛ فالتقاه فى منتصف الحوش ملثم انسلخ من الحائط وفى لمح البصر شج رأسه بالفأس واختفى . جعلت أصوت وألطم حتى صحوت ؛ فأخذت أتشهد وأقرأ الفاتحة وسورة يس ؛ ثم نمت ؛ فرأيته ثانية ، يجلس معى فى شقة مصر عتيقة مرتديا لباسه العسكرى ممسكا بكوبة شاى صغيرة ؛ فإذا بالسقف ينهار فوقنا فاختفى هو تحت الهديم أما أنا فرأيتنى طائرا فى الهواء كأنى بأجنحة خفية ، والدم يسيل من رأسى ، وعينى فى الأرض تبحث عن رقعة آمنة لأهبط فيها ، والأرض كلها أوحال وبرك

ومنحدرات جبلية وعرة . .

وكنت أحوم فى الفضاء حول هذه المنحدرات الوعرة حينما صكت أذنى أصوات جلبة العرض العسكرى؛ فأفقت، فتحت عينى، فإذا بى جالس فى المنصة فى مدينة نصر فى ثالث صف وراء الرئيس السادات. تحلف اليمين يا خال ما أن فتحت عينى حتى رأيت إحدى السيارات المصفحة تمر أمامنا فى العرض ثم تتوقف؛ ومن فوقها جنود يصوبون المدافع نحونا. ظننت ذلك من ضمن العرض يابوى؛ لكننى فوجئت بالرصاص ينطلق فى وجوهنا، مصوبا على رقبة الرئيس السادات نفسه. جمدنا الذهول يا خال، وإذا بشاب ضخم الجثة يقبل مهرولا نحو أنور السادات يصب الرصاص فى صدره مع الصرخات الآمرة المتشفية ـ هبطنا كلنا تحت الكراسى كالأرانب المذعورة، حدثت دربكة هائلة؛ فر من فر، ووقع من وقع؛ امتلأت الدنيا بالصراخ المذعور مختلطا بطلقات الرصاص، عينى جاءت فى عين الشاب الضخم الذى اقترب من المنصة؛ تحلف اليمين يا خال أننى رأيته بنفسه بعينيه فى مخبأ الشيخة سعادة. تعرفت عليه وعلى شاب آخر ممن لاذوا بالفرار.

منذ ذلك اليوم المشئوم يا خال كمشت فى منزلى لا أبرحه، أعانى من مرض فى معدتى وأمعائى، وصداع مزمن، ورعشة فى أطرافى مستمرة لا أقوى معها على الإمساك بشىء. كرهت السياسة طلقتها بالثلاثة جمدت عضويتى بالحزب الوطنى منعت نفسى عن مجلس الشعب نهائيا أصبحت أخاف من خيالى تعودنى أشباح تتربص بى لتغتالنى. صرت أقضى النهار والليل فى الصلاة أضرع إلى الله أن يسامحنى وينجينى . .

وكانت زوجتى قد علمت بالخبر فور وقوع الحادث، فأبرقت لى تطلب النصح، فأبرقت إليها بأن تبقى لأنى قادم إليها لأعرض نفسى على الأطباء. وبالفعل سافرت إليها فتقرر إبقائى فى أحد مستشفيات سويسرا مدة تحت العلاج. تركتنى زوجى وعادت إلى مصر، جهزت أوراق العيال، سرحت جميع الخدم إلا واحدة عجوا؛ أغلقت أبواب القصر، جاءت بالعيال، ألحقتهم بأرقى المدارس فى سويسرا. استقر بنا المقام فى هذه العاصمة البديعة، صار بيتنا بفضل زوجى مزارا للجالية المصرية كلها؛ اختفى الشعور بالوحشة؛ لكننى ما لبثت حتى وجدت نفسى تلقائيا ذات يوم أجلس فى الطائرة المتجهة إلى مصر. إن مصر هى الداء والدواء يا خال. لقد كنت فى الغربة أتمنى أن أعود إليها ولو كان الثمن كل ما أملك. وها أنذا قد عدت يا خال كما كنت أول مجيئى إلى القاهرة، مجرد رجل من جملة الناس، مع الناس، بلا وجع للدماغ، من البيت للجامع، ومن الجامع للبيت، وكل بضعة أيام يقتادنى الشوق إلى العيال فأركب سيارتى إلى مطار القاهرة، أقضى مع العيال ما أشاء من أيام، ثم أتلفن للسائق بأن ينتظرنى فى المطار يوم كذا الساعة كذا، وحدى أو مع العيال أحيانا. وهكذا لم يعد يقلقنى فى الدنيا شيء سوى ما يحتدم فى بطن الجبل فى أسيوط من براكين مروعة تعود بمصر والعالم العربى كله إلى عصور الجاهلية الأولى. إن الحياة فى مصر اليوم أصبحت شبه مستحيلة يا خال، ولكنها فى الخارج بالنسبة لى أكثر استحالة يا خال. على كل حال ربنا على الظالم. . مساء الفل. .

Inv: 2096

Date:24/10/2013

وثالثنا الورق

وها هو «حسن أبو ضب» مرة أخرى فى الجزء الأخير من ثلاثية خيرى شلبى الرائعة، لتكتمل تلك السيرة الروائية الفذة التى لفتت أنظار النقاد والقراء، ومن خلال بناء أدبى هندسى مركب ودقيق، استمده المؤلف من العمارة الإسلامية، وهو من الإتقان إلى حد أن العمل مغلف ببساطة ممتعة وشائقة، وبإيقاع روائى سلس ومتدفق وغزير.

خيرى شلبى أحد أهم كُتَّاب الرواية فى العالم العربى، وحائز على جائزة الدولة التقديرية عام ٢٠٠٥. له أكثر من ٧٠ كتابا ما بين الرواية والقصة والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية» و«صالح هيصة» وثلاثية «الأمالى» و«زهرة و«نسف الأدمغة». وترجمت أعماله إلى الإنجليزية والألمانية والروسية والصينية والكورية وال



دار الشروق
www.shorouk.com